الدكتور المحامي
محمّد علي ضنّاوي

قراءة إسلاميّة في تاريخ لبنان والمنطقة

من الفتح الإسلامي ونشأة المارونيّة
حتى سنة ١٨٤٠

الدّكتور المحامي
محمّد علي ضنّاوي

قراءة إسلاميّة في تاريخ لبنان والمنطقة

من الفتح الإسلامي ونشأة المارونيّة حتى ١٨٤٠

دار الإيمان
للطباعة والنشر

بسم الله الرحمن الرحيم

هذا الكتاب

* أنجزتُ تحرير هذه «القراءة» خلال عام ١٩٨٠، وآثرتُ، يومها، التمهل في النشر حتى استكمال «قراءة» سائر المراحل التاريخية إلى أيامنا الحاضرة.

* إلا أن تغير الظروف وتسارع الأحداث فرضا عليّ نشر القراءة كما أعدت عام ١٩٨٠ دون أي تبديل أو تعديل، مع أن كثيراً من الأحداث التي وقعت - فيما بعد - جاءت تؤكد صحة القراءة وخلفياتها ومنطلقاتها.

* تبقى «القراءة» هذه مدخلاً صحيحاً لفهم كثير من الأحداث، في الماضي والحاضر والمستقبل، وحافزاً لمن أنِسَ في نفسه العلم والفهم، لكتابة قراءة ثانية وثالثة ورابعة... فتاريخنا، في هذه المنطقة، يحتاج دوماً إلى تدقيق «القراءة» كلما توفرت وثيقة جديدة تصحح فهم الماضي أو تساعد على تحليله... ولن نفهم الحاضر والمستقبل ما لم نقرأ الماضي بكثير من الجدية والوضوح.

* ويأتي نشر هذه «القراءة» في وقت نتطلع فيه، أثناء الحرب اللبنانية الطويلة، الدامية والقاسية، إلى وضع الأسس الصحيحة لسلام آمن وهادف يتذوق الناس في ظلاله حلاوة الحياة...

فقد أراد الله سبحانه الحياة لعباده، آمنه مطمئنة جميلة، مبنية على خلافته في الجمال والحق والعدل والحرية والسلام!!!.

فهل يبزغ ذلك الفجر؟!

الإهداء

إلى التي أشاعت في بيتي السلام
يوم أن عزّ السلام في أرض لبنان
إلى التي كانت في صبرها وعطائها
أكبر من ذات ندية
إلى زوجتي الوفية
أقدّم
جهدي هذا هدية

أبو مؤمن

«لم أكتب تاريخ الماضي إنما حاولت
أن أقرأ الحاضر»

المقدّمة

الفصل الاول

مَدخل لفهم الخلفيّة التاريخيّة للحرب اللبنانيّة

لكي تدرك الحاضر لا بد أن تفهم الماضي ولكي تقرأ جيداً أحداث اليوم لا بد أن تقرأ بتمعن أحداث الأمس. . .

وهذا الفهم قد غدا ما يشبه قاعدة اضطردت في مفاهيم معظم الأمم والشعوب حتى أن أستاذ التاريخ الاجتماعي بيار فيلار قال: (أن تفكر سياسياً بشكل صحيح هو أن تفكر تاريخياً أيضاً بشكل صحيح). فالعلاقة بين الماضي والحاضر وبين التاريخ والسياسة هي علاقة استراتيجية متينة تجاوزت الترابط الشكلي والهامشي إلى عمق الحدث وجوهره. . . فكثيرة هي الأحداث التي لا يملك إزاءها المحلّل، ضمن إطار موضوعي لها إلا تفسيرها على ضوء الماضي أو بمعطيات التاريخ. . . فالخلفية التاريخة إذن تلعب دوراً رئيساً في تكوين شخصية الأمة والأجيال وتساعد بقدر بعيد على توجيه الأحداث ودفعها في مسار معين.

* * *

وليس ببعيد عن هذا المعنى حديث القرآن الكريم ـ عن أمم وشعوب وقادة وأنبياء جاؤوا قبل الرسالة الإسلامية المباركة. . . ثم تصويره التحليلي لأحداث مختارة من علاقات الجماعة المسلمة في صراعها مع المحيط حولها في كفاحها الشاق الدؤوب من أجل ميلاد أمة وإقامة الحكم. . . فذلك يجعل الماضي حياً في الحاضر ليستفيد منه المرء دروساً وعبراً. فقد (كان لك في قصصهم عبرة. . .).

* * *

ولئن كان ترابط الماضي والحاضر في كل الأمم والبلدان يعين على توالد خلفيات التحرك الآني والمستقبلي... فشأنه في بلد صغير كلبنان أوضح وأفعل.. فيكاد هذا البلد على صغره يجمع التناقضات والتحديات وتسلط عليه جاذبية الصراعات الدولية والإقليمية بشكل دعا إلى الدهشة والاستغراب... فإن كان في جبل لبنان، كما يقول المؤرخون عند الفتح الإسلامي، أكثر من سبعين لساناً لا يعرف أحدهم لسان الآخر إلا بترجمان... أدركنا لماذا هو اليوم يشكل أكثر من سبعين اتجاهاً يحتاجون إلى وسطاء لتركيز قواعد الحوار والوفاق فيما بينهم.

ومما لا شك فيه أن حروب لبنان الأهلية بعد استقلاله وخاصة حرب السنتين ١٩٧٥ ـ ٧٦ وما تبعها من حروب وجولات وصراعات وتصفيات مما لا يزال بعضها دائراً حتى اليوم... وما أفرزته من ظواهر رهيبة: منها الدموي العنيف ومنها التعامل المكشوف مع الأجنبي ومع إسرائيل، العدو المفترض لجميع سكان لبنان الأمر الذي دفع المحللين إلى إعادة قراءة مرحلة من تاريخ المنطقة تلك التي تعود إلى أحداث سنوات ١٨٤١ و ١٨٦٠ حين شهدت مجازر ووقائع كان للتدخل الأجنبي ـ ضمن لعبة الأمم مع الدولة العثمانية آنئذ ـ الأثر الفعّال في توجيه تلك الأحداث... غير أن التدخل وحده لم يكن ليعطي ذلك الأثر الرهيب لولا وجود خلفيات تاريخية لدى المتحاربين، وبصورة خاصة الدروز والموارنة، تعود إلى حقبة زمنية سابقة، يوم أدرك الدروز أن تسامحهم الطويل مع الموارنة لم يقابل من هؤلاء بالمثل، بل وجدوهم حين سنحت الفرصة يحملون السلاح، بتوجيه من إبراهيم باشا قائد الحملة المصرية والأمير بشير، لقاء عدة آلاف من «البواريد وإعفاءات ضريبة» يقاتلون الدروز في مواقع متفرقة في جبال حوران ولبنان... وكانوا قبلها قد تمكنوا، ضمن سياسة الأمير بشير، من السيطرة على مساحات شاسعة من أملاك الدروز مما جعل هؤلاء ينتفضون ضد ما سموه يومئذ «بالظلم والتعدي الماروني» «ونقض علاقات المودة والجوار والرغبة في السيطرة عليهم أو مد نفوذهم إليهم» فطالبوا في أعقاب إنهاء الحكم المصري ـ بالاستقلال عنهم ويتنصب أمير درزي عليهم في مقابل أمير ماروني على الموارنة... فاستغل اللاعبون الدوليون هذه البيئة اللاهبة ففجروا

أحداثاً دموية في المنطقة ليسيئوا إلى الدولة العثمانية من جهة ويخدموا من جهة أخرى مصالحهم في تعميق الجراح في الجسم العثماني كمقدمة ضرورية للانقضاض على العثمانيين وتفتيتهم وتجزئة ولاياتهم...

* * *

قلنا أن المحللين لحرب السنتين عادوا إلى قراءة ما للأحداث الماضية من أثر كونها صورة من صور الصراع تتشابه مع الحرب الجديدة في كثير من النقاط وإن كان قد تغير أحد الطرفين... فكان الدروز في المجازر الأولى الطرف الماروني بينما هنا في الحرب الجديدة يحتل المسلمون عامة في مواجهة الصدارة في طرف المواجهة... ويبدو أن التشابه بين الحدثين يكمن أيضاً في الأسباب المباشرة، فالظلم الماروني ومد النفوذ والسيطرة على مقاليد الأمر يقابله في الطرف الآخر غبن وافتئات على الحقوق ومحاولة التحجيم والأضعاف... كما أن التشابه كبير في اللاعبين الدوليين وفي لعبة الأمم وإن طرأت بعض التعديلات في أسلوب تلك اللعب وفي بعض أطرافها وأدواتها في المنطقة.

* * *

ويبدو أن الطرف الماروني في حرب السنتين كان أكثر وعياً لخلفياته التاريخية من الطرف المسلم... فقد عاش بعض الموارنة حقباً طويلة متصلة يكتب التاريخ ويرسم معالمه حتى أمكننا القول أنه احتكر صناعة السياسة ومخططاتها المستقبلية... مما أخرج كتابة التاريخ عن فنها الكلاسيكي إلى ما يصح تسميته بالتزوير والتحريف والاختلاق... فبرعوا في بدعتهم الرهيبة وكادوا ينجحون في ترسيب معطياتهم في الأجيال اللبنانية المسلمة والنصرانية على حد سواء.. فيمسخون في الأذهان حقائق الأمس في سبيل مخطّطات اليوم...

وقد بدأ مؤرخو الموارنة بصناعة التاريخ مع الدفعات الأولى لخريجي المدرسة المارونية في روما وجميعهم من الآباء والمطارنة، في بدايات القرن السابع عشر... وكان هؤلاء قد خضعوا لدراسات دقيقة ضمن منهجية

الفاتيكان ومخططاتها في السيطرة على هذه المنطقة وضرورة أحداث شرخ في الامبراطورية العثمانية، وقد أفادت هذه العلوم والنظريات والأساليب مؤرخي المارونية وبطاركتهم ومنحتهم فرصاً لإنماء شخصيتهم وإضفاء صفات تميزهم عن سائر مواطني البلد ولتأسيس مرتكزات خاصة بهم... وبعد أن أدركوا - في نظر أنفسهم - إن ذلك أبعدهم عن مجموع الأمة وأنهم قد غدوا عنصراً غريباً عنها شعروا بضعفهم وعجزهم عن مقارعة طروحات الأمة بمفردهم مما حملهم على الارتماء الكامل في أحضان البابوية ومن ثم فرنسا التي سرقت منهم حتى قدرة الاتصال بالحكم العثماني فاعتبرت نفسها «محامية» عنهم وناطقة باسمهم الأمر الذي حمل مؤرخي الموارنة على تبرير تلك العلاقات المستجدة أو العمالة المجانية فاختلقوا روايات وأساطير كثيرة تحولت مع الأيام إلى ما يشبه العرف والتقليد يتلقاها الأبناء عن الآباء وكأنها مسلمات.

وهكذا غدت التقاليد المارونيّة المنهل الذي ينهلون منه لتبرير تميزهم عن الأمة وارتباطهم بأعدائها... وبصورة خاصة بفرنسا.

ويبدو أن كل جيل من المؤرخين اضطر تحت ضغط الأحداث وتبدل المواقف إلى الاختراع والتأليف أو إلى التضخيم والتهويل أو إلى التحريف والتدليس... ومن المؤسف أن تاريخ الجبل وما يحيط به من مناطق حتى تاريخ سوريا وبعض بلاد الشام كتبه أولئك المؤرخون الذين لم يتمتعوا بأمانة المؤرخ ولا بأدب التاريخ... ومن المؤسف أيضاً أن كتب هؤلاء قد غدت المرجع الأهم الذي ينهل منه كتّاب التاريخ في لبنان الرسمي والمصدر الأساسي الذي تعتمده (مادة التاريخ الرسمي) في الجامعات وفي مدارس وزارة التربية حيث تدرس الأجيال الصاعدة صوراً باهتة متعاكسة الخطوط متداخلة الألوان مع ما طرأ عليها من (رتوش) المؤرخين مما جعلها لدى تلك الأجيال على الأقل الصورة الحقيقية لماضٍ جريح...

وهكذا نشأت أجيال الاستقلال في دولة لبنان الكبير وهي تجتر تاريخاً مليئاً بالتحريف والتغيير. وبدون صعوبة تذكر خضعت تلك الأجيال وخاصة المسلمة منها لعمليات «غسل الأدمغة» فاضطربت لديها المقاييس واختلطت

عندها معادلات المحاكمة التاريخية...

فبينما نرى الأجيال المسلمة تفاخر في يومها الحاضر بمعايير الوطنية والنضال نجدها تفاخر في الوقت نفسه ببعض أمراء الجبل وتعتبرهم رمزاً للوطنية كما تعتبر من كان يعمل ضمن مخططات انفصالية - بطلاً للاستقلال.

ولا ريب أن مثل تلك المفاهيم العرجاء قد تكون لدى الفريق الآخر بديهيات أو مسلمات ضمن المحورية التاريخية والاستراتيجية المستقبلية التي رسموها لأنفسهم والتي ظهرت منها صور مختلفة في حرب السنتين اللاهبة إلا أن مسألة إصدار الطرف المسيحي على عملية الهضم الهادىء للطرف المسلم تبقى من منظور حرب السنتين - وضمن أهدافها المتعددة - تجربة قاسية على الأرض في محاولة واضحة من أجل فرض الهيمنة والسيطرة وإجهاض دعاوى رفع الغبن والمساواة ومنازعة الطرف الماروني السيادة على رموز الحكم.

فمثلاً عندما ينبري قائد موقع مدينة بيروت العميد الركن «عزيز الأحدب» «المسلم السّني» الطرابلسي - وهو الذي قاد الانقلاب في ١١ آذار سنة ١٩٧٦ - لعملية تأريخ الأمير فخر الدين نجده يردد ما قاله مؤرخو الموارنة ويزيد عليهم بدفاعٍ يستميت فيه عن مشروع الأمير التآمري على بلاده وعلى القدس الشريف والهادف إلى تسليم القدس إلى أمير توسكانا والبابا ومنحهما أكثر من مرفأ وسهولاً فسيحة حول القدس. وقد اعتبر الأحدب أن هذا المشروع لو كان قد تم لوفّر على أجيال هذه البلاد ثلاثة قرون من ظلم الأتراك؟؟؟ إذا علمنا ذلك أدركنا مدى تأثير التحريف الماروني فالتآمر نضالاً والانفصال استقلالاً.. مع أن العميد الأحدب من الجنرالات المرموقين في الصف الإسلامي العسكري ومن الرجال المنظور إليهم في لعبة الحكم والعسكر في لبنان ما قبل حرب السنتين... وكان اسمه مطروحاً ليكون باسم المسلمين رئيس حكومة عسكرية إذا ما دعت الضرورة إلى ذلك...

وترجيحنا أن «الأحدب» ما كتب الذي كتب - ويومها كان جنرالاً في الجيش - إلا لأن السياسة المارونية في الجيش قضت بذلك فضلاً عن أنه - هو

نفسه ـ قد اظهر في كتابه تأثره البالغ بسعيد عقل ذاك المنظر الماروني ذي المدرسة والمعروفة.

ومن أجل هذا ضخم التنظير الماروني الأمير فخر الدين إلى أكبر من حجمه وجعله مؤسس لبنان الحديث وأمير الأمراء وأعظم الرجالات كل ذلك لأن في فخر الدين كمنت طروحات ـ كانت عنده نتيجة أطماع وأحقاد ـ غير أنهم تمكنوا من استغلالها لتحويلها إلى طروحات تخدم أغراضهم في استراتيجيتهم الجديدة... فلئن كان مشروع فخر الدين يقضي بتسليم القدس ثالث الحرمين ومسرى النبي ﷺ ومهد المسيح إلى نصارى أوروبا في سبيل دعمهم له (ضد السلطة العثمانية) فأولى بموارنة اليوم مقاتلة (أهل القدس وفلسطين) الذين لجأوا مكرهين إلى أرض لبنان ومن أبادتهم ـ ان تمكنوا ـ وبابعادهم عن المناطق ذات الكثافة المسيحية (تل الزعتر مثلاً) فذاك وإن كان شرطاً أجنبياً وضمن اللعبة الدولية فهو يتفق أيضاً مع استراتيجيتهم المصطنعة، فقد سبق لهم أيضاً بعد أن فشلوا في إقناع الأمير بشير بالانضمام والتعاون مع نابليون بونابرت عندما كان يقف عاجزاً عند أسوار عكا الصامدة أن مدوا إليه يد التعاون خلافاً لإرادة الأمة انطلاقاً من أن ذلك التعاون ـ على ما توهموه ـ يخدم مصالحهم ومآربهم. ومن جهة أخرى نجدهم يقبلون بالارتزاق، لدى إبراهيم باشا بوحي من الأمير بشير ليكونوا رأس الحربة ضد جيرانهم الدروز. فقد كان ذلك الارتزاق لعبة خطيرة مكنتهم من امتلاك السلاح بكثرة ومن تهجير الدروز وامتلاك أراضيهم وممتلكاتهم فذاك خدم ـ على ظنهم ـ مصالحهم وساعد على توفير البذور لكيان ذاتي لهم وولد نفوذهم إلى مناطق مختلفة من الجبل. فإن حملوا السلاح اليوم مجدداً في حرب السنتين ضد جيرانهم ومواطنيهم والمقيمين من المسلمين فبهدف تحقيق غايات مماثلة أو أهداف أكبر...

* * *

تمكن مؤرخو الموارنة عبر تحريفاتهم التاريخية وخاصة في كتابات التاريخ الجديد خلال حرب السنتين تمكنوا من تحديد مجموعة أهداف ضمن الاستراتيجية المارونية (المصطنعة).. إذ كانت كتابات حرب السنتين وما

بعدها أصرح وأوضح فوفرت تحديداً جليّاً للأبعاد والخلفيات التي عملوا على تأصيلها في عشرات السنين... لقد حاولوا التأكيد على أن الموارنة المردة هم أهل البلد وهم أصحاب الشرعية فيه وأن المسلمين طارئون عليه لذلك فهم يدافعون عن البلد ضد كل دخيل بينما يفرط به المسلمون متعاونين مع (الغرباء) أي الفلسطينيين.

كما راهنوا على محاربة العهد العثماني واتهامه بكل نقيصة وجعلوه مصدر كل ظلم.

كل ذلك في محاولة جادة لأحداث الانفصام في شخصية المسلمين التاريخية فتبهت الصورة التاريخية عند المسلمين وتصبح أكثر اهتزازاً... وهكذا تسقط إحدى أقرب الحلقات التاريخية التي تصل الماضي البعيد بالحاضر فتختلط الأوراق ـ عند المسلمين ـ فينسلخون عن تاريخهم ويغدون بلا تاريخ ـ شأن الموارنة ـ الأمر الذي يدفعهم بقوة إلى عملية حوار لصنع تاريخ بالاتفاق. وقد ساعد على الطرح الماروني هذا أن مجموعة عربية مهمة قاومت في الحرب العالمية الأولى الدولة العثمانية وراهنت في الخفاء على إنشاء دولة عربية مستقلة كما أن تفجر التناقضات في الدولة العثمانية وبروز الاتجاه القومي التركي ـ الطوراني ـ وإساءاته البالغة للمجموعة العربية... هذا وذاك قد وفرا غطاء جيداً للمنظرين الموارنة ليزيدوا في الخلاف متهمين ـ خاصة في حرب السنتين وما بعدها ـ الدولة العثمانية بكل نقيصة.

ومن جهة أخرى تمكن المنظرون الموارنة، خاصة في حرب السنتين وما بعدها، من طرح تعسفي لوطن قومي مسيحي... ولم يكتفوا بجعل لبنان بحدوده الحالية الوطن القومي المسيحي بل كانوا أكثر جرأة إذا طرحوا الوطن القومي المسيحي الكبير ـ كما فعلت الصهيونية بإسرائيل الكبرى ـ فكان الوطن الكبير ما عُرِفَ بالهلال الخصيب أو سوريا الكبرى وجعلوا فاصلاً زمنياً بين الوطن الصغير لبنان الكبير وبين سوريا الكبرى أو الهلال الخصيب. فكان الوطن القومي في مرحلته الثانية يمتد، عندهم، من شمالي فلسطين إلى حلب.. وقد بنوا طروحاتهم هذه، على واقع تاريخي حرّفوه، ليكون خلفيةً يستقّون منها،

أعني انتشار المسيحية في بلاد الشام قبل الإسلام، فأصبح من حق النصارى والموارنة استرجاع تلك البلاد لتكون الوطن القومي المسيحي الكبير...

وضمن مفهوم الوطن القومي، وضمن معادلات الحكم في جبل لبنان، وانطلاقاً من تكتيك المستعمر الفرنسي، وبناء على ظروف مختلفة ليس هنا موضع تفصيلها، تمكن الموارنة من احتكار الرئاسة الأولى في دولة لبنان الكبير. والحجة الظاهرة أن إحصاء سنة ١٩٣٢ الذي جرى ضمن ظروف وملابسات، شرحنا بعضها في كتابنا (المسلمون في لبنان مواطنون لا رعايا) أثبت أن الموارنة أكبر الطوائف، لذلك وباعتبار أن توزيع المناصب الأساسية جرى بتوافق الزعماء آنئذ فقد خرجت الرئاسة الأولى بصلاحياتها الضخمة من نصيب الموارنة... غير أن منطق العدد هذا بات - بعد حرب السنتين - مرفوضاً لدى الموارنة أنفسهم الذين أخذوا يصرّون على رفضه وعلى رفض إجراء أي إحصاء سكاني جديد (فالرئاسة لهم ولن تكون لغيرهم) مبررين ضمن مجموعة حجج من أبرزها ما درج عليه منظرو المارونية الجديدة من القول بخلفية تاريخية تثبت حقاً مزعوماً توارثوه من أن الرئاسة أو الإمارة، تاريخاً، هي للنصارى الموارنة منذ الأمير فخر الدين مؤسس لبنان الكبير - استناداً إلى تنصيرهم إياه غير الصحيح - أو في أسوأ حال ابتداء من الأمير بشير الذي نصروه مع أبيه - وهو أيضاً غير صحيح - وعلى هذا لا يجوز - في زعمهم - منازعتهم حقاً موروثاً جرى توازن الحكم عليه منذ قرون.

ومن أجل ابتداع هذه الخلفية وتركيزها وتعميقها وتأطير أبعادها تكبد مؤرخو الموارنة جهداً شاقاً فحرفوا وزوروا وأضافوا أحداثاً وحذفوا أخرى حتى كادوا يطمئنون إلى صحة تلك الخلفية وإلى سلامة ما صنعوا فقد باتت تشكل حجر الزاوية في الحياة اللبنانية سياسياً وتعليمياً.

ولتحقيق الأهداف المحكي عنها جميعاً أكد منظرو الموارنة على وجوب الاستقلال عن المسلمين والعرب في النظرة إلى الحياة، وفي الحضارة، وفي كل شيء فجعلوا أنفسهم امتداداً للحضارة الغربية واخترعوا لأنفسهم قِيَماً

ومسارات كما لم ينسوا اختراع مقومات حضارية ذاتية بما فيها اللغة... فلغتهم الأم سريانية والعربية طارئة حتى أنهم «زخرفوا» كتبهم الجديدة بكتابات سريانية إلى جانب العربية... ودعوا إلى العامية اللبنانية وأخذ بعضهم يكتب بها...

وهكذا تبلورت عندهم طروحات ومفاهيم ومعطيات يضاهون بها الطروحات العربية - الإسلامية ويتميزون بها... بل أخذوا يمارسونها في الواقع العملي على الأرض... فمن حرب الفلسطينيين مثلاً إلى التعاون مع إسرائيل إلى التعاون مع الأجنبي عموماً طالما كان ذاك التعاون يساعدهم على تحقيق فكرة الكيان...

ومنعاً لأي التباس - قد ينشأ - تحولت جامعة الكسليك في جونية إلى مختبرات دراسية وإلى مطابع يقذفون منها بالمتناقضات التاريخية وبمزيد من كتابات تكون للأجيال وللأحزاب المارونية (المرجعية) والمنهل المُكَوِّنْ للشخصية النصرانية المارونية المُشَكِّكِيْنْ بتاريخ هذه المنطقة...

وأروي هنا ما حصل معي شخصياً عندما كنت أقرأ كتاب (التعددية الحضارية في لبنان) للأستاذ وليد فارس من منشورات جامعة الكسليك... فقد روى الكتاب أحداثاً قال إنها وقعت في العهد الأموي، وأوجد بناء عليها دولاً للمردة أسماها الدولة المردية الأولى ثم الثانية ثم الثالثة ثم الرابعة ورسم لكل دولة حدوداً ووضع مصورات... وفي الحقيقة ولأول وهلة اضطربت لديّ المعلومات التاريخية ورحت استجمع في ذهني ما قرأته عن العهد الأموي والعباسي... ولا أكتم أني شككتُ بمعلوماتي وتهيبت الموقف... مرد هذا أني كنت عاجزاً عن أن أتصور تحريفاً وتزويراً فاضحين بهذا الحجم وبهذا المستوى... إذ كنت أظن بإمكانية التحريف المحدودة والتضخيم الذي ينطلي على الناس ولا يكشفه إلا الراسخون في علم تلك الحقب التاريخية... أما أن يزور التاريخ برمته وتقام دول وتعقد محالفات وتبرم معاهدات وتُختلق أحداث ضمن حلقات مدروسة ومعطيات هادفة لتدمير التاريخ

الإسلامي وإقامة تاريخ مصطنع للموارنة فذلك لم أكن لأفطن إليه لولا تتبعي للموضوع على أكثر من صعيد وتفحص ما أوردوه من وثائق ودراستي لها وللأحداث دراسة التدقيق والتمحيص. . . !!

ويبدو أن هذا الاتجاه في تحريف التاريخ قد هدفوا منه أمرين بآن واحد: أولهما اختلاق تاريخ للموارنة من أجل مزيد من الاستقلال والتمايز بغية الوصول إلى الأهداف الكبرى في وطن قومي. وثانيهما تشكيك المسلمين والعرب بتاريخهم في محاولة أولى لتدمير ذلك التاريخ. . . يبدو أن هذا الاتجاه قد نال الرضى والاستحسان عند جامعة الكسليك فأصدر قسم التاريخ عندهم قصة مصورة للأجيال الصاعدة تروي تاريخ المُوَراني (وقد كتبت كلمة موراني بالسريانية أيضاً). . .

والقصة فضلاً عن أسفافها وتحريفاتها الرهيبة فُقد صُدِّرت ببحث بالعامية كمقدمة لها أكد هذا البحث بشكل قاطع أنّ مؤرخي الموارنة يكتبون تاريخهم بأسلوب جديد بما يتفق مع مصالح الموارنة فإن اقتضت مصالحهم الجديدة إسقاط إعجابهم بما كتبه مؤرخوهم السابقون مع ما فيه من الدسّ والتحريف فلن يترددوا في ذلك «فالموراني» كما يقول الدكتور قيصر نقولا (بدو كل يوم يكتب تاريخو من جديد).

وضمن سياق هذا المعنى انبرى الأب بطرس ضو بموافقة بطريركية كما هو مبين في الصفحة الأولى من كتبه ليخترع «الأعاجيب» في موسوعته التحريفية (تاريخ الموارنة السياسي والعسكري والحضاري).

ومع أن كتّاب تاريخ لبنان قبل الحرب اللبنانية وقبل الاستقلال كانوا في معظمهم «موارنة» وكتبهم مراجع لكل باحث فقد قذفت (المطابع) قبيل حرب السنتين وفي أثنائها وبعدها بمزيد من المؤلفات الخطيرة التي كونت وتكون الخلفية التاريخية المرة للموارنة.

ومن المؤسف كما بينا أن مؤرخي الموارنة كادوا يحتكرون كتابة التاريخ في لبنان. . . حتى أن الباحث يكاد لا يجد مرجعاً تاريخياً شاملاً عن أحداث

هذا الجزء من المنطقة العربية «الإسلامية» إلا ولمؤرخي الموارنة فيه القدح المعلى. . . مما يفرض على المؤرخ أو الباحث اعتماد مصادرهم والاستشهاد بوقائع وردت على ألسنتهم. . . حتى أن بعض المؤرخين الأجانب الذين كتبوا عن لبنان أو عن بلاد الشام اعتمدوا فيما كتبوه على الكتابات المارونية. ثم عرّبت تلك الأبحاث لتغدوا وباستشهاداتها مراجع في البحث التاريخي!!

ومما لا شك فيه أن هذا أمر ملفت للنظر وخطير في آن واحد إذ أن الأوائل من مؤرخي العرب والمسلمين أو من المؤرخين الذين عاشوا في هذه المنطقة من المسلمين لم يهتموا بأخبار الجبل مما جعل المجال رحباً وسيعاً لبطاركة الموارنة وآبائهم ليكتبوا على هواهم بوحي تأثيرات خاصة كما رأينا. . .

صحيح أن الأمر لا يخلو من بعض الكتابات الإسلامية القديمة إلا أنها في مجملها لا تشكل ثقلاً تاريخياً متكامل الحلقات. . . فضلاً عن أن التوجيه التاريخي العام في لبنان لا يعول على تلك الكتابات بل يطويها في زوايا المكتبات متعمداً ترويج ما كتبه مؤرخو الموارنة وما وصلوا إليه من معلومات وما انتهوا إليه من طروحات ومقولات.

غير أننا هنا لا بد من التنويه بمحاولات جديدة يبذلها منظرون مسلمون جدد لإعادة تقويم فترات من التاريخ الطويل، ضمن دراسات أكاديمية، كالدكتور وجيه كوثراني في كتابه الاتجاهات الاجتماعية والسياسية في جبل لبنان والمشرق العربي ١٨٦٠ ـ ١٩٢٠ وقد حاول فيه أن يكون بداية لعملية تقويم شاملة للتاريخ اللبناني وإن كان بحثه هذا لم يخل من بعض الطروحات الخاطئة، كما بذل الأستاذ الشيخ طه الولي جهداً في كتاباته التاريخية عن لبنان ضمن مقالات نشرها في جريدة اللواء البيروتية وفي كتب مستقلة. . . وهو شأن يشابهه فيه من بعض الجوانب الدكتور عمر تدمري الذي تخصص إلى حد كبير بتاريخ طرابلس. . . في حين أن محمد علي مكي في كتابه (لبنان من الفتح الإسلامي إلى الفتح العثماني) كان أكثر شمولاً وإن كانت محاولته الأولى هذه خجولة ينقصها شجاعة الباحث وتدقيق المؤرخ. . .

ومما يلفت النظر أن المؤرخين المحدثين ـ من غير الموارنة ـ يعتمدون

الروايات المارونية دون تمحيص ولا تحليل - إلا ما ندر - فتأتي تلك الكتابات تكراراً بأساليب مختلفة لأبحاث مارونية الأصل والمصدر.

في حين أن تلك الروايات، عند محاكمتها في متونها ومقاربتها ببعضها وربطها بالأحداث التي كانت في زمانها، تتكشف فيها خفايا التزوير والتحريف أو يتبين منها ما لم يرغب المؤرخون في التدليل عليه أو توضيحه... ذلك أن الباحث المحلل لا يمكنه أو لا يجوز له أن يعتمد على رواية يعتبرها صحيحة لمجرد ورودها في تاريخ قديم أو لمجرد أن قائلها مطران أو أب أو بطريرك... إذ أن احترام هؤلاء لا يسقط حق مناقشة ما كتبوه ولا يعبر عن المنهج العلمي في تمحيص الروايات...

ولا يعني هذا أن كل ما كتبه مؤرخو الموارنة غير صحيح، فبعض الوقائع والأحداث أو الوثائق والمراسلات التي أثبتوها ممكنة الوقوع يجوز اعتمادها ضمن إطارها المقصود... بل أنك - ربما - وجدت الحقيقة في ثنايا روايات أوردوها للاستشهاد على واقعة معينة فإذا هي تفيدك في وقائع أخرى، خاصةً إذا ما قارنتها بروايات وردت في كتب أخرى. كما أنه لا بد من الإشارة أيضاً إلى أن من مؤرخي الموارنة من كشف زيفاً أو خطأً أو تزويراً أو تدليساً عند من سبقه من المؤرخين في واقعة معينة يرى هو خلافها... ومن هنا كان محتوماً على الباحث أن يحاكم الروايات ويضعها في إطار الأحداث في محاولة تبين الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الحقيقة التاريخية المحجوبة... تلك التي يمكن أن تكشف بكاملها وتسجل بخفاياها إذا ما نشرت كافة وثائق الباب العالي المحفوظة - كما أظن - في وزارة الخارجية التركية وفي دوائر العدلية هناك، كما في كافة الولايات التابعة يومذاك للآستانة. إذ أن كثيراً من الأحداث سجلها القضاة الشرعيون في سجلات محاكمهم وردّتها إليهم مراسم سلطانية بعد انفصالها عن الآستانة محفوظةٌ أصولها في دوائر المحاكم الشرعية. أو أن تكون تلك الوثائق قد نقلت بعناية الحكومات المحلية إلى أرشيف رسمي أو إلى متاحف أو مكتبات الجامعات. كما لا بد من نشر وثائق الدول المملوكية والأيوبية والعباسية والأموية. بما يمكن أن تعتني به مؤسسة وثائقية تهتم أيضاً بنشر كافة الوثائق والمخطوطات المتعلقة

بالمنطقة والمحفوظة في وزارات الخارجية والحربية والمستعمرات في دول آسيا وأوروبا و(أمريكا) وفي المكتبات العالمية وفي الدوائر البابوية.

إن مؤسسة عامة تهدف إلى مثل هذا العمل الجبار من شأنها أن تنصف التاريخ والحقيقة ومن شأنها أن تفتح المجال لإعادة كتابة التاريخ من جديد - على أسس سليمة - غير خاضعة لتشويه المنظرين والمؤرخين.

وللحقيقة نقول أن منظري الموارنة ومؤرخيهم لم يحرفوا التاريخ الإسلامي في هذا البلد فحسب، بل أقدموا على تحريف تاريخهم اللاهوتي أيضاً... فهم ضمن تبرير انفتاحهم على أوروبا والبابا أرادوا طمس معالم اختلافهم الأساسي مع الإيمان الكاثوليكي خاصة فيما يتعلق بطبيعة السيد المسيح فأصروا على أن الموارنة منذ وجودهم الأول كانوا مستقيمي الرأي على الكثلكة في حين أنهم تحولوا إليها مع الزمن تحت تأثير الحروب الصليبية، ولم يتحدوا مع الكنيسة البابوية اتحاداً كاملاً إلا في سنة ١٧٣٥ على أثر مجمع السيدة اللويزة وهكذا حرفوا تاريخهم اللاهوتي، فلم يكن غريباً عنهم محاولة تحريف التاريخ الإسلامي...

* * *

قلنا أن الأحداث اللبنانية في حرب السنتين وما قبلها وما بعدها أو ما يمكن أن يطلق عليه المسألة اللبنانية، لا يمكن فهمها بمعزل عن فهم التاريخ القريب والبعيد... فهو المقدمة الرئيسة لفهم ما يجري ولإدراك المستجدات ولتوقع الاحتمالات...

وبغياب موسوعة التاريخ اللبناني الموثّقة التي يمكن أن تكون بعيدة عن التحريف وقريبة من الموضوعية الجادة... كان لا بد من وضع لمسات أساسية على قراءة أولى لتاريخ ما عُرف بدولة لبنان الكبير...

وقد كنت قد عزمت على وضع بحث مفصل حول أسباب الحرب اللبنانية ١٩٧٥ - ١٩٧٦ - وآثارها استجابة لتكليف خاص من جامعة الإمام محمد بن سعود في الرياض... وقد كان هذا البحث، في مخططي التأليفي، حلقة من مجموعة أبحاث قررت وضعها وتتعلق جميعها بالحرب اللبنانية غير

أني ما أن وضعت مخطط البحث وعناصره ومنها الخلفية التاريخية للحرب اللبنانية حتى وجدت نفسي أمام واجب أكبر ألقى عليّ بثقله وألزمني بتتبع تلك الخلفية التاريخية وتحليلها وتنسيق الرد عليها. . . كانت (الخلفية) وفق تصميم البحث الأساسي تستهلك عشرين صفحة من بحث «الحرب اللبنانية وأسبابها» فإذا بها تستهلك هذا الكتاب بأكمله وما قد يليه إلى أواخر الثمانينات من هذا القرن.

* * *

وبعد. . .

فقد أدركت وبصورة عميقة أهمية كتابة تاريخ لبنان من جديد. وأدركت وجوب تحول القراءة الأولى هذه إلى تأريخ شامل يتعدى تعقب الخلفية التاريخية لدى الموارنة إلى تحقيق دقيق لتاريخ هذا البلد وفق تصورات سأطرحها في فصل لاحق.

وأدركت أن الحرب اللبنانية كان لا بد أن تقوم.

وأنه كان من الممكن أن يتوقعها العالِمون لو كان المسلمون في لبنان قد قرأوا التاريخ بصورته الصحيحة.

وأدركت أبعاداً في الحرب اللبنانية، وأنا الذي عشت أحداثها ومارست خلالها دوراً ما. . . لم تكن لتتكشف لي تلك الأبعاد قبل قراءتي هذه للخلفية التاريخية.

وأدركت من خلال تجربتي السياسية صدق قول أفيلاد: (أن تفكر سياسياً بشكل صحيح هو أن تفكر تاريخياً أيضاً بشكل صحيح).

الفصل الثاني

نحو كتابة تاريخ لبنان من جديد

قراءتنا هذه
وإعادة كتابة تاريخ لبنان من جديد

من الإطلاع على مناهج وزارة التربية والمناهج الجامعية وعلى مجمل الكتابات التاريخية التي تحدثت عن تواريخ لبنان نجد أن تاريخ جبل لبنان يكاد يكون هو تاريخ لبنان. فكأن لبنان هو الجبل والجبل هو لبنان... أما تاريخ المناطق التي أُلحقت بالجبل لتكوّن دولة لبنان الكبير فلا تأريخ لها إلا بالقدر الذي يخدم تاريخ أمراء الجبل أو يرتبط بهم... وهكذا تنشأ الأجيال اللبنانية من كافة المناطق وهي تشرئب بأعناقها نحو الجبل تلقط كل شاردة وواردة عن أمرائه ابتداءً بفخر الدين وانتهاء بالمتصرفية مروراً ببشير الأول والثاني والثالث... بينما نرى هذه الأجيال بمن فيهم أبناء الجبل لا يعرفون شيئاً عن تاريخ المحافظات الأربع الأخرى كطرابلس وبيروت وصيدا والبقاع «اللهم إلا النذر اليسير» وكأن التمييز في المناطق في لبنان الكبير الحديث لم يكن في العمران والمواطنية فحسب وإنما تعدى ذلك إلى الإهمال المتعمد لتاريخ تلك المناطق لكي تشبَّ الأجيال متجهة إلى أن الجبل ومواطنيه هما لبنان الوحيد والأصيل والجدير بالاهتمام والتأريخ.

ومما لا شك فيه أن سياسة قاصرة كهذه لا تستهدف مصلحة البلد ولا تنصف الحقيقة لا يمكن أن تعيش طويلاً. فصحيح أن لبنان الكبير اصطنع في العشرين سنة الأولى من القرن العشرين بإرادة فرنسية «مارونية» ورغم إرادة المسلمين في سائر المحافظات الأربع إلا أن لبنان الاستقلال تواجد بإرادة المسلمين قبل الموارنة... واتخذ شكلاً سياسياً وصيغة غير متوازنة

كونت على الأيام بؤرة تفجر تلتهب في كل مرة تهب منها رياح التدخل الأجنبية والإقليمية . . .

وفي اعتقادنا أن منهج التعليم هو من الأسباب التي أنشأت في اللاوعي عند أجيال ما بعد الاستقلال ـ وهم اليوم أداة التفجير ـ حالة من التشنج والتعقيد انعكست في التطلعات وتفاعلت ضمن معادلات ذلك المنهج الأعرج. فمثلاً تعمد المنهج تضخيم الجبل على حساب المحافظات الأربع فنبت ابن الجبل يصحبه الغرور والفوقية وهو يعيش حالة الغبن والعبودية.

لا بد هنا من الاستثناء والاستثناء يكشف «لا وطنية» واضعي المناهج «وخبثهم».

فتاريخ الساحل اللبناني والبقاع يدرس بعناية في العصور القديمة حيث الأشوريون والكلدانيون والرومان وقبلهم الفينيقيون.. أما عندما يأتي دور الفتح الإسلامي فالحديث عن الساحل شبه معدوم حتى الحروب الصليبية... ثم يدرس الساحل ـ في تلك الحروب ـ كإمارات صليبية لا كحركات جهادية ضد المحتل الغاصب... كذلك لا تدرس علاقات الموارنة مع المسلمين من جهة ومع الصليبيين من جهة أخرى. وكيف أن بشري المارونية مثلاً، وهي الثقل الماروني يومئذ تعاونت مع مسلمي دمشق أثناء الزحف لتحرير طرابلس من ربقة الصليبيين وكيف أن الموارنة انقسموا على أنفسهم إزاء الصليبيين وكيف أن هؤلاء اضطهدوا بشري وغلّبوا الاتجاه المتعاون معهم مؤثرين فيهم حتى في عقيدتهم اللاهوتية.؟؟ ثم يأتي الحديث مجتزأً وسريعاً عن آل عساف في بيروت وغزير لننتقل بعدهم ببحبوحة وراحة إلى الأسرتين المعنية والشهابية باعتبارهما من الجبل فمجازر القرن التاسع عشر فالقائمقاميتين فالمتصرفية فجمال باشا السفاح فالانتداب فلبنان الكبير...

ولا شك أن الذي يقرأ التاريخ بهذا الشكل يدرك أن الساحل لا تاريخ له أو أنه ذو تاريخ هامشي بالنسبة للجبل فلا يدرس منه إلا ما كان مرتبطاً بأحداث الجبل.

غير أن المفاجأة الكبرى التي تشد الباحث وتكشف سوء قصد واضعي

المناهج هي أن الجبل لم يكن منذ الفتح الإسلامي وحتى المتصرفية ولاية بنفسه بل كان دوماً جزءاً تابعاً في قسمة الشمالي لولاية طرابلس وبقسمه الجنوبي لولاية صيدا، فصيدا وطرابلس ولايتان مهمتان وأساسيتان امتدت حدودهما في فترات تاريخية لأنطاكية شمالاً ولغزة في فلسطين جنوباً.. وكانتا ذات حضارة وصناعة وتجارة وعمران ولعبتا دوراً مهماً في تاريخ المنطقة عموماً وفي جبل لبنان على الأخص، ويكفي أنه بسبب ولاية طرابلس ابتدأ الصراع لاهباً بين إبراهيم باشا والدولة العثمانية عام ١٨٣٢ فلا يعقل أن تُدرس مقاطعات جبل لبنان التابعة لولايتي طرابلس وصيدا وتُهمل الولايتان إلا ما كان من تاريخهما ضرورياً لتوضيح صورة الجبل.؟!!

ونحن هنا لا نعترض على دراسة الجبل... فدرسُه في اعتقادنا ضروري وواجب. غير أن المعادلة أيضاً واجبة وضرورية في دراسة معمقة ومفصلة في ولايات الساحل ندرسها بكونها هي الأساس ونرسم من خلالها صورة أمراء الجبل أو الدروز أو مقدمي بشرى وكسروان... كما تدرس ولاية دمشق بامتدادها إلى البقاع ودور هذا عبر أمرائه في تاريخه الطويل...؟

وفي ترجيحنا أن واضعي المناهج ـ وأكثرهم من الموارنة ـ قصدوا الوصول إلى النتيجة التي رسمناها... فقلبوا الأمور وجعلوا الجبل أساساً لمحور التاريخ اللبناني بدل أن يكون تابعاً لمحورين آخرين هما ولايتا طرابلس وصيدا حسب الواقع التاريخي مستهدفين من وراء ذلك إيجاد نشء ينقاد بصورة غير إرادية إلى تبني محورية الجبل وتركيز اهتمامه حوله قابلاً بفوقيته مع ما يستتبع هذا من حصر الرئاسة الأولى بالموارنة الذين رسمهم التاريخ قوة فاعلة وأساسية... غير أن حساب واضعي المناهج لم يتطابق مع محصلة المسخ والاجتزاء مما أدى إلى تأصيل التنافر بين مجموعات السكان بدل التبعية التي أرادوها...!!

وفي ترجيحنا أيضاً أن أولئك ما كانوا ليطمسوا معالم التاريخ في بلاد الساحل والبقاع إلا لكونها مسلمة تتبع بصورة شاملة الدولة الإسلامية في دمشق وبغداد والقاهرة واسطنبول فالمسلمون ـ اللبنانيون عند ولادة لبنان

الكبير - كانوا مع بلادهم جزءاً لا يتجزأ من الدولة يتبعونها في كل استراتيجيتها ولا ينفصلون عنها في المفاهيم والشريعة والحضارة... حتى أن طرابلس - التي بسببها جرى التصادم بين إبراهيم باشا والسلطنة العثمانية - رفضت الحكم المصري لمّا صدر عن السلطان العثماني أنّ محمد علي وابنه عاصيان على الدولة ثم أنّ طرابلس لما سمعت بأسر إبراهيم باشا في الخليل بواسطة الثوار الفلسطينيين لبست ثياب الفرح والابتهاج وأقامت الموالد والاحتفالات احتفاءً بقرب عودة الدولة العثمانية إليها... فلا يصح في نظر منظري التاريخ اللبناني - وأكثرهم موارنة - إيلاء الساحل الإسلامي أهميته التاريخية ودرسه على أنه هو صاحب السيادة الفعلية على الجبل في شماله وجنوبه... إذ أن دراسته بشكل مواز - على الأقل لدراسة الجبل يذكي روح الوحدة ويؤكد مشاعر الاندماج مع سائر العرب المسلمين في المنطقة... كما يقرر - من جهة أخرى - الواقع التاريخي الصحيح من أن الجبل المجزأ كان بقطاعاته تابعاً لا متبوعاً وكان جزءاً من الساحل وليس كياناً قائماً بذاته... وتلك رؤية تتناقض مع الأهداف التي سعى إليها، بجهد شاق متواصل، مؤرخو المارونية وهم واضعو المناهج التاريخية اللبنانية؟؟.

* * *

فمن أجل هذا...

ومن أجل الحق والأمانة التاريخية.

ومن أجل لبنان الواحد... لا بد من إعادة كتابة تاريخ لبنان من جديد لننفي عنه أولاً التزوير والتحريف والتضخيم والتدليس ولنثبت فيه الحقيقة ما وسعنا ذلك دون تكلف ولا محاباة...

وكمحاولة أولى أوضح بعض الجوانب الأساسية لهذه الكتابة:

١ - لا بد أولاً من مؤسسة متوازنة تتصدى لهذا العمل الخطير فالأعمال الفردية على جلالها لا يمكنها منفردة أن تفي بالغرض مهما حاول صاحبها أن يكون متجرداً، لأنها تبقى حاملة لطابعه ومعطياته.

٢ - وعلى هذه المؤسسة أن تتحرر من تراكمات الكتابة التاريخية المارونية وأن تعتبر ما كتب حتى تاريخه يخضع بكامله لأسس التقويم والتمحيص والمحاكمة وفقاً لأصول التأريخ الصحيحة...

٣ - أن تسعى تلك المؤسسة لتكمل في أرشيفها كافة الوثائق التاريخية المنتشرة هنا وهناك لدى الحكومات أو الجامعات أو المتاحف أو المكتبات أو لدى الأفراد...

٤ - تضع المؤسسة مبادىء العمل ومقوماته ومنهج الكتابة وأساليبها والقواعد الأساسية التي تحكم تطلعاتها وأهدافها... على أن لا تستهلك المؤسسة نفسها بالاهتمام - بتاريخ ما قبل الفتح الإسلامي أي بالتاريخ القديم فذلك على أهميته لا يثير أشكالاً كبيراً ولا بد من الانطلاق - بصورة جذرية - من القرن السادس الميلادي فصاعداً...

وإلى أن تتحقق هذه الأماني تبقى الكتابات الفردية الذاتية التي تحاول تقويم الإعوجاج وكشف التزوير وكتابة التاريخ من جديد واجباً ضرورياً بل فرض عين على القادر.

... فمثل هذا... جهاد وعلى الفارس المجلي أن لا يتخلى عن حلبته وأن يتقدم بخطوات ثابتة نحو أهدافه فضلاً عن أن تلك الكتابة ستكون إحدى ركائز تقويم الانحراف التاريخي.

* * *

... وكمحاولة أولى لإعادة كتابة تاريخ لبنان من جديد أطرح عناوين تفصيلية لدراسات شاملة حول تاريخ هذا البلد منذ بداية الفتح الإسلامي حتى نهاية الأسرة الشهابية والأحداث التي أعقبتها في سنة ١٨٤١...

١ - اعتبار أن تاريخ لبنان لا يشمل الجبل فقط وإنما يتعداه إلى كافة المحافظات التي يتألف منها لبنان اليوم واعتبار أن تاريخ كل المناطق اللبنانية هو تاريخ وطني يجب دراسته بتعمق وموضوعية.

٢ - دراسة المناطق اللبنانية جميعاً ضمن واقعها التاريخي فلا يجوز تحريف

التاريخ من أجل حدود إقليمية للدولة اللبنانية المحدثة فإذا كانت طرابلس في العهد العثماني مثلاً ولاية تتبع لها مقاطعات تمتد جنوباً حتى بيروت وشمالاً حتى أنطاكية كما يتبع لها أكثر الجبل فينبغي دراستها على هذا الأساس لا كمدينة في حدود لبنان اليوم أوجده الجنرال غورو في ظل انتداب مقيت... ويستتبع هذا دراسة تداخل المناطق اللبنانية بالمنطقة المحيطة بها بكونها جزءاً لا يتجزأ منها واستحالة الفصل بينهما واعتبار ذلك من المسلمات...

٣ - دراسة سوسيولوجية لسكان المناطق اللبنانية عند الفتح الإسلامي وبعده ودراسة الهجرات الأساسية التي تمكنت من رسم الصورة الحالية لسكان لبنان سواء منها الهجرات الإسلامية العربية أو التركمانية أو الأيوبية أو الهجرات المسيحية وبخاصة الهجرة المارونية الكبرى بزعامة البطريرك يوحنا مارون سنة ٦٩٤ م.

٤ - دراسة «أسطورة» المردة وعلاقتهم بالموارنة وأن موارنة اليوم ليسوا مردة وأن المردة لم يقيموا في لبنان إلا لسنوات انسحبوا بعدها إلى الأناضول وهم قوم مرتزقة مأجورون استخدمهم العرب كما استخدمهم البيزنطيون.

٥ - دراسة العلاقات الطبيعية بين سكان لبنان فيما بينهم وتفاعلها من جهة ودراسة علاقات الحكم الإسلامي بالرعايا غير المسلمين ومواقف هؤلاء من الحكم المذكور.

٦ - دراسة تعريب المناطق اللبنانية الساحلية والجبلية وسيطرة العربية على سائر اللغات المحكية.

٧ - دراسة منهجية لتطور الإسكان والتنظيمات الإدارية والمالية والقضائية والعمرانية والاجتماعية والعلمية في المناطق اللبنانية تبعاً لواقعها التاريخي الصحيح حتى الاحتلال الصليبي.

٨ - دراسة الاحتلال الصليبي للمناطق اللبنانية ووحشيته ومجازره ودراسة حركات المقاومة والتصدي والتحرير ومواقف مختلف المقاطعات والمناطق

وعلى الأخص الموارنة الذين لم يكونوا آنئذ كياناً سياسياً مستقلاً. وكيف أنهم انقسموا إلى فريقين، فريق وهم الأكثرية يمثله موارنة بشري الذين تعاونوا مع المسلمين في كفاحهم العادل وفريق آخر متعاون مع الصليبيين تعاون ارتزاق أو عصبية...

٩ - دراسة تأثير الحروب الصليبية على مختلف الأصعدة الحياتية والفكرية وفي مقدمتها تأثيرهم على عقيدة الموارنة وإلزامهم بتحول تدريجي نحو العقيدة الكاثوليكية والنتائج السياسية للعلاقات الالتزامية المستجدة...

١٠ - دراسة موضوعية حول عهد ما بعد الصليبيين حتى العهد العثماني وتحديد أهمية العهد المملوكي في حماية البلد وتصفية الشراذم العميلة للصليبية الدولية ومنع التعامل مع الأجنبي وتركيز ودعم الحركة الاستيطانية في بعض المناطق اللبنانية (كسروان مثلاً).

١١ - دراسة الأقطاع الإداري والمالي والقضائي في العهد المملوكي وكون ذلك جزءاً من تنظيم عسكري أملته ضرورات الجهاد ضد الصليبيين. مثلاً أمير: رتبة عسكرية ثانوية في التنظيم العسكري المملوكي فأمراء العائلات والمقاطعات في المناطق اللبنانية قادة عسكريون من رتب دنيا في التنظيم الهرمي الممتد على الساحة العربية الإسلامية آنئذ.

١٢ - دراسة الحركة العمرانية والعلمية في المناطق اللبنانية - في العهد المملوكي - .

١٣ - دراسة العهد العثماني من منظور العدل والإنصاف لا من منطلقات الحقد والتعصب ودراسة أهمية العهد الإسلامي العثماني بعد سقوط القسطنطينية الذي كان يشكل القوة الكبرى في العالم آنئذ ودراسة أهمية السلطنة باعتبارها تجسيداً للوحدة الإسلامية الشاملة.

١٤ - دراسة التنظيمات الإدارية والقضائية والمالية والعمرانية في المناطق اللبنانية أبان العهد العثماني وكيف كان للقضاء السيادة الشاملة على الولاة والإقطاعيين...

١٥ ـ دراسة شاملة للولايات ضمن المناطق اللبنانية.

١٦ ـ دراسة تطور العلاقات بين الموارنة والبابوية.

١٧ ـ دراسة الحريات العامة التي أكدتها السلطنة وعلى الأخص الحرية الدينية والحماية السليمانية لبطاركة الموارنة.

١٨ ـ دراسة الامتيازات الأجنبية وتأثيرها على الأوضاع الداخلية في المناطق اللبنانية ودراسة الإرساليات وأنشطتها المختلفة وتأثيراتها المتعددة.

١٩ ـ دراسة المسألة الشرقية في مرحلتها الأولى ومخططات البابوية ضد السلطنة وما أصاب المناطق اللبنانية من تلك المخططات.

٢٠ ـ دراسة موضوعية للطوائف التي استقرت في المناطق اللبنانية المسيحية منها والإسلامية والدرزية.

٢١ ـ دراسة الإمارتين العسافية والتنوخية بشكل دقيق.

٢٢ ـ دراسة مقومات الإمارة المعنية في بلاد الشوف وآل فريخ في البقاع والشهابيين في راشيا وآل سيفا في طرابلس وسائر الأمراء المعاصرين للإمارة المعنية. فيوسف باشا سيفا والي طرابلس المعاصر لفخر الدين المعني الكبير كان أهم من الأمير المعني لولا «عمالة» فخر الدين التي جعلت منه بطلاً قومياً من الطراز الأول. فأهملت دراسة يوسف باشا إلا ما كان منها متصلاً بفخر الدين.

٢٣ ـ دراسة موضوعية للأمير فخر الدين وتسليط الأضواء على خيانته في تآمره على القدس واتصالاته الأجنبية الخيانية وعلى مواقفه الالتزامية بالسلطنة العثمانية ضمن خط التعمية. ودحض مزاعم تنصيره ودراسة الأوضاع الدولية آنئذ ومنها العلاقات المشبوهة والخطرة بين علي جنبلاط والي حلب وإمارة توسكانا وهي علاقات نسج على منوالها الأمير فخر الدين.

٢٤ ـ دراسة أسباب منشور لويس الرابع عشر بفرض الحماية المعنوية على الموارنة سنة ١٦٤٩ وتأثير ذلك في إحكام الربط الماروني بفرنسا واقتناص

توكيل جبري بقضاياهم مما مكّن لفرنسا سرقة اتصال الجالية المارونية بالباب العالي... والتأثيرات السلبية على الصعيد الماروني... فضلاً عن نشوء علاقات حكمتها النفعية بين أعيان مارونيين وفرنسا.

٢٥ ـ دراسة التحول الماروني الكامل نحو الكثلكة عبر مجامع الكنيسة ودراسة الصراع البطريركي مع الأعيان المدنيين للموارنة.

٢٦ ـ دراسة أوضاع الولايات الساحلية والبقاعية خلال تلك الفترات الزمنية.

٢٧ ـ دراسة المسألة الشرقية في مرحلتها الثانية وتداخلها مع الأوضاع المحلية.

٢٨ ـ دراسة الأسرة الشهابية السنية مع أسباب كون السّنة أمراء على الجبل علماً إلى أكثرية سكانه قد غدت مارونية ودرزية.

٢٩ ـ دراسة الأمير بشير ومسألة التنصير بوجه عام.

٣٠ ـ دراسة العلاقة الالتزامية بالسلطنة العثمانية وولاة صيدا وعكار تلك التي ميزت الأمير بشير.

٣١ ـ دراسة حملة نابليون وموقف السكان منها ثم موقف الأمير بشير الالتزامي بالسلطنة.

٣٢ ـ دراسة أوضاع الولايات الساحلية والبقاعية المزامنة لعهد الأمير بشير.

٣٣ ـ دراسة حملة محمد علي ضد والي عكا... ومستجدات تلك الحملة من انضمام الأمير بشير إليها بعد تعيين إبراهيم باشا قائد الحملة والياً على صيدا من قبل الباب العالي والأمير آنئذ يتبع والي صيدا.

٣٤ ـ دراسة مواقف مدن الساحل من حملة محمد علي وبصورة خاصة طرابلس عندما أعاد إبراهيم باشا مصطفى بربر آغا عليها والتصادم الذي جرى بين إبراهيم باشا والسلطنة على حدود طرابلس.

٣٥ ـ دراسة المواقف الشعبية الإسلامية ضد إبراهيم باشا والأمير بشير وموقف الموارنة من ذلك...

٣٦ ـ دراسة (العاميات الشعبية) وارتباط الموارنة بإبراهيم باشا والأمير بشير وقتالهم ضد الموارنة . . .

٣٧ ـ دراسة انضمام الموارنة إلى مجموع السكان في حربهم ضد الأمير وإبراهيم باشا .

٣٨ ـ دراسة الموقف الدولي والتدخل الأجنبي وموقف البطريركية . . .

٣٩ ـ دراسة نهاية الحكم المصري والشهابي ودراسة آثار الحملة المصرية على الصعد الدولية والعثمانية والمحلية .

٤٠ ـ دراسة مستجدات مجتمع الجبل في عهد الأمير بشير الثالث وبداية الانقسام الخطير بين الدروز والموارنة مما أدى إلى المجازر المعروفة ودراسة أطر ومجالات التدخل الأوروبي ومواقف السلطنة العثمانية آنئذ .

٤١ ـ دراسة مستجدات أحداث الجبل على الساحل والبقاع وعلى تاريخ هذه المناطق بعد الحكم العثماني . . .

٤٢ ـ دراسة المستجدات الدولية والنزاع الدولي العام وأثرها في أحداث المنطقة وما أدت إليه من فتن ١٨٤١ و ١٨٦٠ . . .

٤٣ ـ . . . . إلخ . . .

ولا أدعي في هذه الأطر والنقاط التكامل إذ أنها تحتاج إلى مزيد من التمحيص والتأطير والتعادل بين أحداث الجبل وأحداث الساحل والبقاع وترابطها مع أحداث المنطقة عموماً . . .

* * *

وبحثنا هذا الذي بين يديك ـ قراءة في تاريخ لبنان ـ تعتمد على مناقشة الحدث ووضعه في إطاره التاريخي وتهدف إلى كشف مخاطر التنظير الماروني وأبعاده ومحاولات المؤرخين في تحريف التاريخ والنيل من التاريخ الإسلامي وتشويهه، كما تهدف إلى إعادة الأمور وضبطها في نصابها السوي مع ما يستتبع ذلك من فهم للوقائع وتعليل للأحداث.

وقراءتنا هذه، وإن اجتزأت تاريخ لبنان فلم تهتم كثيراً بتاريخ المسلمين فيه خلافاً لما يتوقعه القارىء لأول وهلة بل تابعت الموارنة وتعقبت المارونية بما لها من تأثير رهيب على تاريخ القرون الخالية وبما أنتجت من خلفيات تاريخية تتنافى مع التاريخ الصحيح كما تختلف مع معطيات سائر السكان وخلفياتهم مما جعل مناقشة التنظير الماروني والرد عليه أولى ضرورات القراءة التاريخية وموجباتها، فضلاً عن أن هذه الحلقة بالذات هي الحلقة الأهم التي لعبت دوراً خطيراً في تفجير التناقضات اللبنانية وما يستتبعها من حروب ومجازر وما يمكن أن يترتب عليها من تدمير لبنان الكبير الواحد الموحد وتجزئته ضمن معادلات جديدة ترسم بها خرائط بديلة لدويلات الشرق الأوسط المنكوب!!

ومن الواجب في هذه المرحلة الحساسة من تاريخ هذا البلد أن نستجمع معطيات الفريق الماروني ـ مع ما يظهر في صفه من اختلافات الزعامة وتفاهم النفوذ ـ فهؤلاء ـ في أغلبهم ـ قد رسموا لأنفسهم مخططات لا تختلف بوسائلها وبأهدافها عن مخططات الصهيونية بل أن الفريق الأقوى فيهم ونعني حزب الكتائب يتبع النهج الصهيوني في فلسطين ويزيد عليه بمقولات وممارسات ضمن مستجدات الأوضاع واختلاف البيئة . . .

أما المسلمون في لبنان فهم على تناقضاتهم الفكرية والحزبية وبعضها يتعارض أصلاً مع الإسلام إلا أنهم في أكثريتهم الساحقة ينطلقون من خلفيات تاريخية واحدة . . . تلك هي خلفية المسلمين في دنيا العرب والإسلام ويكاد الباحث لا يميز بين المسلم اللبناني من حيث التطلعات الروحية والوطنية والعطاء والنظرة الواحدة للقضايا المصيرية إضافة إلى أن الخلفية التاريخية الإسلامية في المناطق اللبنانية هي خلفية السلطة الإسلامية التي كانت وحدها الشرعية في البلاد . . .

وما لا ريب فيه أن الخلفية الإسلامية هذه كان لها الأثر الفعال في توجيه الأحداث بدءاً بعهد الاحتلال والانتداب الفرنسي وانتهاء بالحرب اللبنانية ١٩٧٥ ـ ١٩٧٦ وستكون لها أيضاً آثار حاسمة في توجهات

المستقبل... من أجل هذا وجدتُ، كمقدمةٍ أولى، ضـرورة تتبع التنـظير الماروني وكشفـه باعتبار أن التحريف اللاحق به عبر الأجيال ـ يتحمل تبعات الصراع الحالي ـ إذ وفّر البيئة التي نشأت فيها احتمالات التقاتل وإمكانات التصادم ورغبات الاستعلاء والقهر... كما أن دراسة التحول الماروني عن التطلعات المشرقية ورغبته بالانعـزال عن مجموع الأمـة وشعوره بـوجوب الاعتزال إن لم يتمكن من السيطرة والاستبدال والفوقية إن دراسة هذه الأطر المهمة وتتبع ماضيها وربطها بالأحداث اللبنانية في القرن العشرين تؤدي إلى فهم واعٍ لما يجري بعيداً عن التخمين والاستنتاج... إننا لن نتمكن من فهم الموارنة والمارونية ما لم نقرأ تاريخهم بصورة جديّة وما لم ننصفهم بمحاكمة الأحداث محاكمة عادلة...

وعلى هذا جعلنا محور هذه الدراسة الأطر المحكي عنها... على أن تتبعها ـ بعون الله ـ قراءات أخرى يمكننا بها استكمال الرؤية في تاريخ المناطق اللبنانية المختلفة...

إن توضيح الصورة التاريخية حتم علينا تعقبات ومتابعات كشفت إلى حد بعيد جوانب من الحياة الإسلامية للمناطق اللبنانية وللمناطق الأخرى ضمن الدولة الإسلامية وتاريخها... الأمر الذي حقق لقراءتنا هذه قسطاً مهماً من تاريخ الجانب الإسلامي...

* * *

ولقد توقفنا في هذه القراءة، لأسباب وظروف مختلفة، عند أحداث الأربعينات من القرن التاسع عشر حيث تفجرت الحرب اللبنانية على أن تكون هذه بذاتها إن شاء الله إلى السبعينات من القرن العشرين حين تفجرت الحرب اللبنانية فتكون بذاتها موضوعاً مستقلاً لنطرح بعدها في كتاب آخر احتمالات ما بعد الحرب اللبنانية ولبنان إلى أين إن لم يسبقنا الحسم بفرض حـل أو أكثر ضمن ظـروف اللعبة العـالمية التي رافقت الحـرب الأهليـة الرهيبة...

* * *

من جهة أخرى فإن القراءة هذه أولت الجانب الدولي أهميته إذ أننا بدون فهم الأحداث الدولية التي ترافق الحدث التاريخي لا يمكننا فهم الحدث بذاته... ويظهر ذلك أكثر ما يظهر عندما طرحت المسألة الشرقية وعندما راحت الدول الأوروبية تخطط فرادي ومجتمعة لتقاسم النفوذ ولضرب قوة الإسلام السياسية المتمثلة آنئذ بالسلطنة العثمانية...

ومن أجل هذا أيضاً وجدنا من المفيد ختم قراءتنا هذه بفصلٍ هو بذاته ممهد للقراءة الثانية (أحداث الأربعينات من القرن التاسع وما بعدها) فكان هذا الفصل الختامي بعنوان «الدولة العثمانية في ظل لعبة الأمم حتى سنة ١٨٤٠» إذ بدراسة هذه اللعبة القذرة يتبين بوضوح أكبر أحداث الفتن وما تبعتها من تحولات...

* * *

وبكلمات موجزة أقول أنني لم أكتب تاريخاً إنما حاولت أن أقرأ من منظور أردته متحرراً من هيمنة التنظير الماروني...

وأنني أخيراً أدعو أن ينبري مؤرخون يأخذون بجدية هذه القراءات فينطلقون في عملية تأريخ شاملة سواء فشلت الفاشستية المارونية، ضمن ما رسم للمنطقة من مشاريع، في تحقيق أهدافها أم نجحت في ذلك، لا سمح الله...

* * *

القسم الأول

قِراءَة في تاريخ الموارنة و «لبنان»
منذ نشأَة المارونية الأولى والفتح الإِسلامي
حتّى الفتح العثماني

قراءة في المارونية الأولى

- من هو الراهب الناسك «مارو»؟
- الصراع النصراني العنيف حول «هوية» السيد المسيح عليه السلام.
- «مارون» لم يضع أُسُساً لمذهب نصراني.
- أباطرة الروم والحلول السياسية حول طبيعة السيد المسيح.
- «الموارنة» بين الإيمان بالمشيئة الواحدة والتحول إلى الكثلكة.
- الصراع مع «اليعاقبة» والإحتكام إلى معاوية.
- متى نشأت «التجمعية الشعبية» لدى رهبان دير مارون؟
- التحريف صفة بارزة في صياغة التاريخ لدى المؤرخين الموارنة.

الناسك الراهب مارو:

أصل كلمة «مارون» سرياني وهي تصغير لكلمة «مارو» ومعناها السيد أو المولى والتصغير هنا للتحبب كما يقول فيليب حتي (١) غير أن الكلمة ارتبطت في مطلع القرن الخامس الميلادي بذاك الراهب - الذي لا يُعرف اسمه - والذي عاش في منطقة سورية الشمالية أو في أنطاكية ثم غلب عليه النسك والزهد متأثراً بالقديس يعقوب النصيبيني (الذي مارس الحياة في العراء بصورة جزئية إذ كان يقيم في داخل مغارة شتاءً وفي العراء التام صيفاً. . .) (٢) ثم نجد أن الناسك السيد (مارو) زاد على القديس يعقوب في تنسكه بدافع من ميل صوفي روحاني مرَكّز حول فكرة الانقطاع الكلي عن العالم، فأقام في العراء صيفاً وشتاء ليلاً ونهاراً.

ويبدو أن هذا الناسك - الذي لم يعرف اسمه كما قلنا - اشتهر على أنه ناسك متعبد. . . ولم يُعرف عنه أنه وضع أسساً لمذهب يختلف عن عقائد النصارى في ذلك الزمن، حين كان الخلاف على أشده، خاصةً فيما يتعلق بطبيعة السيد المسيح هل هي بشرية بمشيئة إلهية أم هي طبيعتان إلهية وبشرية. يقول الأب ضو في تاريخ الموارنة (فقد شارك هذا الراهب في الصراع بين الوثنية والمسيحية وكان من أبطاله البارزين إذ صعد إلى الجبل المدعو اليوم جبل سمعان. . . وكان لا يزال معظم أهالي الجبل وثنيين. . . وهناك جاهد وكافح في سبيل نشر الإنجيل والمسيحية) (٣).

الصراع حول هوية السيد المسيح عليه السلام:

ويروي الأب ضو في كتابه تاريخ الموارنة في الصفحات ٢٢ وما بعدها تفصيلات الخلاف اللاهوتي الحاد حول طبيعة المسيح ذلك الخلاف الذي يبدأ كما يقول مع ظهور (البدعة الأريوسية) نسبة إلى أريوس المولود في ليسيا وأحد كهنة الإسكندرية في مصر حيث قال (أن الآب وحده يستحق أن يُدعى الله وأما الابن فأنه مخلوق من العدم بإرادة الآب ولم يكن سوى إله ثانوي دون الآب رتبة ولكنه فوق سائر المخلوقات لأنه صورة عن الله الآب في جوهره ومجده وإرادته والأقانيم الثلاثة هم واحد باتفاق المشيئة فقط لا بالجوهر (٤).

وقد سبق أريوس هذا بطريرك أنطاكية بولس السمساطي الذي قال (إن المسيح مخلوق صالح حمل في ذاته روح الله فأصبح ابن الله بالتبني فقط لا بالطبيعة والجوهر فهو من ثم ليس بإله وناصرت زينب ملكة تدمر إذ ذاك بولس) (٤) المذكور فجاء أريوس ليطور أفكار بولس ولينفي عن المسيح ـ عليه السلام ـ صفة الألوهية المطلقة...

واصطدم هذا التحليل بآراء لاهوتيين آخرين كانوا يقولون بأن للمسيح طبيعتين إلهية وناسوتية مما حدا بالملك قسطنطين الكبير إلى عقد مجمع للكهنة في مدينة نيقية سنة ٣٢٥ حيث تم وضع الدستور الذي أصبح يعرف بالدستور النيقاوي (محدداً مساواة الابن للآب بالجوهر وولادته الأزلية منه مشدداً على أن الابن إله من إله مولود غير مخلوق له وللآب جوهر واحد... وبعد انفراط عقد المجمع النيقاوي عاد بعض زعماء الأريويسية إلى إثارة الجدل حول علاقة الابن بالأب)[٤] وتمكن زعماء الأريوسية من التأثير على قسطنطين الذي عاد فدعمهم خلافاً لآراء المجمع النيقاوي مضطهداً القائلين بالطبيعتين وبدأ الانقسام في الكنيسة إذ أيد الكرسي الرسولي الروماني القائلين بالدستور النيقاوي بينما تقلب على عرش الروم ملوك ترددوا بين اللاهوتين.

وقد عُقِدَ أكثر من ثلاثة عشر مجمعاً بين سنة ٣٢٥ و٣٨١ للبحث بمسألة طبيعة السيد المسيح إلى أن انقسم الأريوسيون (إلى فئتين فئة معتدلة ـ كذا ـ تقول بتشابه الابن مع الآب بالجوهر وفئة متطرفة تقول باختلاف الابن

عن الآب في الجوهر) فعقد الإمبراطور نوا دوسيوس اتفاقاً مع الحبر الروماني على عقد المجمع الروماني الثاني في القسطنطينية سنة ٣٨١ فأكد هذا المجمع الدستور النيقاوي. غير أن الدعوة الأريوسية وإن انقسمت إلا أنها لم تنقرض وظلت تظهر من وقت لآخر وتحاول السيطرة على الكنيسة إلى أن انعقد المجتمع الخلقيدوني سنة ٤٥١ حيث ظهر الانقسام المسيحي مجدداً بمجموعة نادت بالطبيعتين للسيد المسيح فحملت اسم المجمع وبمجموعة أخرى قالت بالطبيعة الواحدة وهي الطبيعة الإلهية (وقد وقفت أكثرية البلاد الشرقية ـ سوريا ـ وفلسطين ولبنان ومصر ـ مع دعاة الطبيعة الواحدة... وحارب الامبراطور البيزنطي يوستنيانوس الدعوة مجدداً بعد مجمع القسطنطينية سنة ٥٣٦ وشتت شمل دعاتها ولكن زوجة الامبراطور المذكور تيودورا شجعت سراً الأسقف يعقوب البرادعي في سوريا على جمع شتات القائلين بالطبيعة الواحدة سنة ٥٤٣ م فعادت هذه الدعوة إلى الظهور وعرف أتباعها باليعاقبة) (٥).

وإن لم نكن هنا في موضوع نقاش حول الجدل التاريخي على طبيعة السيد المسيح عليه السلام إلا أننا وقد أثبتناه لا بد من الإشارة إلى الموقف الإسلامي الذي خالف النصارى فيما اعتقدوه فالمسيح عيسى عليه السلام لم يكن إلا من روح الله عبداً له ورسولاً كسائر الرسل، ونذكر هنا أيضاً أن النجاشي ملك الحبشة النصراني وكان على زمن بعثة محمد ﷺ كان يعتقد بمضمون وصف القرآن للسيد المسيح... مما يؤكد أن مسألة النزاع حول طبيعة المسيح لم تحسم عند النصارى ولا تزال حتى الآن تثير جدلاً لاهوتياً ارتدى الحلل الفلسفية والكلامية. ونجد فيما أسموه (البدعة الأريوسية) وفي كلام بولس السمساطي الذي نفى الألوهية عن المسيح وفي كلام الكاهن أريوس بأن (الأب وحده يستحق أن يدعى الله) وفي إيمان النجاشي في السيد المسيح أكثر من مغزى ودلالة في هذا الصدد... وهي مؤشرات واضحة وجدية في مسار التصور النصراني للسيد المسيح عليه السلام في أزمنته الأولى.

* * *

إيمان «المارونية الأولى» بالسيد المسيح!!

قلنا أن السيد الناسك المتعبد الذي سكن جبل سمعان ـ في فترة من فترات حياته ولعلها في آخرها ـ أثّر في مجموعات وثنية سكنت الجبال وشايعته في طريقته النسكية كما أن عدداً من رهبان الكنيسة السورية أعجبوا بالسيد مارو أو مارون كما أعجب آخرون بالراهب سمعان العمودي الذي رأى أن يزيد على تنسك السيد مارو فيقيم بصورة دائمة على عمود زاد في ارتفاعه شيئاً فشيئاً وذلك ليقترب من السماء ـ على حد زعمه ـ وعرف أتباعه بالعموديين (٦) . . .

وحاول مؤرخو الموارنة أن يجعلوا القديس مارون أبرز معارضي (البدعة الأريوسية) كما فعل الأب ضو وردد كلامه السيد محمد علي مكي (وكان مار مارون من أشد المحاربين للأريوسية) (٧) إذ أن السيد الناسك (مارو) وأتباعه كانوا من القائلين بالمشيئة الواحدة، وعلى هذا وجب أن يجعلوه محوراً في الصراع مع أنه كان في الجبال يهدي الوثنيين. . . وقد بقي الموارنة على هذا الإيمان بالمشيئة الواحدة حتى أيام الصليبيين بالتحديد إلى سنة ١١٨٠ حين بدأوا بالتخلي عن (هرطقتهم) هذه وعادوا إلى حظيرة الكنيسة الكاثوليكية. (٨) كما يقول وليم الصوري أحد مؤرخي الحملات الصليبية.

وقد ذكر وليم الصوري أيضاً مسألة إيمان مارون بقوله: (إن بدعة مارون وأتباعه الآن وفيما مضى من الزمن تقوم على المعتقد القائل بأن في سيدنا يسوع المسيح منذ البدء مشيئة واحدة وقوة واحدة) (٨).

ولا شك أن كلام الصوري الذي عاش بداية التحول الماروني إلى الكثلكة أيام الصليبيين أصدق وأفعل من كلام مؤرخي الموارنة المتأخرين عنه بدءاً بالدويهي (توفي سنة ١٧٠٤) وابن فرون توفي سنة ١٧١١ وانتهاء بالأب ضو فهؤلاء (حاولوا دوماً رد هذه التهم وأصروا إصراراً شديداً على أن الموارنة كانوا أبداً من المستقيمي الرأي) (٨) ويقصدون أنهم منذ البدء مع القديس مارون كانوا يؤمنون بطبيعتين للسيد المسيح عليه السلام وفقاً للإيمان الكاثوليكي ومما يؤكد حجتنا بأن التحول إلى الكثلكة بعد عام ١١٨٠ م قد

شهد ردات إلى مذهب الطبيعة والمشيئة الواحدة فقد كان البطريرك لوقا النبهراني (١٢٨٣ ـ ١٢٩٠) يؤمن بأن (المسيح لم تكن فيه نفس بشرية بل ناب عليها اللاهوت) (٩) كما أن عدداً لا يستهان به من الموارنة قد أظهروا ميلاً واضحاً نحو المذهب اليعقوبي فتدبر أمرهم بابقائهم في الحظيرة ـ أي الكنيسة البابوية ـ جبرائيل ابن القلاعي، وذلك في القرن الخامس عشر إذ أنّ القلاعي كان من أوائل تلامذة المدرسة المارونية التي افتتحت في روما. . .

ومما يدعم حجتنا في أن الموارنة كانوا من المؤمنين بالمشيئة الواحدة لا بالإيمان النيقاوي القائل بطبيعتين متكاملتين مستقلتين للسيد المسيح، إن المسعودي المؤرخ والرحالة العربي البغدادي والذي كتب تاريخه حوالي ٩٥٠ م يقول ـ وفق ما ذكره فيليب حتي ـ إن معظم أتباع هذه الطائفة ـ يعني الموارنة ـ يعيشون في لبنان وفي نواحي حمص وحماه ومعرة النعمان ويضيف أنهم «كانوا من أصحاب المشيئة الواحدة».

دير مارون بين هرقل واليعاقبة:

وينقل فيليب حتي أيضاً عن بطريرك الإسكندرية سعيد بن البطريق المعروف بـ«بوتيخيوس المتوفي سنة ٩٤٠» أي في زمن تاريخ المسعودي قوله عن الموارنة (إنهم من أصحاب المشيئة الواحدة ويجعل الامبراطور هرقل مارونياً) (١٠) وذلك باعتبار أن هرقل حاول في الثلث الأول من القرن السابع أن يوفق (بين عقيدة أصحاب الطبيعة الواحدة الذين كانوا يشكلون الأكثرية من رعاياه النصارى في سورية وبين أصحاب العقيدة الأرثوذكسية الرسمية للكنيسة البيزنطية) فقال مع بطريركه بالمشيئة الواحدة للمسيح (وقد كانت هذه المحاولة الأخيرة التي قام بها الامبراطور ليسدّ الثغرة التي أوشكت أن تفصل بين الكنيسة السورية والكنيسة البيزنطية ولكن هذه المحاولة شأن كل محاولة للتوفيق لم تفلح في إرضاء أي من الطرفين.) (١٠) وقد عطف هرقل على الموارنة، وعطفُهُ معروفٌ تاريخياً، فقد ذكر ابن البطريق الإسكندري في تاريخه المجموع على التحقيق والتصديق (إن من بين أباطرة الروم الذين عطفوا على الدير = أي دير مار مارون = وشمله بالرعاية هرقل الذي زاره

عام ٦٢٨ بعد انتصاره عى الفرس. وقد كان هرقل المدافع عن أصحاب الطبيعة الواحدة وهي عقيدة لم تكن الكنيسة تراها عقيدة أرثوذكسية) (١٠) ونشير هنا إلى أن كنيسة أنطاكية في زمن مار مارون وهي المسماة عند فيليب حتى بالأرثوذكسية كانت تعتقد بالدستور النيقاوي على أثر مجمع عام ٣٨١ وهو الدستور القائل بالطبيعتين للمسيح مما يؤكد أن القديس مارون ومن ثم أتباعه، كانوا كما ذكرنا وإلى سنة ١١٨٠ كما يقول وليم الصوري، من أتباع المشيئة الواحدة. ونشير هنا إلى حدث تاريخي بالغ الدلالة وهو هدم دير مارون وقتل نفر من رهبانه ونزوح الآخرين سنة ٥١٧ ونثبت أولاً ما قاله حتي من أنه (لا يعلم على وجه التدقيق السبب الذي كان من أجله نزح تلامذة مارون ومريدوه) غير أننا هنا نتساءل: هل لهذا النزوح ارتباط بالمسألة الاعتقادية بالسيد المسيح؟ وهو أمر خليق بالمؤرخ أن يتثبته إذ أن القديس مارون العابد الناسك لم يكن كما أحب أن يتصوره المؤرخون فيما بعد صاحب مذهب ومؤسس فرقة نصرانية أو ما درجوا على تسميته بشفيع الطائفة المارونية. . . !!

حتى أن الدير الذي يحمل اسمه في أفاميا على العاصي عند قلعة المضيق قرب حمص قد بناه ـ على ما يقول «الأب لا منسى» في تسريح الأبصار في ما يحتوي لبنان من الآثار ـ تلامذةُ مرقيان لا مارون ويقول: (محتمل أن تلاميذ مارقيان وأصلهم من قورش دعوا أحد الأديرة التي شيدوها في بلاد أفاميا باسم القديس مارون لإكرامه. . . ومارقيان الإلهي هو الذي أنشأ كل أديرة بلاد أفاميا فلا يمكن إذاً أن ننسب إنشاء أحد هذه الأديرة لتلامذة مار مارون) (١١).

ومن الطريف هنا أن الأب ضو الذي أورد نص «لا منسى» حاول أن يرد عليه فوجد الحجة بقوله (إن مرقيان مؤسس الرهبانية في نواحي أفاميا هو من قورش أفلا يجوز اعتبار مرقيانوس ذاته من مدرسة مار مارون؟) (١١) ومرقيانوس هو الامبراطور البيزنطي الذي حكم بين ٤٥٠ و٤٥٧ م. . . وقد حاول أن ينهي الصراع الديني حول طبيعة المسيح إلا أنه لم ينجح مع أن

قرارات مجمع خلقدونية قد صدرت وقالت بطبيعتين كاملتين مستقلة الواحدة عن الأخرى فالمسيح، بعرفها، إلهاً كاملاً ـ تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً ـ وإنساناً كاملاً. . . فأراد الأب ضو أن يجعل من الامبراطور هذا تلميذاً للسيد مارو الذي كان يؤمن مع تلامذته حتى ١١٨٠ بالمشيئة الواحدة للسيد المسيح؟. . .

ولا ريب أن قداسة مارو الراهب الناسك قد أوجدت ـ على ما يبدو ـ نفراً من المعجبين به قاموا على أساس الرهبنة والانقطاع عن الدنيا. . . وعلى هذا كان التلاميذ المنسوبون إليه من الرهبان. . . إلا أن شأنهم في تجمعهم كشأن أي تجمع بشري يأخذ في التبلور مع مرور الأيام ومر السنين وقد ظهر ذلك فعلاً عقب إنشاء الدير الذي حمل اسم القديس الأول السيد (مارون) وباعتبار أن الصراع حول طبيعة المسيح كان الطابع المميز لتلك العصور فقد انقسم أصحاب المذهب الواحد إلى مذاهب شتى. . . نتيجة ظروف الجدل اللاهوتي ولتدخل المراجع النافذةفي الدولة البيزنطية أو الحكام المحليين في الولايات التابعة لها. . . وهكذا فمن بشرية المسيح إلى مذهب الأريوسيين إلى المذاهب المختلفة كالطبيعة الواحدة والطبيعتين إلى الطبيعتين المستقلتين الواحدة عن الأخرى إلى الاتحاد بينهما إلى الطبيعتين مع مشيئة واحدة إلى سوى ذلك من محاولات يبذلها الأباطرة ـ بصورة خاصة ـ مع بطاركة الكنائس الأساسية ضمن توجهات سياسية لاحتواء النزاعات الدينية المتحكمة في طول الامبراطورية وعرضها. . .

وبعد أن تمحور رهبان دير مار مارون وشعروا باستقلاليتهم أرادوا التمايز عن مذهب اليعاقبة الذي هو ـ كما رأينا ـ (فرع من أصحاب الطبيعة الواحدة) (١٢) غير أن تمايزهم الشكلي هذا لم يخرجهم عن الإيمان بالطبيعة الواحدة إذ استمروا فيه إلى بدايات التحول في سنة ١١٨٠ ويبدو أنه بسبب هذا التمايز كانوا محط اهتمام بعض الأباطرة أو محل غضبهم وفق أهواء الأباطرة في الإيمان إذ أن الامبراطور تيودوسيوس (٤٠٨ ـ ٤٥٠) قرر وفق آراء بطريرك القسطنطينية نسطوريوس الذي (قرر أن للمسيح طبيعة بشرية مكتملة

وأن العذراء هي والدة المسيح لأنها لم تلد إلهاً بل إنساناً وطالب الامبراطور ـ الذي آمن إيمانه ـ بتطهير الأرض من المهرطقين (أي الذين يخالفون مذهبه هذا. . .) (١٣) ثم عقد الامبراطور مارقيان بعد توليه الحكم سنة ٤٥١ مجمع خلقدونية الذي قرر ـ خلافاً لآراء نسطوريوس الطبيعتين للمسيح بالاستقلال ثم جاء الامبراطورزينون (٤٧٤ ـ ٤٩١) الذي حاول التوفيق بين المذهب الرسمي الخلقيدوني والمذهب المونوفيزي (الطبيعة الواحدة) بما أصدره من قانون اشتهر باسم قانون الاتحاد ثم جاء أنستاسيوس الأول (٤٩١ـ٥١٨) الذي كان يؤمن بالمونوفيزيتية ويظهر تمسكه بالأرثوذكسية على مذهب الاتحاد. . . وفي عهد أنستاسيوس هذا اشتدت الصراعات الداخلية والمجازر ومنها ما ارتكبه اليعاقبة بحق رهبان دير مار مارون إذ قتلوا ثلاثمائة وخمسين راهباً من رهبان الدير في سنة ٥١٧ وكان اليعاقبة يتوطنون وادي العاصي) (١٤) في منطقة الدير وذلك، على ما يبدو، وفي محاولة للقضاء على المذهب الوليد المتفرع ـ كاليعاقبة ـ من الطبيعة الواحدة للسيد المسيح. غير أن الامبراطور جونستيان الثاني (٥٢٧ ـ ٥٦٥) والذي وضع أسساً عديدة في التشريع محاولاً إيجاد دولة واحدة وقانون واحد وكنيسة واحدة. . . عطف على جميع فروع المذهب المونوفيزتي القائلين بالطبيعة الواحدة ومنهم رهبان دير مار مارون فجدد بناء الدير الذي أصابته أضرار إثر مجزرة ٥١٧. . . غير أن عطفه على أصحاب الطبيعة الواحدة لم يمنعه من الانفتاح على بابا روما وأصحاب الطبيعتين. . . حتى جاء هرقل (٦١٠ ـ ٦٤١) فحاول بمساعدة البطريرك سرجيوس (أن يعيد إلى الكنيسة الهدوء والسكينة) فأوجد حلاً لمسألة الصراع حول (طبائع) السيد المسيح بأن قال: للمسيح طبيعتان إلهية وبشرية تتسمان بإرادة واحدة إذ ظن أن هذا قد يؤدي إلى التوفيق بين المذهب الخلقيدوني والمونوفيزتية وهذا المذهب هو المعروف بمذهب الإرادة الواحدة والمونوتلستية (١٥).

ويبدو أن عقيدة رهبان دير مارون قد تحولت مع الأيام إلى قول قريب من قول هرقل فآمن به نفر من الناس من سكان سوريا المقيمين حول العاصي وبخاصة في حمص وما حولها من قرى قريبة من الدير. . . مما حمل هرقل على زيارة ديرهم ـ كما قدمنا ـ عقب انتصاره على الفرس وأثناء عودته

عام ٦٢٨ خاصاً الدير بالأوقاف والأملاك حسب قول سعيد ابن البطريق. (١٦) مما دفع رهبان دير مار مارون إلى استشعار القوة لتفاهمهم مع الامبراطور المنتصر ومشايعتهم له في عقيدته الأمر الذي حملهم على إظهار الشراسة والاستيلاء على العديد من الكنائس والأديرة على ما يقول المؤرخ ابن العبري وهو من اليعاقبة ويقول (فشكت جماعتنا الأمر إلى هرقل ولكنه لم يأخذ بشكواها لذلك خلّصنا إلّه النقمة بالإسماعليين ـ يقصد بالإسماعليين المسلمين ـ من أيدي الروم ولم تَعُدْ لنا كنائسنا لأن العرب أبقوا لكل طائفة ما كان بحوزتها عند الفتح. (١٦) ولهذا السبب اتهم ابن البطريق هرقل بأنه ماروني لقوله وقولهم بالمشيئة الواحدة ولعطفه عليهم. . .

ويبدو أيضاً أن الصراع الدموي الحاد بين أنصار الطبيعة الواحدة من يعاقبة وموارنة (الذين قالوا فيما بعد مع هرقل بالمشيئة الواحدة أو الإرادة الواحدة ضمن الطبيعة الواحدة) وما رافقه من استيلاء الموارنة على بعض كنائس اليعاقبة لم يهدأ مع الفتح الإسلامي لسوريا وبلاد الشام. . . ومع أن كلا الفريقين قَبلَ سيطرة المسلمين العرب وسيادتهم على سوريا خاصة بعد أن يئس الموارنة من عودة هرقل إليها إذ ذاك تعاون المختلفون من أصحاب الطبيعة الواحدة مع المسلمين أصحاب السيادة والحكم الجدد وإن كان اليعاقبة أكثر انفتاحاً على الحكم الجديد وسروراً به لخلاصهم المحقق من ظلم الروم ومن الفوضى السائدة في البلاد آنئذ.

* * *

إحتكام الموارنة واليعاقبة إلى معاوية:

ذكر فيليب حتي (إن الموارنة واليعاقبة احتكموا عام ٦٥٩ إلى معاوية لفض النزاع العقائدي بينهم) (١٧) غير أننا نعتقد في حال صحة الإحتكام أن يكون إحتكامهما إلى معاوية إحتكاماً لفض النزاع الدموي بينهم وما نتج عنه من آثار واستيلاء على أملاك وكنائس باعتبار أن معاوية رأس الحكم ـ تؤول إليه ولاية القصاص ورد المظالم العامة لجميع القاطنين في بلاده مسلمين وغير مسلمين، ولا يمكن أن يكون ذاك الإحتكام ـ كما نوهت الرواية ـ إحتكاماً عقائدياً أذ لا يعقل أن يحكم معاوية في أية خلافات لاهوتية بين فرقتين

نصرانيتين ألا بالإسلام الذي له رأي صريح في مسألة السيد المسيح عليه السلام وهو موقف حاسم يعرفه اليعاقبة والموارنة ويناقض معتقداتهما معاً. من أجل هذا قلنا إن إحتكامهما كان في أمور تخضع لسلطان الوالي كالقصاص والأموال. ومما يدعم رأينا هذا أن العلامتين بروكس وشابو اللذين أوردا قصة الإحتكام تلك ـ على أنها حوار ـ أكدا أن معاوية قد أمر بأن يؤدي اليعاقبة عشرين ألف دينار ورسم أن يلزموا السكينة (١٨) ويُستشف من خلال رواية بروكس وشابو أن اليعاقبة قد استغلوا أجواء الحرية التي وفرها الحكم الإسلامي في بلاد الشام فاندفعوا ينتقمون ويتخاصمون مع أعدائهم الموارنة... مما حمل معاوية على التدخل لوضع حد لهذا التعدي فاحتكم الفريقان إليه فأمر اليعاقبة بلزوم السكينة وكف التعدي... ويبدو أيضاً أن اليعاقبة وقد أمروا بملازمة السكينة قد خشوا من تعديات قد يقوم بها الموارنة انتقاماً فدأب أساقفة اليعاقبة على تأدية ما حكم به معاوية من جزية سنوية تقدر بعشرين ألف دينار احتفاظاً بحمايته وحتى يأمنوا الاضطهاد من الكنيسة المارونية (١٨) كما يذكر بروكس.

* * *

غير أن مؤرخي الموارنة ـ كما بيّنا آنفاً ـ ودوا لو يؤرخون لرهبان دير مارون على أنهم منذ البدء كانوا مستقيمي الرأي بأن (في المخلص طبيعتين الناسوتية واللاهوتية كاملتين متحدتين في أقنوم واحد هو الكلمة ابن الله) وأنهم كانوا من أتباع المسيح الذين ـ دُعُوا الخلقيدونيين ـ أما خصوم المجمع فقد دُعُوا المونوفيزيين واليعاقبة. وأنهم أي (الموارنة أو رهبان الأديار المنتسبة إلى مار مارون الناسك... زعماء الشطر الخلقيدوني...) (١٩).

ويوضح الأب ضو معنى زعامة الموارنة العقائدية بقوله (وأقصد بزعامتهم العقائدية أنهم كانوا في طليعة المناضلين عن العقيدة الخلقيدونية والمدافعين عنها...) ويردف قوله هذا بقوله (وثبت الموارنة في الدفاع عن هذه العقيدة حتى عندما كان ملوك بيزنطة وبطاركتها وبطاركة أنطاكية مخالفين للعقيدة الخلقيدونية وهذا عرّض الرهبان الموارنة في كثير من الأحيان للتنكيل والاضطهاد...) (١٩).

ولا ريب أن التفكير الماروني اللاهوتي بعد أن «استقام» على الكثلكة ابتداء من ١١٨٠ وإن لم يتبعها في كثير من طقوسها حتى القرن السادس أو الثامن عشر حين انعقد في سيدة اللويزة مجامع كنيسة مارونية أقرت هذا التحول والتعديل في الطقوس والارتباط الكلي بالكنيسة الكبرى في روما ـ كما سنرى ـ أن التفكير اللاهوتي للموارنة يعتبر من لا يقول بقولته الكاثولوكية في المسيح متهرطقاً أو منحرفاً... وقد حاول أن يتهرب من ماضي رهبان دير مار مارون وإيمانهم بالمشيئة الواحدة أو ـ كما يقول وليم الصوري ـ (تخلوا عن هرطقتهم هذه ـ المشيئة الواحدة ـ وعادوا إلى حظيرة الكنيسة الكاثوليكية) ليرسم لرهبان ذلك الدير وللقديس الناسك إيماناً مختلفاً عن إيمانهم الأول في محاولة لجعل المارونية مستقيمة الرأي منذ وجودها الأول ولينطلق من هذا الرسم الجديد لمنح رهبان دير مارون زعامة عقائدية على القائلين بالطبيعتين الكاملتين المتحدتين في إقنوم مستفيدين من الاضطهاد والخصومات بينهم وبين اليعاقبة ـ الفرع الآخر من الطبيعة الواحدة ـ ليصوروا تلك الأحداث الدموية على أنها جهاد ودفاع عن العقيدة.

* * *

وهكذا لم يكتف مؤرخو الموارنة من تحويل إيمان الأوائل إلى صالح الكثلكة بل نصبّوهم زعماء لإيمان لم يقولوه وجعلوهم يبذلون الدماء رخيصة في سبيل ما لا يؤمنون به... وتلك قدرة خارقة في تحريف التاريخ أو «إعادة كتابته من جديد» وفق المصالح التي توجب إعادة الكتابة (بدوّ ـ يعني الماروني ـ كل يوم بكتب تاريخه من جديد) كما يقول الدكتور قيصر نصر والأب بولس نعمان (٢٠).

إن إعادة الكتابة بالتحريف التاريخي الذي أشرنا إليه في ـ المقدمة ـ يبدو كأنها قد غدت إحدى الخصائص التي تميز بها الفكر التاريخي للموارنة... والطريف فيها أنها تقوم على تحريف الحدث ثم إعادة صياغته ثم اعتبار الصياغة الجديدة من المسلمات ثم البناء عليها والاستنتاج منها ثم جمع تلك النتائج على طريقة الاستقراء ثم ترتيب نتائج على مقدمات مستخلصة وهكذا إلى أن تضيع

الحقيقة في ثنايا الكتابة وإعادة الصياغة وترتيب النتائج.!!

* * *

ومن إعادة قراءة نص الأب ضو يتبين أنه كسائر المؤرخين يذهب إلى أن الموارنة قبل البطريرك يوحنا مارون ـ الذي سوف نتحدث عنه فيما بعد ـ هم رهبان دير مار مارون أو الأديرة التي تفرعت عنه... أي أن «المجتمعية الشعبية» لم تكن موجودة في ذلك التاريخ المبكر ولم يكن الموارنة إلا رهباناً في دير أو أديرة... غير أن مؤرخي الموارنة وهم يستخدمون عبارة (رهبان دير مار مارون) يعودون في نفس الموضع للقول (وأثبت الموارنة في الدفاع...) للإيحاء بوجود تجمعية شعبية مختلفة عن الرهبان... تلك التي لم تظهر ولو بالعدد القليل إلا في مطلع القرن السابع لتستمر في التصاعد لتصل إلى بضعة آلاف في أواخر هذا القرن عند هجرة يوحنا مارون إلى الجبال الشمالية ـ عند طرابلس كما سنرى... إذ أن السيد مارو لم يضع أسساً لمذهب وإنما تنسك في العراء وبشر بالنصرانية بين وثنيين ثم أوجد المعجبون به ـ على الأيام ـ لأنفسهم ضوابط لم تتضح إلا مع الزمن حتى أنهم انفصلوا كلياً عن الطريقة النسكية التي اتبعها مارون الأول ولم يبق منها إلا ذكرياتها والهالة التي يحيطون بها تلك الذكريات...

القراءة الثانية في تاريخ الموارنة

من الفتح الإسلامي حتى الحروب الصليبية

١ - يوحنا مارون بطل «القومية المارونية»؟
٢ - خلفيات «هجرة» الموارنة إلى جبال لبنان الشمالية.
٣ - أيهما أسبق في لبنان الفتح الإسلامي أم استيطان الموارنة فيه؟.
٤ - المردة غير الموارنة ولا يمتون إليهم بصلة.
٥ - لماذا ينكر الموارنة أصولهم السورية والعربية ويصرون على الاندماج بالمردة المرتزقة؟
٦ - «ثورات الموارنة» لاستعادة سوريا من العرب «الغزاة»!!.
٧ - الإمام الأوزاعي وشغب المنيطرة.
٨ - منظرو الموارنة: العهد العباسي عدوان مستمر على الوطن القومي المسيحي. !!
٩ - دولة «مارونيا» تقيم علاقات مع بيزنطية وأوروبا الغربية؟.
١٠ - اختراع التاريخ وملء الفراغ عند مؤرخي المارونية ومنظريها!!
١١ - قسم التاريخ بجامعة الكسليك يبرر تحريف التاريخ ويوجب إعادة كتابته وفق مصالح الموارنة.
١٢ - تقليد الصهيونية: سوريا الكبرى الوطن القومي المسيحي مرحلته الأولى لبنان اليوم، ومرحلته الثانية من حلب إلى شمالي فلسطين.

اتفق الموارنة على القول أن المؤسس الأول للطائفة، بعد مار مارون القديس، هو البطريرك يوحنا مارون (بطل القومية المارونية وباني موطنها على جوانب وادي قاديشا وفي ظلال الأرز. . . وفي عهده برزت أولى خصائص القومية التي جعلت هذا الشعب أمّة) على حد تعبير فيليب حتى (٢١) إلا أنهم اختلفوا فيمن هو يوحنا مارون فبينما (تقول التقاليد المارونية أن يوحنا منحدر من الامبراطور كارلوس الكبير ـ شارلمان ـ وأنه ابن أفاتون بن كالومان عم كارلوس الكبير نزل على الشواطىء السورية في إحدى حملاته. . . وأنه أصبح باللاحق راهباً في دير القديس مارون الذي سيشتهر به) نجد فيليب حتى يؤكد أن يوحنا ولد (في سروم بالقرب من أنطاكية (٢٢) ودرس السريانية والإغريفية قبل أن يلتحق بدير مارون في وادي العاصي. . . وسيم أسقفاً على البترون على الساحل الشمالي من لبنان حوالي ٦٧٦) (٢٣).

وقد حمل الأسقف يوحنا داغر التنوري ـ رغم كرهه للعرب ونكرانه لحضارتهم وتهوسه بالفرنجة على حد تعبير الأستاذ فؤاد قازان ـ حمل على القائلين بالتقليد الماروني الذي يُرجع نسب يوحنا مارون إلى كارلوس الكبير ومن هؤلاء ابن القلاعي والدويهي والحاقلي بقوله (ولكن يحتمل أن يكون أحد المتهوسين بحب الإفرنج أدخل متأخراً هذه الرواية في قصة هذا القديس ـ يوحنا مارون ـ فلا ينبغي أن يكترث لها (٢٤).

* * *

وهكذا يتبين أن مسألة الاختلاف والتحريف في التاريخ الماروني قضية

متعارف عليها وما أن يختلق أحدهم رواية حتى يرددها الآخرون لتنقلب إلى حقيقة يبني عليها من يشاء ما يشاء والطريف في رواية التنوري أنها تعضد ما سبق أن أشرنا إليه من خصائص التفكير التاريخي لدى الموارنة وكيف يُخضِعون عملية التأريخ للأهواء... وهنا في رواية يوحنا مارون نجد أن عملية الإدخال جاءت متأخرة بعد أن وقع بعض المارقين بحب هستيري للأفرنج فأرادوا أن يعيدوا كتابة التاريخ من جديد وأن يربطوا الموارنة كطائفة بالأفرنج عبر ربط نسب مؤسس الطائفة الأول... فاختلقوا القصة وصدقهم الآخرون حتى أضحت بمثابة تقليد متعارف عليه؟؟؟.

* * *

القديس يوحنا مارون
وأسباب هجرته إلى جبال لبنان سنة ٦٩٤!!!

وبينما اعتبر حتي أن يوحنا مارون جاء بلاد البترون على الساحل بنفسه لأنه عُيِّن أسقفاً نجد أن المطران يوسف الدبس والسمعاني والدويهي في تاريخ الموارنة يعلنون أن البطريرك يوحنا مارون لما عرف بنية الملك - الامبراطور بوستيانوس الثاني المعروف بالأخرم في الهجوم على سوريا - وكان على خلاف معه (استدعى) ابن أخته الأمير إبراهيم فأتاه باثني عشر ألف مقاتل فنقلوا البطريرك من دير القديس مارون على العاصي إلى سمر جبيل) وكان ذلك في سنة ٦٩٤ وبالفعل - على ما تقول به الرواية - تقدم الملك الأخرم وبلغ جيشه في (أواخر الربيع إلى سوريا فوقفوا أولاً على دير القديس مارون لأنه علة الحرب وقتلوا من رهبانه خمسماية راهب وجعلوا الدير قاعاً صفصفاً وتحولوا من هناك إلى قنسرين والعواصم وخربوا هذين البلدين المهمين في ذلك العمل وفرض أصحاب المشيئة الواحدة (٢٥).

ويذهب فيليب حتي - وفق ما يقوله التقليد الماروني - إلى أن يوحنا مارون قاتل الامبراطور يوستنيان الثاني في معركة طاحنة (في أميون وهزمه شر هزيمة. ومنذ ذلك الحين أخذت تظهر في الطائفة المارونية تلك الخصائص التي جعلت منها أمة جميلة مستقلة منعزلة عن سائر الطوائف التي كانت تقطن هذه المنطقة من الأرض) (٢٦).

وتعتبر هذه الحقبة (٦٩٤) في نظر مؤرخي الموارنة من أهم الحقب التاريخية حيث تم فيها هجرة الموارنة أو تجميع معظمهم في جبال لبنان الشمالية (والوسطى) وتم الاختلاط بينهم وبين سكان الجبل - على قلتهم - الذين منهم النصارى غير الموارنة، ومنهم اللوثنيون (٢٧).

ونحن وإن وافقنا مؤرخي الموارنة على أن هجرتهم من شمالي سوريا ومن العاصي وأنطاكية إلى غربها وشمالي لبنان كان في أواخر القرن السابع الميلادي، إلا أننا نجزم بنفس تلك الروايات التي تحدثت عن معارك رهيبة جرت على العاصي عند دير مار مارون أو في أميون بكورة طرابلس في شمالي لبنان ذلك أن يوستنايوس الثاني خرج مهزوماً بعد معارك ضارية مع جيش الخليفة عبد الملك في ٦٩٢ فلا يعقل أن يقود حملة هائلة يجتاح فيها سوريا من شمالها إلى غربها بغية الوصول إلى الموارنة فيقضي عليهم ويدمر أديرتهم ويذبح رهبانهم أو ليفاصلهم في معركة في أميون - دون أن تنشب بينه وبين جيش عبد الملك معارك طاحنة فينهزم فيها عبد الملك ويحتل فيها يوستنايوس سورية بأسرها... ولو حصل ذلك فعلاً - لتحدث عنه المؤرخون المسلمون والأجانب، إذ ليس من اليسير إغفال مثل هذه الحوادث الكبيرة وما يترتب عليها من آثار خطيرة، ثم لماذا هذه المعارك ضد الموارنة وبلاد بيزنطيا مليئة بفرق تختلف مع الكنيسة وهو بعد ذلك في حرب مع عدو أخطر من الموارنة النصارى... فالمسلمون يحيطون به من كل جانب؟؟؟.

من جهة أخرى... فلا يمكن للموارنة في ذلك الزمن وعددهم قليل جداً أن يجهزوا اثني عشر ألف مقاتل يحملون البطريرك المنسحب من العاصي إلى جبال لبنان إذ أن عددهم أيام الصليبيين أي في القرن الحادي والثاني عشر لم يتجاوز الأربعين ألفاً كما أكد ذلك المؤرخ كبرييل هانوتو من الأكاديميا الفرنسية.

والأربعين ألفاً هذه يصعب أن تجند اثني عشر ألف مقاتل، مما يؤكد أن عددهم في القرن السابع لم يتجاوز - في أحسن الأحوال - العشرة آلاف نساءً ورجالاً ورهباناً... وذلك إذا اعتبرنا أن عددهم يتضاعف كل مائة سنة!!

ونرجح أن الروايات التاريخية هذه لم تكن إلا من صنع بعض المؤرخين الموارنة في سبيل تعظيم الشأن وإيجاد بداية لتاريخ درامي يبدأ بانتصار القديس مارون الساحق على إمبراطور بيزنطية أو تجنيده اثني عشر ألفاً. . . ليكون هذا القديس فيما بعد المؤسس البطل والقائد المظفر كما رأينا مع فيليب حتى آنفاً. . .

وقد قرر أحد المؤرخين الفرنسيين حقيقة انتقال وهجرة الموارنة من أنطاكية وضفاف العاصي إلى جبال لبنان هرباً من الخلافات الدينية الحادة مع بيزنطية فقال (حينئذ وفي سبيل المحافظة على وحدة وإيمان الشعب الصغير الموكول إليه قرر القديس يوحنا مارون أن يهجر سهول أنطاكية للجوء مع أنصاره إلى جبال لبنان) (٢٨).

وتؤكد هذه الرواية فضلاً عما أسلفناه من عدم صحة اجتياح يوستنايوس الثاني، لسوريا ولبنان، إن يوستنايوس هذا عقد في **٦٩١ ـ ٦٩٢** مجمعاً كنسياً عرف بمجمع تريللو أصدر فيه قرارات تمس العقيدة والكنيسة وأبطل عادات وأباح للقسيس الزواج (٢٩). ومن المحتمل أن تكون هذه القرارات أو سواها السبب الدافع ليوحنا مارون لهجرة أنطاكية واللجوء إلى مكان أمين بعيد عن تدخل الأباطرة والكنيسة البيزنطية. . فقرر اللجوء إلى جبال لبنان ليقينه بعدل الخلفاء الأمويين وعدم إكراههم له في أمر من أمور دينه. . . ولتأكده من جهة أخرى من صعوبة وصول البيزنطيين إليهم وهم في أعالي جبال لبنان دون أن يتدخل جيش الخلافة. . . وما قدمناه لا ينفي أن يكون يوحنا مارون ومريدوه قد تعرضوا لضغوط من يوستنيانوس. فقد ذكر التاريخ أنه ـ أي الامبراطور ـ طلب إلى ممثله في روما القبض على الباب سرجيوس وإرساله إلى القسطنطينية ليحاكمه بسبب رفض البابا موافقته على مقررات تروللو (٢٩).

وفضلاً عن ذلك فهناك خلفية أخرى في قرار يوحنا مارون ترك سهول أنطاكية هو يأسه الكامل من انتظار أي تطور وفي أسرة هرقل يمكنها من إعادة السيطرة المسيحية على سوريا وفلسطين. . . فقد كان رهبان الموارنة قد أعطوا العهد لهرقل المنهزم أمام جحافل المسلمين بالثبات

حيث هم حتى تتحقق الجولة الثانية ضد المسلمين. . . وذلك أن هرقل ـ كما رأينا ـ يتعاطف معهم لإيمانه بالمشيئة الواحدة والقوة الواحدة للسيد المسيح، وقد زارهم في ديرهم عندما كان حاكماً على الشام (فاقطعهم أراضي واسعة. . . فازدادوا عزة ومناعة ونفوذاً وتعاونوا معه. . . وأطل المسلمون على سوريا. . . وتراجع هرقل وأوصى الموارنة وأنصاره. . . بالتيقظ والتربص مؤكداً عودته بعد حين. . .) (. . . وأوجب عليهم البقاء في أماكنهم استعداداً لجولة ثانية في ميدان القتال)، (٣٠).

فعندما وجد الموارنة أنفسهم في عزلة متصاعدة عن الحكم البيزنطي وكنيسته بل هدفاً للتشويش عليهم وللتأثير في عقائدهم. . . ووجدوا أن سهول سوريا وسواحلها قد اتبعت الدين الجديد. . . اعتقدوا أن الجبال العالية في لبنان أضمن لسلامتهم خاصة وأنها بعيدة عن بيزنطية وقد تركها المسلمون دون أن يدخلوها لفقرها من السكان من جهة ولسيطرتهم على سواحلها وسهولها في البقاع. . .

وما أسلفناه لا يمنع أن يكون نفر من الموارنة قد سكنوا تلك الجبال العالية قبل هجرة البطريرك يوحنا مارون فاعلموه بطبيعة تلك الجبال الآمنة، كما لا يمنع أن يكون المردة الذين سكنوا تلك الجبال قبل أن ينقلهم يوستنيانوس الثاني بطلب من عبد الملك **٦٨٥** قد أخبروا بطريقة أو بأخرى رهبان الموارنة بطبيعة تلك الجبال خاصةً أن بعض المردة استوطن سوريا بعد أن هجر حياة الارتزاق الحربي، فاختار تلك الجبال يوحنا مارون. . .

* * *

انتقال عائلات مسيحية إلى جبال لبنان
كان على موجات وبعد الفتح الإسلام بخمسين سنة:

وهكذا يمكن أن نردد مع الأب لامانس اليسوعي قوله (فجاء الموارنة إلى لبنان على موجات صغيرة واستقروا. . . في أعاليه الشمالية في منطقة الجبة القريبة من وادي العاصي وفي بلاد العاقورة (بلاد جبيل) التي كانت ولا تزال قليلة السكان كثيرة الغابات) (٣١).

ويذكر فيليب حتى أن جملة من عائلات مسيحية عريقة نزحت إلى شمالي لبنان من داخل سوريا في عهد عمر بن عبد العزيز الأموي الراشد... وترجع هذه العائلات بأصولها إلى حوران ومنهم (آل الخازن) الذين يدّعون أنهم من الغساسنة وآل ملحمة الذين يدعون أنهم من عرب الجنوب وأن جدودهم أتوا إلى العاقورة (بلاد جبيل) بطريق دمشق وتقول بعض الروايات أن أشهر العائلات المارونية قدمت من بلدة صود التي لا تزال إلى يومنا هذا بلدة سكانها مسيحيون من اليعاقبة ـ صود تبعد ٣٥ ميلاً جنوب شرقي حمص ـ ومن هذه الأسر عائلة السمعاني وعواد ومسعد والشدياق وثابت والدبس... وأيضاً آل التيان وآل سركيس...) (٣٢).

وقد كشف المؤرخ عيسى إسكندر المعلوف في كتابه (دواني القطوف في تاريخ بني المعلوف وتاريخ الأسر الشرقية) وهو لا يزال مخطوطاً (إن أكثر أهل جبل لبنان إنما هم قدموا إلى هذا الجبل من سهل حوران الواقع إلى الجنوب من دمشق...) كما أن الشيخ طنوس يوسف الشدياق المدني الماروني أكد في كتابه «أخبار الأهل في جبل لبنان» إن جميع أسر الجبل يتحدرون من أصول عربية كانت مواطنها الأولى خارج الجبل... (٣٣).

وهذا يعني أن الموارنة قد بدأوا بالدخول إلى جبال لبنان العالية على فترات في مجمعات صغيرة... وإنما الهجرة الرئيسية الكبرى التي اعتبرها حتّي وسائر مؤرخي الموارنة مولد شعب هي تلك التي تمت مع القديس يوحنا مارون سنة ٦٩٤.

ومما يؤكد دخول الموارنة لبنان في شماله بعد الفتح الإسلامي بأكثر من خمسين سنة، أن (القادمين الجدد قد وجدوا أنفسهم مع بعض الشعوب الأخرى من بينها عناصر غريبة كالجراجمة) (٣٤) ذلك أن في الجبل على قلة ساكنيه (أكثر من سبعين لساناً لا يعرف كل قوم لسان الآخرين إلا بترجمان) كما ذكر الشيخ طه الولي نقلاً عن بعض المؤرخين العرب (٣٥) والجراجمة هؤلاء هم (المردة) كما يؤكد المؤرخون المسلمون والأجانب وبعض الموارنة...

* * *

المردة والموارنة والفرق بينهما:

ويعرّف فيليب حتى المردة هؤلاء بأنهم (الجنود المرتزقة عند الروم، فكانوا يشنون الغزوات على سورية وأصبحوا شوكة في خاصرة العرب الفاتحين والتاريخ لا يعرف عن أصلهم شيئاً إنما نعلم أنهم سموا جراجمة نسبة إلى مدينة الجرجمة في جبل اللكام... (٣٦) وقد أورد حتّى ذكرهم في كتابه لبنان في التاريخ قبل ذكر القديس مارون ويوحنا مارون وانتشار المارونية... مما يؤكد ما ذهبنا إليه أن الجراجمة أو المردة أسبق من الموارنة تواجداً في أعالي جبال لبنان الشمالية... وأنهم غير الموارنة ولا يمتون إليهم بصلة خلافاً للشائعة المغلوطة المتداولة بين مختلف الأوساط ـ وحتى الموارنة أنفسهم ـ من (أن المردة هم الموارنة والموارنة هم المردة) (٣٧) وينفي الدكتور عادل إسماعيل في كتابه (تاريخ لبنان) بالفرنسية هذا الإدعاء بشدة ويقول أنه لا يمت إلى الحقيقة بصلة... كما أن المؤرخ أسد رستم يماشي الدكتور إسماعيل في قوله (إن المردة غرباء عن لبنان) ويعتمد رستم على شروحات المؤرخ البلاذري فيقول:

(كان معاوية ومن حوله يعلمون علم اليقين أن رغبة الروم في العودة إلى القتال لم تنته وقد اغتنم قسطنطين الثالث فرصة انشغال معاوية بالمشاكل الداخلية فدسَّ إلى جبال العلويين فلبنان (؟؟؟) بضعة آلاف من المردة يغيرون منها على الحواضر والأرياف فيهددون سيادة المسلمين في الشام ويعيثون في البلاد فساداً).

وكان معاوية في سنة ٦٧٨ قد صالح قسطنطين هذا على مال يؤديه له كل سنة شرط أن يقطع قسطنطين الإعانة عن المردة (٣٨) (وعليه انسحبت جموع الجراجمة من لبنان ولكن في عام ٦٨٩ أثناء خلافة عبد الملك عاد الجراجمة فاجتاحوا لبنان وتحصنوا في مرتفعاته الشمالية (٣٩) فطلب عبد الملك تجديد المعاهدة مع البيزنطيين فـ(اقتدى في صلحة بمعاوية) على حد تعبير البلاذري وكان من أهم شروط عبد الملك أن يسحب الامبراطور يوستنيان الثاني المردة من جبال لبنان الشمالية إلى داخل الامبراطورية البيزنطية فوافق

الامبـراطـور عــلى أن يلزم المـردة بـالنـزول في الأقـاليم الـداخليـة بالامبراطورية) (٤٠).

وقد قدّر أسد رستم عدد المردة الذين انسحبوا من الجبال (باثني عشر ألفاً وهم بالتأكيد الأكثرية الساحقة) (٤١) أي من سكان الجبال...

إلا أن هؤلاء المردة ـ على ما يبدو ـ أعادوا الكرة في مهاجمة الحدود الشمالية للدولة الأموية من جبال طورس فقرر الوليد بن عبد الملك عام ٧٠٨ القضاء عليهم فجرد حملة كبيرة بقيادة أخيه مسلمة (للاستيلاء على مقرهم الجرجمة وقد فرّ بعضهم إلى بلاد الأناضول وأذن لبعضهم الآخر في التوطن في سورية ولبنان حيث رخص لهم أيضاً أن يمارسوا طقوس دينهم النصراني دون أن يؤدوا الجزية..) (٤٢).

ويبدو أن هذا الفريق الذي رغب بالإقامة في ظل الحكم الإسلامي وقد تأكد لديهم عدل المسلمين قرروا الإقلاع عن حياة الارتزاق الحربي حيث خذلهم البيزنطيون فيه... وإن تكن الدكتورة زاهية قدورة ترى أن هؤلاء الذين بقوا في الشام كانوا قسماً من مردة لبنان (وقد استغلهم العرب فيما بعد وأرسلوهم مـع الجيـوش التي أرسلوهـا لمقاتلة البيـزنـطيـين في آسيـة الصغرى (٤٣).

(إذاً فالمردة ليسوا موارنة على الإطلاق) فلو كانوا موارنة ومن لبنان لما تمكن امبراطور بيزنطية أن يقتلعهم وجذوُرهم عميقة في الأرض ولكانوا ثاروا في وجهه) (٤٤).

* * *

ونحن وإن كنا مع الأستاذ قازان بأن المردة ليسوا موارنة وإنما هم مرتزقة غير أن في تساؤل الأستاذ قازان بالشكل الذي ورد فيه يعني بطريقة أو بأخرى أن الموارنة كانوا أهل جبل لبنان ولهم جذور في الأرض... وردنا عليه ـ بما أسلفنا ـ ان الموارنة لم يكونوا عندما كان المردة وقد جاءوا بعد اقتلاعهم منه... ولا يمنع قولنا هذا أن تكون جماعة صغيرة من الموارنة قد عاشوا مع المردة... إلا أن المطران دبس في كتابه (تاريخ الموارنة المؤصل) يؤكد

أن المردة هم الموارنة حتى أنه زعم أن الاثني عشر ألفاً الـذين سحبهم يوستنيانوس الأخرم هم من شبان الموارنـة ثم لحقـت بهم نساؤهم (٤٥)...

أليس من العجب أن يتبنى مؤرخـون يحترمـون أنفسهم مثل هـذه الأوهام؟!.. إذ كيف بإمكان بيزنطي أن يسحب الشبان الموارنة من جبال لبنان ثم كيف يقبل هؤلاء (الشبان الشجعان) الإنسحاب أو التهجير الجبري إن كانت الجبال ـ كما يزعم مؤرخـو الموارنـة ـ بلادهم خـاصة أن أهلهم ونساءهم لا يزالون فيها.

أليس من الأجدر أن يعود الشبان إلى البلاد بدل أن تنسحب النساء إليهم؟... لكن الأمر لا يعدو كونه أحد المخترعات في صناعة التاريخ وتحريفه...

* * *

وباعتبار أن مؤرخي الموارنة ضمن معطيات ـ ظهر جزء منها في كلام حتي الآتي نصه وسنوضح أجزاءها الأخرى في فصول هذا الكتاب ـ قد قرروا اعتبار الموارنة شعباً ذا هوية متميزة... ومن أجل ذلك اضطروا إلى رسم أصول لهذا (الشعب) يحاولون بهـا تأكيـد مقولتهم من أن المـوارنة شعب وأمة!!...

«وهكذا اندمج الجراجمة بسكان الجبال من النصارى الذين كانت لغتهم لهجة آرامية وأوجدوا بذلك ملجأ يلوذ به الملهوف والمضطهد من سكان سورية ومن سكان الساحل اللبناني ويلوح لنا أن الجراجمة بعد اندماجهم بسكان الجبل الا صليين أصبحوا في هذه الحقبة يعرفون بالمردة ومن ذلك الحين أصبح لبنان معقلاً آمناً للأقليات وللطوائف المذهبية ولكل داعية أو خارج كان يخشى بأن الفشل ينتظره وقد أسفرت عملية الاندماج بين الجراجمة ونصارى لبنان عن قيام الطائفة المارونية...) (٤٦)

أما السيد وليد فارس فيقول: (تحول مردة سوريا إلى موارنة مع انتشار المارونية ومع قدومهم إلى جبال لبنان حيث أن اللقاءات المشتركة المصيرية التي فرضها التاريخ على الشعبين الماروني والمردة جعلت منهم شعباً واحداً فاكتسب

المردة من الموارنة الذين واكتسب الموارنة من المردة القوة العسكرية الحربية...) (٤٧).

* * *

وتفخر الأمة عادةً بالانتساب إلى أصل شريف شجاع حر كريم ذي مروءة... أما أن تصطنع جماعة لنفسها نسباً - لا لشيء إلا لتوهم تميزها - فتقبل الانتساب إلى قوم مرتزقة قتلة وقطاع طرق متمردين لا يعرف لهم أصل صحيح كما أكد بعض مؤرخي الموارنة أنفسهم ثم تجعل من تواجدهم المدسوس الطارىء بداية لميلاد المارونية ثم تجعل من هذا الاندماج بين سكان لبنان الأصليين - الذين هم قطعاً ليسوا الموارنة - وبين هذه العصابات المرتزقة ملجأ للملهوف والمضطهد... أما أنْ يجري هذا على ألسنة مؤرخين ومثقفين فهو أمر يدعو إلى الدهشة والاستغراب بل إلى الاستهجان، إذ ما أحوج هؤلاء إلى أن يتخلوا عن أصولهم الصحيحة السورية والعربية وأن يحيطوا أنفسهم بعزلة مخيفة وبخلفية تاريخية سوداء فيجدون أنفسهم بعد ذلك محرجين، بمثل هذه المصدرية البشعة والأصل المجهول المقطوع الخَرب، فيندفعون في عملية مزايدة واضحة يفسرون التاريخ على هواهم ويحرفون الوقائع والروايات ويضيفون ما يحلو لهم من حوادث تنسجم مع تطلعات دفينة أوجبوها على أنفسهم وفرضوها على فكرهم دون أدنى ضرورة أو حاجة إلى ذلك ويشتد العجب عندما نتذكر أن المردة لم يستمروا في الجبال إلا لزمن يسير سبق هجرة الموارنة الكبرى مع القديس يوحنا سنة ٦٩٤ بخمس سنوات وعلى افتراض وجود جماعة يسيرة من الموارنة في الجبال عند تواجد المردة الطارئين - فلا يجوز اعتبار الزمن اليسير (سنة أو أقل في عهد معاوية وسنة أو سنتان في عهد عبد الملك) مكاناً لتحويل العدد الكبير من المردة إلى جماعة قليلة العدد من الموارنة ثم لو كان هذا الاندماج قد حصل فعلاً هل كان بإمكان الامبراطور يوستنيان أن يجليهم عن أراضيهم الجديدة؟؟...

* * *

ولو أردنا أن نتبنى وجهة نظر الموارنة في أنفسهم وأن نذهب في

إسناد شرعيتهم على أرض لبنان وأعالي جباله إلى المردة الطارئين الغرباء الذين تحولوا عن تلك الأعالي بأمر امبرطوري... ألا يكون الموارنة قد حكموا على أنفسهم بأنهم أيضاً غرباء طارئون وأنه لا «شرعية» لهم على أرض لبنان وعلى أعاليه بالذات...؟؟ ذلك أن المردة من جرجومة في جبال اللكام أو (من جنوب بحر قزوين) أو من شماله فهم غرباء عن المنطقة بكاملها معتدون عليها وعلى شرعية الدولة الأموية... تلك الدولة التي عاش في ظلها الموارنة سواء في سوريا على العاصي أم في جبال لبنان في أعاليه وهم يتمتعون بالراحة والاطمئنان والهناء بعد أن أراحتهم من الكابوس البيزنطي ومن ضغوط الكنيسة ليمارسوا عقيدتهم بحرية مطلقة...

* * *

ومن المؤكد أن موارنة القديس يوحنا مارون لم ينسبوا أنفسهم إلى المردة كما لم يتأثروا بقليل أو كثير بنفي المردة عن جبال لبنان إلى داخل الأناضول فلو كان الموارنة يشعرون بأي صلة بهؤلاء قطاع الطرق لأمتنع القديس يوحنا مارون من الهجرة إلى حيث كان أولئك الذين شردتهم الإرادة الأموية مستخدمة التأثير البيزنطي إذ أنه بلا ريب سيخاف من تشريده وتشريد رعاياه وفي أسوأ الظروف لأثبت التاريخ احتجج القديس على «إخراج» المردة من الجبال أو سعيه لدى الخليفة الأموي بالعفو عنهم - ولم نقل الامبراطور البيزنطي باعتبار وجود العداوة المذهبية بينهما - تمهيداً لإلغاء إرادته في إخراجهم متعهداً وضامناً لحسن تصرفاتهم في المستقبل... خاصة وأن التاريخ روى أن الموارنة احتكموا إلى معاوية في خلافاتهم مع خصومهم المذهبين اليعاقبة...

وفضلاً عن ذلك فأن المردة وإن كانوا نصارى إلّا أن مؤرخي الموارنة أنفسهم لم يحسموا مسألة عقيدتهم في المسيح تلك التي كانت أساس كل خلاف بين المسيحيين. يقول حتى (وإما أنهم نصارى فأمر محقق إلا أننا لا نعلم علم اليقين إذا كانوا من القائلين بالمشيئة الواحدة أو من المونوفيسيت أي (الطبيعة الواحدة) (٤٨) وإن كنا نرى أنهم على عقيدة الكنيسة البيزنطية والامبراطور الذي كان يستخدمهم في حروبه، خاصة وأن يوستنيانوس الثاني على ما يبدو

قد أشاع في أوساطه أنه قام بسحب المردة من جبال لبنان ووقف أنشطتهم العسكرية ضد الدولة الأموية ليس بدافع المال الذي سيدفعه الخليفة إليه وإلى المردة فحسب وإنما (كيلا يخضع المسيحيون لسلطان المسلمين) (٤٩). وهذا التبرير يؤكد حقيقتين، أولهما أن المردة على مذهب الامبراطور، وثانيهما أن الامبرطورية البيزنطية تعترف بسلطان المسلمين على كامل المساحة السورية اللبنانية - المعروفة اليوم - بما في ذلك أعالي جبال لبنان حيث تم سحب المردة منها.

وأيضاً لو كان المردة المنسحبون على دين المارونية كما يجب أن يتخيل بعض مؤرخي المارونية... لكنا سمعنا أو لقالوا هم أو لتحدث المؤرخون أن الاثني عشر ألفاً من المردة الذين انسحبوا إلى الأناضول أقاموا كنيسة مارونية لهم ونشروا هذا المذهب في بقاع مختلفة... أو لأتصلوا ببطريرك الموارنة يوحنا مارون لينضووا تحت لوائه وليعودوا مجدداً إلى لبنان أو إلى أي مكان يحدده البطريرك لا حيث يريد امبراطور بيزنطيا.

* * *

ملء الفراغ واختراع التاريخ

عند بعض منظري الموارنة الجدد!!

غير أن الأب ضو في تاريخ الموارنة لا يكتم غيظه من هذا (السحب) الإجباري للمرتزقة المردة، (فالكيد الديني الذي اشتهر به الروم أعمى بصائرهم فلم يقدّروا، أو أنهم تجاهلوا العواقب الوخيمة التي سوف تنجم عن هذه النكبة التي أوقعوها في المردة بالنسبة إلى مناعة امبراطوريتهم وإلى القضية المسيحية في الشرق) (٥٠).

هذا وذاك يؤكدان بشكل حاسم براءة الموارنة من المردة وعدم وجود أي اندماج أو ترابط بينهما... وأن قصة الدمج هذه قصة مخترعة أساءت من حيث كانوا يظنون أنها تحسن إليهم فأورثتهم خلفيات لا يزالون حتى الآن أسرى لها... ودفعتهم خلال الحرب اللبنانية ١٩٧٥ - ١٩٧٦ وما بعدها إلى تضخيمها والإضافة عليها ضمن تنظيرات خطيرة وتحريفات أخطر... فقد أصدر كثير من مؤرخي المارونية ومنظريها وكتّابها أبحاثاً ومؤلفات يوهمون فيها

رعاياهم ويخوفون بها الآخرين ويحاولون من خلالها إثبات تميزهم وأنهم هم أصحاب لبنان دون سواهم(*)!!.

ومن هذه المؤلفات كتاب (التعددية في لبنان) للسيد وليد فارس الذي اخترع التاريخ اختراعاً وأقدم على أخطر عملية تزوير تاريخية فجعل من المردة - ويعني بهم الموارنة والمردة - ثورة في وجه معاوية والي الشام ثم جعل لهم دولة تصل من اللاذقية في الشمال إلى عكا في الجنوب وإلى حدود حمص وحماه ودمشق ثم اصطنع لهم بعد انسحاب المردة سنة ٦٨٩ إلى الأناضول دولة أخرى تمتد من طرابلس إلى صيدا تشمل الساحل والجبل والبقاع يجبرون الخليفة الأموي على الاعتراف بهم عبر اتفاقات ومعاهدات...

ثم يجنح بخياله إلى رسم خرائط يوهم بها نفسه أولاً بأن ما تخيله كان واقعاً وصحيحاً وبعد تذوقه حلاوة التزوير التاريخي الرهيب يدعى أنه تمكن (بهذا التزوير) من سد الفراغ في التاريخ... إذ (لم يوضح مفكر واحد كيفية انتقال الأمة اللبنانية) من هيكلية الشعب الأقلية اللاجىء في جبال لبنان والمضطهد من قبل الأكثرية العددية التي تحيط به إلى هيكلية الإمارة التي وجدت أبان العهد التركي... (٥١) حتى جاء هو فملأ الفراغ بهستيريا تاريخية إن صح الوصف والتعبير...

ويبدو أن مؤلف (التعددية الحضارية) - وهو من منشورات جامعة الكسليك - قد اعتمد في بعض وقائعه التاريخية على الأب ضو في كتابه تاريخ الموارنة الذي ضخّم أو اختلق أو حرّف أو فسّر التاريخ والأحداث. ثم جاء بعده السيد فارس لينقل عنه هذا التضخيم والتحريف وليزيد عليهما بغية تكامل البحث وملء الفراغ...

ولنستمع إليه وهو يشرح خياله التاريخي:

(وقد ترك العرب فعلاً الجبل وراءهم وأكملوا تقدمهم نحو سوريا الشمالية والأناضول ولكن ذلك لم يمنع الموارنة في لبنان حين تحالفوا مع

* - من هؤلاء الأب ضو - انظر كتابه تاريخ الموارنة الجزء الأول حتى أنه (توهم) أن المردة قد آمنوا بالمسيحية عن طريق القديس يوحنا؟؟؟.

البيزنطيين أن يثوروا ضد الحكم العربي الجديد للمنطقة حاملين لواء الثورة العامّة للشرق ضد العرب وبين سنتي ٦٤٤ و٦٥٠ (أبان خلافة عمر وعثمان) انطلقت قوات الثوار وكانت من الموارنة والمردة اللبنانيين يعاونهم فريق من الروم المحليين ضد معسكرات الجيوش العربية. وقد استرجعت الثورة اللبنانية المارونية قسماً كبيراً من السواحل اللبنانية والسورية وجزءاً من سهل البقاع وسهول شمال فلسطين فالاندفاع الذي انطلقت به الثورة تبرره نكسة المسيحية الشرقية وانكسارها بعد معركة اليرموك.

(وأمنت الأساطيل البيزنطية الدعم البحري ومدت الثوار بالمساعدات فكادت تلك الثورة أن تستعيد الشرق كله وتعيد الوجه الحضاري الفريكو-لاتيني له. لكن العدد الماروني اللبناني لم يكف لمواصلة التقدم وقاد هذه الثورة يوسف أمير جبيل وكسرى أمير كسروان وأيوب أمير بانياس والأمير إلياس. والثورة هذه هي أول انتفاضة للأمة اللبنانية المسيحية وأول معركة من الحرب اللبنانية العربية التي لا تزال تهز الشرق حتى القرن العشرين (٥٢).

وهكذا نجد أن مفكري المارونية الحديثة يحاولون أن يصنعوا بطولات وثورات من لا شيء ضاربين بعرض الحائط كل الحقائق التاريخية حتى يصلوا إلى النتيجة التي أسروا أنفسهم ضمن أسوارها الرهيبة وهي محاولتهم نفي العروبة عنهم والإيهام بأنهم أمة مستقلة رفضت العرب بدءاً وحاولت أن تستعيد سوريا جميعاً من أيدي (الغزاة العرب) وتعيدها إلى حضن المسيحية... وأنهم كانوا ولا يزالون ضد الاندماج العربي وإن كل حرب في لبنان إن هي إلا امتداد تاريخي للثورة المارونية الأولى منذ عهد عمر وعثمان رضي الله عنهما وممثلها معاوية... ثورة موهومة لا أساس لها من الصحة إلّا في الأذهان المعقدة المريضة.

ومع أن هذا خيال مريض ليس إلا... فإننا نُذَكر بما يلي:

- لم يُسْند السيد فارس كلامه إلى أي مصدر تاريخي مما يجعل كلامه غير مسؤول.
- إن الموارنة كما أثبتنا من قبل لم يدخلوا لبنان إلا في هجرتهم الكبيرة مع البطريرك يوحنا مارون سنة ٦٩٤ ميلادية أي بعد خمسين سنة من الثورة

التي قامت في خيال السيد فارس... وكان عددهم لا يتجاوز العشرة آلاف.

- إن الموارنة - كما أثبتنا من قبل لا علاقة لهم بالمردة لا من قريب ولا من بعيد، وقد انسحب المردة بأمر الامبراطور البيزنطي بعد أن أقاموا حوالي السنة.

- إن التاريخ لم يحدثنا عن هجمة بيزنطية بحرية على سواحل سوريا ولبنان في العهد المذكور... وإنما كان للبيزنطيين هجمة على ساحل مصر في محاولة لاحتلالها من جديد في عهد قسطانز الامبراطوري البيزنطي الذي وجه سنة ٦٤٥ حملة بحرية ضد مصر في أسطول تجاوز ثلاثمائة سفينة وتمكن من السيطرة على الإسكندرية غير أن عمرو بن العاص تمكن من طردهم مجدداً بعد أن أعلن بطريرك الإسكندرية بنيامين معارضته للبيزنطيين وإذعانه وخضوعه لحكم المسلمين (٥٣).

ويبدو أن السيد فارس قد تخيل أن هذه الهجمة كانت على سواحل لبنان، فنقل تلك المحاولة من مصر إلى لبنان!!!

- إن الحكم الإسلامي في الشام كلها قد ترسخت أقدامه منذ دخوله فلم يكن هناك حوادث داخلية... بل على العكس من ذلك فقد قام معاوية ببناء الأسطول البحري الإسلامي من خشب أعالي جبال لبنان (وكانت باكورة أعماله القيام بحملة ضد قبرص سنة (٦٤٩) (٥٤). وقد أجمع المؤرخون أن حكم الشام كله قد اجتمع لمعاوية بن أبي سفيان وفي زمنه رسخت أقدام المسلمين في الشام والجزيرة وتطلعوا إلى الاستيلاء على أرمينيا وآسية الصغرى (٥٥) فهل أن معاوية لم يكن يرى دولة السيد فارس «المردية المارونية» وثورتها «المشرقية المظفرة» ضد الحكم العربي التي كادت أن تستعيد الشرق كله من أيدي «الغزاة الفاتحين»؟؟.

وهل يعقل أن يُهزم الأمويون في لبنان على أيدي موارنة السيد وليد فارس و«مردته» الذين لم يتجاوز عدد رجالهم بضعة آلاف، فيدَعوهم يقيمون دولتهم ليقضّوا مضاجع الدولة الأموية بينما ظلّت هذه تتوسع وتنطلق جحافلها

برّاً وبحراً تقاوم البيزنطيين وتهزمهم في معارك شتى. . . ؟!

ويُدحض أقوالَ السيد فارس في هذا التحريف الخطير ما قاله المؤرخ الماروني بولس المعروف باسم جوبلان تعقيباً على إيراده واقعة سحب المردة من لبنان سنة ٦٨٩ أن الموارنة بالعكس، بقوا في لبنان يلازمون أوديتهم وتلالهم دون أن ينكّد الخلفاء عيشهم. ؟!! (٥٦) غير أن هذا لا يعني وجود جماعات الموارنة في لبنان قبل سنة ٦٩٤ وهو تاريخ هجرتهم الكبرى مع بطريركهم مارون. . . إذ أن قول (جوبلان) الآنف الذكر يُحمل على ما بعد هجرتهم. . . وإن قصرناه على ما قبل تلك الهجرة فأنه يعني الجماعات اليسيرة التي قد تكون وفدت قبل هذا التاريخ بقليل كما أشرنا إلى ذلك من قبل. . . وفي جميع الأحوال فإن قول (جوبلان) يثبت ما كان واقعاً بالفعل وهو أن للخلفاء المسلمين السيادة المطلقة على جبال لبنان التي هي جزء لا يتجزأ من بلاد المسلمين. . . وعلى كل فأن فيليب حتى عندما أراد أن يسجل (تأثير انتصار المسلمين) على (منطقة حوض المتوسط الشرقية) ومنها (لبنان) أكد بشكل صريح (أن الحكم الأموي بوجه عام كان حكماً يتصف بالتسامح الديني وهذا التحرر وهذا التسامح اللذان ظهرا في ذلك الوقت تعدى القضايا الاقتصادية والمادية إلى قضايا الدين والفكر، فقد كان حكم معاوية مؤسس الدولة الأموية وسلوكه في تصريف الحكم مثالاً احتذاه خلفاؤه. . .) (٥٧) حتى أن المطران يوسف الدبس قد ذكر أن الموارنة لزموا السكينة وأخلصوا في الطاعة لسلطة الخفاء الأمويين والعباسيين وتفرغوا لحراثة أراضيهم وتربية ماشيتهم آمنين متحصنين بلبنان. ويظهر أن حلم الخلفاء وصعوبة مسالك لبنان وتعذر إحراز الثروة فيه جعلت الموارنة سكانه في مأمن من السطو عليهم والمزاحمة لهم في امتلاك أراضيه وغاباته فعاشوا فيه بهذا القرن وما يليه آمنين محافظين على دينهم وشأنهم. ويظهر أن الخلفاء كانوا يولون عليهم رجالاً منهم أو ولاة مسيحين (٥٨).

يتضح من كلام الدبس وحتّي وجوبلان الحقائق التاريخية المعروفة التي لا يجادل فيها إلا متعنت يبتغي تزوير التاريخ: وهي أن الموارنة الذين وفدوا على لبنان هرباً من تعسف البيزنطيين لم يكن يهمهم إلا تأمين عيشهم والقيام بواجباتهم الدينية. . . قابلهم حكام المسلمون بمنحهم الحرية المطلقة ضمن

نطاق النظام العام. . . فلم ينكدوا عيشهم ـ على حد تعبير جوبلان ـ كما أن الموارنة (لزموا السكينة) فشملهم (حلم الخلفاء) فباتوا (آمنين) مطمئنين. . . وعليهم ولاة مسلمون أو مسيحيون يعينهم الخلفاء. . . على قول المطران دبس. فأين هي الثورات المزعومة وأين دول المردة «المتوهمة» التي أقامها كتاب (التعددية في لبنان) على الورق ثم توهم كاتبها إنها قامت حقيقة على الساحل والجبل وأنه بها قد تمكن من ملء الفراغ التاريخي الرهيب!!

ولا عجب فالسيد فارس قد حاول أن يلبس اسمه فتوهم نفسه فارساً أجبر الخلفاء الأمويين على إبرام معاهدة بعد أن انسحب المردة سنة ٦٨٩ فيقول:

(أما المعاهدة الأخيرة بين العرب واللبنانيين أو بين الخلافة الإسلامية والمسيحيين في لبنان فقد كرست السيادة للطرف الثاني ومساواته بالدولة العربية بعكس المسيحيين الذين لزموا مدنهم الواقعة تحت الحكم الإسلامي كمسيحيي الشام والعراق ومصر) (٥٩).

ولا شك أن مثل هذا التزوير ليس بحاجة إلى رد أكثر من الرد الذي أوردناه.

* * *

ويستمر السيد فارس في تزويره فيقول: (العهد الأموي إذاً شهد استقلالاً تاماً وسيادة تامة للأمة اللبنانية التي اتسعت رقعة تواجدها أكبر اتساع ولكن نهاية هذا العهد شهدت انكماشاً للوطن المسيحي إلى بلاد الشوف جنوباً وعكار شمالاً. ولكن انكماش حدود الوطن المسيحي اللبناني لم يعنِ انحصار المسيحيين فيه. فالحدود اللبنانية لم تكن انكماش حدود تواجد المسيحيين اللبنانيين والسوريين بل حدود الاستقلال السياسي والسيادة للأمة اللبنانية) (٦٠).

وأبلغ رد على هذا الهذيان التاريخي ما أورده المؤرخ الماروني فيليب حتى تعقيباً على ذكره حملة عبد الملك الخليفة الأموي لمطاردة المردة على حدود سوريا الشمالية والاستيلاء على مقرهم جرجومة (وتجدر الإشارة إلى أن

الخلافة العربية بلغت أوجهاً من الرفعة والمجد زمن عبد الملك وأولاده فقد كانت رقعتها الجغرافية تمتد من شواطىء الأطلسي في أسبانية وفرنسة إلى شمالي إفريقية فإلى غرب آسية فنهر السند وتخوم الصين وهي رقعة لم تبلغها الامبراطورية الرومانية في عهدها الذهبي) (٦١).

ومن جهة أخرى يؤكد حتّي أن أحداث المنيطرة هي «أولى الثورات» في لبنان فقد (نشبت أولى الثورات عام ٧٥٩ - ٧٦٠ في بلدة صغيرة في أعالي لبنان المنيطرة القريبة من أفقا، فقد ثار نصارى هذه القرية ضد تعسف عامل العباسيين وجوره في فرض الضرائب عليهم واستولوا على عدة قرى بالبقاع وتقدموا نحو بعلبك التي كانت مقراً لعامل العباسيين وكان زعيم هذه الثورة شاباً جبلياً يلقب نفسه بالملك وقد نصب الجنود العباسيون له كميناً وهو في طريقه إلى بعلبك فانقض عليهم الفرسان ومزقوا شملهم) (٦٢).

ويهمنا هنا من نص فيليب حتي هذا أن لا ثورة ولا من يثورون في العهد الأموي وأن فئة من الموارنة - في رأيه - قد ثارت في سنة ٧٥٩ لعوامل اقتصادية ومالية لا علاقة لها بالمسائل الدينية... وإن هذه «الثورة» قد جاءت من شاب سمى نفسه ملكاً - وهي تسمية - تدل على شخصيته التي هي أقرب إلى الاهتزاز منها إلى الفهم والإدراك تمكن بواسطة عنفه من التأثير على بعض الشبان...

وهذا يعني من جهة أخرى أن الموارنة حتى ذاك التاريخ وما بعده لم يكونوا إلا أفراداً يعيشون في مجتمع إسلامي أي أنّ المجتمعية المتميزة لم تكن متوفرة عندهم ولا هم نشدوها... غير أن مؤرخي المارونية يحاولون بشتى الأساليب لأغراض سياسية تخدم طروحاتهم في أزمنة كتابتهم لذلك التاريخ، يحاولون تضخيم بعض الأحداث الفردية أو اختلاق أحداث أخرى واعتبارها حقائق تاريخية يجري البناء عليها وتفسير بعض الظواهر الأخرى على ضوئها... فقد حاول هؤلاء وخاصة الذين عاشوا في هذا القرن ابتداء من الحرب العالمية الأولى وحتى الحرب اللبنانية ٩٧٥ - ٩٧٦ وبنسب متفاوتة إيجاد شخصية ذاتية للموارنة تصلح أساساً لاعتبارهم متميزين بخصائص ذاتية عن

سائر سكان لبنان ودنيا العرب لم يتمكن التاريخ الطويل من تحويلها بل زادها النزاع في لبنان تأصلاً. فقد دافع الموارنة عبر قرون طويلة عن كينونتهم، وهكذا كانت لهم طروحات خاصة و«مفاهيم خاصة» و«معتقدات خاصة» لا يمكنهم التنازل عنها أو الاندماج مع الآخرين على حسابها.

* * *

خلفيات أساسية تحكم كتابات مؤرخي الموارنة!!

من هذه الرؤى يمكننا أن نفهم كثيراً من العبارات والطروحات والاختلافات التي وقع فيها مؤرخو الموارنة سواء منهم من كتب قبل حرب السنتين ١٩٧٥ - ١٩٧٦ ومن كتب بعدها...

ففيليب حتي وهو من أشد مؤرخيهم قبل الحرب - والذي اعتمدنا تاريخه كأحد أبرز المراجع في هذا الفصل - نجد محاولاته المتعددة في إيجاد هذه القاعدة ومحاولاته تأكيدها في أكثر من موضع، فقد جعل المارونية مبدأ تاريخ - كما رأينا - في موقعةٍ مُتوهمة أوجدتها التقاليد المارونية (وهي أشبه بالحكايات والأساطير) في بلدة أميون القريبة من طرابلس بين البطريرك يوحنا مارون وبين الامبراطور البيزنطي يوستنيانوس الثاني سنة ٦٩٤، ومن عملية اندماج - غير حاصلة - بين المارونيين الوافدين إلى لبنان وبين المردة الذين سبقوهم إلى ترك لبنان - كما رأينا من قبل - ثم اعتبر هذا التوهم حقيقة بنى حتّي عليها تصوره عن لبنان: (ومنذ ذلك الحين أصبح لبنان معقلاً آمناً للأقليات المذهبية ولكل داعية أو خارج يحسّ بأن الفشل ينتظره) (٦٣).

وهكذا تمكن حتي من أن يحدد نسب الطائفة المارونية - بأعجوبة نادرة - فأكد أن الطائفة المارونية التي كانت عند بدئها تتألف من عناصر لبنانية مسيحية (ص ٣٠١) تنسب إلى القديس مارون - علماً أن القديس مارون عاش في انطاكية ومات هناك وقد قلده في مذهبه الذي انفصل به عن الكنيسة الرومية مجموعة تلاميذ من أنطاكية نفسها -. فكيف انتقلت هذه العناصر اللبنانية المسيحية إلى أنطاكية فشايعت القديس مارون ثم عادت بسرعة البرق إلى جبال لبنان؟!! ذلك ما لم يُجب عليه أحد حتى فيليب حتي نفسه...

وتبقى حملته الأولى ضمن التخطيطِ العام وهي الإيحاء بوجود المارونية في لبنان كتجمع لبناني مستقل منذ زمن بعيد وقبل دخول الإسلام هذه البلاد.

وهذا ما وضحناه في الصفحات السابقة...

ويقول حتي ضمن الأهداف السابقة (إذا كان مارون قديس الطائفة المارونية فأن يوحنا مارون المتوفي حوالي سنة ٧٠١ كان بطل القومية المارونية؟ وباني موطنها على جوانب وادي قاديشا وفي ظلال الأرز؟... وفي عهده برزت أولى الخصائص القومية التي جعلت من هذا الشعب أمة) ص/٣٠٣.

وتحت عنوان (جزيرة مسيحية في بحر إسلامي) قال: (لما طغت الفتوحات العربية مجتاحة سورية الداخلية والشواطىء البحرية وحل الإسلام تدريجياً محل المسيحية ظهر لبنان وكأنه جزيرة مسيحية صغيرة في بحر الإسلام..) إلى أن يقول: (وما جئنا على ذكره من انتشار الإسلام وسيطرة العربية - كلغة - لا يَصْدق على لبنان لأنه ظل قروناً - بعد أن كانت سائر المناطق قد أسلمت في دينها وتعربت في لغتها - مسيحياً في دينه وسريانياً في لغته) ص/٣١٤ - (لن نناقش هنا مسألة اللغة وسيادتها وسنرجىء ذلك إلى مكان آخر).

وعلى هذا النمط من التزوير والتحريف بنى بعض مؤرخي المارونية ما قبل حرب السنتين تاريخهم. وهناك صفة أساسية في تلك الكتابات فهي قد كانت تحريفاً خجولاً مع القرن الأول الهجري، ثم صارت أكثر جرأة مع العهد العباسي وأقل خجلاً وحياء في عهود الصليبيين والمماليك والعثمانيين، وكلما اقتربت الأيام من عهد الأمير فخر الدين والأمير بشير ومن فتن ١٨٤٠ و١٨٦٠ ومن عهد الانتداب - كما سنرى - كلما زادت طروحاتهم وتأكدت أغراضهم... فهم يصرون - دون أي حق - على أنهم وحدهم أهل هذه البلاد الشرعيون وأنهم أصحاب سيادة عليها وهم أحق بحكمها وأنهم - لذلك - لا يقبلون بعروبة هذا البلد ولا بإسلامه ويعتبرون حضارة الغرب حضارتهم وأنهم في لبنان امتدادها الطبيعي ووجهها الحقيقي وهم لا يترددون لحظة واحدة في إعلان تصوراتهم وتوضيحها كلما سمحت أوضاعهم

الاجتماعية والسياسية والاقتصادية بذلك.

غير أن مؤرخي المارونية ما بعد الحرب اللبنانية ٩٧٥ - ٩٧٦ وكتابها استفادوا من التصورات السابقة - المرتكزة في معظمها على أوهام وانحراف وتزوير - لينطلقوا منها بعملية تضخيم رهيبة لا تكتفي بسحب المؤثرات الماضية على الوقائع الجديدة بل تعود إلى الماضي لتغذيه بعشرات الصور المزيفة إكمالاً للجهد ولإيجاد مرتكزات ومستندات تمنحهم الشرعية والسيادة على هذه البلاد بعد أن أدركوا أن ما فعله السابقون منهم كان مهتز الأصول، فقير الحجة لا يكفي لتبرير انفصال المارونية عن العرب والعروبة وعن سائر البلاد العربية والإسلامية.

قسم التاريخ في جامعة الكسليك وقصة «الموراني»:

وقد أصدر قسم التاريخ في جامعة الروح القدس في الكسليك بجونية وطريق المحبة تاريخاً مصوراً باللغة العامية موجهاً للشباب والأجيال الصاعدة، فيه من الدس والتحريف والتضخيم والتهويل ما يدهش له المرء ويحار... وقد يجد الباحث في كتابة القصص عذراً للخيال ولكن أن يكون هذا الخيال مريضاً إلى حد الهستيريا فهذا لا يمكن أن يستساغ في كتابة القصص فضلاً عن كتابة التاريخ. فكيف إذا جاء هذا الخيال مبنياً على معطيات وتصورات وخلفيات مقصودة بذاتها؟؟.. فقد قدم لقصة الموراني الدكتور قيصر نصر والأب بولس نعمان. ومما يلفت النظر في القضية لا العامية فحسب وإنما كتابة كلمة الموراني بالسريانية أيضاً (كما هو مبين على صورة الغلاف) فقد كتبا وباللغة العامية: (كَتَبْ الماروني تاريخو من زمان بس ضل مش راضي كفايي عن كتابتو. لأنو تحقق أنوما بيكون عايش ملء حاضرو ولا مخطط ومصمم لمستقبلو؟ إذا ما كتب وراجع كتابة تاريخو بدو كل يوم يكتب تاريخو من جديد...) ص/٤.

أما مؤلف القصة انطوان ومايفا باخوس فقد كتب في تعريف الشعب الموراني (هن من الشعوب الساميين والهندو - وأوروبي يلي استوطنت من زمان كتير ها الأرض من اللكام يلي اليوم بتركيا لجبل لبنان) ثم يقول مناقشاً من

يدعي أن الموارنة فينيقيون أو عرب (إذا بدك تكون فينيقي تفتخر أنت أكثر من فينيقي وإذا بدك تكون عربي تستفيد لازم تحترم حالك تيحترموك) ص/٨.

وبذلك يعترف بعض مؤرخي الموارنة الجدد بمعطيات التحريف التاريخي وبوجوب إعادة كتابة تاريخهم وفق مقتضيات تخطيط مستقبلهم ولا مانع من كتابة التاريخ كل يوم وبالتحريفات الضرورية التي تضمن لهم تحقيق مشاريعهم ومخططاتهم ولذا فقد تمكن صاحب القصة من أن ينسب الموارنة إلى العرق الهندي ـ الأوروبي ويغسل يديه من العرب إلا ضمن مخطط الإفادة والمصلحة المادية وتلك هي باختصار الاستراتيجية التي تحكم مواقف الموارنة كما سنبين (في الجزء الثاني من كتابنا والمتعلق بالحرب اللبنانية إن شاء الله . . .).

تقليد الصهيونية: سوريا الكبرى هوية اللبنانيين:

وكأن منظري المارونية الجديدة حاولوا تقليد التجربة الصهيونية في فلسطين فهذه لم تدع حقها في فلسطين تاريخياً فحسب وإنما حاولت أن تسند حججها إلى أقوال في التوراة وعلى أن حدود مملكتهم الكبرى هي ما بين النيل والفرات. فهم أصحاب حضارة متميزة قديمة عريقة وأنهم كانوا في فلسطين وما حولها قبل أن يدخلها العرب المسلمون . . . ولذلك ينبغي أن تعود الأرض إلى أهلها الأصليين . . . (٦٤) أما الموارنة فقد وجدوا أنّ عليهم أن يبذلوا جهوداً شاقة ومضنية في سبيل (إثبات) حقهم في الأرض دون المسلمين اللبنانيين . . . خاصة وأن الأناجيل لا تتحدث عن مثل هذا الحق المزعوم فغدا عملهم الإثباتي هذا أكثر ضنكاً من اليهود . . . ولذا فان الدرس الوحيد الذي يمكن أن يستخلص من التجربة اليهودية، من الوجهة التاريخية، هي التزوير واعتبار التحريف التاريخي أساساً مشروعاً لسد أي فراغ قد يعرقل المسيرة أو يكشف اللعبة . . . وعلى كلٍ فقد قرر قسم من الموارنة ـ كما بينا ـ أن يكتبوا تاريخهم من جديد لأن التاريخ الأول لم يعجبهم بما فيه الكفاية . ؟!

ولنقرأ فقرات مما كتبه أحد منظريهم:

«هوية المسيحين اللبنانيين هي هوية سوريا الكبرى التاريخية وعندما يدافع المسيحيون عن هويتهم الحضارية فهم يدافعون عن هوية سوريا الكبرى، مع علمهم بأنهم لن يستطيعوا أن يستعيدوها كما لا يستطيع الهنود الحمر أن يسترجعوا أميركا. فالمحافظة على الهوية الحضارية المسيحية في لبنان هي النتيجة التاريخية للمحافظة على هوية سوريا الهلالية القديمة . . . ومعاداة الهوية المسيحية في لبنان هي معاداة الهوية السورية القديمة وطعن بقيمها التاريخية . . .

«فالأمة السورية القديمة هي أم لبنان التي أزالها الفتح العربي نهائياً فلا تستطيع هذه الأمة أن تحمي نفسها وهويتها ألا من خلال قيام الأمة اللبنانية الفتاة واستمرارها في طريق الرقي والحضارة والتقدم. والأمة اللبنانية المسيحية هذه ركزت دعائمها حول الجبال اللبنانية وشكل الموارنة منها الجسم الأساسي وكَوّن المردة جهازها الدفاعي العسكري (٦٥).

وعندما حاول هذا المنظر أن يجادل دعاة القومية السورية ـ دون أن يسميهم ـ قال: وهنا يمكن القول بأن (سوريا الكبرى) أو (الهلال الخصيب) الذي جمع في شبه وحدة جغرافية هذه الشعوب العريقة قد انتهى مع دخول الجيوش العربية فثقافات الهلال التي انتمت إلى حضارة واحدة قد تراجعت إلى جبل لبنان واضعة على جروده ما تبقى من هذه المنطقة ومن حضارتها والجدير بالذكر هنا أن المفكرين الذين قد دعوا إلى وعي قومي في جميع أنحاء الهلال هم من جبال لبنان . . . والتفسير التاريخي الوحيد لهذه الظاهرة هو أن قسماً كبيراً من المسيحيين لم ينس السهول الفسيحة التي أحدثها ولا المدن الشرقية الكبرى التي بناها ولا الحضارة العظيمة التي ساهم في إقامتها على أراضي ملكها لقرون عدة بل لآلاف السنين قبل أن يغادرها ليلجأ إلى جبل لبنان فالمفكرون هؤلاء بعدم النظر إلى صحة أو خطأ الأيديولوجية التي أفرزوها يعبرون صراحة عن أحلام شعوب متعددة طردت من ديارها أثر الفتح ولا تزال تحن وذلك في إحساسها اللاواعي إلى إقامة دولة تضم جميع

المناطق التي شكلت تاريخياً (الهلال الخصيب) (٦٦).

ومن هذين الطرحين يتبين للباحث مدى الاقتباس عن الصهيونية، في محاولة من منظري المارونية الجديدة، إلى ربط تواجدهم في لبنان بامتداد حضاري قديم يتجاوز حدود لبنان إلى الهلالية السورية مع رغبة دفينة بمحاولة السيطرة على تلك الأمصار.. غير أنهم اكتفوا كمرحلة أولى بمحاولة السيطرة على لبنان على أن يطرحوا الأكثر فيما بعد... تماماً كما فعلت الصهيونية: ابتداءً من مقراراتها الأولى في القرن التاسع عشر إلى محاولات إقناع السلطان عبد الحميد باقتطاعهم جزءاً من فلسطين ليقيموا دولتهم عليها إلى الحصول على وعد في فلسطين وإعلان حدود إسرائيل الكبرى من الفرات إلى النيل إلى احتلال ما بقي من فلسطين وأراضٍ عربية أخرى سنتي ١٩٦٧ و١٩٧٣ (٦٦).

وانطلاقاً من مفهوم (سوريا الكبرى المسيحية) ومن مفاهيم أن (الموارنة سكان لبنان الأصليين) ينطلق المنظرون المارونيون الجدد ليصوروا التاريخ على أهوائهم، فهم يطوعونه، كمادة، وفق ما يريدون ليؤكدوا نظريتهم الاستقلالية التي بها يحلمون، وعلى هذا يقرر أحدهم دون حياء ولا خجل ـ بل بعنجهية المزور الذي ظن أن تزويره لن ينكشف أو يظهر، حتى ولو خالف كل الأصول والمراجع حتى تلك التي وضعها من سبقه من المؤرخين المارونيين ـ فيقول:

«إن وجود مركز الخلافة العربية في الشام قد أعطى طابعاً جديداً للمواجهة اللبنانية العربية فالمقاومة للحكم العربي في جبال بعيدة في أطراف الامبراطورية ليست «كخنجر يهدد قلب العروبة». فقوات المردة رابطت على مرمى حجر من عاصمة أقوى دولة في ذلك الحين وهددت رأسها مباشرة فلم يكن على الخلفاء إلا أن يجهزوا جندهم لكي يحتل الجبل العاصي ويعرّيه نهائياً. ما أن جلس الأمويون على كرسي الخلافة حتى اندلعت الحرب في سوريا العربية بين اللبنانيين المسيحيين والخلافة العربية. وخاصة هذه الحرب كانت باتخاذها الطابع الكلاسيكي(*) وتخللتها معاهدات سلام واتفاقيات ومواثيق

* ـ هكذا في الأصل ويبدو أن عبارات ما سقطت...!!.

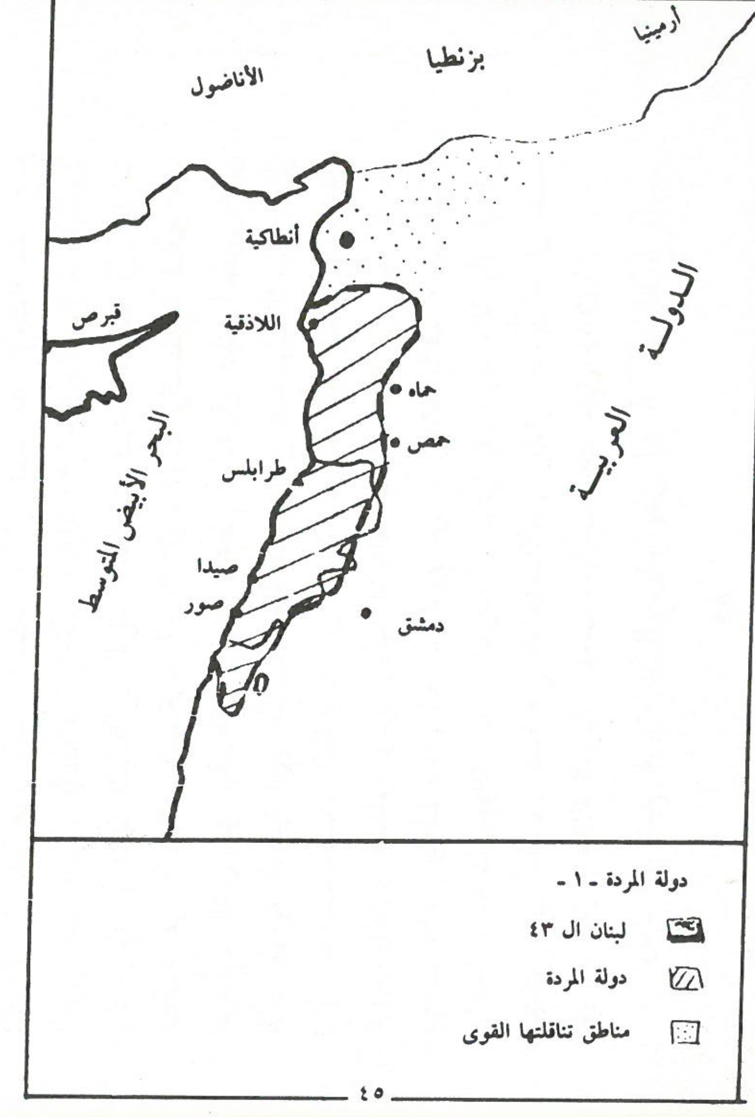
ربطت الأطراف بموجبات مختلفة، والجدير بالذكر أن تركيز استقلال الوجود اللبناني المسيحي في المنطقة العربية تمتد جذوره إلى تلك الأيام (٦٧).

في العهد الأموي

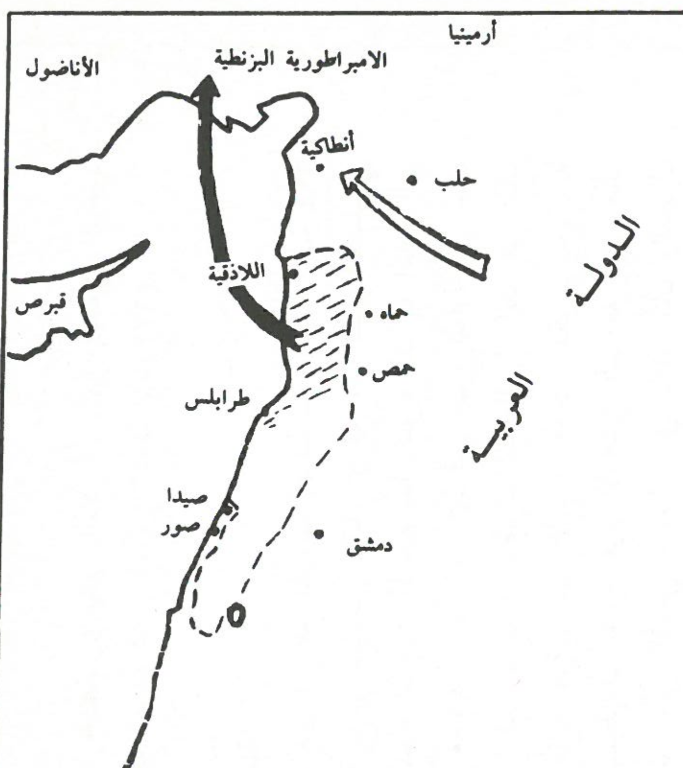
دولة لبنانية مسيحية مستقلة!!!

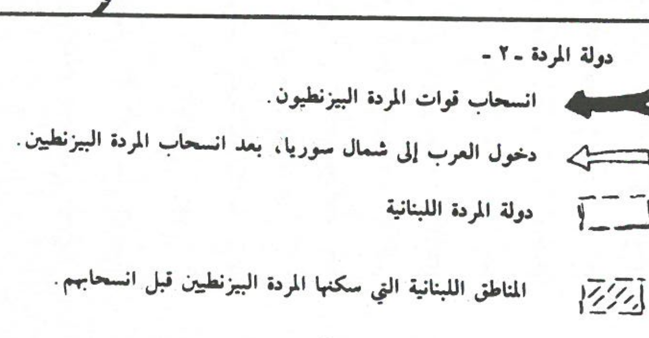
وخلافاً لـ «حتى» الذي قرر تميز المارونية كطائفة ـ لا كدولة ـ سنة ٦٩٤ بعد معركة أميون المتوهمة مع يوستنيانوس، فإننا نرى مع هذا المنظر الكسليكي الجديد أن (قيام هذه الدولة المارونية اللبنانية بدأ بالثورة اللبنانية الثانية التي انطلقت سنة ٦٧٧ أيام معاوية...) (٦٨) أي قبل مجيء الموارنة إلى لبنان بعشرين سنة تقريباً ... ثم يذهب في تنظيراته المتخيلة إلى أبعد من ذلك فيجعل من مردته قوة غالبة تفوقت على الأمويين وهكذا تمكن ـ بخياله المريض ـ أن يجعلهم يسيطرون (على جميع الأراضي الواقعة بين جبال اللكام في سوريا الشمالية حتى القدس جنوباً بما في ذلك لبنان والسهول المحيطة به. وقد قامت القوات اللبنانية السورية المسيحية المشتركة بمعارك متواصلة وعنيفة وركزت من ورائها أوسع حدود للدولة المسيحية اللبنانية الشرقية. لم تبلغ حدود الدولة المسيحية في أي عصر هذا الامتداد منذ الفتح العربي حتى اليوم. وانطلاقاً من هذه الدولة التي حكمها الموارنة اللبنانيون والسوريون ودعمها البيزنطيون الروم، انطلقت قوات المردة، في غارات صاعقة على الحاميات العسكرية العربية في سوريا وفلسطين. فأدّى هذا الوضع، الذي هز كيان أكبر وأقوى وأعظم دولة في ذلك العصر وهي الأمبراطورية العربية التي حكمت العالم القديم من الهند إلى الأندلس، إلى توقيع معاهدة نظمت العلاقات بين الدولة العربية وعلى رأسها قسطنطين الرابع والدولة اللبنانية وعلى رأسها الأمراء الموارنة المردة من جهة ثانية. بموجب هذه المعاهدة يؤدي العرب للروم كل سنة ثلاثة آلاف ذهبية وثمانية آلاف أسير وخمسين جواداً، وتعهد العرب أن يؤدوا إلى المردة مالا وأن يحترموا سيادتهم على دولتهم. هذه هي المعاهدة الأولى. ولكن حروباً أخرى نشبت بين اللبنانيين والخلافة العربية. نتجت عنها معاهدات عدة. (٦٨).

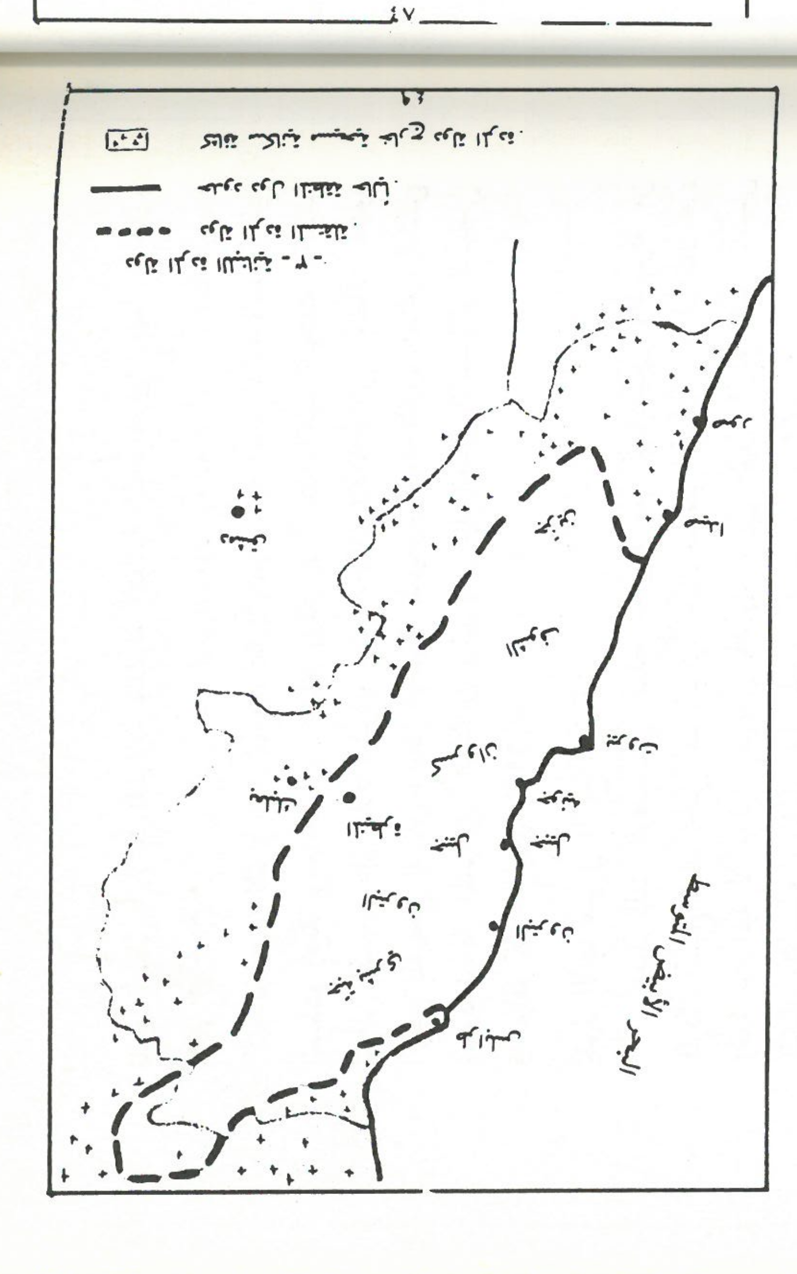
وبعد أن يشبع غريزته في التحريف يظن أنه قد سد الفراغ وأوجد

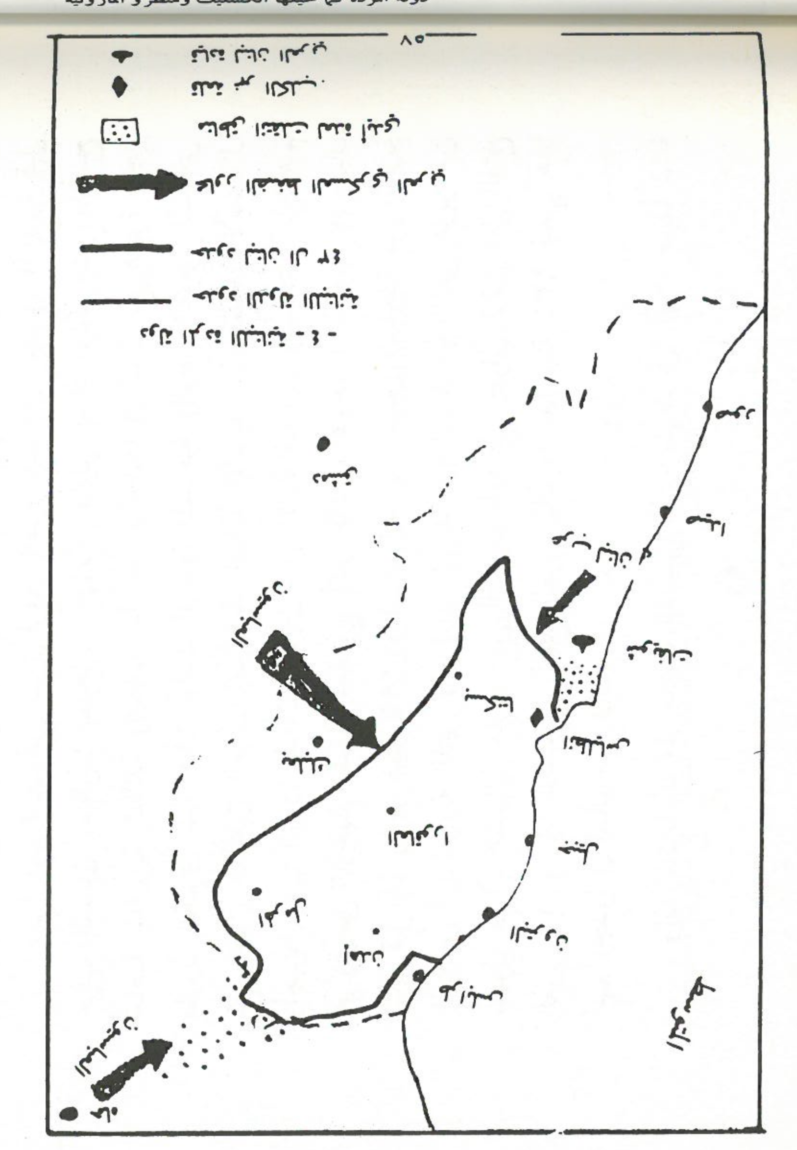


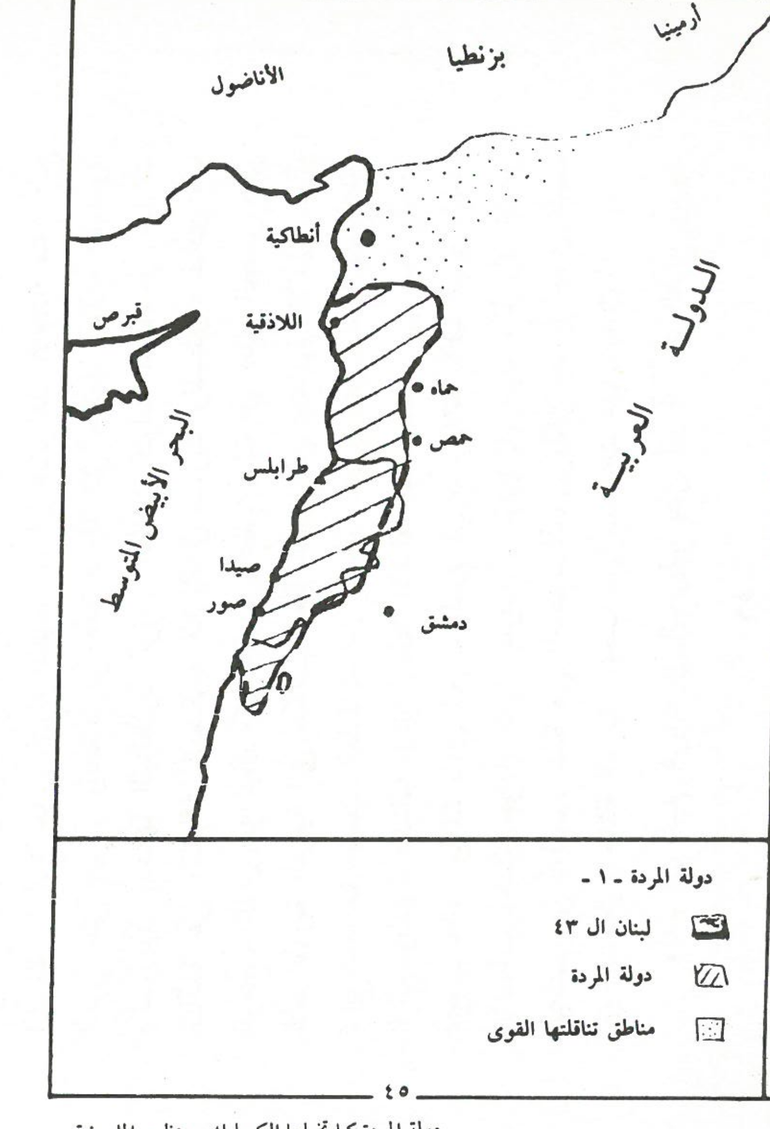
دولة المردة كما تخيلها الكسليك ومنظر و المارونية











دولة المردة - ١ -

لبنان ال ٤٣

دولة المردة

مناطق تناقلتها القوى

دولة المردة كما تخيلها الكسليك ومنظرو المارونية

أرمينيا

الامبراطورية البزنطية

الأناضول

أنطاكية

حلب

اللاذقية

قبرص

حماه

حمص

طرابلس

صيدا

صور

دمشق

الدولة العربية

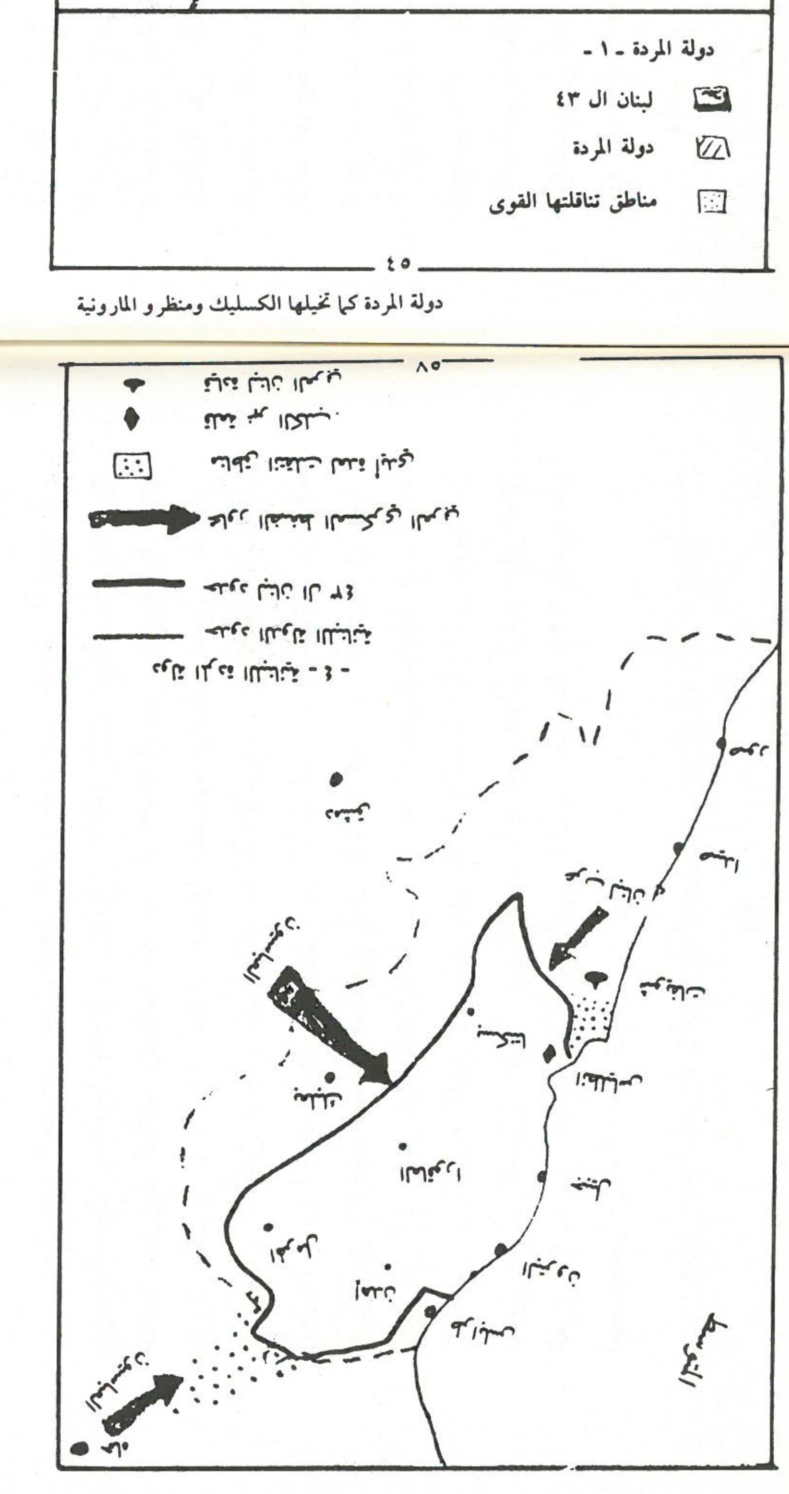
دولة المردة - ٢ -

انسحاب قوات المردة البيزنطيون.

دخول العرب إلى شمال سوريا، بعد انسحاب المردة البيزنطيين.

دولة المردة اللبنانية

المناطق اللبنانية التي سكنها المردة البيزنطيين قبل انسحابهم.



دولة المردة اللبنانية - ٤ -

حدود الدولة اللبنانية

حدود لبنان ال ٤٣

محاور الضغط العسكري العربي

مناطق انتقلت لعدة أيدي

قلعة نهر الكلب.

قيادة لبنان العربي

بعلبك

جبة بشري

البترون

المنيطرة

جبيل

كسروان

طرابلس

البترون

جبيل

جونيه

بيروت

الشوف

جزين

صيدا

صور

دمشق

دولة المردة اللبنانية - ٣ -

دولة المردة المستقلة

حدود دول المنطقة حالياً

كثافة سكانية مسيحية خارج دولة المردة.

تاريخاً أسطورياً لائقاً للموارنة وللدولة اللبنانية المزعومة في العهد الأموي، يختم خياله بقوله:

«العهد الأموي إذاً شهد استقلالاً تاماً وسيادة تامة للأمة اللبنانية التي اتسعت رقعة تواجدها أكبر اتساع ولكن نهاية هذا العهد شهدت انكماشاً للوطن المسيحي إلى بلاد الشوف جنوباً وعكار شمالاً ولكن انكماش حدود الوطن المسيحي اللبناني لم يعنِ انحصار المسيحيين فيه فالحدود اللبنانية لم تكن حدود تواجد المسيحيين اللبنانيين والسوريين بل حدود الاستقلال السياسي والسيادة للأمة اللبنانية» (٦٩).

يقول الأب ضو في تاريخ الموارنة:

(منذ ذلك الوقت - أي صلح معاوية مع البيزنطيين والمرتزقة من المردة - أصبح لبنان الجبل قلباً ومركزاً لكيان سياسي مستقل بعد أن كان مجرد رقعة جغرافية لا مدلول سياسي لها ويعود إلى هؤلاء المردة فضل تأسيس الكيان والاستقلال اللبناني قبل المعنيين والشهابيين) (٧٠).

ومن هذه النصوص نتبين فروق الطروحات بين منظري المارونية قبل حرب السنتين ومنظريها بعدها.. فهؤلاء حاولوا إيجاد مرتكزات وملامح خاصة بالمارونية كطائفة وكجالية منذ بدء تواجدها في لبنان مع هجرة يوحنا مارون الكبرى سنة ٦٩٤ أولئك أوجدوا المسيحية والوطن القومي المسيحي مع دخول الفاتحين العرب ومع قيام الدولة الأموية...وأعطوها الاستقلال وأجبروا - على الورق طبعاً - الأمويين على الاعتراف بهم وبسيادتهم بل إنهم تجرأوا على تاريخهم بشكل مفضوح أكثر فأكثر، فأوجدوا المارونية في جبال لبنان قبل أن يهاجر سنة ٦٩٤ (فكانت إنجالية الجبلين الساحقة من الموارنة اللبنانيين أي الموارنة الذين «تمورنوا» على يد الرهبان الموارنة الذين هربوا من سهول سوريا الشمالية هاربين من الطغيان البيزنطي حوالي قرنين قبل الفتح العربي (٧١) وإذا علمنا أن الفتح العربي كان قد بدأ سنة ٦٣٤ فيعني هذا أنهم وجدوا في لبنان سنة ٤٣٤.

وإذا تذكرنا أن مار مارون القديس الذي تنسك في العراء صيفاً شتاءً

عاش في مطلع القرن الخامس والبطريرك يوحنا مارون في أواخر سنة ٦٩٤ فإنه يتحصل في أحسن الأحوال والاحتمالات أن مار مارون ما إن عاش حياة النسك في العراء في انطاكية حتى صار له تلامذة ودعاة «فابتعثهم» إلى جبال لبنان أو فروا من الاضطهاد البيزنطي - لا فرق - «فمورنوا» ما شاؤوا من سكان الجبل. وهو قول لا يقول به عاقل إذ أنه مخالف لأبسط قواعد الحياة وانتشار المذاهب والأفكار... فضلاً عن أنه يخالف تاريخ الموارنة أنفسهم الذين قالوا بعدم تميز المذهب الماروني عن الكنيسة البيزنطية إلا بعد زمن طويل عندما أباح الملك قسطنطين البيزنطي التدخل بشؤون الكنيسة فانقسمت الكنيسة فريقين مؤيدين ومعارضين، والموارنة من الآخرين... كما أن عامة مؤرخيهم لم يقولوا بوجود ظاهر للموارنة في جبال لبنان إلا بعد هجرة البطريرك يوحنا مارون سنة ٦٩٤ م. حيث تمكن المهاجرون من الإعلان عن مذهبيتهم في المسيحية بحرية ودون إكراه بفضل «الحرية» التي وفرها الحكم الإسلامي لرعاياه في بلاد الشام... كما أننا رأينا كيف كانت علاقة رهبان الموارنة مع أباطرة الروم وكان في بعضها علاقة عطف وخاصة في عهد هرقل، أي قبل قرنين من الفتح الإسلامي أي سنة ٤٣٤ حتى أن دير مار مارون لم يكن قد بني على رأي الأب ضو الذي يؤكد أن الأمبراطور مرقيان قد بناه سنة ٤٥٢.

إن تحريف المؤرخين الموارنة الجدد لتلك الحقبة التاريخية الأولى كان بغرض تحقيق هدفين:

الأول: محاولتهم لتأكيد أسبقية تواجد الموارنة في لبنان على المسلمين، واعتبارهم أنفسهم بذلك لبنانيين أصحاب «الشرعية» الوحيدين دون المسلمين. وهو أمر أثبتنا زيفه وأثبتنا أن هؤلاء الموارنة قد تواجدوا في لبنان سنة ٦٩٤ بعد الفتح الإسلامي بأكثر من خمسين سنة وأنهم اختاروا الجبل كملجأ من البيزنطيين لا من المسلمين الذين أنصفوهم من خصومهم اليعاقبة والذين كانوا يعيّنون عليهم منذ ذلك التاريخ ولاة منهم أو من المسلمين كما يقول الدويهي...

والثاني: إن الاستقلال عن الدولة الأموية قد حصل مع بداية الحكم

الإسلامي الأموي وأن الأمويين أدركوا حقيقة اللبنانيين الموارنة فاعترفوا باستقلالهم وسيادتهم على أرضهم.. (وهو ادعاء باطل متهافت قد أثبتنا زيفه من قبل... إذ أن مثل هذه الدولة وهذا الاستقلال وتلك السيادة لم توجد على الإطلاق ولم يشر إليها مؤرخ واحد لا من قريب ولا من بعيد حتى فيليب حتي الذي اصطنع بداية لتاريخهم لم يجرؤ على أن يبرز وجود الموارنة أكثر من جالية مسالمة كانت تنعم بالأمن والأمان في ظل الدولة الأموية العادية...).

وقد تواجد هذان الهدفان بوضوح، مع اشتداد حرب السنتين (١٩٧٥ - ٧٦)، في محاولة هادفة من المنظّرين، لخدمة طروحات رجال السياسة والحرب في الصف الماروني (وهذا ما سنبحثه تفصيلاً في القسم المتعلّق بالحرب اللبنانية).

منظور المارونية:

العهد العباسي عدوان مستمر على الوطن المسيحي اللبناني.

وضمن روحية المخطط نفسه أعتبر مؤرخو الموارنة العهد العباسي عدواناً على الدولة المسيحية المزعومة في لبنان وإن ذلك العهد لم يحترم العهود والمواثيق المعقودة بين العهد الأموي والوطن القومي المسيحي وهكذا (لم يتردد العباسيون بخرق الاتفاقات المبرمة بين الأمويين وبين المسيحيين في الشرق وقد فتحوا باعتلائهم الخلافة عهداً من العدوان المستمر على الجبل اللبناني والدولة المسيحية الساكنة فيه...) (٧٢) وبذلك تمكن منظرو المارونية الجديدة من تصديق الأكاذيب الأولى ثم اعتبروها حقائق ثم فسروا بها العهد العباسي وقدموه عليها...

وباعتبارهم أصحاب الأرض الشرعيين - على حد زعمهم - أخذوا يفسرون إدخال القبائل العربية الإسلامية - في العهد العباسي - إلى لبنان واستيطانهم فيه (أخطر ما حصل في الشرق بالنسبة لمسيحيي لبنان) ومنذ ذلك التاريخ - في زعمهم - بدأت مشكلة اسمها المشكلة اللبنانية، فالمشكلة اللبنانية لم تبدأ إلا منذ أن استوطنت قبائل عربية إسلامية أراضي لبنان سنة

٧٥٨... (٧٢) ولهذه المشكلة - في زعمهم - تحليل خاص إذ أن المشكلة قبل هذا التاريخ كانت (عربية - لبنانية بمعنى أنها كانت بين دولتين قوميتين لكل واحد منهما أراضٍ معينة وحدود معروفة وتربط بينهما مواثيق ومعاهدات عديدة ولم تكن عملية الاستيطان العربية في عهد العباسيين إلا خرقاً واضحاً لبنود هذه المعاهدة المختصة بالسيادة اللبنانية).

ويتابع هذا الخيال المريض التحليل والاستنتاج بعد أن صدّق تزويره... وكأنّه بذلك يتمنى حصول ذلك في التاريخ أو يفترض بموارنة ذلك الزمن أن يكونوا حاقدين باطنيين متأثرين بخلفيات القرون المتأخرة الصليبية والصهيونية والاستعمارية التي منها استقى أولئك المنظرون تحليلاتهم. وعلى هذا فقد سمح لهم خيالهم المريض ممارسة أدوار السيادة والاستقلال والانفصال عن العهود الإسلامية.. كما أوجب في تلك العهود التي أسست أضخم حضارة في التاريخ وامتلكت أقوى قوة في ذلك الزمن الضعف والخوف والجبن والخوف من مواجهة (المشكلة المارونية) المصطنعة في خيال أولئك المنظرين... وبهذا تظهر عظمة المارونية المتمردة التي تمكنت من حفظ ذاتها والتغلب على أقوى الأعاصير وأشد الدول مع أن الدولة الإسلامية - بزعمهم - لم تترك حيلة ولا فرصة ولا طريقة إلا انتهزتها وسلكتها في سبيل القضاء على الموارنة ودولتهم الخيالية... إلا أنها كانت في النهاية تعجز عن الوصول إلى كامل مأربها ولو أنها تمكنت من تحقيق بعضه...

كل هذا الخيال القصصي الخرافي المريض، كان من أجل إيهام موارنة القرن العشرين وسائر المسيحيين بوجود خلفية تاريخية وحضارة صارعت العرب والمسلمين منذ فجر التاريخ الإسلامي... وحيث أن أسلافهم وأجدادهم لم يتخلوا عن كيانهم وألزموا أنفسهم بالحفاظ على تراثهم وحضارتهم ونجحوا في الصراع وأوصلوا إلى موارنة هذا العصر وجوداً متميزاً وسيادة... فإن على الموارنة الجدد أن يحافظوا على ما خُلِّفَ لهم ويصمدوا لأعاصير العروبة... وهكذا تمكن أولئك المنظرون من القول تعقيباً على (نكتة) خرق العباسيين للمعاهدات والمواثيق مع الموارنة (والتي لا ندري إن كانت محفوظة في سجل وزارة الخارجية اللبنانية أم في سجل الأمم المتحدة أم

في جامعة الكسليك أم في دير المخلص أم هي في الخيال المريض فحسب):

«ولم يكن هذا المد العربي الجديد إلا ليفجّر حرباً جديدة لا تزال تدور رحاها حتى اليوم وقد أصبح للبنان مشكلتان مشكلة مع الدولة العربية الخارجية وهي الخلافة العباسية ومشكلة مع عرب الداخل أو القبائل المستوطنة التي أرادت إخراج اللبنانيين من معاقلهم ورميهم في البحر كما رمى آباؤهم وراء جبال الأناضول... والمشكلتان متلازمتان فعرب الخارج متضامنون مع القبائل التي أرسلوها إلى لبنان واعتبروها سكاناً شرعيين له كما اعتبروا أن الأرض اللبنانية أصبحت أرضاً عربية... بعكس ما فعله الأمويون من قبلهم...»
إلى أن يقول:

«فعندما يشكك بعض المسيحيين بلبنانية المسلمين وعندما يتصورون بأنهم أكثر لبنانية منهم فذلك لأن المسيحيين يعتبرون أن أرض لبنان لهم. وأن على كل جماعة تريد الانتساب إلى المواطنية اللبنانية أن يكون ولاؤها لهذه الأرض أي للبنان وليس لغيره، فالأرض الشرقية التي دافع عنها المردة وماتوا لأجلها تمتد من حلب حتى شمال فلسطين فلا يعقل أن يستوطنها أحد ويغير ملامحها اللبنانية التاريخية وينادي بولاء لغير لبنان... (٧٣).

أليس من العجب أن يذهب السيد فارس هذا المذهب الخطير؟! وتحريفاته كلها خطيرة!! فالاستيطان العربي الذي تم في عهد العباسيين، لم يكن هدفه الموارنة، إذ لم يكن هؤلاء أصلاً أعداء بل هم من رعايا الدولة الإسلامية... وإنما كان الاستيطان لحماية الثغور ولرد أي عدوان بيزنطي محتمل... ومن جهة أخرى فإن الوفود الجديدة التي استوطنت لبنان في عهد العباسيين لم «تنتصر» على المسلمين بل شملت النصارى أيضاً حتى أن فيليب حتي يعتقد بأن هجرة المسيحيين إلى لبنان ازدادت أيام العباسيين لا سيما في خلافة هارون الرشيد وفي خلافة المتوكل. (٧٤).

غير أن الخلفية الخطيرة التي يطرحها الكسليكيون ومنظرو المارونية الجديدة ـ كما رأينا ـ نبتت في خيال كاذب لا يمت للحقيقة بصلة، ثم إنهم بنوا على تلك الأكاذيب الوقائع والطروحات فاعتبروا لبنان لهم مع أنهم وفدوا إليه

والمسلمون فيه قبلهم بستين سنة على الأقل، ثم جعلوا المردة ـ الذين لا يمتون إليهم بصلة ـ مقاتلين عن شرف الأرض الشرقية وهم ـ أي المردة ـ لم يأتوا إلا بناءً على أوامر رومية ثم انسحبوا من حيث جاءوا بناءً على الأوامر إيّاها... فلا يمثل هؤلاء ـ في الحقيقة ـ إلا صورة سوداء في تاريخ هذا البلد لأنهم كانوا المرتزقة النفعيين. ثم إن المنظرين الجدد لم يتورعوا عن (تسريب) تصوراتهم الرهيبة من لبنان ليشمل أقساماً كبرى من سورية فيعتبرون أنه لا يجوز أن يستوطن أحد غيرهم من (حلب حتى شمال فلسطين) وتلك حدود دولتهم الثانية كما يتوهمون إذ أن الأولى هي حدود لبنان الحالية والثانية حدوده (من حلب حتى شمالي فلسطين) والثالثة هي الهلال الخصيب أو سوريا الكبرى كما رأينا من قبل.... وهذه الطروحات لا تماثلها إلا طروحات الصهيونية الخطيرة... في ملك اسرائيل من الفرات إلى النيل!!!.

في مبدأ طرح المشكلة اللبنانية عند مؤرخي الموارنة:

ولا بد هنا من ملاحظة مبدأ طرح المشكلة اللبنانية فهي عندهم تبدأ منذ استيطان قبائل عربية في الساحل وبعض أجزاء الجبل... تلك المشكلة التي ـ في رأيهم ـ (فجّرت حرباً لا تزال تدور رحاها حتى اليوم) مع أن المؤرخين الموارنة أنفسهم ـ قبل حرب السنتين ـ يقرّون أن العرب استوطنوا الساحل منذ الفتح الإسلامي سنة ٦٣٤ أي قبل مجيء الموارنة بخمسين سنة على الأقل... في المقابل لم يطرح المسلمون أي إشكال على دخول الموارنة جبل لبنان الشمالي... ولم يعتبروا وجود (الضيوف الجدد) في الجبال تحدياً لهم لا من قريب ولا من بعيد، لأنهم ـ أي الموارنة ـ أخلدوا إلى السكينة واتجهوا إلى الزراعة والعبادة ـ كما يقول المطران دبس ـ... فتركهم الحكام الأمويون إلى ما أرادوا...

الإمام الأوزاعي وتمرد المنيطرة:

أما عندما خرج «الملك المهزوز» من المنيطرة وراح يحرض الناس ـ كما يقول فيليب حتي ـ ضد فرض الضرائب التي أوجبها الوالي العباسي ثم تحول

فعله إلى ممارسة حربية... اعتبرها «حتي» أولى الثورات المارونية ضد الحكم الإسلامي، بينما يعتبرها الباحث العادي المجرد إخلالاً بالأمن العام في البلاد... فكان لا بد لأية دولة تحترم نفسها من أن تحمي أمنها وتضرب الفتنة من أي مصدر أتت... فكانت الحملة العباسية التي قضت على (الملك) وأنصاره بسهولة فائقة وإن قيل فيها أنها تجاوزت حدودها بأخذ الأبرياء بجريرة المذنبين... وهذا شأن الأعمال العسكرية في بعض الأحيان ـ وإن كانت مرفوضة من حيث المبدأ ـ مما حدا بالإمام الأوزاعي أن ينبّه الوالي العباسي صالح بن علي برسالته الشهيرة والتي منها يتبين أن الإمام الأوزاعي لم يستنكر ـ كما أراد البعض أن يصوره ـ مبدأ الحملة العباسية لضرب الفتنة وإنما أراد أن ينبه إلى الأخطاء التي ارتكبت أو التي قد ترتكب ضد الأبرياء من الموارنة ومنها إخراج من لم يخرج على الدولة من أرضه وأملاكه وأمواله باعتبار أن ذلك مرفوض في الإسلام.

ولو أن العباسيين كانوا فعلاً يخططون ـ كما تصورهم المارونية الجديدة ـ للقضاء على موارنة ذلك الزمان أو أن العباسيين كانوا يعتبرون أنفسهم في حالة عراك وصراع معهم لما كتب الإمام الأوزاعي ما كتب بل لحمل سلاحه ضدهم... أو ـ في أبسط الصور لرفض الوالي العباسي تنبيه الإمام الأوزاعي الذي جاء فيه:

«وقد كان من إجلاء أهل الذمة من جبل لبنان، ممن لم يكن ممالئاً لمن خرج على خروجه ممن قتلت بعضهم ورددت باقيهم إلى قراهم ما قد علمت، فكيف تؤخذ عامة بذنوب خاصة حتى يخرجوا من ديارهم وأموالهم. وحكم الله تعالى أن لا تزر وازرة وزر أخرى وهو لحق ما وقف عنده واقتدى به وأحق الوصايا أن تحفظ وترعى وصية رسول الله (ﷺ) فإنه قال من ظلم معاهداً وكلفه فوق طاقته فأنا حجيجه (٧٥).

وهكذا يتبين من رسالة الإمام الأوزاعي أن هناك من خرج ضد النظام ولا بد من تأديب الخارج ضد أحكام الإسلام العادلة... هذا الخروج الذي حددناه نحن آنفاً بأنه ـ في أبسط حالاته وصوره ـ إخلال بالأمن العام للبلاد

في حين أن بعض النصارى كالسيد فؤاد قازان اعتبر في كتابه (لبنان في محيطه العربي) حركة المنيطرة تلك (عصابات لغزو ونهب البقاع فكان انتقام الدولة عنيفاً ودموياً...) (٧٦) وهي وفق تصوير فيليب حتي نفسه ـ السالف الذكر ـ ووفق شرح الإمام الأوزاعي، حركة سلب ونهب تسترت بأسلوب الاحتجاج على ضرائب قيل أنها قد زادت .... فأمثال ذلك نجده كثيراً في تواريخ الأمم والشعوب خاصة إذا ما صدرت عن رجل غير متكافىء في شخصيته كـ (ملك المنيطرة).!!

ارتباك التنظير الجديد:
الموارنة جالية أم دولة أقامت
علاقات مع بيزنطية وأوربا؟!

وباعتبار أن حركة التأريخ في العهد العباسي، أصبحت نشطة فدونت الأحداث الماضية كما سجلت الأحداث التي وقعت في ذلك العهد بكثير من الدقة والتحليل... فإن بعض المنظرين الموارنة الجدد لم يجدوا بداً من التقليل من «أكاذيبهم» فلم يُجيزوا لأنفسهم (ارتكاب الكبائر) واكتفوا بالصغائر منها فلم يُوجِدوا لأنفسهم دولة تهدد سلامة العباسيين وتقضّ مضاجعهم فكفاهم ما فعلوا في العهد الأموي، إذ أن فريتهم الكبرى تلك سمحت لهم بتركيز معاني الوطن القومي المسيحي والقومية المارونية والسيادة والاستقلال وشرعية الأرض والوطن إلى آخر هذا المسلسل من المصطلحات التي تشعر القارىء أنه أمام أمة وحضارة متميزتين إن انحسرتا في عهد فقد تمتدان في عهد آخر حيث لا يجوز ـ في عرفهم ـ أن يسكن الأرض الواقعة بين حلب وشمالي فلسطين إلا من يؤمن بالقومية اللبنانية المارونية؟؟.

وهكذا وبمزيد من الحياء والارتباك يسجل غلاة المنظرين الجدد (انكماش الحدود اللبنانية) ـ في العهد العباسي ـ (إذ بقدوم الإرسلانيين واستيطانهم في أحراج بيروت انكمشت رقعة لبنان من جراء المعارك العسكرية.. واستمرت المعارك بين عرب لبنان واللبنانيين على عدة جبهات...) (٧٧) ولكن هذا «الحياد» سرعان ما يثور ليزعم بأن (انكماش الحدود اللبنانية إلى هذا

الحد لم يعن ـ أي لا يعني ـ انكفاء المارونية بل استمر كثير من الموارنة بشكل جاليات في الجبل كالمتن والشوف وفي سوريا وكذلك عاش المسيحيون السريان والروم في السواحل والسهول السورية ولكن الاستقلال المسيحي لم يوجد إلا ضمن وطن المردة) (٧٧) وباعتبار أن هذا الوطن لم يوجد مطلقاً ـ كما بينا ـ فإن الاستقلال المسيحي في ظل الدولة الإسلامية لم يكن في أي يوم من الأيام ولم يشكل الموارنة ولا سائر النصارى في ظل ذلك الحكم إلا جاليات أخلدت إلى السكينة وإلى الزراعة وإلى العبادة... باستثناء نفر منهم هنا وهناك تمكنت بيزنطية من اصطناعهم لنفسها فأغرتهم بالمال ف (ساعدوا أبناء طائفتهم الروم ـ يعني البيزنطيين ـ في التجسس على المسلمين واستخدموا الكنائس لهذه الغاية...) (٧٨) وكان ذلك في أيام الرشيد، فاتخذ الرشيد، ومن بعده المتوكل إجراءات في حق هؤلاء وأشياعهم.. وإلا فالرشيد (من أحسن خلفاء بني العباس عدلاً ورفقاً بأهل الذمة) على حد اعتراف جرجي زيدان.

ومن العجيب أن يعتبر أولئك الغلاة من المنظرين الجدد عمالة بعض النصارى في لبنان وأنحاء مختلفة من الرقعة الإسلامية دليلاً على قيام «الدولة المارونية اللبنانية» المتوهمة وعلى ارتباطها باتفاقات تعاون مع بيزنطية لمحاربة العرب والمسلمين مع أن هؤلاء المنظرين قد اعترفوا أن الموارنة في العهد العباسي كانوا جاليات هنا وهناك إلا أن المنظرين ـ من جهة أخرى ـ حاولوا طمس هذه الحقيقة بالإيحاء بوجود علاقات دولية بين بيزنطية و «مارونيا» وهو اسم للدولة المارونية المتخيلة التي هُدِّمت بقولهم (إن الموارنة جالية»...!!!

غير أنَّ فورة الكذب عادت لتثور مرة أخرى فترسم قواعد التحرك والسياسة الخارجية «للدولة المتوهمة» «مارونيا» في العهد العباسي (فالعلاقات الخارجية كانت متواصلة بكثافة مع البيزنطيين من جهة ومع أوروبا الغربية من جهة أخرى) فهم لم يكتفوا بالعلاقات مع بيزنطية بل تعدوها، في ذلك الزمن المبكر، الذي كانت فيه أوروبا غارقة في الجهل والتأخر... إلى إقامة علاقات معها، وإن سألتهم الدليل قالوا أن شرلمان راسل هارون الرشيد... ويعني ذلك عندهم (اهتمام الامبراطور الكارولنجي بمسيحيي الشرق من

خلال أوهام هؤلاء أكذوبة تخيلاتهم المصطنعة... وعلى افتراض أن المستقلون في لبنان) (٧٩). ومن الصورة إلى علاقات شرلمان بالرشيد لا نجد أثراً لهذه التخيلات علماً أن شرلمان لم يكن يسمع بموارنة «الكسليك» إلا من خلال أوهام هؤلاء وفرضهم تخيلات مصطنعة... وعلى افتراض أن شرلمان قد «سمع» بموارنة يوحنا فلم يكن ليجرؤ على مخاطبة هارون الرشيد فيهم فذلك كان وحده كافياً ليعلنها الرشيد حرباً مدمرة ضد أوروبا بأسرها.!! وعلى افتراض أن الرشيد قد أذن له في مخاطبته فيهم فعلى أي شيء سيحدثه شرلمان؟... وقد قال جرجي زيدان قوله في عدل الرشيد وإنصافه (وكان من أحسن خلفاء بني العباس عدلاً ورفقاً بأهل الذمة) مع أن الرشيد قد فرض عليهم بعض الإجراءات والتدابير على ما يذكره مؤرخوهم....!!

تبرير فلسفة التعاون مع الأجنبي
أحد أبرز خلفيات التزوير التاريخي الجديد:

إلا أن المسألة عند المؤرخين الجدد ليست إلا تنظيراً لأجل ترسيخ مبدأ يحاولون إقراره في عقول ناشئتهم، وهو أن فلسفة الوجود تقوم على الاعتماد على الأجنبي... فالارتباط بالأجنبي هو السند والقوة والدعم والحياة...!! وعلى الموارنة أن يرسخوا ذلك في أعماقهم.... إذ أن الأوائل منهم تعاونوا مع بيزنطية ثم مع الصليبيين... وهكذا إلى أن وصل دور فرنسا وأمريكا وبريطانيا وأخيراً إسرائيل... فلا يهم الجهة التي يمكن أن تتعاون معها «مارونيا» إنما المهم أن تحفظ وجودها في وجه العرب والمسلمين مهما تكن الظروف والاحتمالات والمخاطر.

هذا الطرح الذي كثيراً ما ظهر في الحرب اللبنانية ـ وهو ما سنشرحه فيما بعد ـ يشكل الخلفية الحقيقية لكل أنواع التزوير التاريخي... فمن أجل تبريرات جديدة سياسية اخترع المنظرون في الماضي، في ظلال الدولة الإسلامية، دولة مارونية مستقلة وهذه الدولة، في نظر التنظير المُختَرَع لم تقم وتستمر وتناهض أقوى قوة في الأرض في عصور الإسلام الذهبية إلا بالتعاون (والعمالة للأجنبي) تلك العمالة التي لا بدّ منها ـ في نظرهم ـ لمحاربة المد العربي المحيط بهم من كل حدب وصوب...!!

وهكذا ـ وفق الزعم الكسليكي ـ ظلّت الجيوش البيزنطية تكون الدعامة المسيحية الخارجية للأمة اللبنانية المستقلة في الشرق ولعلّ التوازن العسكري ـ البيزنطي ـ العربي في العالم قد لعب دوراً في صمود الوطن المسيحي. (٧٩).

(فالبيزنطيون دعموا اللبنانيين والسوريين المسيحيين دوماً في دفاعهم عن أراضيهم وعن وطنهم) (٧٩).

ومن قبل ذلك (كان التعاون الماروني ـ البيزنطي ـ) (عبر مردة الجراجمة) و(عبر غارات وإنزال بحري) في مناطق متفرقة في لبنان... ـ كذا ـ وكان هذا طابع السياسة الخارجية للدولة المارونية «المتوهمة».. ولولا هذه السياسة لما تمكن (أحرار المسيحيين) من التجمع (في وطن حافظوا على استقلالهم فيه ودفعوا ثمن هذا الاستقلال غالياً فمنعوا عن أنفسهم حياة الرضاء المادي كي يحافظوا على حياتهم وعلى شخصيتهم).

وبأسلوب دراماتيكي يظهر منظرو المارونية الجديدة النساء المسيحيات محتجبات معلنات (الحداد العام الذي عاشت فيه النصرانية في الشرق منذ ألف سنة) وذلك (عندما ارتدت لفترات طويلة الثوب الأسود) (٨٠) فهل بعد هذا يجوز التردد في طلب العون من أية جهة ولو كان من بيزنطية، في القديم، وإسرائيل، في الحديث، أو من الشيطان في كل حين؟؟.

غير أن التنظير الماروني الكسليكي الجديد قد فاته هنا أن اللون الأسود في ثياب النساء مظهر إسلامي تأثرت به النساء المسيحيات فيما يعرف بالمحاكاة الاجتماعية والحضارية... إذ أن النساء المسيحيات لا يمكن لهن أن يبتعدن عن الأجواء المحيطة بهن وهكذا روى التاريخ أنهنَّ في بعض المدن وحتى في الجبال احتجبن بالحجاب الإسلامي فلا تكاد تميز المرأة المسلمة من النصرانية... وتلك محاكاة لا مفر منها في كل العصور.. وبدل أن تُحلل الأمور وتدرس على ضوء معطياتها نجد المنظرين يُحَوِّرون التأثر الحضري إلى واقعة سياسية معاكسة ـ ضمن أسلوبهم في تحريف التاريخ ـ وإلى ما يُحقق إلى

مآربهم في تعبئة النفوس وشحذها ضد العرب والمسلمين. وهكذا يتحول الثوب الأسود ـ وهو المظهر الإسلامي المفضل للمرأة ـ إلى حداد وحزن على المسيحية في الشرق!!!

ومهما حاول المنظرون أن يخفوا حقيقة دوافعهم لتبرير أحداث التعامل مع الأجنبي وتحويله إلى فلسفة حياة تضرب بجذورها إلى فجر التاريخ الإسلامي وتمتد معه إلى القرن العشرين فتلك دوافع تظهر نفسها بنفسها وتدل على ذاتها في وضح النهار فهي قد كمنت وراء أحداث التاريخ ووقائعه. فعندما يقول المنظرون أنهم عملاء منذ فجر التاريخ الإسلامي ـ ولو أنهم ذكروا ذلك على أنه سياسة خارجية لدولة متخيلة ـ فقد كذبوا ـ شأنُهم في هذا شأن الكثير من التحريفات التي أوجدوها... فالموارنة كما رأينا لجأوا إلى جبال لبنان محتمين بالحرية والأمن الإسلاميين بوجه أعدائهم الأوائل البيزنطيين فإذا بالتحريف التحريف التاريخي يقلب الأعداء بوجه الأصدقاء ـ الأعداء!!! إلى أصدقاء متعاونين...

أليس عجباً أن (يخوّن) المرء أجداده ثم يفخر بخيانتهم... المفترضة... وذلك حتى يتمكن من اصطناع استراتيجية «ثابتة» تبرر تصرفاته الجديدة وكأنها جزء من تصرفات الأجداد.

ولنسمع ما يقوله المنظرون:

(من هنا أيضاً يمكن أن نفهم تعاون مسيحيي الشرق الذميين فهم أي سكان المناطق الواقعة ضمن الاحتلال العربي (كذا) والمستقلين منهم أي الساكنين في الجبال اللبنانية (كذا) مع الشعوب والدولة المسيحية الأخرى الشرقية أولاً والغربية من بعدها كي يستمروا في الحياة الحرة في منطقة أراد الحكم فيها العداء لهم منذ أن دخلها (كذا) وأن ندرك أيضاً أبعاد الارتباط بين مسيحيي الشرق عامة ومسيحيي سوريا ولبنان خاصة بالشعوب المسيحية الأخرى سياسياً وعسكرياً وحضارياً فالارتباط ليس ارتباط مصلحة معيشة بل ارتباطاً عضوياً بالشعوب حضارة واحدة متضامنة وارتباطاً مصيرياً لعناصر تيار عاتي واحد.. وتعاون الشعوب المسيحية واجب ضروري خاصة إذا كان أحد

هذه الشعوب في خطر أبادة جماعية والتاريخ برهن أن «الارتماء المزعوم» في حضن الغرب ليس إلا تضامناً مسيحياً بين شعوب الحضارة الواحدة تماماً كتضامن الشعوب الإسلامية...) (٨١).

وبهذه التمنيات المتخيّلة التي لم تكن حقائق ـ كما سنبين ـ يتابع التنظير تفلسفه حول العمالة للأجنبي فيقول (ونرى هذه الظاهرة منذ القرن السابع حيث تضامن الموارنة والمردة ومسيحيو الشرق مع بيزنطية في حربها ضد الغازي العربي... وفي القرن الثامن والتاسع تضامنت بيزنطية مع الثوار المردة والسريان وسوريا ودعمتهم...) (٨١).

ونحن من الوجهة التاريخية ـ لا نسقط وجود عمالة بين بعض النصارى وبين أعداء الأمة ـ فأولئك النفر لم يوفروا، حتى الكنائس تلك التي حمتها الدولة وصانتها فاستخدموها لأنشطة معادية لسلامة الوطن ـ كما ذكر جرجي زيدان ـ... إلا أن ما نعنيه هو أن بيزنطية لم تتعاون أو لم تستخدم نصارى الدولة الإسلامية أو نصارى لبنان أو نصارى الموارنة بشكل جماعي وذلك لأسباب بسيطة هو أن (التجمعية) لم تكن ظاهرة في حياة النصارى في ذلك الزمن المبكر فهم أفراد ولو كانوا بالآلاف كما أن الدولة الإسلامية لم تعاملهم إلا على هذا الأساس أي أفراداً في مجتمعها الكبير.

فعندما يتخيل منظرو المارونية الجديدة وجود دولة نصرانية مارونية ذات سيادة معترف بها من قبل الدولة الإسلامية، وهذا غير صحيح تاريخياً، فمن المحصلة الطبيعية أن يسترسل الخيال ليجعل لهذه الدولة «المتخيلة» سياسة خارجية وأن يرسم حدود تلك السياسة وغاياتها وأهدافها ووسائلها...

إن هذا الأسلوب الخطير يُرَسب في العقل اللاواعي عند أجيال الموارنة والنصارى ضرورة التطلّع دوماً إلى وراء الحدود للتعاون مع الأجنبي في سبيل توطيد الطروحات السياسية وتحقيقها باعتبار أن ذلك قدر الموارنة والنصارى في الشرق... هذا الترسب يدفع ضحاياه لارتكاب مختلف أنواع المحظورات كما يدفعهم إلى تصعيد طروحاتهم التي بها يتناقضون مع مجموع الأمة دون شعور

بعقدة الخطيئة أو الذنب... إذ أن عدمه يعدم وجودهم ـ في ظن منظريهم المرضى ـ....

الاحتلال، عند «المنظرين»،
تحرير الأرض!!!

وبهذا المنظار الأسود غيّر أولئك المنظرون أهداف المحاولة البيزنطية لاحتلال بعض مدن سوريا ولبنان في النصف الثاني للقرن العاشر الميلادي في الوقت الذي وهنت فيه الدولة الإسلامية فتفككت وحدتها ودبّ فيها الخلاف وانتشرت فيها المذاهب المنحرفة والدعاوى الباطلة.. إذ أهتبل الامبراطور زمسيكس تلك الفرصة فزحف على هذه البلاد أملاً باحتلالها وإخضاعها من جديد لحكم بيزنطية.. وبدل أن يعتبر المنظرون من الموارنة ذلك ـ كما هو الأصل ـ عدواناً واجتياحاً اعتبروه محاولة لتحرير الأراضي المسيحية الشرقية واسترجاعاً لها... (ويمكن القول أن الحملة البيزنطية هذه قد أخذت طابعاً أهم مما وضعته كتب وواقع التاريخ (كذا) فنحن نعتبر أن الحرب التي شنتها بيزنطيا وحلفاؤها على العرب في الشرق هي حملة صليبية بكل معنى الكلمة لأن نية بيزنطيا كانت استرجاع الأراضي المسيحية الشرقية المحتلة (كذا) وخاصة الأراضي المقدسة في فلسطين وعلى رأسها القدس...) (٨٢).

وعلى هذا الأساس تمكن «المنظرون الجدد» وبسهولة فائقة من إيجاد دور مصطنع لأجدادهم فأوكلوا إليهم حماية ظهر الروم (... وحمى الموارنة المردة ظهر الروم عند اجتيازهم سهل البقاع) (٨٣) بينما قد ذكر المؤرخون أن الروم اجتاحوا جبال لبنان كما اجتاحوا سهل البقاع وأكثر المدن اللبنانية... ما عدا طرابلس التي استعصت عليهم (...حتى وصل ـ أي زمسكيس ـ حمص وبعد أن أنزل بها الهزيمة وقبل أهلها دفع الجزية توجه إلى بعلبك فحاصرها ثم استولى عليها وخرّبها وأخذ جماعة من أهلها وعبر جيش زمسكيس جبال لبنان وتوجّه قاصداً دمشق...) (٨٤).

فالاحتلال لا يفرق بين منطقة وأخرى فكلها عنده سواء، وإن كنا لا نملك حتى الآن الوثائق التاريخية التي تفصل ما حلّ بالجبل إلا أننا لا نتوقع

أمراً ذا بال لسبب بسيط هو عدم وجود مدن ـ في ذلك الحين ـ في غير البقاع والساحل إذ أن عدد الموارنة ـ كما سيرد ـ في الحروب الصليبية ـ في القرن الثاني عشر ـ لم يتجاوز الأربعين ألفاً فعددهم قبل مائة سنة على الأقل لا يتجاوز الثلاثين ألفاً . . . وهذا العدد كان موزعاً على قرى وتجمعات سكنية بسيطة منتشرة هنا وهناك في الجبال الشمالية العالية الموحشة، فليس في مطلبها غاية بذاته إلا العبور من نقاط معينة على طريق دمشق . . . أو للوصول إلى الساحل . . . وفضلاً عن ذلك فإن الموارنة بصورة عامة لم يكونوا أهل قتال فقد أخلدوا إلى السكينة واهتموا بالزراعة ـ على حد تعبير المطران يوسف دبس ـ ولأن الدولة الإسلامية ـ بوجه عام ـ لم تكن تستخدم النصارى في الحروب فيما فرضت عليهم ضريبة الجزية إعفاء لهم من الجندية لقيامها هي بالحماية لهم . . . فلا يعقل والأمر كذلك أن يقاوم الموارنةُ الروم . . . وما أوضحناه لا يمنع ـ كما ذكرنا آنفاً ـ من أن يستغل بعض ضعفاء النفوس من نصارى الشام ولبنان الفرص فيتعاونون مع البيزنطيين يرشدونهم إلى الطرق والمسالك . . . فذاك شأن ـ على شينه ـ قد يفعله أيضاً بعض ضعفاء النفوس من المسلمين اتقاء لخطر أو طمعاً في منفعة أو مغنم، خاصةً، وأن الدولة الإسلامية ـ كما ذكرنا ـ باتت ضعيفة مقسمة موزعة . . . وهو وضع يغري ضعفاء النفوس ويشجعهم على تقاسم الغنيمة كما حصل للحاجب «مرغوية» الذي انقلب على سيده أبي المعالي سعد الدولة في حلب وطلب مساعدة الروم فاغتنمها هؤلاء فرصة وأرادوا الاحتلال فقاومهم الحاجب هذا ـ أملاً بإبقاء إمارته ـ ولما ضعف عن قتالهم أبرم معاهدة مذلة كما ذكر كمال الدين بن النديم في كتابه زبدة حلب. (٨٥).

كيف كان يعيش نصارى الجبل:

ومما يؤكد ما ذهبنا إليه أنَّ مؤرخي الموارنة ما قبل حرب السنتين ـ الحرب اللبنانية ـ لم يرتكبوا هذه الغلطة الفادحة فهذا فيليب حتي مثلاً، عندما أرّخ للموارنة في كتابه (لبنان في التاريخ) وذكر هجمات الروم في الصفحة / ٣٣٦ / وما بعدها ـ وإن كان قد استخدم ألفاظاً تنم عن كيده للمسلمين ورغبته في التشفي كـ (إخضاع أنطاكية

وحلب وإعادتها إلى الحكم البيزنطي) و(فقد أسفرت عن استرجاع حمص ثم إنه بعد ذلك تابع سيره ـ عبر البقاع واسترد بعض أجزاء فلسطين) إلا أنه لم يجرؤ على افتراء وجود دولة للموارنة أو إدخالهم في قتال إلى جانب الروم أو إسناد مهمة حماية ظهر الروم . . . فهو أي فيليب حتى لم يذكرهم في هذه الحقبة بشيء بل بالعكس من ذلك ذكرهم بعفوية غير مقصودة ـ ونحن ذكرناهم بقصد ـ أنهم كانوا ملتفتين إلى عبادتهم وأنهم ـ في مجملهم كانوا مسالمين ومتوافقين مع إرادة الأكثرية الإسلامية من حولهم أي أنهم لم يكونوا يتمتعون بالقوة العسكرية ولا بدولة مستقلة وفق ما أفرزته خيالات «المنظرين الجدد» بعد حرب السنتين، فقد ذكر فيليب حتي ما نقله ابن الفقيه نقلاً عن المقدسي عندما مرَّ هذا الجغرافي في لبنان وجباله سنة ٩٠٣ (وبدمشق، لبنان، وهو الجبل الذي يكون عليه العباد والإبدال وعليه من كل الثمر والفواكه وفيه عيون كثيرة عذبة) (٨٦). وأيضاً ما ذكره الرحالة المقدسي (الذي مرَّ في لبنان سنة ٩٩٥ فإنه بعد أن يصف بعلبك وجبل عامل) يقول: (وأما جبل لبنان فهو يتصل بهذا الجبل، كثير الأشجار والثمار المباحة وفيه عيون ضعيفة يتعبد عندها أقوام قد بنوا لأنفسهم بيوتاً من القش يأكلون من تلك المباحات يرتزقون بما يحملون منها إلى المدن . . .) (٨٧).

وهكذا بين أوائل القرن العاشر وبين نهايته ـ في نظر المؤرخين العرب والمؤرخ الماروني «حتي» لم يكن الموارنة إلا قوماً يتعبدون في الجبال، يتاجرون مع المدن الساحلية بثمار الجبال . . . فأين هذا من التخيلات الجرثومية لدى «المنظرين الجدد» الذين زوّروا وافتروا حتى لم يبق لمزور مزيد.

تقويم الفكر الماروني
على ضوء التنظير الجديد:

ولو أردنا أن نُقَوِّم الفكر الماروني حتى القرن العاشر على ضوء «مقررات» مؤرخي المارونية الجديدة لوجدناه فكراً استعلائياً أو هكذا تمنوه أن يكون. فهم قد وجدوا بعد حرب السنتين أنه من غير الطبيعي أن يكون تاريخهم حلقات مفككة لا إتصال بينها . . . فإن كانوا في القرن العشرين ناشدين السيادة دون العرب، دعاة انفصال عن دنيا العروبة ولو أدّى

هذا إلى ترابطهم وتعاملهم مع الدول الاستعمارية الكبرى ومع إسرائيل عدوة العرب الأساسية. . . فلا بد أن يكون تاريخهم كذلك.إذ لا يجوز أن يبتدع الموارنة ذلك ابتداعاً عند أنفسهم خاصة وأن هناك حلقات في التاريخ أثبتت تعامل بعض الموارنة مع أعداء البلاد كالصليبيين وبعد الصليبيين فرنسا. . . فإن هذا يعني ـ في نظرهم ـ أصالة الموقف الذي يكون أبداً في التعامل مع الأجنبي ضد أكثرية أهل البلاد. . . !!!

وعلى هذا الأساس تمكن «المنظرون الجدد» من قلب التاريخ وتغيير معادلاته إذ أصبح الموارنة الذين هربوا من جور البيزنطيين وتعسفهم ولجأوا إلى جبال لبنان العالية هم اليد الخفية للروم والحماية لظهرهم أثناء زحفهم على بلاد المسلمين. . . لا لشيء ـ كما ذكرنا ـ إلا لأجل ملء فراغ التاريخ وفق تعبير السيد وليد فارس، أو لتبرير مواقف الانحراف الوطني عند بعض ساسة المارونية وأحزابها ولتأكيد طروحاتهم الخاصة في «عراقتهم» و«أصالتهم» و«تميزهم» عن المسلمين منذ فجر تاريخهم وعبره حتى القرن العشرين.

وبهذا التحريف، الذي يشمل «خمسة قرون تقريباً» تمكن منظرو المارونية الجديدة أن يمهدوا الأجواء لقيام علاقات مرنة وأصيلة مع أوروبا الصليبية أثناء زحفها العنيف على ديار الإسلام. . . إذ أن الماروني بل المسلم بعد اطلاعه على تاريخ الموارنة ـ حسب تاريخهم الجديد أو تحريفهم الجديد ـ ليجد أن إقامة علاقات التفاهم والتعاون والعمالة بين موارنة الجبل وبين الصليبيين الزاحفين ـ وقد جرى في بعض صوره ومن أطراف منهم كما سنبين ـ شيء عادي بل موقف شجاع؟؟؟.

وتلك خلفية رهيبة لها معقباتها على كل صعيد.

القراءة الثالثة في تاريخ الموارنة

البدايات السياسية الأولى للموارنة والتصفية المملوكية «للوجود العميل»

القراءة الثالثة للنص

١ - في أول اتصال بالغرب الصليبي الزاحف: بعض الموارنة أدلاء...
٢ - لم يكن الموارنة - انئذ - تجمعاً سياسياً.
٣ - موارنة بشرى يتعاونون مع المسلمين ضد الصليبيين.
٤ - الصليبيون يحرضون الموارنة على الكثلكة.
٥ - البابا: أنتم وردة بين «العليق».
٦ - من نتائج الحروب الصليبية تفتح أماني خطرة لدى الموارنة.
٧ - انشقاق في الصف الماروني بسبب التعامل مع العدو والتعاون مع المسلمين.
٨ - بداية التجمعية السياسية عند الموارنة.
٩ - حملة تأديبية ضد المتعاملين مع العدو والسلطان يمنع المدد عن نصارى الشام وينهي (الوجود العميل).
١٠ - تحالف الخطرين الصليبي والمغولي وفرح «المطارنة» بسقوط بغداد.
١١ - ظهور التقاليد المارونية الأسطورية.
* يوحنا مارون من سلالة شارلمان؟؟
* لويس التاسع يفرض حماية فرنسا للموارنة أمام ٢٥ ألف ماروني؟.
١٢ - تقاليد التنظير الماروني الجديد أفضل المقاتلين في الحروب الصليبية كانوا من الموارنة.
١٣ - البندقية والبابا يعرضان على المماليك شراء مدينة صور فيرفض السلطان.
١٤ - يقظة نائب طرابلس المملوكي تجاه مؤامرات البابا وأوروبا.
١٥ - مقدمو الموارنة ضد علاقة البطاركة بالخارج والبابوية تستغل الصراع لمصلحتها...
١٦ - الكسليك: عروبة القرن السابع أساس مشاكل المنطقة ولبنان.

شن الغرب المسيحي بتحريض من البابوية على البلدان الإسلامية حروباً صليبية رهيبة امتدت قرابة قرنين من الزمن اختلّت فيها المعادلات والموازين في الشرق الإسلامي وقامت حروب جهادية ضدهم واستبسلت مدن واستسلمت أخرى... حتى قيّض الله للأمة بطلها صلاح الدين ومن قبله آل زنكي ومن بعده بيبرس والمماليك فحرروا البلاد ووضعوا حداً لتصاعد العدوان العسكري الصليبي الذي أخذ بالتراجع ثم بالانحسار الكامل مع الحملة الصليبية الثامنة مع لويس التاسع سنة ١٢٧٠.

ونتيجة لتغيير المعادلات وزعزعة الوضع العسكري الإسلامي وتردي الأوضاع العامة وتساقط المدن والأمصار... كان من الطبيعي أن تنشط محاولات التعاون والترابط مع الزاحفين الجدد سواء كان هذا التعاون قد تمَّ بدوافع دينية أم بدوافع المصلحة والابتزاز والتقرب من السلطان الجديد؟.

درسٌ من أنطاكية:

وليس غريباً أن تظهر مجموعة من الموارنة في لبنان تتعاون مع المحتل الصليبي الذي حمل الصليب في مقدمة زحفه بنية استخلاص القدس وما حولها من أيدي (الكفرة المسلمين) وفقاً لتعابيرهم... فجرى في البترون مثلاً (أول اتصال بين الصليبيين والموارنة الذين أمدّوا الصليبيين بإدلاء كانوا في أمسّ الحاجة إليهم) (٨٧).

ويبدو أن الصليبيين في حملتهم الأولى قد تعلموا درساً من حصارهم

الطويل لأنطاكية فهم لم يتمكنوا من احتلالها إلا بعد أن تواطؤوا مع (قائد أرمني) (٨٨) فخان هذا «القائد» ودلهم على ثغرات في السور فاحتلوها. . . ومع هذا فقد لاقوا أيضاً: «صعوبات عن يد النصارى «الهراطقة» في أنطاكية من اليونانيين والأرمن والسوريين واليعاقبة) (٨٩).

هذا الدرس استفادوا منه عندما وصلوا الساحل اللبناني فأخذوا يفتشون عن (أدلاء) يدلونهم في طريقهم إلى بيت المقدس فجرى الاتصال المحكى عنه بين بعض الموارنة وبين الصليبيين. . . فكانوا كشافة لهم وأعانوهم وأمدوهم بمساعدات. . .

بعض الموارنة أدلاء للصليبيين
وبعضهم الآخر أدلاء للمسلمين:

في اعتقادي أنه لا يجوز القول أن الموارنة قرروا ـ كمجموعة ـ التعامل مع الصليبيين فالمتعاونون يومئذ أفراد منهم فعلوه لمغنم طمعوا به أو لحمية دينية ظهرت فيهم أو لهذين معاً فالموارنة في ذلك الحين لم يكونوا يشكلون تجمعاً خاصاً يخضع لقيادة سياسية واحدة حتى يمكن القول أنهم اتخذوا قراراً جماعياً بالتعاون مع الصليبيين. . . فهم في عرف مؤرخهم فيليب حتي ـ كما رأينا ـ «كانوا أدلاء لهم» وإن كانوا قد أدوا لهم بذلك «مساعدات جليلة». . .

وفي اعتقادنا أيضاً أن بعض موارنة ذلك الزمن الذين تعاونوا مع الصليبيين الأوائل فعلوا ما فعلوه ـ في أحسن احتمال ـ تمشياً مع خطة أمراء مدن الساحل ـ فبنو عمار في طرابلس اتفقوا مع الصليبيين الزاحفين وأعطوهم المؤن والمال مقابل أن يتركوا طرابلس ولا يمسوا بساتينها بسوء. . . كذلك فعل أمير بيروت. . . دفعاً لشرهم الذي لم تكن لهم قوة على إبعاده ومحاربته. . .

ويؤكد ما ذهبنا إليه من أن الموارنة ككل لم يتعاونوا مع الصليبيين الزاحفين هو أن بعض موارنة الشمال تعاونوا مع المسلمين ضد الصليبيين عندما زحف (الجيش الدمشقي حتى سهل طرابلس في لبنان سنة ١١٣٧. . .) (٩٠) فسلّم أولئك الموارنة ذاك الجيش الزاحف (ممرات بشرى

(٩٠) وكانوا له (أدلاء) (٩٠) ويذكر وليم الصوري مؤرخ الحملة الصليبية الأولى وهو مطران صور ـ بعدئذٍ ـ وكذلك غروسية أن الصليبيين حمّلوا (خيانة المسيحيين اللبنانيين مسؤولية هذه النكبة. . .) (٩٠) فلما أن استعادوا طرابلس من جديد بعد هزيمتهم فيها حتى جمع ريموند الثاني رجاله (بالسر وصعد بهم فجأة في الجبل اللبناني. . . وأذاقهم أنواع العذاب) ويؤكد غروسيه أن في هذا الانضمام من مسيحيي الجبل إلى المسلمين تهديد بالانحياز إلى إحياء السلطة الإسلامية. (٩٠).

ويفسر السيد فؤاد قازان موقف الموارنة وانضمامهم إلى المسلمين ضد الصليبيين (بالحيف الذي لحقهم من جراء ترؤس وتسيد الصليبيين عليهم وإرغامهم على دفع الضرائب تماماً كما كانوا يفرضونها ويجبونها بالقوة في فلاحيهم) (٩٠) الأمر الذي أظهر الفروقات الكبيرة بين هؤلاء المحتلين الصليبيين الذين هم ـ بوجه عام ـ دين الموارنة وبين المسلمين الذين كانوا مع انحطاط دولتهم وتفسخها أرحم وأعدل وقد يكون هناك أسباب أخرى إضافة إلى السبب المذكور منها تدخل الفرنجة بعقيدة الموارنة ومحاولتهم التأثير فيها على وجه من الوجوه وهذا ما لم يحدث إطلاقاً في العهود الإسلامية. . . وقد تفسر رسالة البطريرك مخائيل الثالث بطريك البيزنطيين إلى البابا الكسندروس الثالث خلفيات تحرك مسيحيي الشرق بعد إجراء مقارنة سريعة بين العهدين الإسلامي والصليبي المحتل، فقد كتب يقول له (ليكن المسلم لا اللاتيني مدبراً أموري المادية فالأول لا يكرهني على الدخول في دينه وأما الثاني فإنه يبعدني عن الله) (٩١) وعلينا هنا أن لا ننسى ـ ما قدمناه ـ من أن الموارنة قد بدأوا بالتحول إلى الكثلكة وترك معتقداتهم الأولى في المشيئة الواحدة والطبيعة الواحدة في سنة ١١٨٠، كما ذكر وليم الصوري مؤرخ الحملات الصليبية، ويعني هذا جلياً أن الصليبيين قد باشروا محاولات التأثير في نصارى الجبال إثر احتلالهم لمدن الساحل ليغيروا معتقداتهم الأولى بمعتقدات البابوية. ويبدو أن تلك المحاولات كانت تتسم بالإغراء حيناً وبالتهديد والإكراه أحياناً أخرى مما دفع موارنة بشرى في شمالي لبنان إلى البقاء على ودهم للمسلمين وتسليمهم ـ كما رأينا ـ لجيش دمشق مسالك الطرق للوصول إلى طرابلس.

البدايات الأولى للتحول إلى الكثلكة
والتعامل المفتوح مع الصليبيين:

ويبدو أن «مكاسب» بعض الموارنة الذين كانوا أدلاء للصليبيين والانتقام الرهيب الذي حصل لبعض موارنة الشمال الذين أعانوا مسلمي الشام وطرابلس في هجومهم وثورتهم ضد إمارة طرابلس الصليبية، واستمرار التدفق الصليبي على بلاد الشرق الإسلامي وإنشاء الصليبيين الحصون والأبراج وإصرارهم بعناد على حكم هذه البلاد، والقواعد الاجتماعية العامة في التأثر بالمحتل وتقليده والتكامل الاقتصادي والحياتي معه، علاوة على التحول التدريجي في المعتقد الماروني لصالح عقائد البابوية في المسيح وبعض طقوس المذهب - كما سنرى - . . . أدى هذا كله إلى مقدمات راسخة في التعامل المفتوح مع الصليبيين من قبل مجموعات من الموارنة وبعض الأقليات المنحرفة عن الإسلام كالإسماعيليين وسواهم . . .

وقد تمكن كهان الموارنة بفضل اللغة السريانية التي كانوا ولا يزالون إلى وقت قريب يتعاطونها في عاداتهم وفي أدبهم وعلومهم اللاهوتية من أن يكونوا بداية اتصال معقولة بين الزاحفين الصليبيين وبين سائر أهل البلاد . . . علماً أن عدداً من الصليبيين تعلم العربية الفصحى وأخذ يكتب بها . . . وتزاوجوا مع سكان البلاد واستولدوا فكان أبناؤهم إلى العربية أقرب . . .

وقد كان للصليبيين تأثير مباشر على الموارنة فيما يتعلّق بمسائل المذهب فقد تخلّت المارونية عن طقوسها الدينية - وهي من أقدم الطقوس في الكنائس المسيحية - لتتبنى الطقس اللاتيني، ففي سنة ١١١٢ استعملت الكنائس المارونية الأجراس بدل نواقيس الخشب اقتداء بكنائس الإفرنج.

وفي سنة ١٢٠٣ تحول الطقس الماروني القديم إلى الطقس اللاتيني على يدي البابا أنوسنت الثالث.

وفي سنة ١٢١٣ زار بطريرك الموارنة أرميا العمشيتي رومه وكان أول بطريرك ماروني أقام علاقات شخصية مع المقر البابوي وبعد عودته أدخل «إصلاحات» فيما يتعلّق بالليزيجية (خدمة القداس وطقوس العبادة).

وحوالي سنة ١٣٣٦ تمّت سيامة مطارنة موارنة على أيدي رؤساء أساقفة لاتين غير أن اتحاد الكنيسة المارونية التام مع الكنيسة البابوية تأخر إلى سنة ١٧٣٦.

وإذا علمنا اهتمام (بابوات رومه) بالحروب الصليبية وفي دفعها وإيجاد مرتكزات أساسية لها في البلاد، أدركنا التخطيط الذكي الذي اعتمده (البابوات) في التأثير التدريجي على الموارنة وتحويل أذهانهم إلى رومة البابا وإلى أوروبا . . . ومن هنا يمكننا أن نفهم ما قاله فيليب حتي وما نقله عن البابا أنوسنت الثالث ورسالته التي وجهها إلى البطريرك العمشيتي (. . . فقد كان البابوات يبعثون برسائل إلى بطاركة الموارنة يشيدون فيها بحسن إيمان الكنيسة المارونية ورسوخ عقيدتها الثابتة ويشبهونها (بوردة- بين العليق) وأقدم رسالة من هذا النوع أرسلها البابا أرنوسنت الثالث يعود تاريخها إلى سنة ١٢١٣) (٩٢).

وهكذا دغدغ البابا الموارنة بمخاطبته إياهم وبتقديره لهم وبالثناء عليهم فتمكن من تركيز أمانٍ جديدة في نفوسهم عندما اعتبرهم (وردة بين العليق - يقصد المسلمين) خاصة وأن الصليبيين ومن ورائهم البابا - كانوا يحاولون التأثير على المسلمين واجتذابهم بطرق سلمية وودية - وهذه الفكرة - كما يقول فيليب حتي - هي أساس مبدأ التبشير المسيحي - فبعد الرهبنة الكرملية في القدس سنة ١١٥٤ أسس الفرنسيسكان والدومنيكان مركزاً لهم في طرابلس . . . وهو ما عرف فيما بعد بخطة «ليان» التبشيرية. (٩٣).

فمن الطبيعي والأمر كذلك أن يكون الموارنة أشد تأثراً من المسلمين وأن يفلح الصليبيون في (التبشير) فيهم واستمالتهم، لكن عندما ندرك هذا وذاك ندرك معه أيضاً أن الموارنة في بداية الحروب الصليبية وفي أثنائها لم يلعبوا إلا أدواراً محدودة في التعامل مع الفرنجة وأن هذا التعامل لم يكن جماعياً إذ أن الناحية الدينية عند الموارنة - وهي الأهم في زمن الحروب الصليبية، وهي أيضاً مفتاح القضايا السياسية والاجتماعية . . . - لم تتطور لمصلحة البابوية إلا في أوقات متأخرة، فضلاً عن أن الاتحاد بالكنيسة البابوية

لم يتم إلا في القرن الثامن عشر أثر مجمع سيدة اللويزة كما سنرى. . .

وهذه النتيجة تؤكد أن الموارنة، حتى في زمن الحروب الصليبية لم يكن لهم مركز سياسي متميز عن سائر المناطق بل خضعوا هم كما خضع سواهم من أهل البلاد المسلمين إلى حكم أمراء الصليبيين الإفرنج. . . غير أنهم منذ ذلك الحين بدأت تتفتح في نفوسهم أماني خطيرة وهي التطلع إلى وراء الحدود والتعاون مع أعداء الأمة وأعداء الأكثرية من أهل تلك البلاد سياسياً وعسكرياً. . . إذ أنهم قدّموا مجموعة عسكرية إلى لويس التاسع ملك فرنسا وقائد الحملتين السابعة والثامنة. . . وسنناقش رواية الموارنة لتلك المساعدة فيما بعد ـ كما أن البابا اسكندر الرابع أوصى في رسالة له سنة ١٢٥٤ إلى البطريرك الماروني سمعان الحدثي (بأولئك الصليبيين الذين لجأوا إلى جبال لبنان خيراً وطلب إلى البطريرك أن يحافظ عليهم) (٩٤).

***

التحالف المغولي الصليبي
وتوريط نصارى الشام:

وما أن بدأ الخطر الصليبي يتلاشى أمام ضربات المسلمين الشديدة. . . حتى برز في أقاصي الشرق خطر داهم كبير نعني المغول. . .

وباعتبار أن المطارنة في سوريا ولبنان كانوا على صلة بالبابا وبالتالي بـ(لويس التاسع) المعروف بالقديس قائد الحملتين السابعة والثامنة. . . وباعتبار أن تفاهماً قد جرى بين البابا ولويس على معاهدة المغول إذ أن أم هولاكو نصرانية نسطورية وقائد قواته كتبغا نصراني أرمني. . . ثم أن في ترابط الصليبيين مع المغول قوة خارقة بإمكانها أن تبيد المسلمين وتحقق ما عجزوا هم عن تحقيقه منفردين. . . أو هكذا خُيّل إليهم فنشأ حلف وثني نصراني ضد الإسلام والمسلمين. . . (٩٥).

انطلاقاً من هذين الاعتبارين يبدو أن النصارى في البلدان الشامية رحبوا بالمغول و(عندما دخل هؤلاء دمشق احتفى به المسيحيون) ثم كما يقول أسد رستم (شَمَخَ النصارى بسبب دولة التتر).

وقد ذكر المؤرخون أن المغول المحتلين لم يتعرضوا (بأذى بناء على أوامر طقز خانون ـ والدة هولاكو وهي مسيحية نسطورية ـ للسكان المسيحيين الذين لجأوا للكنائس التي لم يصبها شيء من الضرر وطرب المسيحيون في آسيا لسقوط بغداد التي اعتبروها بابل الثانية وأشاد كتابهم بهولاكو وطقز خانون فاعتبروهما قسطنطين وهيلينا. . . وهكذا ظهر المغول على أنهم الثائرون لنصرة المسيحية. . . وقد أرسلهم الله. . . لتحطيم الإسلام. . .) (٩٦) وعلى هذا تراءت الحملة المغولية وكأنها حملة صليبية. . . ومن هنا. . . فإن ظهور فرح النصارى بسقوط بغداد ترك أثاراً سيئة في نفوس المسلمين الذين عاملوا وتعاملوا مع نصارى البلاد على أرحم وأعدل ما يكون، ثم بعد ذلك يعتبر هؤلاء المصيبة التي حلّت بالمسلمين فرحاً؟؟ ومما لا ريب فيه أن فرح النصارى العارض وتعاون فريق منهم مع الإفرنج أديا إلى حذر وألم عند المسلمين فذُهِلَ هؤلاء مرتين: عند سقوط بغداد واجتياح المغول وعند فرح النصارى بمصائب المسلمين. . . وما يصدق في هؤلاء وأولئك قول المؤرخ الماروني يوسف دبس من أن التعامل مع الغزاة ضد مصالح البلاد (يُوَرِّث سكانها غوائل الخلاف). . . فكان لا بد وقد ظهرت نية جديدة لدى موارنة الجبل ونصارى الشام عموماً من أن يقوم قائد المسلمين بحركة تأديبية محدودة ضد هؤلاء المتعاملين مع الإفرنج والتتار، خاصةً وقد حقق انتصاراً حاسماً على الأعداء الخارجين. . . فكان أن فرض على النصارى واليهود ألبسة خاصة تميزهم عن المسلمين، بغية التنديد بأعمالهم العدوانية ضد أهل البلاد. . . (وانصب الحقد والكره اللذين ولدتهما الحروب الصليبية على النصارى من أهل البلاد. . . وفي عام ١٢٨٣ توغل جيش السلطان قلاوون إلى معاقل الموارنة في أعالي لبنان الشمالي إلى بشري وإهدن وحدث الجبة وخربها) (٩٧)

مع حملات السلطان قلاوون التأديبية
معاهدة صداقة مع أراغون وصقلية:

كما أن هذه الحملة شملت أيضاً بعض الفرق الإسلامية المنحرفة والتي تعاونت أيضاً مع الأعداء كالإسماعليين والنصيرية وبعض الشيعة. . . وقد

كان من أعنف هذه الحملات تلك التي وجهها الملك الناصر في بداية القرن الرابع عشر ضد كسروان وما حولها شملت الموارنة وبعض الدروز والنصيرية خاصة بعد أن أفتى شيخ الإسلام ابن تيمية بوجوب قتال المسلمين الخارجين على الإسلام..

ولم يكتف سلطان المسلمين في ذلك الحين بالحملات التأديبية ضد أعداء الداخل بل اهتمَّ بمنع كل مدد يصل إليهم من وراء البحار فقد كشف المطران يوسف دبس في كتابه (تاريخ سوريا) عن معاهدة صداقة وتفاهم مع السلطان قلاوون عقدها ألفونس الثالث ملك أراغون وأخوه يعقوب ملك صقلية فقد راسلا سلطان مصر وأرسلا إليه هدايا وأطلقا تزلفاً إليه، أسرى مسلمين كانوا عندهما. ثم كانت المعاهدة بتاريخ ٢٥/٤/١٢٩٠ وكان أمرها غير معروف في ذلك العصر ـ على حد قول المطران ـ وكان من بين بنودها أن لا يُنْجد الملكان (نصارى سوريا بسلاح أو مال أو بأي شيء كان ولا يعاونان البابا أو ملوك النصارى أو الروم أو التتر إذا حارب أحد هؤلاء السلطان..) (٩٨).

هذه المعاهدة التي كشفها دي ساي ونشرها المطران الدبس توضح حقيقة هي أن بعض الموارنة والنصارى كانوا قد اعتُبِروا من قبل سلطان الإفرنج، كمركز قوة داخل البلاد الإسلامية... وإن سلطان المسلمين كان على اطلاع بذلك.

محاولات التصحيح داخل
الكنيسة المارونية والعودة إلى الأصالة الشرقية:

ويبدو أن «البعض» الآخر من النصارى وبعض الموارنة لم يكونوا على رضى عما يتصرف به الآخرون... وهكذا ظهرت خلافات بين الكهان والأساقفة والبطاركة مما أدَّى إلى انقسام في الكنيسة المارونية فاستقلت جبيل والبترون عن بشري والجبة... كما أن البطريرك الماروني يوحنا في القرن الرابع عشر حاول أن يظهر استقلال الموارنة عن الإفرنج فرفض بعض الطقوس اللاتينية التي أخذت تتسرب ـ كما بينا ـ لِتَحِلَّ محل الطقوس المارونية

القديمة ويبدو أن صراعاً قد نشب حول هذا فكان البعض يرى أن العودة إلى طقوس اليعاقبة خير من الالتزام بالطقوس اللاتينية الغربية والغريبة عن تقاليد الشرق...

وكان قد سبق البطريرك يوحنا هذا، البطريرك لوقا البنهراني الذي رفع لواء العصيان على الفرنج وروما... والبطريرك لوقا من بنهران الواقعة في جبة بشري... وكان أول بطريرك جعل مقره في جبة بشري وبلدة بنهران بدلاً من بلاد جبيل والبترون.

وقد فسّر الأب يوسف ضو في كتابه (تاريخ الموارنة الديني والسياسي والحضاري) أن السبب في اختيار بشري هو أنها (لازمت منذ الصليبيين سياسة سلسة تجاه الدول الإسلامية المتعاقبة... و ـ منذ أن سهل أهالي بشري مرور بزواش التركي مع جيشه ـ الدمشقي ـ عندما زحف من بعلبك إلى طرابلس مروراً بجبال بشري وهاجم الصليبيين في طرابلس) سنة ١١٣٧ كما رأينا.

ويذكر الأب ضو بعض «الخيانات» التي تمت من قبل الموارنة علاوة على خيانة البطرك لوقا (أواسط القرن الثاني عشر) والبطريرك يوحنا (أواسط القرن الرابع عشر) مثل خيانة أهالي بشري الموارنة (ففي سنة ١٢٣٣ تسرب إلى وادي قنوبين الواقعة في حمى بشري ملك أو أمير مصري جاسوس تزيًّا بزي درويش واستمال جماعة من الرهبان في الوادي المقدَّس وأغدق عليهم عطاياه... لتفكيك الموارنة وزرع زؤان الشقاق والفتنة فيما بينهم... وأيضاً... تعاون سالم مقدم بشري مع المماليك عندما اجتاحوا الجبة مارين من إهدن إلى جوقا فحصرون فالحدث...) (٩٩).

وحاول الأب ضو قصارى جهده إخفاء الجانب السياسي في صراع الموارنة حول التعامل مع الإفرنج والتأثر بهم وبين البقاء على الأصالة الشرقية والعودة إلى التعاون الصحيح مع أكثرية أهالي البلاد وحكام المسلمين... فرغب في نسب فتنة الانقسام الماروني إلى اليعاقبة ـ وهم خصوم الموارنة منذ بداية وجود المذهب الماروني في سوريا كما رأينا ـ وبالتالي إلى مسائل لاهوتية

وهرطقات دينية ليس إلا . . . كان لها الأثر السيء على الصعيد السياسي «استغلها» الحكام المسلمون فقال (ويبدوا أن كل الفتن في تاريخ الموارنة بسبب اليعاقبة الذين كانوا يندسون فيما بينهم ويبثون الفتنة مما أدَّى إلى انقسام الموارنة ومن ثم إلى تنكيل المسلمين بهم) (١٠٠).

لكن سرعان ما يقع الأب ضو ـ فيما هرب منه ـ وهو الوجه السياسي لهذا الخلاف المرير بين مؤيد الإفرنج وبين المعارض لهم . . . وإن يكن قد وسم هذا الجانب السياسي بتخطيط جاسوسي لأجل السيطرة على البيئة المارونية ـ (هذا الترابط بين تسرب اليعاقبة وبدعتهم إلى داخل المارونية وانقسام الموارنة بين راذل وقليل للبدعة واكتساح المسلمين للوطن الماروني ـ كذا ـ هذا الترابط بين الحلقات الثلاث يوحي بالاعتقاد أن اليعاقبة كانوا جواسيس وعملاء يقذف بهم المسلمون في البيئة المارونية لتفسيخها تمهيداً لاجتياحها . . . وكان هؤلاء اليعاقبة على ما يبدو يستعملون أسلوب الرشوة والبرطيل والمال والهدايا مما مكنهم من استمالة بعض رهبان وادي قنوبين والمقدم سالم في القرن الثالث عشر والبطريرك يوحنا في القرن الرابع عشر وبعض المقدمين . . . وليس من المستبعد أن يكون المسلمون زودوا اليعاقبة الجواسيس بالمال للتقرب من الموارنة وزعمائهم بقصد تفتيتهم والتنكيل بهم واستغلالهم ـ كذا ـ هذه الفتنة التي أنشبت أظافرها في الموارنة في أواسط القرن الثاني عشر أيام البطريرك لوقا البنهراني . . . كان سببها راهبان مالا إلى بدعة اليعاقبة وجر البطريرك وكسروان معهما . . .) (١٠٠).

وكما فعل الأب ضو حاول أيضاً السيد فارس في كتابه التعددية ص / ٧١ إخفاء الجانب السياسي عن وجه الصراع الماروني ـ الماروني، إلا أنه كان أكثر فشلاً من الأب ضو قال: (المختلف حلفاء الصليبيين فيما بينهم ونعني هنا الموارنة خاصة، وقد لا يكون صحيحاً القول بأنهم اختلفوا بل الحقيقة أن البعض منهم قد خان الموارنة أولاً والمسيحيين الشرقيين ثانياً والصليبيين ثالثاً، والخلاف هذا، أم الخيانة هذه ظاهرة مستمرة في تاريخ الشعوب ولا يتخلص منها الموارنة . . .) فهو بعد أن أقر بوجود الخلاف حول المواقف العامة المتأرجحة بين الإفرنج المحتلين والمسلمين أصحاب البلاد

حاول بتهمة الموقف هذا باتهام الخيانة وهي تهمة تعارف عليها قرننا هذا بقذفها على من خالفنا الرأي والموقف . . .؟ ويؤكد الوجه السياسي للصراع قول السيد فارس بعدئذٍ (. . . فبشر رجال الكهنوت، هؤلاء بالعداء للغرب وقد أثر ذلك على وحدة الصف الماروني).

وفي اعتقادنا ـ كما بينا ـ أن الصراع والانقسام الماروني كان بسبب المواقف السياسية وبسبب محاولات رفض الكثلكة، وهو أمر طبيعي إذ أن الموارنة وإن كانوا على دين غير الإسلام مذهب الدولة الإسلامية . . . إلا أنهم كانوا قبل الإفرنج يعيشون ـ كما نوهنا من قبل ـ وكما قال المطران يوسف دبس ـ آمنين مطمئنين أخلدوا إلى السكينة ومارسوا عبادتهم بحرية وتاجروا وزرعوا وعوملوا معاملة عدل وإنصاف من قبل الخلفاء الأمويين والعباسيين كما أن الخلفاء لم ينكدوا عيشهم . . .

وأيضاً . . ذكر المؤرخ الماروني بولس نجيم ـ فإذا بهم عند دخول الإفرنج يتورطون في أعمال عسكرية ضد أهل البلاد مما جر عليهم الانقسام في الداخل وجعلهم عرضة لحملات التأديب من قبل المسلمين بعد أن هزموا الصليبيين ومن بعدهم المغول . . . ويبدو أن بعض بطاركتهم ورهبانهم قد تنبهوا إلى أن الفتنة الداخلية بين الموارنة لم تكن إلا بعد أن مال الموارنة إلى الكثلكة وتخلوا عن معتقدهم القديم بالمشيئة الواحدة والطبيعة الواحدة بفعل تأثير الإفرنج الصليبيين . . . فقرَّر بعضهم العودة إلى معتقدات الماضي تلك العودة التي فسرها الأب بطرس ضو بالجاسوسية اليعقوبية . . . ولنا أن نتساءل لماذا لم تكن الفتنة اليعقوبية قبل هذا التاريخ؟ أو لماذا سكتت الفتنة اليعقوبية منذ أمرهم معاوية بالإخلاد إلى السكينة ولم تظهر طيلة قرون؟ ألا يعني هذا أن المسلمين منعوا الفتن بين الفرقاء النصارى كما أن المسلمين لم يتدخلوا في تغليب فريق على آخر في مباحث لاهوتية بينما فعل الصليبيون عكس ذلك . . .؟ ألا يحق للبطاركة في ذلك الزمن أن يطرحوا الأسئلة على أنفسهم لينتهوا إلى محاولة رفض الكثلكة . . . !!

الحذر الإسلامي والتقاليد المارونية:

وعلى كل فمنذ أن تورط الموارنة في الأعمال السياسية ودخلوا آتون

الصراعات الداخلية وأقاموا الاتصالات مع الكرسي البابوي ـ أصبح ولاؤهم موزعاً بين الحكم الإسلامي وبين الإمارات الأوروبية وبدأ وضعهم يترجرج إذ أنَّ المسلمين باتوا حذرين منهم يشكون في مواقفهم وإخلاصهم للبلاد. . . .

إزاء هذا التفسير الخطير بدأ الموارنة، من غير وعي ذاتي، يجدون أنفسهم في اتجاه معاكس لأهل البلاد. . . وبدأوا يشعرون بذاتية خاصة وأدركوا من يومئذ أن عليهم امتلاك السلاح وتطوير القدرة العسكرية وأن يُكَوّنوا الخلايا وأن يحرصوا ـ فيما بينهم ـ على مزيد من الوحدة والتفاهم. . . .

وانطلاقاً من هذا التحليل للأرضية التاريخية للموارنة يغدو بإمكاننا أن نفهم أسباب التحريف التاريخي لماضي علاقاتهم مع الدولة الإسلامية ولعلاقاتهم المستجدة بالإفرنج وما بعدهم. . . فقد بدأت مع الرحلة الجديدة ما بعد الصليبيين في عهود المماليك المتأخرة ـ التحريفات التاريخية الأولى. . . إذ ظهر بين الموارنة ما يُسمى (التقاليد المارونية) وهي مجموعة الحكايات المتوهمة التي تضفي مزيداً من التحريف والاختلاق بقصد إذكاء الحماس وتشديد أواصر الود والألفة فيما بينهم وتأكيد تمايز شخصيتهم عن أهل البلاد وتبرير التعامل مع الأجنبي.

التقليد الأول: الموارنة أحفاد الفرنسيين!!

أولى هذه التحريفات الخطيرة من تقاليد المارونية هو ما ذكرناه في مستهل هذا الفصل من أن الموارنة هم أحفاد الفرنسيين. . . (تقول التقاليد المارونية أن ـ يوحنا مارون ـ (متحدر من الأمبراطور كارلوس الكبير (شارلمان) وأنه ابن أغانون بن شارلومان عم كارلوس الكبير نزل على الشواطىء السورية في إحدى حملاته وأنه أصبح باللاحق راهباً في دير القديس مارون وتخليداً للمؤسس المجيد لهذا الدير فقد يكون اسم يوحنا مارون سيشتهر به) (١٠١).

وقد أثبتنا عند ذكرنا لهذه الأسطورة بطلان هذه الرواية وننقل هنا ما أثبته السيد فؤاد قازان في نقد هذه الرواية الزائفة قال: (هذه الرواية لا صحة

لها ولا صحة للأساطير الأخرى التي تُرجِع تسلسل الراهب يوحنا مارون بأشكال أخرى إلى ملوك فرنسا سواء ما رواه جبرائيل اللحفدي الملقب بابن القلاعي أسقف قبرص في كتابه عام ١٤٩٠ أو البطريرك إسطفانوس الدويهي أو إبراهيم الحاقلي وقد أثبت السمعاني) أن الدويهي والحاقلي قد انخدعا برواية وكلام («عبد يشوع الصوباوي». . . وإن يوحنا (أي يوحنا مارون) هو ليس، (ابن الإفرنج ممن ذكره عبد يشوع إذاً ليس يوحنا مارون ولا يثبت قوله أنه كان إفرنجياً».

ويقول الخوري أسقف يوحنا داغر التنوري رغم كرهه للعرب ونكران حضارتهم وتهوسه بالفرنسية يقول: «ولكن يحتمل أن يكون أحد المتهوسين بحب الإفرنج أدخل متأخراً هذه الرواية في قصة هذا القديس» (يريد القديس يوحنا مارون) فلا ينبغي أن يكترث لها، هذا من جهة، ومن جهة أخرى فلا يعقل أن يكون يوحنا مارون من سلالة كارلوس الكبير الذي ولد عام ٧٤٢ وتوفي عام ٨١٤ في حين أن يوحنا مارون ولد سنة ٦٢٧ أو ٦٢٨ وتوفي سنة ٧٠٧) (١٠٢).

وهكذا تتضح الحقيقة التي أسلفناها من أن التحريف كان يقصد إبعاد الموارنة عن سكان أهل البلاد ويقصد تبرير تعامل بعضهم مع الأجنبي والتأكيد أن هذا التعامل ضرورة حتمية لحفظ الوجود المتميز واستمراره. . . غير أن المسألة لدى التمحيص التاريخي لا تعدو «هلوسة» كما ذكر التنوري.

* * *

التقليد الثاني: الموارنة يوفدون ٢٥ ألفاً إلى لويس التاسع ولويس يعلن الموارنة جزءاً من الأمة الفرنسية:

ومن تحريفات التقاليد المارونية ما ذكره المؤرخ فيليب حتي من علاقة الموارنة بالصليبيين ومن المؤسف أن مؤرخاً مثل فيليب حتي يروي التقليد الماروني دون أن يمحصه. . . ومن المرجح أنه كان بذلك يسير على تقليد ماروني آخر ليخدم به الاستراتيجية الجديدة في دولة لبنان الكبير فقد ذكر تحت عنوان (الموارنة وفرنسا والبابا) في كتابه لبنان في التاريخ ص / ٣٩٢ (وحسب

تقليد الموارنة فإن لويس التاسع كان أول صديق إفرنسي لهم تقول (الرواية أنه عندما نزل إلى البر في عكا تقدم إليه وفد مؤلف من خمس وعشرين ألف ماروني معهم المؤن والهدايا. وفي هذه المناسبة سلمهم رسالة مؤرخة في ٢١ أيار عام ١٢٥٠ فيها تصريح بأن فرنسة تتعهد بحمايتهم، يقول في هذه الرسالة: (ونحن مقتنعون بأن هذه الأمة التي تعرف باسم القديس مارون هي جزء من الأمة الإفرنسية).

ومن الطريف أن فيليب حتي وسائر مؤرخي الموارنة يذكرون هذا (التقليد الماروني) نقلاً عن الديبلوماسي الفرنسي رشتلهوبير في كتابه التقاليد الفرنسية في لبنان ويذكر بطرس بشارة كرم في كتابه (قلائد المرجان في تاريخ شمالي لبنان) إن كتاب لويس التاسع لا يزال محفوظاً» إلى اليوم غير أن رشتلهوبير نفسه الذي ذكر هذا التقليد وخبر الرسالة اللويسية نفى بشدة وجودها... فقد جاء في كتابه المذكور آنفاً معقباً على هذا التقليد الأسطوري: (قيل لي بعض المرات أن النسخة الأصلية لهذا الكتاب موجودة في إضبارات البطريركية المارونية. إن هذا غير صحيح حتى لوجود نسخة قديمة واحدة منها) (١٠٢).

وأيضاً فإن التقليد يذكر أن الموارنة أرسلوا وفداً قوامه خمس وعشرون ألف ماروني وهذا يعني أن من يرسل مثل هذا الوفد، في ذلك الزمن وبالنظر لظروف تلك الأيام وملابساتها... فإن عدد الموارنة ينبغي أن لا يقل عن نصف مليون، فإذا علمنا أن عدد الموارنة الحقيقي في لبنان كان أيام الصليبيين لا يزيد عن أربعين ألف نفس حسب قول الصليبيين أولئك الذين عاشروهم - ووفق ما رواه كبريل هانيتوس عن الأكاديميا الفرنسية في مقدمة لكتاب رشتلهومبر (التقاليد الفرنسية في لبنان) ونصُّ كلامه (أن عددهم حسب الصليبيين الذين عاشروهم تماماً (هو أربعون ألف نفس) (١٠٣).

وأيضاً فإن عددهم سنة ١٧٨٤ لم يتجاوز مئة وخمسة عشر ألف نسمة كما ذكر الرحالة فولني (١٠٣) إذا علمنا ذلك أدركنا مدى أسطورية التقليد الماروني المروي أعلاه وبطلانه.. كما أن نفي وجود أصلٍ للرسالة اللويسية

التي أدْعي فيها التقليد حمايةَ فرنسا للموارنة وأنهم جزء من الأمة الفرنسية ينبئنا لأي سبب اخترع هذا التقليد وذلك في محاولة لعزل الموارنة عن أية أصول مشرقية ولمحاولة دمجهم بحضارة الغرب الصليبية وأنهم إنما يمثلون في لبنان وجوداً أوروبياً لا يمت للعرب بصلة... وبذلك غدت فرنسا أمهم الحنون كما عبروا ويعبرون...!! ولا ننسى هنا ما ورد في قصة الماروني الصادرة عن قسم التاريخ في جامعة الكسليك حيث ذكروا أن الموارنة هم من أصول هندية - أوروبية كما نوّهنا من قبل؟.

ومما يؤكد أيضاً عدم صحة الرسالة أنَّ لويس التاسع كان عندما وصل إلى عكا في منتصف مايو سنة ١٢٥٠ في وضع نفسي لا يسمح له (بعرض عضلاته) والتلويح بحماية فرنسية لموارنة لبنان ذلك أنه كان قد خرج لتوه من الأسر في مصر بعد أن هُزم هزيمة منكرة هناك وكان هو بذاته أسيراً فك نفسه بدفع ٨٠٠ ألف قطعة ذهبية وجلا هو وسائر جنده عن مصر... ويعني هذا أنه كان على يقين بعدم قدرته وقدرة جيشه على حماية نفسه فلا يعقل والأمر كذلك أن ينوه بحمايته لموارنة شمالي لبنان!! زد على ذلك أن تاريخ الموارنة وفقاً للتقاليد الأسطورية، لم تتكلم عن استخدام لويس التاسع لهذه القوة، (خمس وعشرين ألف) في حين أنه كان يرسل من عكا نداءات الاستغاثة إلى فرنسا طلباً للنجدة ولم يترتب على هذه الاستغاثات إلا ما عرف بحملة الأطفال، قضي عليها في مهدها في فرنسا... إذ لم يكن فيها إلا عدد قليل من الفرسان أعلن استعداده تلبية نداءات لويس التاسع القديس...!!!

فلويس إذن كان في أمس الحاجة إلى مدد... وكان حتماً مقضياً عليه وأمامه خمسة وعشرون ألف - من أهل البلاد - أتوا ليرحبوا به وليعرضوا عليه خدماتهم (ونضالهم) - وهو عدد يماثل عدد جيش المملكة اللاتينية في بيت المقدس آنئذ - أن يستعمل هذا الجيش الماروني الجديد - الذي بإمكانه أن يجيش بديلاً آخر - كما هو مفروض في المفاهيم العسكرية - بما لا يقل عن أضعاف هذا العدد - بدل أن يستمر في إرسال الاستغاثات أو ريثما يصله العدد من هناك...!!!

ثم هل يعقل أن تجهيز هذا الوفد الهائل بساعات معدودات فيصل خبر قدوم لويس التاسع إلى عكا (١٥ آيار) بساعات إلى موارنة الجبل فيجتمع من بيده الأمر الجامع ـ على افتراض وجودهم ـ فيقررون تجهيز هذا الوفد الهائل فيتم هذا بسرعة فائقة ثم ينتقلون على جناح السرعة ليكونوا في ٢١ آيار أمام لويس التاسع المنسحب من مصر فيقرر هذا حمايتهم ـ وهو الذي يحتاج إلى من يحميه ـ ويجري كل هذا في أيام خمسة... إن مثل هذا التدبير لا يتم حتى في أيامنا إلا بعد حين... فكيف في ذلك الزمن حيث لا مواصلات سلكية ولاسلكية ولا مواصلات نقل معقولة؟؟؟ زد على ذلك أن الرسالة المزعومة وجهت إلى أمير الموارنة الزمني... وإلى البطرك دون أن تسميه ومن المعلوم أن الموارنة لم يكن لهم أمير في ذلك الحين... فتأمل!!!

وما يؤسف له أن عدداً من المؤرخين المحدثين (غير الموارنة) يوردون هذا التقليد دون مناقشة فيعتبرونه من المسلمات رغم كل ما فيه من إرجاف وافتراء وتزوير.

* * *

التقليد الثالث: انتصر صلاح الدين ففرّ الملك الفرنسي فتبعه الموارنه إلى قبرص:

ويتابع السيد فيليب حتي رواية التقاليد الأسطورية فيقول (وبعد أن استولى صلاح الدين على بيت المقدس فرَّ الملك دي ليزنيان إلى قبرص فتبعه جمهور كبير من الموارنة واستوطنوا الجبل الذي يقع شمالي نيقوسيا...) (١٠٤).

وهكذا تترسخ في أذهان الموارنة والأجيال الصاعدة فيهم أساطير تتحول مع الزمن إلى حقائق ويشعرون في أعماقهم أنهم كانوا من زمن بعيد ضد انتصارات البطولة في هذه البلاد وأنهم ضد أماني شعبها وأنهم ليسوا من أهلها وأن تطلعاتهم تنصب دائماً إلى الخارج فإذا ما انتصر صلاح الدين اعتبروا ذلك ضربة موجعة لهم فهجروا البلاد إلى قبرص... لحاقاً بالفرنسيين ومن شاكلهم...

ويعقب فيليب حتي على ذلك بقوله (وقد استمر هذا الود التقليدي بين الموارنة والغرب في الأجيال التالية كما حدث لما أرسل نابليون الثالث فرقة إفرنسية لتهدئة الجبل عام ١٨٦٠ وكما جرى بعد الحرب العالمية الأولى عندما وقع لبنان تحت الانتداب الإفرنسي).

ويتبين من هذا التعقيب الخلفية التاريخية التي أراد الموارنة أن لا يؤكدوها في ذاكرة أجيالهم تحقيقاً للإستراتيجية التي من أجلها زوروا التاريخ وحرفوه جاعلين من أنفسهم تابعاً بسيطاً للمطامع الغربية في هذه البلاد...

التنظير الجديد في التقاليد:

أفضل مقاتلي الحملات الصليبية موارنة
والموارنة شاركوا في حكم البلاد المفتوحة!!

غير أن مؤرخي المارونية الجديدة ومنظريها ـ ما بعد الحرب اللبنانية ١٩٧٥ ـ وقد عبأتهم التقاليد المارونية القديمة كما عبأتهم السياسة والأحزاب منذ الانتداب الفرنسي حتى الأحداث الدامية في لبنان في سنة ١٩٥٨ و١٩٧٥... انطلقوا يروون التاريخ على هواهم ويحللون الأحداث على إرادتهم ويقومون بدورهم في التعبئة والإعداد المعنويين للأجيال الجديدة...

وبروحية هذه التعبئة الخطيرة كتب أولئك المنظرون والمؤرخون التاريخ من جديد وحللوا الأحداث على وجه رهيب حتى أنهم لم يترددوا في الطعن بأهلية الصليبيين القتالية وجدارتهم الحربية من أجل إبراز المهارة المارونية القتالية (المزعومة) فقالوا دون خجل (إن أفضل المقاتلين في الحملات الصليبية لم يكونوا أوروبيين بل مشرقيين مقهورين منذ عدة قرون)... (١٠٥)... علماً أن الفئة المارونية التي تعاملت مع الصليبيين في بداية الحملات كانت فئة قليلة من جبال البترون وكانوا يقومون بدور الإدلاء والكشافة... كما بينا.

غير أن الخيال لا حدود له وبصورة دراماتيكية يكتب المنظرون الجدد:

(... فالتحالف بين الموارنة المردة والصليبيين سرعان ما تحول إلى التحام عضوي بين الفريقين وامتزجت دماء مسيحيي الشرق بدماء مسيحيي

الغرب في معاركهم المشتركة لاسترجاع أراضيهم وحقوقهم) (١٠٥)...

وبأسلوب من عشق الحكم واستهواه يقرر المنظرون الجدد (... ولم يكتف الموارنة بالمشاركة العسكرية بل تعدوها إلى المشاركة السياسية فحكموا بلادهم مع الأمراء والقيادات الصليبية وكان لهم رأي في إدارة شؤون المناطق المفتوحة (١٠٥) وهذا الكلام لا أساس له من الصحة - تاريخياً - وهو لا يعدو كونه أمنية متوهمة داعبت خيال المنظرين الجدد فلما سطروها فرحوا بها واعتبروها حقيقة تاريخية... وهي بالأسطورة الصق.

ويتابع التنظير الخطير تخيلاته ليمنح موارنة القرن العشرين مزيداً من العزلة وتبريراً واضحاً في كل تعامل مع الغرب وإسرائيل... (فكانت للمسيحيين الشرقيين فرصة في أن يجددوا الاتصال الروحي والحضاري مع إخوانهم الغربيين بعد أن طال الانقطاع عنهم - عدة قرون من جرَّاء الحصار العربي الذي فرض على أجيال الأمة اللبنانية المسيحية... والحياة أيام الصليبيين كان ثغرة رأى المسيحيون الشرقيون من خلالها نور الشمس في قطعة من سماء زرقاء في أجواء الشرق الملبدة بالسحاب الأسود منذ أن عصفت الرياح الخمسينية الجنوبية في القرن السابع. (١٠٦).

إن هذا الأسلوب الخطير في تحليل المواقف وترسيخه في عقول الأجيال المارونية ونفوسها من شأنه أن يوجد هوة سحيقة لا قرار لها بين سكان البلاد وبين الموارنة والمسيحيين من جهة وبين المسلمين من جهة أخرى ذلك الأسلوب الذي يؤكد ما أسلفناه - في بداية البحث - من أن التنظير الجديد هدف إلى إيجاد هذه الهوة وإلى محاولة تقليد الصهيونية في تبرير شرعيّتها وتمايزها وفي امتداد «وطنها» إلى ما وراء فلسطين بين النيل والفرات. كما هدف إلى إشراب نفوس الموارنة الحقد والكراهية للحضارة العربية الإسلامية وإلى كل ما هو عربي... ففي تسمية الحضارة الإسلامية بالسحاب الأسود الذي غطى السماء الزرقاء، تلك التي لم يروها إلا على أثر وجود المحتل الصليبي، أكثر من الحقد وأكبر من الكراهية. حتى أن أساطين الإفرنج أنفسهم بل المستشرقين وأبرع الحاقدين على الإسلام والمسلمين لم يصلوا إلى هذا الدرك الرهيب من الغيظ والحنق.

الكسليك: تصفية الوجود العميل في الجبل
أوجد الغصة والألم في نفوس الموارنة.

وبمنطق أن الموارنة دولة مستقلة - في عرف المنظرين - كانت مرتبطة بمعاهدات ومواثيق مع الأمويين والعباسيين - وهو ما أثبتنا كذبه وتحريفه - يرتب المنظرون الجدد النتائج على تعاون - تلك الدولة المتوهمة مع الصليبيين (فإن فئة من الموارنة فعلوا وقاتلوا دفاعاً عن الصليبيين... وشنوا الغارات على العرب نصرة لمسيحيي الغرب المهددين في أواخر عهدهم الشرقي. والجدير بالذكر هنا أن المسيحيين السوريين واللبنانيين بمن فيهم الموارنة قد دفعوا غالياً ثمن مساعدتهم للصليبيين. فالمردة كانوا مرتبطين بمعاهدات اعترف الحكم العربي من جرائها بوجودهم المستقل - كذا - وقد سقطت هذه المعاهدات بنظر العرب بتعاون الموارنة والمسيحيين عامة مع الصليبيين فلم يعد يعترف العرب بأي وجود عربي على أرض الشرق وقد حطموا استقلال لبنان... ولكن المواثيق بدأت تسقط بالنسبة للبنانيين منذ أن قام العباسيون باعتدائهم على الجبال اللبنانية وخاصة عندما أطلقوا الحملة الاستيطانية العربية وشجعوها ودعموها...).

وبعد أن يقرر (أن مئات السنين التي قضاها الصليبيون في الشرق قد أعادت لفترة من التاريخ وجهاً مسيحياً لقسم من الشرق جاعلة من المنطقة هذه أرضاً لكل الحضارات وليس حكراً على وجه وحضارة...) يعلن تراجع الصليبيين و«تحرير» الشرق من جديد ولم يبق أمام المماليك لكي تستتب العروبة على أرض الشرق وتنهض إلا «خنجر في خاصرتها» وقد آلمها كثيراً أثناء الاحتلال الصليبي للوطن العربي والخنجر هذا هو لبنان - كذا - فارتدَّ المماليك على المسيحيين المستقلين - كذا - وجهزوا حملة ضخمة لينهوا الوجود العميل في الجبل اللبناني) (١٠٧) وفي العبارة الأخيرة صدق السيد فارس - ولو مرة واحدة -.

وهكذا ترتب على تعاون الموارنة مع الصليبيين ومن بعدهم مع المغول - كما رأينا تصفية العملاء في الجبل - وهذا حق من حقوق الدولة بلا ريب... غير أن المنظرين الجدد الذين منحوا الموارنة من أول يوم دولة

مستقلة ارتبطت بمعاهدات ومواثيق مع الخلفاء... رتبوا على إنهاء العملاء في الجبل (نهاية الاستقلال اللبناني المسيحي التاريخي - تلك النهاية التي أتت على يد المماليك وأعوانهم، بهجومهم المشترك على قلب لبنان وتصفية شعب بكامله وتهجيره واحتلال أرضه واستيطانها) كذا.

... وبأسلوب دراماتيكي يقرر (ومنذ تلك الحملة لا نستطيع أن نتكلم عن استقلال تام للشعب المسيحي اللبناني أو السوري في الشرق حتى يومنا هذا...) (١٠٨) وبذلك يوحي المنظرون - على زعمهم - أن الوطن المستقل المزعوم كان حقيقة واقعة لم ينهها إلا الوضع المترتب على انحياز الموارنة إلى الصليبيين نتيجة الارتباط العضوي والعقيدي ونتيجة انتصار العرب والمسلمين على الإفرنج... وكأنهم أرادوا أيضاً من ذلك، أن يوجدوا الغصة والألم في نفوس الأجيال المارونية التي يتعين عليها أن تنهي تلك الصفحة الطويلة السوداء «بإعادة الاستقلال إلى ربوعهم... وهو ما يظهر جلياً من خلال كتاب التعددية في لبنان عندما يطرح» إعلانه الدراماتيكي لنهاية الاستقلال المزعوم مشفوعاً بمجموعة أسئلة:

١ - ما حصل بالملايين الذين لا يتصلون بأي شكل بعروبة القرن السابع والذين سكنوا مناطق أضحت اليوم عربية؟ وفي الجواب هنا نستطيع المناورة: تصفية أم ذوبان.

٢ - لماذا أرادت العهود العربية إزالة الوجود اللاعربي في المنطقة - يقصد الموارنة - مع أن هذا الوجود شرقي وربما أكثر منها.

٣ - هل أن النية العربية التاريخية لا تزال هي نفسها في القرن العشرين وهل تحل مشاكل المنطقة اليوم ضمن نفس الهمجية وفي ذهنية واحدة؟.
الجواب: يكمن في ما يحصل اليوم) (١٠٩) أي في حرب السنتين ٧٥ - ٧٦ وما بعدها...

وبهذا الأسلوب تتضخم المشكلة وتغدو كالمسألة اليهودية لها جذور تاريخية - متوهمة قطعاً - وينبغي أن تتضافر الجهود لحلها باعتبار أن المسألة المارونية - في وجهة نظر المنظرين الجدد - قد غدت شرعية في مقابل شرعية

المسلمين في الأرض اللبنانية الممنوحة لهم بواسطة الفتح والقوة - وعلى هذا (نرى أن كل فريق على أرض لبنان يتمسك بحق طبيعي ويقاتل لأجله وتستمر حرب الطرشان حرباً حقيقية بين شرعيتين لا تعترف واحدة بالأخرى...) (١١٠).

وبهذا التضخيم المكشوف ظن المنظرون أنهم وضعوا اللمسات الأساسية على المشكلة اللبنانية وأعادوها إلى جذورها... (إن المشاكل القاسية التي تعانيها المنطقة اليوم خاصة على الساحة اللبنانية تمتد جذورها إلى تاريخ بروز النية العربية في المنطقة بعد أن تأكد لها أنها بقوة تستطيع سحق كل من لا يماشيها). (١١١).

* * *

مراسلات بطاركة الموارنة
والبابا... حتى ١٥١٦:

ويروي الأب يوسف ضو في كتابه تاريخ الموارنة تفاصيل مراسلات قيل أنها تمت بين بطاركة الموارنة وبين البابا في القرنين الخامس والسادس عشر... حتى انتصار الدولة العثمانية في «معركة مرج دابق سنة ١٥١٦... وتعود أهمية هذه المراسلات إلى رسم طبيعة تطور علاقات الموارنة بالخارج، فضلاً عن القضايا اللاهوتية وما كان يترتب على بعضها من نتائج سياسية على صعيد ولاة المماليك في مدن الساحل اللبناني وبخاصة طرابلس.

وقبل أن نذكر بعض الوقائع الهامة... لا بد من مقدمة عجلى حول الظروف الدولية والمخططات والمؤامرات ضد هذه البلاد في ذلك الحين.

فقد ذكر الأب فرانسيسكو سوريانو - وكان رئيس دير الفرانسيسكان في بيروت ومعتمد البابا لدى الموارنة أنه في أيامه - أي في النصف الثاني من القرن الخامس عشر - (حاولت البندقية شراء هذه المدينة - صور - من السلطان ففشل المسعى... والبابا أوجين - تولى البابوية من سنة ١٤٣٨ - ١٤٤٧ - فكر مع الفونس ملك نابولي أخذها - أي صور - بالقوة ولكن الموت قضى على المشروع - أي موت البابا -) (١١٢).

وهكذا فإن التاريخ على ما يقال يعيد نفسه، فكما أنَّ الصهيونية العالمية حاولت شراء فلسطين، أو بعضها من السلطان عبد الحميد في بداية القرن العشرين، لإقامة وطن قومي لهم... وعرضوا عليه المال الوفير - هكذا - كان شأن الباب وأوروبا النصرانية في النصف الثاني من القرن الخامس عشر... فقد سعوا - على ما رأينا - لدى السلطان المملوكي لشراء مدينة صور - فرفض... إذ أن التخطيط الصليبي كان يهدف من وراء ذلك إلى إقامة قاعدة شرعية تقوم على غير الاحتلال... بعد فشل الأساليب العسكرية في تحقيق الأهداف الصليبية - أي تقوم على أملاك شرعية مشتراة بالمال فيغدو بإمكانهم - بعد ذلك - أن ينطلقوا من هذه القاعدة لتحقيق مخططاتهم التبشيرية الرهيبة... إلا أن الخلفية الإسلامية الصحيحة لدى السلطان المملوكي هي إياها عند السلطان عبد الحميد... لذلك كان الموقف واحداً.

الأب ضو يؤكد أن (هم البابوات وبعض زعماء الغرب - كان - من جهة أخرى مادة في تنظيم حملة صليبية جديدة في القرن الرابع عشر لإعادة ترميم ثورة المسيحيين الأوروبية في الشرق ولكن لم تخرج خططهم بهذا الشأن إلى حيز التنفيذ) (١١٣).

المماليك يرتابون ويراقبون
تحرك البطاركة:

فمن حق المماليك - إذن والأمر كما ظهر وفقاً للوثائق المتوفرة لدينا ومن المحتم أن يكون عندهم يومئذٍ منها الشيء الكثير - أن يخشوا تلك المراسلات بين بطاركة الموارنة وبين البابوات... إذ أن هؤلاء كانوا يخططون مع أمراء المقاطعات لحملات صليبية. ومن الطبيعي والأمر كذلك أن يكون انفتاحهم على مسيحيي الشرق - ومنهم الموارنة - انفتاحاً مقصوداً لا لذاته فحسب بل لاحتمال أن يكون الموارنة طابوراً خامساً في معارك قادمة... وقد اعترف الأب ضو بشكل غير مقصود بالخلفية السياسية لتلك الرسائل فقال (هذه البعثات والرسائل المتبادلة بين الكرسي البابوي والموارنة أثارت ريبة وغضب المماليك وعمالهم في طرابلس مما أدّى إلى عاصفة اضطهاد ضد الموارنة) (١١٤).

وينقل الأب ضو عن تاريخ الأزمنة للمؤرخ الماروني الدويهي... حدثاً يستدل منه على أمور - نوضحها بعد أن نقرأ خبر الحدث المذكور:

فقد أرسل البابا أوجين الرابع سنة ١٤٣٨ - وهو إياه الذي كان يخطط لحملة صليبية تبتدىء بصور - رسالة إلى البطريرك الماروني يوحنا الجاجي يعلمه فيها بأنه قرَّر عقد مجمع لاتحاد الكنائس... فسارع البطريرك (لتقديم الطاعة والإعراب عن القبول بكل ما يحدده ويقرره المجمع ولطلب درع التثبيت البطريركي) (١١٤) (فثبته - البابا - بطركاً على كرسي انطاكية وأنعم عليه بدرع الرئاسة... وفي التشارين - أي شهر تشرين أكتوبر - كان قدوم البادري فراجون - مبعوث البابا - ورفاقه إلى مينة طرابلس فلما شاع الخبر بوصول التثبيت للبطرك صار فرح ورهجة... حتى أن نائب طرابلس قبض على فراجوان ورفاقه من الوهم أن ملك الروم ما دخل بلاد الفرنج ولا صار المجمع إلا ليكن مشدهم واحد لاستخلاص الأرض المقدسة من يد سلطان مصر. ثم أن البطرك يوحنا جهز ناس يكفلوهم ويطلعونهم وبعدما طلعوا إلى دير ميفوق قرب طرابلس - قدموا له مكاتيب البابا ودرع مقام الرئاسة توجهوا إلى بيروت. فلما بعث النائب يطلبهم ولم يحضروا قبض على الكفلاء ونهب بيوتهم، وقتل ناس منهم وكانوا من أعيان الطائفة). (١١٥).

ومن هذا الحدث يتبين أن المماليك كانوا يرقبون حركات البطاركة واتصالاتهم بالبابوات وكانوا لا يطمئنون إليها... وكانوا يخشون من حملات صليبية جديدة تستخدم الموارنة ضمن خطة معدة مسبقاً، خاصة وأن البطاركة بدأوا يطلبون درع التثبيت من البابا وهو أمر لم يكن من قبل... كما أن هذا الحدث يكشف أن والي طرابلس قد أراد أمراً ما بتركه الوفد البابوي وشأنه - فهو لا يريد من جهة جعل هذا الاعتقال في حال استمراره سبباً مصطنعاً لحملة صليبية يخططون لها كما يريد من جهة أخرى استكشاف النوايا الحقيقة لدى الفريق الماروني... فقد ترك نائب طرابلس الوفد - بتدخل من البطرك - لقاء كفالة إحضار - كما سماها صاحب كتاب تاريخ الأعيان - وكان من الطبيعي أن يطلب إلى الوفد الحضور إليه - فلما هربوا مع البطرك - كان من الطبيعي أن ينتقم (أرسل - والي طرابلس - عسكراً في طلب البطرك والكفلاء

فهربوا...) (٨٧)... إذ أن في هذا الطلب والإحضار تأكيد سيادة وشرعية السلطة على جميع المقيمين والرعايا وإن كانت تلك السيادة لم تردع البطرك عن علاقاته الخارجية فأرسل هذا يشكو إلى البابا يصف ما أصابه وطائفته بمناسبة قدوم الوفد البابوي فبعث البابا أوجين رسالة (يمدح فيها البطريرك على احتماله النهب والقتل والاضطهاد والضيق في سبيل المحافظة على الدين القديم والعلاقات مع الكرسي الرسولي) (١١٦).

بين البطاركة والمقدمين:
انقسام الرأي حول العلاقات السياسية
والبابا يتدخل لمصلحة البطاركة:

ويبدو أن بعض مقدمي الموارنة وبشري في الشمال ـ وهم الولاة الإداريون (١١٧) التابعون لنائب طرابلس كانوا على غير وفاق مع البطاركة في تصرفاتهم وعلاقاتهم غير العادية مع رومه... مما أزعج البطاركة وسبب انقساماً في الرأي بين الموارنة حول العلاقات السياسية مع المماليك وأوروبا... (إذ كانت الصعوبات والمضايقات تكتنفهم ـ أي الموارنة لا من جانب المماليك فقط ولكن من جانب بعض الحكام الفرنج في جزيرة قبرص، وأحياناً من جانب المقدم الماروني نفسه) (١١٨).

وكان البطاركة يحاولون التأثير على المقدمين بمختلف الوسائل ومنها الروحية واللاهوتية فكان من البطاركة من يستعين بالبابا ليحيط البابا المقدم الأكبر بأكبر عناية ويخصه بالتمجيد والتحبب والإشارة والتلويح بالغفران والمكافأة الأبدية والدنيوية وبإرسال الهدايا... كل ذلك من أجل التنسيق الكامل مع البطريرك وبالتالي مع الكرسي الرسولي... (حتى إذا كنت كذلك تستطيعون) بعون الله أن تزدهروا بأفعالكم وتتطهروا بأفكاركم وتتحرروا من عبودية غير المؤمنين...) ـ كذا ـ (١١٩).

وهكذا استمر البطاركة على الاتصال بالبابوية التي استمرت في «تصدير توجيهات معينة ساعدت على زيادة لحمتهم معها وباعدت بينهم وبين مجمل سكان البلاد من جهة أخرى وأوجدت نزاعاً محدوداً بين الموارنة أنفسهم كان

في أحد طرفيه الولاة الإداريون التابعون لنائب طرابلس المملوكي وكان في الطرف الآخر البطاركة والرهبان ويعتبر ذلك بداية حاسمة لتبدل جوهري في بنية الموارنة الاجتماعية والسياسية الآخذة في التكون... فأسفرت عن مزيد من السلطة البطركية على أبناء الطائفة على حساب المقدمين... إلا أن تفرد البطاركة بالسلطة السياسية على الطائفة قد تأخر إلى القرن الثامن عشر كما سنرى.

ويهمنا هنا أن نؤكد رؤية باتت واضحة وهي أن تدخل البابوية في شؤون الطائفة الكنيسة المارونية لم تكن لضرورات دينية بل لأمور سياسية تدخل ضمن استراتيجية البابوية ـ في ذلك الزمن ـ والتي هي امتداد للحرب الصليبية وتنفيذ لخطط التبشير الهادفة إلى محاولة جديدة للإستيلاء على الشرق... فقد رأينا كيف أن البابوية كانت تفكر في شراء مدينة صور وما حولها من بساتين فعندما رفض السلطان المملوكي وضعت الخطط العسكرية للاستيلاء عليها بالقوة فإن كانت البابوية تملك مخططات من هذا النوع ألا يكون تقربها من الموارنة وهم سكان البلاد تقرباً مصطنعاً هدف إلى إيجاد ثغر يمكن أن تنفذ منه مخططات الصليبية الدولية؟؟ ثم ألا يكون في تعاون هؤلاء مع تلك المخططات جريمة بحق الأمة والوطن!!؟.

ولا بد هنا أيضاً من الإشارة إلى المواقف الحميدة لبعض رجالات الموارنة المعتمدين من قبل نيابة طرابلس فهؤلاء كانوا على نقيض الاتجاهات البطركية فيما يتعلّق بالمخططات البابوية فكانوا يرون أن مصالح الموارنة واستقرارهم آمنين مطمئنين هي في اتباع نهج أجدادهم الأوائل مع الدولة الإسلامية الأموية والعباسية القائم على الاعتراف بسيادة الدولة عليهم وعلى أراضيهم طالما أن الدولة الإسلامية قد ضمنت لهم حرية العبادة والعقيدة وكافة المصالح الاقتصادية والحياتية الأخرى... وبذلك اطمأنوا هم إلى (أن الخلفاء لم ينكدوا عيشهم) أما إذا تغير النهج وأشرأبت أعناقهم إلى ما وراء الحدود وإلى تعامل جماعي وبطريركي مع أعداء الدولة فإن من المحتوم على حماة الدولة أن ينكدوا عيش المتعامل مع العدو...

هذا الصراع بين رأسي المارونية: المتقدمين، وكان الناس يتبعونهم حياتياً

وسياسياً واجتماعياً، والبطاركة وكان الناس يتبعونهم دينياً وكنسياً. . . هذا الصراع سيكون له معقبات هامة في مسار الطائفة ومسار البلاد كما سنرى. . .

ويبدو أن تطلع رجال الكنيسة المارونية نحو (تحجيم) الزعامة المدنية المارونية وحسم الصراع لمصلحتهم والحلول محل المقدمين في السيادة على أبناء الطائفة كان من أبرز الدوافع لمزيد من ارتماء البطاركة في أحضان البابوية تلك التي عرفت كيف تستغل هذا الصراع وتوظفه لحسابها ضمن مخططاتها. . . ؟

المراجع والمصادر للقسم الأول

١ ـ فيليب حتي / لبنان في التاريخ ـ حاشية صفحة / ٣٠١ وانظر أيضاً «تاريخ الموارنة».

٢ ـ الأب ضو / الجزء الأول ص / ١٥ حيث ذكر (وكان من الشائع أن يشار إلى أي قديس كبير أو حبر بلفظة مورن أي سيدنا وأحياناً يستعاض عن اسمه بهذه اللفظة: وكتب الأب ضو كلمة مورن بالسريانية ـ تاريخ الموارنة للأب بطرس ضو الجزء الأول ص ٧٥ و ٧٦.

٣ ـ حاول الأب بطرس ضو في كتابه تاريخ الموارنة الديني السياسي والحضاري الجزء الأول أن يضع ترجمة للقديس مار مارون وبعد أن نقض مجموعة روايات اختلفت في تاريخ موته ومكان حياته أنتهي إلى أن القديس مات حوالي سنة ٤١٠ وأنه لم يكن في أفاميا ولا في الدير المسمى بدير الراهب في بلاد الهرمل في البقاع حيث ينبع نهر العاصي ولا في بلاد قورش البعيدة ـ نحو سبعين كيلو عن حلب لجهة الشمال الغربي وإنما عاش في جبل يسمى اليوم جبل سمعان الواقع بين حلب وقورش وكان يسمى قبلاً بجبل نابوا أو ليموس كما سماه البطرك الدويهي ودفن في مدينة براد عاصمة جبل سمعان (؟؟؟) أما طريقته النسكية فهي تتميز عن سواها؛ بالإضافة إلى الإقامة في العراء وعلى رؤوس الجبال صيفاً شتاءً ليلاً نهاراً ولا يقيم في بيت مسقوف فالبيت المسقوف يحجب نظر السماء عن الساكن فيه؟ (؟ ؟ ؟)

٤ ـ نعوذ بالله من هذا الكلام ـ . . . وقد تمكن القديس في جبل نابوا أو سمعان من أن يهدي سكانه الوثنيين. . . وكان ـ كما يقولون ـ يشفي المرضى جسداً

وروحاً فأعاد الصحة إلى الأعضاء والأعمى انفتحت عينا نفسه بالإيمان قبل عيني جسده وهلم جرا على حد تعبير الأب ضو. . . راجع تفاصيل ذلك في الفصل الثاني من كتابه المذكور أعلاه ص ٥١ وما بعدها. . .

وقد ذكر فيليب حتي أن مار مارون توفي في سنة ٤١٠ في البرية بين أنطاكية وقورش غير أنه خلافاً للأب ضو أقر بجهالة سيرته واسمه، غير أنه رجّح أن تكون لغته سريانية (حتي - تاريخ لبنان ٣٠١).

٥ - المرجع السابق صفحتين ٢٢ و٢٣ و ٢٤ وانظرا أيضاً الدولة البزنطية والسيد الباز ص / ٣٢ حيث ذكر عن مذهب أريوس (أنكر فيه صفة الشبه بين الأب والابن واعتبر أن ابن الله ليس إلا مخلوقاً وبذلك أنكر ألوهية المسيح).

٦ - لبنان من الفتح الإسلامي إلى الفتح العثماني للأستاذ محمد علي مكي / ص ٥٠.

٧ - انظر نبذات عن العموديين في تاريخ الموارنة المرجع المذكور ص ٢٢.

٨ - لبنان من الفتح الإسلامي ص / ٥٠٩.

٩ - فيليب حتي لبنان في التاريخ ص / ٣٠٤.

١٠ - المرجع السابق ص ٣٠٢ ولبنان في محيطة العربي للأستاذ فؤاد قازان ص / ١٣٦ نقلاً عن تاريخ سوريا للمطران يوسف دبس.

١١ - لبنان في التاريخ / ص / ٣٠٢ / قول ابن البطريق ما يتعلق بزيارة هرقل للدير أما التعليق فهو من فيليب حتي.

١٢ - تاريخ الموارنة ص / ١٦٢. . . غير أن بعض مؤرخي الموارنة يعتقدون أن الذي بنى الدير هم تلاميذ مارون وأن الأمبراطور مرقيانوس قام سنة ٤٥٢ بتوسيع الدير لأبنائه. انظر فيليب حتي تاريخ لبنان ص / ٣٠٢.

١٣ - لبنان في التاريخ ص ٣٠٢.

١٤ - انظر الدولة البزنطية د. السيد الباز صفحة ٥٠ - غير أن المعارضين لهذا المذهب تمكنوا من إجبار الأمبراطور على التخلي عن نسطوريوس وإعلان التزامه بمذهبهم.

١٥ - لبنان في التاريخ ص / ٣٠٢.

١٦ - الدولة البزنطية ص / ١٣٢.

١٧ - انظر تاريخ الموارنة جزء / ١ - ٢٠٤.

١٨ - لبنان في التاريخ ص / ٣٠٣.

١٩ - تاريخ الموارنة جزء أول / ص ٢٠٨.

٢٠ - المصدر السابق ص / ٣٢٠.

٢١ - من مقدمة قصة الموارنة إصدار قسم التاريخ جامعة الروح القدس وسيأتي الكلام عنها فيما بعد.

٢٢ - فيليب حتي - لبنان في التاريخ صفحة / ٣٠٣.

٢٣ - لبنان في محيطه العربي نقلاً عن ريشتلهوبير في كتابه ترجمة فرنسية للبنان المطبوع في باريس سنة ١٩١٨.

٢٤ - لبنان في التاريخ ص ٩ / ٣٠٣.

٢٥ - لبنان في محيطه العربي ص / ١٣٣.

٢٦ - المرجع السابق ص / نقلاً للمطران دبس.

٢٧ - لبنان في التاريخ ص / ٣٠٤.

٢٨ - لبنان في محيطه العربي ض / ١٣١.

٢٩ - المصدر السابق ص / ١٣٤ عن ريشتلهوبير المذكور آنفاً.

٣٠ - راجع تفاصيل ذلك في كتاب الدولة البزنطية للدكتور السيد الباز العربي ص / ١٦٥.

٣١ - لبنان في محيطه العربي ص / ١٣٧ نقلاً عن أسد رستم.

٣٢ - المصدر السابق نقلاً عن أسد رستم ص / ١٣٥.

٣٣ - لبنان في التاريخ ص / ٣١٢.

٣٤ - نقل ذلك الشيخ طه الولي في جريدة اللواء اللبنانية تاريخ ١٣ / ٦ / ٩٨٠.

٣٥ - التحدي اللبناني للدكتور شفيق الريس ص/٣٠.

٣٦ - اللواء اللبنانية تاريخ ٣٢ / ٥ / ٩٨٠.

٣٧ - لبنان في التاريخ ص / ٢٩٨.

٣٨ - المطران دبس في كتابه الجامع المفصل في تاريخ الموارنة المؤصل وأثناء الحرب اللبنانية ٩٧٥ - ٩٧٦ أسس رئيس الجمهورية سليمان فرنجية ميليشاه الزغرتاوية باسم لواء المردة على أساس أن المردة هم الموارنة. . .

٣٩ - أسد رستم في (كنيسة مدينة الله أنطاكية العظمى) الجزء الثاني ص / ٤٥.

٤٠ - فيليب حتي (لبنان في التاريخ) ص / ٢٩٦.

٤١ - الدولة البزنطية د. الباز ص / ١٥٨.

٤٢ - أسد رستم (الروم وصلاتهم مع العرب) ص ٢٦٥.

٤٣ ـ لبنان في التاريخ ص / ٣٠٠ نقلاً عن البلاذري.
٤٤ ـ تاريخ الدولة العربية د. زاهية قدورة ص / ١٧٠ محاضرات الجامعة العربية في بيروت سنة ١٩٦٧.
٤٥ ـ لبنان في محيطه العربي ص / ١٤٠.
٤٦ ـ الجامع المفصل في تاريخ الموارنة المؤصل للمطران دبس ص / ٣٠ و / ٣١.
٤٧ ـ لبنان في التاريخ ص / ٣٠٠.
٤٨ ـ التعددية في لبنـان للأستـاذ وليد فـارس من منشورات جـامعة الكسليـك ص / ٤٣.
٤٩ ـ لبنان في التاريخ ص / ٢٩٩.
٤٠ ـ الدولة البزنطية د. السيد البازّ ص / ١٥٨.
٥١ ـ تاريخ الموارنة السياسي والعسكري والحضاري ـ الأب بطرس ضو.
٥٢ ـ التعددية في لبنان ص / ٧٩.
٥٣ ـ المرجع السابق ص / ٤٣ و ٤٤.
٥٤ ـ راجع تفاصيل ذلك في كتاب الدولة البزنطية د. الباز ص / ١٤١ وقد عقب الدكتور الباز على تصرف البطريرك بنيامين (وهذا دليل على أن المصريين آثروا الحكم العربي على الحكم البزنطي).
٥٥ ـ لبنان في التاريخ ص / ٢٩٥.
٥٦ ـ الدولة البزنطية د. الباز ص / ١٤١.
٥٧ ـ لبنان في محيطة العربي ص / ١٤٢ نقلاً عن جوبلان.
٥٨ ـ لبنان في التاريخ ص / ٣١٢.
٥٩ ـ المرجع الأسبق ص / ١٤٢ نقلاً عن المطران دبس في تاريخ سوريا المجلد الخامس ص / ٢٩١.
٦٠ ـ التعددية في لبنان ص / ٤٨.
٦١ ـ المصدر السابق ص / ٦٠.
٦٢ ـ لبنان في التاريخ ص / ٣٠١.
٦٣ ـ المرجع السـابق ص / ٣٢٧ ومن العجيب أن يعتبر فيليب حتي أحـداث الشغب واللصـوصيـة في المنيـطرة ثـورة وأنها أولى ثـورات النصـارى... وسنناقش هذا الأمر في الصفحات التالية. والمنيطرة قرية صغيرة في جبال لبنان الوسطى.

٦٤ ـ المرجع السابق ص / ٣٠٠.
٦٥ ـ صدرت مؤلفات عديدة تثبت فساد مزاعم الصهيونية في فلسطين... ونحن هنا لا نناقش تلك المزاعم الباطلة وإنما نوردها للمقارنة مع المزاعم المماثلة الأخرى لمنظري لبنان الجدد.
٦٦ ـ التعـددية في لبنـان للسيـد وليـد فـارس إصـدار جـامعـة الكسليك ص / ٤١ و ٤٢.
٦٧ ـ المرجع السابق ص/ ٤٠، كتبنا هذه القراءة قبل الاجتياح الإسرائيلي لجنوب لبنان وبيروت عام ١٩٨٢.
٦٨ ـ المرجع السابق ص / ٤٤.
٦٩ ـ المرجع السابق ص / ٤٦.
٧٠ ـ المرجع السابق ص / ٥٠.
٧١ ـ تاريخ الموارنة الحضاري والسياسي والعسكري لـلأب بطرس ضو الجزء الأول ص / ٢٩٥.
٧٢ ـ التعددية في لبنان ص / ٣٨.
٧٣ ـ المصدر السابق ص / ٥١ و ٥٢.
٧٤ ـ التعددية في لبنان ص / ٥٢ و ٥٤.
٧٥ ـ لبنان في التاريخ ص / ٣١٣.
٧٦ ـ المصدر السابق ص / ٣٢٧ نقلاً عن البلاذري في فتوح البلدان.
٧٧ ـ لبنان في محيطه العربي ص / ١٤٦.
٧٨ ـ المرجع الأسبق ص / ١٤٧ عن جـرجي زيدان في كتـابه تـاريخ التمـدن الإسلامي الجزء الرابع ص / ١٤٠.
٧٩ ـ التعددية ص / ٥٦.
٨٠ ـ المرجع السابق ص /٦١.
٨١ ـ المرجع السابق ص / ٦٠ و ٦٢.
٨٢ ـ المرجع السابق ص / ٦٠.
٨٣ ـ المرجع السابق ص / ٦٢.
٨٤ ـ الدولة البزنطية د سيد الباز ص / ٥٥٤ نقلاً عن تاريخ يحيى بن سعيد.
٨٥ ـ راجع نص المعاهدة. المصدر السابق ص / ٤٨٤.
٨٦ ـ لبنان في التاريخ (حتي) ٣٧ / ٣٢٨.

٨٧ ـ (فيليب حتي) ص / ٣٤٧ وذكر في كتابه (تاريخ لبنان جزء ص / ٣٢٨ (وعندما بلغ الصليبيون البترون اتصلوا بالموارنة فأسدى هؤلاء خدمات جليلة فكانوا الأدلاء لهم).

٨٨ ـ فيليب حتي ص / ٣٤٠ حيث قال (وكان سبب تسليم المدينة ووقوعها في أيدي الصليبيين خيانة قائد أرمني ناقم).

٨٩ ـ من رسالة أمراء الصليبيين في أنطاكية إلى البابا أربانوس الثاني راجع أسد رستم (كنيسة مدينة الله أنطاكيا العظمى ص / ٢٦١ وأيضاً لبنان في محيطه العربي ص / ١٨٤.

٩٠ ـ لبنان في محيطه العربي ص / ١٨٨ / ١٨٩ نقلاً عن غرنوسة في كتابه عن الحروب الصليبية الصادر في سنة ١٩٣٠ في باريز، ويذكر أن هذه المعركة قد وقعت عند السهول المحيطة بقلعة طرابلس وكان الفرنجة يطلقون على هذا المرتفع جبل الحج وهو اليوم معروف باسم (أبو سمراء).

٩١ ـ المرجع السابق ص / ١٩٢ نقلاً عن عيسى اسكندر المعلوف.

٩٢ ـ راجع في هذا وفي أتباع الطقس اللاتيني السابق الذكر (فيليب حتي) في كتابه لبنان في التاريخ ص / ٣٩٣ و٢٩٢.

٩٣ ـ راجع في ذلك كتابنا الطريق إلى حكم إسلامي وأيضاً «التبشير والاستعمار د. فروخ وخالدي.

٩٤ ـ لبنان في التاريخ ٩ / ٣٩٠.

٩٥ ـ راجع كتابنا الطريق إلى حكم إسلامي (التدخل والهجوم).

٩٦ ـ المغول للدكتور السيد الباز ص / ٢٢١.

٩٧ ـ لبنان في التاريخ ص / ٣٩٧.

٩٨ ـ تاريخ سوريا ٦ / ٣٠٢ نقلاً عن لبنان د. قازان ص / ٢٠٦ وقد نشر هذه المعاهدة المستشرق دي ساي وهو فرنسي عاش (٧٠٨ ـ ١٨٣٨) في معرض ترجمته للسلطان قلاوون.

٩٩ ـ تاريخ الموارنة الديني والحضاري والسياسي للأب يوسف ضو جزء ٤ / ٤٢ و٤٣ بيروت سنة ١٩٧٧.

١٠٠ ـ المرجع السابق ص / ٣٨ / ٣٩.

١٠١ ـ لبنان في محيطه العربي ص / ١٣٢ نقلاً عن ريشتليهوبير

١٠٢ ـ المصدر السابق ص / ١٣٢ و١٣٣ نقلاً عن المطران يوسف دبس في كتابه الجامع المتصل في تاريخ الموارنة المؤصل حيث فيه قول السمعاني وقول التنوري المبينين أعلاه.

١٠٣ ـ المصدر السابق ص / ٢٠٠ / ٢٠١ نقلاً عن ريشتليهوبير. ص / ٦٧.

١٠٤ ـ المصدر السابق ص / ١٣٥ نقلاً عن المقدمة.

١٠٥ ـ حتي في تاريخ لبنان ص / ٣٩٧.

١٠٦ ـ التعددية مصدر مذكور ص / ٦٧.

١٠٧ ـ التعددية مصدر مذكور ص / ٧٠.

١٠٨ ـ التعددية مصدر مذكور ص / ٧٢ و٧٤.

١٠٩ ـ التعددية مصدر مذكور ص / ٧٥.

١١٠ ـ التعددية مصدر مذكور ص / ٧٨.

١١١ ـ التعددية مصدر مذكور ص / ٧٠.

١١٢ ـ التعددية مصدر مذكور ص / ٨٠.

١١٣ ـ تاريخ الموارنة جزء ٤ / ٩٣.

١١٤ ـ المصدر السابق جزء ٤ / ٨٧.

١١٥ ـ المصدر السابق جزء ٤ / ٨٠.

١١٦ ـ المصدر السابق جزء ٤ / ٨١.

١١٧ ـ المصدر السابق جزء ٤ ص / ٨٢.

١١٨ ـ المصدر السابق جزء ٤ ص / ١١٩.

١١٩ ـ المصدر السابق جزء ٤ ص / ٨٧.

١٢٠ ـ المصدر السابق جزء ٤ ص / ٦٥ وهذا المقطع مأخوذ من رسالة قيل أن البابا لاون العاشر بعث بها إلى المقدم إلياس بن جمال الدين يوسف المعروف بعساف وقد أرسلها إليه بناء على طلب البطريرك مار بطرس وقد استهلها بقوله: (أيها الابن الحبيب) وفي رسالة معن للمقدم الياس (ليكون غيور على جماعته أهالي جبل لبنان) ص ٨٦ والرسالة بكاملها منشورة على الصفحتين ٦٤ و٦٥ من الكتاب المذكور، ومن الملاحظ أن أكثر المقدمين البشراويين كانت أسماؤهم إسلامية زين الدين وعبد المنعم وجمال الدين وحسام الدين ـ راجع سلسلة المقدمين في المصدر نفسه / ١٣٥.

القسم الثاني

قراءة في تاريخ

الأمير فخر الدين المعني "الكبير"

« مؤسس لبنان الحديث »

وفي الظروف الدولية المحيطة بالمنطقة

"تآمر على السلطنة وهو تابع لها وعلى البلاد وهو أمير عليها؟"

القسم الثاني: قراءة في تاريخ الأمير فخر الدين وفي الظروف الدولية ويتضمن:

١) مقدمات أساسية:

- الإدارة في بلاد الشام في العهدين المملوكي والعثماني.
- ظاهرة التحريض في تاريخ الأمير فخر الدين.
- لماذا تبنى مؤرخو الموارنة فخر الدين الثاني وجعلوه شهيد لبنان والكثلكة؟
- لماذا جعلوا فخر الدين بطلاً؟
- ما قبل الإمارة المعنية: كسروان للعسافيين المسلمين.
- السلطان سليم شجع العسافيين على تعمير البلاد. والموارنة ينزحون إليها.

٢) فخر الدين بين أطماعه وتآمره على القدس الشريف:

- الأمير رتبة عسكرية ثانوية، والمعنيون المجاهدون أمراء من رتب ثانوية.
- فخر الدين بين التقرب من السلطة الشرعية ومحالفة أمراء الإقطاع ومصاهرة والي طرابلس.
- والي طرابلس ضد عماله فخر الدين.
- بعد عودة فخر الدين من منفاه، السلطان مراد يعينه والياً على عربستان،
- فخر الدين يعود للاتصال بالأجنبي فيسحقه العثمانيون.
- تآمر على السلطنة وهو تابع لها وعلى البلاد وهو أمير عليها.
- دفاع فخر الدين عن نفسه أمام السلطان.
- اللعبة الدولية في بداية القرن السابع عشر ومحاولة إنشاء حلف ضد السلطنة.
- على جونبلاد حاكم حلب يمارس العمالة مع إمارات أوروبا التي

استهدفت الإستيلاء على بيت المقدس حتى حيفا؟

- أمير توسكانا يقبل يدي فخر الدين الثاني لتسليمه القدس.
- فخر الدين بين مفاوضاته الخيانية ودعوة البابا إليه للتنصر.
- ذكريات فخر الدين، الأسير، في منفاه في توسكانا.
  * يحاولون تنصيره فيرفض.
  * إسبانيا عرضت عليه ولاية كبيرة شرط تنصر فرفض.
  * شروط الباب العالي لتسوية وضع فخر الدين.
- السلطنة تقرر إنهاء أسطورة فخر الدين وحماية سواحلها.
- فخر الدين يناشد البابا وتوسكانا ليتدخلا لقاء تسليمهما القدس وتنصره مع عائلته.
- البابوية وتوسكانا يحللان الموقف الدولي فيعتذران عن نجدة فخر الدين والأمير يناشد توسكانا لتهريبه.
- العميد الأحدب، متأثراً، بسعيد عقل، يدافع عن مشروع فخر الدين بتسليم القدس إلى الصليبيين.؟
- الأمير فخر الدين هرّب أموال الإمارة وأودعها مصرفاً في توسكانا؟

٣) دفاعاً عن فخر الدين:

- العمالة لا يصح أن تسمى وطنية واستقلالاً وفخر الدين خان دينه ووطنه.
- مؤرخو الموارنة: أمبراطورية فخر الدين نفخة من روح المردة؟
- شخصية فخر الدين: الطغيان - الحقد - الانتهازية - الدموية - التقية - ميل للعمران والزراعة والتجارة.
- لماذا ضخمت دولة الاستقلال فخر الدين وطمست يوسف سيفا والي طرابلس وهو أهم من الأمير؟
- مؤرخو الموارنة يتهمون الأمير بالنصرانية لاستخلاص الشرعية التاريخية للرئاسة المارونية للبنان الحديث.

- إثبات كون الأمير مسلماً سنياً يدحض مزاعم منظري المارونية.
- حجج من قال أن الأمير تنصر وتعمد.
- المحاكمة العادلة: المعنيون سنيون وأمير الدروز لا يعني أنه درزي
- بحث في العقيدة الدرزية وإنها مغلقة لا تقبل جديداً - الدرزية على ضوء الإسلام وفتوى الأزهر.
- أدلة على كون الأمير مسلماً سنياً.
- تهافت رواية التنصير - لماذا لم يزعم الموارنة أن الأمير تمورن.
- الأمير ورقة في السياسة الدولية بعد أمير توسكانا.
- مؤرخو الموارنة - نصَّروا الحاج كيوان وصي الإنكشارية والأمير يحيى شقيق السلطان أحمد ولكن بالسر؟؟؟
- خلفية التنصير في الفكر الماروني التاريخي.

مقدمات أساسية

بانحدار الدولة المملوكية وانحسارها على أثر معركة مرج دابق الشهيرة في آب ١٥١٦ شمالي حلب دخلت بلاد الشام في حكم العثمانيين الذين أنهوا الأمبراطورية البزنطية واحتلوا قسطنطينية سنة ١٤٥٣. ويومئذٍ لم يرد العثمانيون أن يحدثوا تغييرات أساسية في بنية الأوضاع الإدارية للأقطار الداخلة في حكمهم... فالمهم أن يقر الحكام المحليون بخضوعهم للسلطنة وأن يدركوا أن يدها يمكن أن تمتد إلى أي من الحكام فتعزله إن انحرف عن النهج... وعلى هذا لا بد للحاكم -أي الأمير- من أن يتقدم سنوياً إلى السلطان يطلب تقليده المنصب... وكان من مدلولات هذا التقليد تأكيد طاعة الأمير والإعلان أن السلطة العثمانية لا تزال تولي هذا الحاكم رضاها وتأييدها... وفضلاً عن ذلك فإن الحاكم أو الأمير كان عليه أن يؤدي الضريبة المتوجبة على مقاطعته أو ولايته إلى صندوق السلطنة المركزي كما أن عليه، علاوة على تأمين الأمن في ولايته أن يمد السلطنة بعدد من المقاتلين في حال الضرورة.

ويتبع الأمير أو الحاكم أو الوالي مجموعة من الحكام الإداريين الذين كانوا أشبه بالمحافظين أو القائمقامين في هذه الأيام... وكانوا يسمون (المقاطعجية) نسبة إلى الإقطاع الذي كان لأسرة أو أكثر فتتولى هذه إصلاح تلك المنطقة وإعمارها والمحافظة على الأمن فيها وحمايتها والعناية بساكنيها وتأدية واجبات مالية وعسكرية إلى الأمير الذي يؤدي بدوره واجباته نحو السلطان...

والإقطاع في الشريعة تمليك الإمام أرضاً لا مالك لها لإنسان يقوم بعمارتها واستغلالها على أن يتم ذلك خلال مدة معينة فإن انقضت ولم يفعل شيئاً من ذلك استردها الإمام منه وأعطاها لغيره... ومن شروط الإقطاع هذا أن لا تكون الأرض مملوكة لأحد وليست من المرافق العامة وليس فيها معادن...

ثم تطورت النظرة إلى الإقطاع فشمل دفع الضريبة وتقديم الجند... مع التأكيد على عدم وراثتها إلا إذا نص السلطان على ذلك... وهكذا غدت الإقطاعية أشبه بالناحية أو المحافظة في أيامنا... وكانت (تعيينية) أي يُعينُ صاحبَها السلطان أو الوالي الذي تتبع إليه تلك الناحية ثم... بفعل انهماك الدولة في الحروب.... وبحكم الطبيعة الملكية لنظام السلطنة فقد تطور الإقطاع ليصبح وراثياً وغضت الدولة النظر عن ذلك طالما كان الوريث كفوءاً وطالما كان يقوم بما يتوجب عليه؟؟؟.

ذلك هو ـ بصورة موجزة ـ نظام الإدارة في بلاد الشام عموماً ويظهر ذلك أيضاً بجلاء في المناطق الجبلية من لبنان...

* * *

خلفيات الاعتزاز بفخر الدين واعتباره مؤسس لبنان الحديث:

عقب دخول السلطان سليم دمشق بعد معركة مرج دابق قصده أمراء النواحي في المناطق الساحلية والجبلية ـ لبنان ـ ومنهم فخر الدين المعني وجمال الدين التنوخي.... كما ذكر فيليب حتي ـ فأقرهم على إقطاعهم وسمح لهم بممارسة استقلالهم ـ كذا ـ وامتيازاتهم التي كانوا يمارسونها في حكم المماليك وقد فرض عليهم جزية طفيفة، ويُقصد بالجزية هنا الضريبة على اعتبار أن لا جزية على مسلم!!

وكما رأينا من قبل، وكما يؤكد فيليب حتي، كان مقاطعجيو الموارنة (٢) ـ وكانوايعرفون بالمقدمين ـ يَتْبعون ويأتمرون بأمر بني سيفا ولاة طرابلس السنيين، في حين أن التنوخيين والمعنيين كانوا في القسم الثاني من جبل لبنان وبلاد الشوف... حتى جاء فخر الدين الثاني الذي تمكن من توسيع إمارته

بضم إقطاعات أخرى له سواء بموافقة ولاة دمشق وطرابلس أو بدونها... ذاك الأمير الذي نُسجت حوله الأساطير وجعل منه مؤسساً لدولة لبنان الكبير وباني السيادة اللبنانية وحامي الاستقلال المجيد...؟ حتى إن من المنظرين أو المؤرخين من اعتبر عهده (بداية للبنان الحديث)، (٣) فـ(الاستقلال اللبناني الحقيقي بدأ مع فخر الدين وجيش لبنان بدأ مع جيش فخر الدين والتعايش في لبنان بدأ مع فخر الدين ونشأت الأمة اللبنانية مع إمارة فخر الدين والعصر الذهبي للبنان كان داخل حدود إمارة فخر الدين... وقد طغت هذه الظاهرة التقليدية في علم التاريخ اللبناني لا سيما وإن دولة لبنان عام ٤٣ قد ساهمت في تشجيع هذه النظرة في جميع المؤلفات والكتب المدرسية والجامعية والإعلامية... (٤).

ويذكر فيليب حتي ان مبادىء ثلاثة قد تبلورت في مخيلة الأمير فخر الدين السياسية وهي (إنشاء لبنان الكبير وقطع العلاقات نهائياً «مع الأتراك والسير قدماً» بلبنان في سبل الحضارة العصرية وقد أصبحت هذه المبادىء الثلاثة هدفه الأول والأخير في الحياة وكاد يحقق إصلاحه عن طريق الزواج حيناً «وعن طريق الدسائس والرشوة والتحالف حيناً آخر» وما لا شك فيه أن هذا الأمير كان أشد الأمراء وأبرزهم شخصية في تاريخ لبنان العثماني ولا نغالي إذا قلنا أنه كان من أبرز شخصيات السلطنة العثمانية) (٥).

وحتى نتمكن من فهم فخر الدين هذا ـ الذي تحول إلى ما يشبه الرمز ـ لا بد لنا أن نفهم بصورة خاصة أبعاد العطف الماروني عليه فالدروز يعتبرونه واحداً «منهم... أو أميراً» عليهم أَوْجَدَ لهم إمارة درزية أقضت مضاجع الدولة العثمانية... فمن الطبيعي أن تولد عندهم له العناية والتكريم والتبجيل أما أن يتحول الموارنة إلى حاملي لواء فخر الدين فيجعلون منه بداية لتاريخ لبنان الحديث وأمير الاستقلال والسيادة والرمز والفداء... فذاك أمر ملفت للنظر ويحتاج إلى مزيد من التدقيق والتحقيق... خاصة وإن الدرزية لا تعني عندهم إلا مذهباً «محمدياً»*... فالدروز يعودون بأصولهم إلى مجموعات

* ـ التسمية «بالمحمدية» غير صحيح ولا مقبول في الإسلام... وهي تسمية درج =

عربية أو أيوبية سكنت بلاد الشوف بأمر من العباسيين لمراقبة الثغور والدفاع عنها أمام الهجمات الصليبية؟؟ *.

منظرو المارونية لا يتركون هذا اللغز بلا حل، بل يسارعون ـ كعادتهم ـ إلى كشف الأبعاد التي جعلتهم يعتبرون فخر الدين بطلاً «قومياً» «ومؤسساً» للإمارة اللبنانية أو للبنان الحديث فخر الدين (بدأ الموارنة يصعدون إلى سدة الحكم ويحتكرون الإمارة...) (٦) وقد دعم (مقاطعية الموارنة) الأمير فخر الدين لأنه أراد إقامة (إمارة لبنانية) كما دعمته الكنيسة المارونية بعد أن اشترطت (أن تهيمن هي على السياسة الخارجية اللبنانية للإمارة... وقد أثرت فعلاً على إقامة علاقات غربية ـ لبنانية تحولت إلى حلف بين إمارات إيطالية والإمارة اللبنانية).

(وقد شاركت المارونية في دعم المعنية الدرزية... فكان الموارنة يديرون السياسة الدرزية... وقد حولوا الإمارة، عندما بلغت حدودها حدود دولة المردة القديمة ـ «المتخيلة ـ كما رأينا ـ» أي جنوبي سوريا ـ ولبنان

= عليها النصارى في لبنان وفي الغرب للمماثلة عندهم بنسبتهم إلى المسيح... المذهب الدرزي أحد المذاهب الإسلامية من الوجهة القانونية في لبنان كما أن الذهنية السياسية لدى المسلمين باتت تقر ذلك بصورة جدية حتى أن القيادة الروحية عند المسلمين في لبنان تضم إلى جانب مفتي الجمهورية ورئيس المجلس الشرعي الشيعي، شيخ عقل الدروز. أما من الوجهة الشرعية والفكرية فالدروز ليسوا بمسلمين ديناً وهم يسمون أنفسهم بالموحدين غير أن الأزهر في عهد عبد الناصر أعطى فتوى ـ في حالة فردية ـ اعتبر معها الدروز مسلمين. ولهذه الفتوى خلفية سياسية وتتعلق بميراث كما سنرى عند بحثنا في مذهب الأمير فخر الدين الثاني الديني!!

* ـ يقول فيليب حتي (أما الجد الأول الذي ينتمي إليه المعنيون، الأمير معن الأيوبي فليس له في جداول الأنساب العربية نسب أكيد وأول مرة نلتقي به في التاريخ سنة ١١٢٠ لما أمره طغتكين صاحب دمشق أن يقوم بعشيرته إلى البقاع ومنها إلى جبال لبنان المشرفة على الساحل) بينما ذهب آخرون إلى أن المعنيين عرب (الإمارة المعنية كانت إمارة عربية) التعددية ص / ١٠٧

وشمالي فلسطين إلى شبه إمارة مردة إنما هويتها درزية عربية رسمياً...)!!.

(أي إن سياسة فخر الدين وعائلة معن الدرزية وحلفائها قد اتجهت منذ القرن السابع عشر إلى مناهضة الحكم العثماني الإسلامي والاستقلال فقد اتخذ المسيحيون والموارنة (٧) موقف الدعم والتأييد...

غير أن الأب بطرس ضو في كتابه تاريخ الموارنة الديني والسياسي والحضاري ص ٢٠٠ يذهب إلى أبعد من هذا فيعتبر أن المعنيين وفخر الدين هما اللذان انضما إلى الموارنة لقتال الأتراك والتخلص من نيرهم الغاشم.. ـ كذا ـ (بقدر ما كانت السلطنة العثمانية آلة ظلم وابتزاز في التاريخ كانت المارونية المتصدية وحدها في الشرق لهذه الآلة الجبارة أعظم قلعة للحرية في التاريخ وانضم إلى الموارنة في هذا التصدي الدروز الشجعان والأمير فخر الدين وكان الهدف الجامع هو الحرية والاستقلال والخلاص من كابوس آلة الظلم العثماني لا لتشييد صرح العروبة كما يتصور بعضهم ففكرة العروبة لم تداخل قط خاطر الموارنة والدروز وفخر الدين... فليست العروبة أفضل من العثمانية على الإطلاق إذ أن العروبة ـ يعني الإسلام ـ هي الأصل والعثمانية هي الفرع).

وتتضح الرؤيا في حُب الموارنة لفخر الدين أكثر فأكثر عندما نقرأ مع الأب ضو (بفخر الدين اهتدى المعنيون إلى اللبننة أي إلى لبنان المستقل عن الدولة الإسلامية بعد أن كانوا عملاء للدولة الإسلامية غايتهم دمج لبنان المردي بها وكان للموارنة الدور الرئيسي في إنجاز لبننة فخر الدين والمعنيين. وأكمل فخر الدين اهتداءه إلى اللبننة باهتدائه إلى الكثلكة) (٨).

يعتمد الأب ضو في قصة اهتدائه إلى النصرانية على وثيقة مخطوطة قيل إنها موجودة في مكتبة الآباء الكبوشيين في أورليان... مفادها أنه في سنة ١٦٣٣ استدعى صديقه الأب أوريان الكبوشي وطلب منه أن يكتم إيمانه بالنصرانية وان ذلك أقسم له الإيمان ويده على الإنجيل ثم عَمَّده وتلا فخر الدين قانون الإيمان... ثم بعد ذلك يقول الأب ضو (والتهمة الرئيسية التي حاكمه على أساسها السلطان مراد الرابع في الأستانة ولفظ الحكم عليه بالموت

بالاستناد إليها هي كون (الأمير جحد الدين الإسلامي ومال إلى المسيحية) ثم يروي الأب ضو أن الأمير قد جثا على ركبتيه واتجه نحو الشرق وعمل إشارة الصليب وبدأ يصلي كمسيحي مما أثار غضب السلطان فقطع رأسه حالاً ولما جرد من ثيابه عثر على صليب معلق بسلسلة ذهبية على صدره. . .) ويعلق الأب ضو على تلك الأحداث غير الثابتة تاريخياً كما سنبين فيما بعد ـ (هكذا مات فخر الدين شهيد المسيحية فكان أول الأمراء المسلمين الذين اهتدوا في لبنان إلى المسيحية).

و (هكذا عندما تنصر فخر الدين أصبح الحاكم المسيحي الأول للبنان كله على مختلف طوائفه المسيحية والإسلامية. . . لبنان وطن واحد للموارنة والدروز وسائر الطوائف يرأسه حاكم واحد مسيحي هو الأمير فخر الدين فالصيغة اللبنانية الحالية وضعها فخر الدين منذ سنة ١٦٣٣). . .

هنـــا يتضح أسرار تضخيم فخر الدين وجعله الرمز الذي يبدأ معه تاريخ لبنان الحديث ولماذا يتغنى به الكتاب والمؤرخون اللبنانيون في دولة الاستقلال ولماذا دَرَّست الدولة في مناهجها التعليمية فخر الدين كبطلٍ عظيم. . .

ففخر الدين في نظر الموارنة ومن ماشاهم، يصبح بطلاً قومياً لمواجهته الدولة العثمانية ـ دولة المسلمين ـ ولتعاونه بل «تعامله» مع البابا وإمارة توسكانا في إيطاليا ـ كما سنبين ـ ولتنصره ـ في زعمهم ـ «ومات شهيداً» مؤكداً اهتداءه. . . وبذلك استجمع عندهم مواصفات الوطنية الصادقة، فغدا بحق ـ حسب فهمهم ـ رئيساً «للبنان الحديث»، فتلك صفات ـ على ما يبدو ـ مطلوبة في كل زعيم حتى يسود. غير أن ما يُعْجَبُ له أن ينضم إلى قافلة هؤلاء ـ عن قصد أو عن غير قصد ـ عسكري مسلم من طرابلس هو عزيز الأحدب، العميد الركن في الجيش اللبناني، وقد كتب مؤلفين عن فخر الدين أحدهما باسم (فخر الدين مؤسس لبنان الحديث) جاعلاً منه بطلاً وطنياً خالداً فهو عنده (ألمع أمرائنا وأعز رجالنا وأمنع أبطالنا. . . ترك للتاريخ كل مفخرة وللأجيال كل معجزة. . . إنه عملاق من وطني) ويبدو أن العميد الأحدب لم يكتب إلا متأثراً بسعيد عقل صاحب الموقف المعروف من العروبة

والإسلام وصاحب بدعة اللغة اللبنانية العامية. . . والعميد الأحدب لا يخفي تتلمذه هذا فهو (يُرَصّع) كتابه بأقوال أستاذه سعيد عقل وبشعره في فخر الدين.

من هنا فقد وجبت دراسة شخصية فخر الدين الثاني وأسطورته حتى يتبين الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الحقيقة المعماة؟؟.

لن تكون دراستنا للأمير دراسة لإنسان مرّ على مسرح السياسة في أوائل القرن السابع عشر حيث اعتبره فيليب حتى من أبرز الشخصيات العثمانية في حين اعتبره مؤرخو ما بعد الحرب اللبنانية ١٩٧٥ شخصية لبنانية جمعت المجد من أطرافه. . . إنما ندرس بدرسه حقبة تاريخية هامة في حياة لبنان الحديث تعتبر بحق إحدى الخلفيات التي تتحرك على أساسها السياسة اللبنانية وبصورة خاصة المواقف السياسية للفريق الأكبر من الموارنة. . .

ولا بد هنا من كلمة هي أننا في النهاية سنصل إلى نتيجة قد تخالف آراء من بحث وكتب وقرَّظ مغمضاً عينيه عن حقائق وعن وقائع وإلى رسم خطوط أساسية في حياة فخر الدين نضعه ضمنها بصدق معيدين إليه حجمه الحقيقي، ففخر الدين رجل خطير بلا شك يصدق فيه ما قاله بحقه سائح انكليزي زار لبنان في ١٦١٠ ـ أي في عهد الأمير فخر الدين نفسه ـ (قصير القامة لكنه عملاق في شجاعته. . . ذو دهاء كالثعلب وفيه ميل أن يكون طاغية. . .) (٩).

* * *

وجاء فخر الدين إلى الإمارة بخلفية الحقد على السلطنة العثمانية فقد جردت هذه حملة على والده الأمير قرقماز، بواسطة والي دمشق، بعد أن تأكد لها أن أتباعه وأشياعه ـ سطوا على فصيل انكشاري كان يحمل الخزينة السلطانية إلى الآستانة. . . وانتهت هذه الحملة بقتل العديد من مشايخ الدروز وبموت الأمير قرقماز في مغارة وبانتقال إمارة الشوف إلى التنوخيين أخواله. . . بينما فرضت والدته الست نسب حفظاً عليه وعلى أخيه يونس فخبأتهما في العمق الكسرواني عند آل الخازن من الموارنة ـ وكان الأمير وشقيقه صغيرين. . . فَنَشَّأهما إبراهيم وفقاً للتقاليد المارونية ولما بلغ الأمير

أشده كان خاله الأمير يوسف الدين التنوخي قد تمكن من إزالة الصعوبات وتهيئة الأجواء مع السلطنة العثمانية (١٠)، التي قبلت بتسليم الشوف إلى الأمير فخر الدين بن قرقماز (وقد تسلم الأمير فخر الدين ولايته على الدروز - ١٥٩٠ - بقلب يتّقد غيظاً وكراهية للأتراك وبعاطفة ومحبة وولاء للمسيحيين الذين تعهدوه صغيراً...)، (١١) فاستدعى لتوه عائلة الخازن أناط بها مسؤوليات هامة و(اختار الأمير مدبراً مارونياً خازنياً أبا نادر) (١٢) أي (مستشاراً أول وأخاه الشيخ رباح مديراً للمالية...) (١٣) وقد اعتبر البعض أن أبا نادر هذا كان قائد قواته وأمير فرسانه (كان فخر الدين صديقاً حميماً للمسيحيين خاصةً الموارنة وكان كبير قواده ماروني يدعى أبو نادر باسل ومطلع على جميع أسراره) (١٣) بل إن الأمير فخر الدين - على حسب زعم الأب ضو - أطلق على أبي نادر هذا لقب أمير جبل لبنان... (١٤) وبذلك غدا أبو نادر أول أمير ماروني لجبل لبنان وبه تأكدت السيادة لهم عليه على حد تعبيره أيضاً!!!

* * *

ما قبل الإمارة المعنية:

كسروان للعسافيين السُّنة وأسباب امتداد الموارنة إليه.

وحتى تتمكن من فهم خلفيات الفرح الماروني الجديد بالإمارة المعنية؛ طريق السيادة والحاكمية على البلد.. لا بد لنا أن نفهم أوضاع الموارنة قبل هذا التاريخ وأوضاع المناطق الجبلية والكسروانية بالذات أي ما يعرف بجبل لبنان اليوم...

ذكرنا من قبل أنه على أثر الحملات المملوكية التأديبية على كسروان والقضاء على الفرق الإسلامية التي تعاونت مع المغول - وعلى بعض النصارى ممن تعاونوا مع العدو أيضاً فقد كادت كسروان أن تكون قِفْراً من الناس واختلط أمرها فبات لا يعرف حقيقة ساكنيها فيها بعد وإلى أي الأديان هم ينتسبون... بيد أنه من المتفق عليه أن (العسافيين) وهم تركمان مسلمون سنيون قد أمرهم المماليك بالتوجه إلى بلاد كسروان ومراقبة الثغور ضد أي نوع من الهجمات الداخلية أو الخارجية. فأصبح هؤلاء أمراء المنطقة الممتدة

من انطلياس شمالي بيروت حتى مغارة الأسد بالشام (فلم يسمحوا بعبور نهر الكلب إلا لمن يحمل ورقة الجواز من الوالي في تلك الجهات أو من أمراء الغرب من بني تنوخ) (١٥).

وقد أخلص بنو عساف للدولة الإسلامية في ذلك الحين ونشطوا في تركيز القوة الإسلامية في المناطق...

ونظراً لإخلاص هؤلاء للحكم الإسلامي... فقد شَنَّ عليهم مؤرخو الموارنة هجوماً عنيفاً مبررين به عدم تواجد الموارنة في ذلك الحين في بلاد كسروان وما يحيط بها... إذ أن كسروان - قبل هذا الزمن كما بينا - كان قد سكنها أقليات إسلامية غير سنية كالشيعة والنصيرية وبعض الدروز وقليل من المسيحيين الموارنة... وقد عَنَتْ أولئكَ الحملاتُ المملوكية أكثر مما عنت النصارى والموارنة... لذا وبما أن كسروان اليوم وبعد فخر الدين قد كثر فيها الموارنة واستوطنوها - كان لزاماً عليهم - ضمن أسلوب التضخيم وتحريف الوقائع والتاريخ - أن يعتبروا كسروان من مناطقهم وأن يفتشوا عن أسباب عدم تواجدهم في تلك المناطق قبل الأسرة المعنية وانحصارهم في الشمال في مقدمية بشرى وتوابعها.. فاهتدوا إلى العسافيين السنة وإلى التشديد بعدم المرور إلى منطقتهم إلا لمن حمل إذناً وورقة جواز من الوالي... أو من الأمراء التنوخيين.

وعلى هذا قرر مؤرخو المارونية الجديدة أن العسافيين قد ثابروا (مدى مائتي سنة على الخطة التي رسمها لهم المماليك فعملوا من سنة ١٣٠٥ حتى سنة ١٥٠٦ على إقصاء أي ماروني عن كسروان وعلى الفصل بين الموارنة - الذين كانوا يقيمون في الشمال - والدروز - الذين كانوا يقيمون في الجنوب وبين الموارنة والغرب....) (١٦).

وبعد أن أنهي الحكم المملوكي وانتصر العثمانيون وانحاز بنو عساف إلى طاعة الحكم الجديد... ثبّت السلطان سليم الأمير العسافي على اقطاعاته وضم إليه بلاد جبيل... (وسمحوا لهم بتعمير كسروان بالموارنة وسهلوا لهم ذلك بتخفيف الضريبة عن كسروان (١٦).

ويعتمد بطرس ضو في النتيجة التي وصل إليها على المؤرخ الدويهي في تاريخ الأزمنة حيث أورد النص التالي: فولّى ـ السلطان سليم ـ الأمير عساف كسروان وبلاد جبيل وأمرهم أن يحسنوا السياسة لقومهم وفي عمارة بلدانهم ولكثرة حلمه رتّب عليهم مالاً جزئياً... وأعطاهم بذلك خطاً شريفاً وعندما عمّر البلاد قدمت إليه الناس من كل جانب فالمتاولة من بلاد بعلبك .... وقدمت السنية من البقاع... والدروز جاؤوا من المتن والجرد... وكذلك النصارى النزاح من بلاد طرابلس...).

فهل يمكن لعاقل أن يرتب على هذا النص أن السلطان سليم سمح للعسافيين أن يعمروا كسروان بالموارنة؟؟. ومن هذه النتيجة المختلقة من النص والمزورة عنه يتبين مدى رغبة المنظرين الجدد في التحريف التاريخي... إن كلام الدويهي لا يعدو تصويراً لرغبة العثمانيين أن يحسن الولاة والأمراء سياستهم مع الناس... وحتى لا يكون السببُ في إساءة العلاقة بين الولاة وعامة الناس جمعَ الضرائب خفف عنهم السلطان تلك الأعباء مما أتاح للعسافيين سرعة الحركة في تعمير البلاد أي من الإكثار من الأعمال الإنشائية العامة التي تسهل انتقال الناس من داخل مقاطعتهم وإليها... فعندما فعلوا ذلك توافد على كسروان مجموعات من الجوار لم تشمل موارنة الشمال وإنما تعدتهم إلى الملل التي ذكرها الدويهي... وهكذا يغدو كلام الأب ضو بشعاً جداً عندما يقول (... وتدفق الموارنة من الشمال إلى كسروان وملأوه وعمروه بمدة وجيزة). في حين أن النص «الماروني السابق» يشير إلى أن تعمير كسروان كان بواسطة العسافيين السنّة أنفسهم... وإن ذاك الإعمار شجع الموارنة وسواهم إلى الانتقال إليها... فغدت كسروان وبلاد جبيل ـ على ما يقوله الدويهي ـ تضم الشيعة والسنة والدروز.... و... الموارنة الذين نزحوا من طرابلس والشمال... إلى جانب السكان المقيمين فيها من قبل وهم العسافيون والتركمان المسلمون السنّة...

من جهة أخرى نجد من بين المؤرخين من عارض بصورة غير مباشرة رواية الدويهي ومن نقل عنه (حتي وضو) من أن العسافيين حرّموا كسروان على الموارنة سحابة مائتي سنة ـ ١٣٠٥ ـ ١٥٠٦ حتى سَمَح لهم بالانتقال إليها

السلطان سليم فذهب إلى أن كسروان هي في الأصل موطن للشيعة وأن الحملات المملوكية استهدفتهم دون الموارنة وأن العسافيين الذين جاء بهم المماليك لإعمار كسروان وللمراقبة شجعوا (الموارنة من شمالي لبنان لإعمار كسروان بعد تخليته من سكانه الشيعة السابقين وتدريجياً أخذ المد الماروني يتجه من شمالي لبنان نحو بلاد جبيل وكسروان...) ثم يفصل سبب السيطرة المارونية على قسم من بلاد كسروان بعد المد المذكور ويعيده إلى اشتداد الصراع بين التنوخيين والدروز وبين العسافيين والمسلمين مما أدى في النهاية إلى ضعف الفريقين وتمكين الموارنة من السيطرة على كسروان (٨٠).

ومهما يكن من أمر فقد امتد حكم العسافيين في عام ١٥٧٢ فضلاً عن كسروان من نهر الكلب إلى حماة ثم بموجب مرسوم سلطاني صدر سنة ١٥٧٩ استثنيت طرابلس من أمارتهم ثم عكار وأعطيت إلى بني سيفا الذين اشتهر منهم فيها بعد الأمير يوسف... والسيفيون مسلمون سنّة امتد حكمهم إلى بيروت وكسروان وبعد أن تنازعوا الأمر مع الأمير محمد بن منصور العسافي ـ الذي قتل سنة ١٥٩٠ في ناحية البترون ـ انتهت العائلة العسافية.

ويبدو أن هناك سبباً آخر لامتداد النفوذ الماروني إلى كسروان وتمكنهم فيه ـ ذلك النفوذ الذي كان له أثر واضح في سياسة الأسرتين المعنية والشهابية وأحداث الجبل اللبناني ـ وهو أن العسافيين اعتمدوا على عائلة آل حبيش المارونية التي هجرت طرابلس إلى كسروان وكان اعتمادهم عليها بسبب معرفتها الأوضاع الشمالية وأوضاع موارنة الشمال فطمع العسافيون بتمكين سيطرتهم على هذه المنطقة بواسطة (أدلاء) وقد تمكن هؤلاء مع أنصار العسافيين من قتل والي طرابلس محمد آغا شعيب... مما أثار كراهيتهم في الأوساط السنّيّة في طرابلس فلما تولى آل سيفا حكم طرابلس قرروا القضاء على الأمير محمد العسافي الذي كان بلا عقب وغدا ضحية تدخل الموارنة في أوضاع منطقته...

ولم ينس يوسف باشا آل سيفا معاقبة (أصل البلاء والفتن) أركان العائلة الحبشية فقبض على (الشيخ أبي يونس سليمان حبش وأبي سعد منصور

ابن أخيه ومهنا وقتلهم وهدم بيوتهم...) (١٨) غير أن بعضاً «من تلك العائلة (يونس بن سليمان) تمكن من الهرب والتجأ إلى (الأمير محمد بن جمال الدين التنوخي...).

ويبدو أن الحقد الذي حمله يونس هذا لآل سيفا كان له أثر في توجهات الأمير فخر الدين ضد يوسف باشا... إذ جرت مناوشات بينهما عند نهر الكلب عام ١٥٩٨. ثم في سنة ١٦٠٥ ـ على ما يرويه الأب ضو ـ جرت معركة بين علي جانبولاد والي حلب والأمير فخر الدين من جهة وبين يوسف باشا سيفاً من جهة أخرى انتهت باتفاق الثلاثة ومصالحتهم فيما بينهم تنازل يوسف باشا في هذا الصلح عن كسروان للأمير فخر الدين وتزوج الأمير فخر الدين ابنته... فالمعارك أثبتت للأمير فخر الدين قوة يوسف باشا مما حداه إلى مصاهرته ضمن دوافع سياسية وأمنية ـ كما يقول فيليب حتي ـ (إلا أن الجار القوي الذي كان يخشى جانبه ـ هو ـ يوسف بن سيفا الذي كان قد تزوج فخر الدين ابنته لأسباب سياسية (٢٠). وكان من أهم أطماع فخر الدين أن يقنع عمه يوسف بالتنازل له عن مقاطعات طرابلس الكبرى ولما لم يقنع يوسف عاد الخلاف بين الوالي العم وبين صهره الأمير فخر الدين فكانت معركة انتهت بصلح جديد تنازل بموجبه يوسف باشا لصهره عن جبيل والبترون...

* * *

وكما رأينا ـ حرص المؤرخون اللبنانيون بتشجيع من الدولة على تضخيم شخصية الأمير فخر الدين واعتباره بطلاً لبنانياً تمكن من (توحيد لبنان؟) ومن خوض الحروب من أجل الحرية والاستقلال ومن الاتصال بروما وإيطاليا. ومنهم من اعتبره نصرانياً ـ فهو قد أسس الدولة اللبنانية على قاعدة الرئاسة للنصارى وبصورة خاصة للموارنة(؟؟). وأمثلهم طريقة فريق اعتبره درزياً قرّب إليه النصارى وجعلهم أجنحة حكمه العتيد!!

وقبل أن ندخل في متاهات دين الأمير فخر الدين لنصل في النهاية إلى أنه سنّي (*) ليس بنصراني ولا ماروني ولا درزي، لا بد لنا من عرض موجز

* ـ نحن هنا لا يهمنا كثيراً أن يكون فخر الدين درزياً أو نصرانياً أو سنياً... =

لبعض المنعطفات في حياته، فتلك تلقي ضوءاً على شخصيات البيئة السياسية الاجتماعية في تلك الحقبة التاريخية وعلى أوضاعها وعلى أبعاد التحريف وقلب الحقائق أو تمويهها عند فريق من المؤرخين بغية تشويه الأحداث ورسم خلفيات تمد الأجيال الجديدة بمعطيات انعزالية وتعددية وطائفية تكرس الحقد والانقسام النفسي والحضاري إلى حد بعيد!!

* * *

= فهو في تاريخه لم يكن ذاك الإنسان الذي يعتز به المرء ويفخر به حضارة... فحسبه أنه كان لدى المؤرخين ضائع الهوية الدينية بسبب مواقفه العجائبية كما أنه كان متآمراً يتصل بالإفرنج ضد بلاده، محتالاً يحتال على ـ السلطة وجيشها ـ محارباً من تصاهر معهم وحالفهم، سارقاً أموال إمارته مهرباً إياها للخارج... كما يفعل حكام هذا الزمان...، كما سنبين فيما بعد، لكن الذي دفعنا إلى دخول متاهات دينه هو هدم الأسس التي بنى عليها من أرادوا رئاسة لبنان حكراً لهم معتمدين في ذلك على تحريف التاريخ وتزويره.

فخر الدين بين أطماعه
وتآمره
على القدس الشريف

لكي نتمكن من فهم الأحداث لا بد من الانطلاق من بديهية تاريخية هي أن الأمير فخر الدين الاقطاعي في الدولة العثمانية.... تمكن، ضمن ظروف وأسباب، من توسيع رقعة اقطاعيته، بتأييد من والي دمشق حيناً وبواسطة السلطان حيناً آخر..

الإدارة الداخلية للمقاطعات:

فقد أشرنا سابقاً إلى أن العهود الإسلامية المختلفة كانت تدفع بقبائل سنيّة عربية أو كردية أيوبية أو تركمانية إلى إعمار الساحل الشامي من أجل حفظه ومراقبة العدو وصيانة ثغوره... وكان الخليفة أو السلطان يقطع هؤلاء حدوداً معينة يعتبرهم مسؤولين عنها... وكان لا بد من تجديد هذه العهدة والولاية أو الإقطاعية كل فترة زمنية أو عند تولي سلطان جديد الحكم فهي أساساً ليست وراثية... إلا أنها تحولت مع الأيام إلى ما يشبه الوراثة بشرط أن يسعى الوريث للحصول على براءة أو عهد بولايته على إقطاعه... وهو ما يشبه إعلان الطاعة والتزام أوامر السلطان القائد الأعلى في الدولة... وكان من نتائج هذا الاستقرار الإقطاعي (أن تحولت العائلات الاقطاعية إلى حكومات محلية مصغرة فتتحالف وتتناصر وفقاً لمصالحها الخاصة وليس وفقاً لسياسة الدولة وهذا التحول الإقطاعي هو الذي طبع العصر المملوكي الشركسي بطابعه وظل مستمراً فيما بعد في العهد العثماني...) (٢١).

غير أن هذه العائلات الإقطاعية ـ كانت في أحسن ظروفها ـ أمراء من الرُتب الثانوية يتبعون والي أو نائب طرابلس أو نائب دمشق... ولفظ الأمير

هو لفظ عسكري لا مدني... إذ أن أمراء الإقطاع كانوا - في العهد المملوكي يتبعون ديوان الجيش في مصر... فطرابلس مثلاً كانت تمثل مع منطقتها العُلْوية الغربية نيابة ذاتية تابعة عملياً لنيابة دمشق وكذلك مناطق الساحل والبقاع ولبنان الجنوبي مع الشوف كانت بالفعل أجزاء من نيابة دمشق ففي طرابلس الإقطاعية العسكرية المملوكية ممثلة بأربعة أمراء يعينهم السلطان رأساً أو بعد اقتراح نائبه وبعشرة أمراء - من الإقطاعية المتوسطة - وثلاثين أميراً ثانوياً وبحوالي ثلاثة وأربعة آلاف فارس حلقة. ويعني هذا أن أمراء العائلات الإقطاعية كانوا بين رتبتين، أمير ثانوي أو أمير حلقة... وقد أكد صالح بن يحي في تاريخ بيروت أثناء تدوينه أخبار العائلة التنوخية أن أمراءها كانوا فرسان حلقة أو أمراء ثانويين... (٢٢) أما أمراء آل معن - فهم في أحسن حال - لم يتجاوزوا هذه الرتبة... ذلك أن العثمانيين - كما بينا من قبل - لما آلت إليهم مقاليد بلاد الشام أبقوا النظام المملوكي وأقروا الإقطاعيين في إقطاعاتهم طالما هم يؤدون للسلطان الطاعة - بصورة سنوية - مع الخراج المفروض والمدد العسكري الواجب عند الحاجة والضرورة...

فقد تركزت السياسة العثمانية في إدارة المقاطعات على التخفيف من مسؤوليات الحكم الداخلي فيها ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً فتلك المسؤوليات متروكة إلى الأسر وأمرائها فهؤلاء أعرف بما يصلحهم وينفعهم ويطور شؤونهم... غير أن هذا التخفيف مرتبط بحد أدنى وهو - كما ذكرنا - خضوع الحكام المحليين للسلطان العثماني (فإذا تمردوا على السلطان أو اتصلوا (بقوى خارجية زحفت القوات العثمانية للقضاء على الأمير المتمرد وقد تكتفي بذلك وتسند الحكم إلى أمير آخر يعلن الخضوع لها) (٢٣) كما أن هذا الحد الذي ينتهي عنده تدخل السلطنة هو الاستمرار في دفع الضريبة التي آل أمر تنظيمها في البلاد الشامية إلى مجلس مخصوص عينه السلطان سليم أناط به مسح الأراضي على أن يحتفظ للتاج العثماني بقسم كبير من سهل البقاع المخصب ووادي العاصي ثم استمر على تنفيذ القوانين التي كانت تتبع خلال الحكم المملوكي تلزيم جباية الضرائب على طريقة المزايدة...) (٢٤) وقد كان هذا التلزيم سبباً هاماً في منازعات أمراء الإقطاعيات فيزيد أحدهم

على الآخر - لدى والي دمشق مثلاً - فيوليه هذا إقطاعية ذاك أو أن أحدهم يمتنع عن دفع ما التزم به فيكون امتناعه هذا سبباً في تجهيز حملة لتأديبه وتصفية حقوق الخزينة الأميرية.

فخر الدين سعى للتقرب من السلطة الشرعية فمنحته هذه مزيداً من الاقطاعات:

والمعنيون - كما رأينا - وهم ينتسبون إلى الأمير معن الأيوبي - على ما يقول فيليب حتي - أو إلى الأمير معن العربي - على ما يقول سواه - فإنهم نزلوا في الشوف بناء على أمر نائب دمشق سنة ١١٢٠ ليتخذوا من (بعقلين) قاعدة انطلاق لغاراتهم ضد الأفرنج الصليبيين في الساحل... والمعنيون هؤلاء لم يتجاوزوا رتبة أمير ثانوي فهم في الشوف محاطون بمجموعة مقاطعجية في كسروان والجنوب والبقاع فضلاً عن أن بلاد الشوف حتى إلى أيامنا - لم تتجاوز حدود قضاء وعليها قائم مقام كان يعرف بالسابق بأمير ثانوي تابع لنيابة دمشق... غير أن الاستقرار الإقطاعي الذي وصفناه أدى إلى التطاحن بين العائلات الإقطاعية ومحاولات السيطرة وامتداد النفوذ ليظهر كل منهم لوالي دمشق وللسلطان مدى قوتهم ونفوذهم... وأنه أجدر بحكم تلك المقاطعات من سواه، أو ما يعرف اليوم بنزاع الزعامة المحلية، ليكسب صاحبها الحظوة عند السلطان وليتمكن من زيادة نفوذه عن طريق زيادة اتصاله بالحكم الأعلى وبأهله...

وتؤكد هذه النتيجة التي قررناها ما كان يفعله الأمير فخر الدين نفسه فقد كان بعد أن يجتاح مقاطعة يسعى إلى تأكيد طاعته للسلطان أو لوالي دمشق أو كان في بعض الأحيان يقوم بتنفيذ سياسة والي دمشق في تصفية بعض أمراء الاقطاعيات بعد أن يدب بينها نزاع أو يحاول أن يستفيد من أي نزاع ينشأ بين الوالي وأمير اقطاع ليثبت تقربه من الوالي ضد الأمير العاصي...

وهكذا بعد أن قضى والي دمشق - مراد باشا - سنة ١٥٩٢ على الأمير

منصور المعروف بابن الفريـج أمير البقاع ونابلس... (وهو أمير سنّي) سعى الأمير فخر الدين بين يدي مراد باشا (وخدمه خدمة سنية)؟؟ - وعلى ما يبدو - فإن هذه الخدمة أدت إلى حسن تفاهم بين الوالي استفاد منها الأمير في تصفية عائلة منصور فقتل سنة ١٥٩٣ ابنه عمداً (وأرسل رأسه إلى الشام) (٢٥)، فكافأه مراد باشا بمنحه صيدا وتوابعها التي كانت تمتد ولايتها إلى عكا جنوباً ثم سعى لدى الوالي ليقطعه بيروت فنزعها الوالي من يوسف باشا ومنحها للأمير سنة ١٥٩٤...

وقد أثار مسعى الأمير فخر الدين حفيظة يوسف باشا والي طرابلس وسرعان ما نشبت بينهما المناوشات العسكرية... أدت مع الزمن إلى رغبة الأمير فخر الدين الجامحة بالاستيلاء على أكبر قدر من الاقطاعات مستفيداً من صداقته لوالي دمشق مراد باشا الذي غدا صدراً أعظم في الأستانة... وكان الأمير فخر الدين -على ما يبدو- يحاول تحقيق أحلامه عن غير الـطرق العسكـرية مـا أمكنه إلى ذلـك سبيلاً خـوفاً من أثـارة حفيـظة السلطنة العثمانية... فلجأ إلى التحالف والمعاهدة وهكذا (تحالف أولاً مع الشهابيين السنيين في وادي التيم ومع آل حرفوش الشيعـة (؟؟) في بعلبك والبقاع (٢٧)، وتزوج من امرأة درزية من آل أرسلان أمراء الغرب وقد كان آل الخازن في كسروان من أعز أصدقائه... وكذلك كان الأمراء المعنيون الدروز (؟؟) في المتن من جملة حلفائه وأصدقائه إلا أن الجار القوي الذي كان يخشى جانبه فهو يوسف ابن سيفا الذي كان قد تزوج فخر الدين ابنته لأسباب سياسية، (٢٦)، فضلاً عن أن التنوخيين كانوا أخواله، وعلى ما يبدو فإن الأمير فخر الدين كان يظن أن المصاهرة مع آل سيفا ستجعـل من يوسف مناصراً له ومؤيداً فيتنازل له عن ولاية طرابلس أو يسعى لدعمه لدى السلطان... خاصة وقد زوج ابنته أيضاً من حسن ابن يوسف باشا - على ما يذكر فيليب حتي - أو في أسوأ احتمال تجعل هذه المصاهرة والي طرابلس حامياً لفخر الدين ومخذلاً عنه لدى السلطنة بتبديد مخاوفها التي بدأت تساورها من جراء اتصالات فخر الدين بأمير توسكانا في إيطاليا وبابا روما... ضمن سياسة طمع وجشع كما سنبينها فيما بعد.

فخر الدين يتآمر على السلطنة وهو تابع لها وعلى البلاد وهو أمير عليها:

فلما وجد الأمير أن يوسف باشا يختلف معه في سياساته وتطلعاته نحو الأجنبي أدرك أنه بات وحيداً أمـام حافظ أحمد باشا والي دمشق الجديد الذي قرر أن يضع حداً لمراهنة الأمير السياسية، عندها قرر الأمير مغادرة البلاد إلى توسكانا سنة ١٦١٣... ويبدو أن يوسف باشا والي طـرابلس تألم جـداً لتصرفات صهره وعمالته - كما سنبين - فقرر الانتقام من بعض أركان الأمير الذين كانوا في دير القمر (فبعث برجاله إلى دير القمر عـاصمة المعنيـين وأحرقها) (٢٨).

لكن بعد أن عاد فخر الدين إلى الشوف - بعد أن صحح التنوخيون أخواله وضعه السياسي لدى السلطان العثماني - رجع إلى محاولاته في السيطرة على الإقطاعيات متقيداً بتنفيذ السياسة العثمانية، ففي سنة ١٦٢١ هجم الأمير برجاله على طرابلس وافتتحها... وسلمها إلى عمر باشا الكتانجي المعين والياً من قبل الباب العالي) و(سنة ١٦٢٣ - بعد معركة عنجر - جدد له مصطفى باشا والي دمشق الولاية على صفد ونابلس في فلسطين وعجلون في شرقي الأردن وزاد عليها غزة). وفي سنة ١٦٢٥ نال ولاية طرابلس من الأستانة باسم ابنه حسين...) (٢٩) وكان السلطان مراد الرابع قد وصل إلى حكم الأستانة حديثاً فرأى أن يعترف بالأمر الواقع - إذ أن الأمير فخر الدين قد وصل إلى قوة ضاهى بها والي دمشق وبات مسيطراً على عربستان من حلب إلى مصر وذلك بناء على خط همايونـي... وقد آثر الأمير - أن يلقب بأمير جبل لبنان وصيدا والجليل -) (٣٠).

غير أن الأمير خلال هذه الفترة - كما سنبين - لم ينقطع عن اتصالاته بالفرنجة وعن استيراد السلاح وتكديسه (وهذا الميل نحو النصارى جعـل الأتراك يوجسون من الأمير خيفة) فأمر السلطان مراد الرابع سنة ١٦٣٣ باشاوات سورية ومصر بالزحف ضد الثائر اللبناني (؟؟) بقيادة كوتشك أحمد باشا والي دمشق... فحشد الأمير جيشاً قوامه خمسة وعشرون ألف مقاتل منهم إثنا عشر ألفاً (كان من بينهم ألف مقاتل ماروني وألف مقاتل درزي)

بقيادة ابنه علي.. . وكرر طلب المساعدة من أصدقائه الطليان بواسطة رسوله الخاص المطران جرجس بن مارون ولكن طلبه لم يلق أذناً صاغية، أخيراً هرب الأمير فخر الدين والتجأ إلى قلعة نيحا... ولكن اكتشف مخبأه - في ١٦٣٥/٢/١٠ وأسر مع ثلاثة من أبنائه وسيقوا إلى اسطنبول) (٣١) حيث دافع عن نفسه أمام السلطان بقوله: (إني مقدم ولم ابن القلاع إلا حماية من الأعداء ولم أحارب إلا من كان عاصياً للدولة وقد مشيت طريق الحج ومنعت العربان من التعدي وأديت الأموال الأميرية وأيدت الأحكام الشرعية) غير أن فتوى المفتي الأكبر قد صدرت (بأن الأمير مرتد عن الإسلام) (٣٣) في رواية أو أن (الأمير جحد الدين الإسلامي ومال إلى المسيحيين) (٣٣) في رواية أخرى.... (سنبين القضية من هاتين العبارتين فيما بعد).

من هذا الموجز السريع يتبين لنا بجلاء ما يلي:

١ - إن الأمير فخر الدين قد تولى إمارة الشوف بعد مصرع والده قرقماز على أثر حادث الاعتداء على خزينة السلطنة العثمانية وبعد (أن تمكن خاله الأمير سيف الدين التنوخي من إزالة الصعوبات التي كانت تقف في وجه المعنيين...) (٣٦) فكان سبب ولايته إرادة من السلطنة العثمانية أي أنه إقطاعي تابع لوالي دمشق وفق مميزات المقاطعجية..

٢ - إن الأمير في بداية ولايته، كان ودوداً مع والي دمشق ويؤدي له خدمات سنية وكان والي دمشق مراد باشا يوسع له في مقاطعاته...

٣ - إن الأمير وقد أخفى اتصالاته السرية بأوروبا كان يتودد للوالي في دمشق وللسلطان العثماني إلى أن تمكن بدهائه وتفوقه العسكري من استصدار براءة شرعية من السلطان مراد الرابع يقره فيها أميراً على جبل لبنان وصيدا والجليل.

٤ - إن اتصالات الأمير بأوروبا السرية والتي سنورد بعض تفصيلاتها فيما بعد - وتكديس السلاح الأوروبي - قد أديا إلى تعجيل نهايته... فالتآمر ضد السلطنة - وهو تابع لها - وضد البلاد - وهو أمير عليها - أمر مرفوض ولا بد من اجتثاث الشر قبل استفحاله.

لكن ما هي قصة هذه الاتصالات وما هو مداها وما هو دور الموارنة فيها... وكيف ينظر مؤرخو المارونية إليها...؟.

باختصار: لقد رفعت هذه الاتصالات الأمير فخر الدين - في نظر الموارنة ومن بعدهم المؤرخين المارونيين ودولة الاستقلال - إلى القمة وإلى البطولة الخالدة وإلى تأسيس دولة لبنان المستقل الخاضع لنفوذ المارونية... بينما كانت تلك الاتصالات، في الحقيقة، عاراً في جبين هذا الأمير ومن بعده... إذ أن التآمر على الوطن كما الاتصال بالأجنبي لا يمكن أن يكون في مفهوم الشرفاء الصادرين عن معطيات الحضارة والوحدة - إلا خيانة وجبناً ونذالة.... فنكون في حكمنا هذا قد دافعنا عن (فخر الدين) فأنصفناه إذ وضعناه في الإطار الذي حبس نفسه فيه، ويؤدي هذا الحكم بالنتيجة إلى تصحيح التصورات التاريخية السيئة التي تعمّد صانعوها طمس المعالم وقلب الحقائق والمفاهيم.... وإلى إعادة ترتيب أوراق التاريخ من جديد.

* * *

اللعبة الدولية في القرن ١٧
ومحاولة إيجاد حلف أوروبي مع أعداء العثمانيين
بهدف الاستيلاء على الأراضي المقدسة

وبادىء ذي بدء لا بد من إلقاء نظرة سريعة على الوضع الدولي في تلك الحقبة التاريخية إذ لا يمكننا أن نفهم كثيراً المتغيرات وحتى سياسة الدولة العثمانية المتراخية في بعض الأحيان والحازمة في البعض الآخر إلا على ضوء تلك الأوضاع الدولية.

فقد كانت السلطنة العثمانية الفتية تخوض غمار الحروب المضنية للتوسع في أوربا الشرقية... وكانت البابوية وحلفاؤها خاصة دوق توسكانا في إيطاليا يخوضون معركة إثبات وجود ضد البروتستنت ويريدون من خلال (إثبات الوجود) هذا تحقيق مكاسب وانتصارات ضد السلطنة الإسلامية وعلى أية جبهة ليوظفوا تلك الانتصارات في تجميع القوى حول البابوية المجابهة للبروتستنت وليحدّوا - بها - انتشار البروتستنت في الشرق وتوسعهم. وفضلاً عن ذلك فقد كانت البرتغال - وقد اكتشفت رأس الرجاء الصالح وسيطرت على

البحار - تخوض حرباً اقتصادية صليبية ضد المياه الجنوبية الإسلامية، فوجد البابا وأمير توسكانا نفسيهما بحاجة ماسة إلى متنفسات اقتصادية تتحول إلى مكتسبات في السواحل الشامية... ومن أجل هذا كله (كانت الدعوة لحرب صليبية جديدة لا تزال تتردد في بلاطات أوروبية عديدة وبوجه خاص لدى البابوية ودوقية تسكانا وإسبانيا والبرتغال ولدى بلاط أمبراطور الدولة الرومانية المقدسة وإلى حد ما بلاطات فرنسا وانجلترا وكانت تكمن وراء هذه الدعوة الصليبية دوافع اقتصادية ومذهبية متعددة.

ولهذا سعت البابوية ودوقية تسكانا إلى إنشاء حلف كبير يضم القوى الأوروبية المناهضة للدولة العثمانية التي كانت أكبر دولة إسلامية مجاهدة حينذاك) (٣٥) وقد كانت الخطط تقضي بتنظيم تحالفات عميقة وفق شروط مضمونة مع علي جنبولاد والي حلب، ومن بعده الأمير فخر الدين... وقد كان الوسطاء بينهما وبين البابوية والتوسكانية (أدلاء مارنيون) كما سنبين فيما بعد - كما كانت محاولات مماثلة تبذل مع الشاه عباس الأول في إيران لإيجاد نوع من هذه التحالفات ضد السلطنة العثمانية الإسلامية العدو المشترك لهؤلاء جميعاً وقد تولى إجراء المفاوضات، كما يقول المؤرخون الموارنة، فضلي بن يوحنا قريع الماروني الحلبي وكان سفيراً لأمير توسكانا لدى علي جنبولاد والأمير فخر الدين وشاه العجم وبطريرك الموارنة (لعله يحقق حلفاً كبيراً من كل هؤلاء ضد الدولة العثمانية) (٣٦).

مؤامرة علي جانبولاد:

ويبدو أن علي جانبولاد بعد أن خاض المعارك ضد ولاة دمشق وطرابلس من حين لآخر وانتصر عليهما. - وقد عاونه في معاركه ضد يوسف باشا سيفاً والي طرابلس وعكار، الأمير فخر الدين الثاني - قد سيطر على جزء مهم من سوريا كما يقول هو عن نفسه في رسالته إلى فريدينان الأول (جيران دوق توسكانا) (نحن علي جامبولات أمير مملكة سوريا وحاميها لأن أغلبها خاضع بإذن الله (؟؟) - لسلطاننا). (٣٧).

ويبدو أن هذا الباشا قد وقع تحت تأثير فضلي قريع الماروني الذي أخذ يزين له منافع مناوأة الدولة العثمانية وتوسيع رقعة ملكه معلناً له تأييد أمراء

الدول النصرانية الأوروبية (... وقد أفلح - كما يقول كمال جنبلاط في كتابه هذه وصيتي - في الحفاظ على استقلال إمارته بضع سنوات وعقد عدة معاهدات مع الفاتيكان ودوقية توسكانا وإسبانيا والدويلات المسيحية التي كانت قائمة آنذاك متلقياً في مقابل ذلك دعماً سياسياً وعسكرياً كالمدافع وبعض الأسلحة الأخرى... كان جدي علي جانبولاد أول من منح مسيحيي سوريا في الشرق حصانة وأولاهم الحقوق ذاتها والحريات نفسها التي كانت لبقية الرعايا العثمانيين...)* (٣٨).

والحقيقة أن علي جانبولاد هذا - لم يبرم معاهدة - وإنما كانت تلك المعاهدة في طور الإعداد وإن قطعت أشواطاً مهمة غير أنها كانت من جهته مثبوتة وتنتظر موافقة أمير توسكانا غير أنه اشترط أيضاً أن لا يبدأ بتنفيذها إلا بموافقة ملك إسبانيا وألبانيا... كما ذكر جونبلات نفسه في رسالته إلى أمير توسكانا (٣٩).

ويبدو أن أمير توسكانا فرنديناند الأول (٤٠) قد تمكن من الاتصال بعلي جونبلاد قبل اتصاله بالأمير المعني فخر الدين بواسطة فضلي الماروني الحلبي، لهذا عندما وجه سفيره قريع برسائل إلى علي باشا وإلى الأمير فخر الدين وإلى البطريرك الماروني كانت رسالته الخاصة بعلي متقدمة في أبحاثها عن تلك المتعلقة بفخر الدين - كما سنبين. فقد أصدر فريديناد توجيهاته لسفيره أن يحض الباشا على الموافقة على هذه الأمور (وأفهمه إننا إذا حالفنا التوفيق في خض شوكة الأمبراطورية العثمانية لا يعود لنا مأرب في تلك البلاد سوى تمكين النصارى من زيارة المدينة المقدسة والإقامة في ظلها مطمئنين ولهذا الغرض نتمنى... أن يتوفق المشاة في افتتاح هذه المقاطعة والاستيلاء على القدس الشريف... ولقاء هذه الحماية نعده بسعينا لدى الأمراء المسيحيين ليرتبوا له مبلغاً من المال يتقاضاه سنوياً شرط أن يقطع للمسيحيين حول هذه

* - من العجيب أن يدعي كمال جنبلاط هذا وهو يعلم أن السلطان سليمان الذي عاش قبل جده المزعوم كان هو صاحب الامتيازات والحصانات للنصارى الغربيين تلك التي لم تَجُرْ على الشرق إلا الويلات أما نصارى الشرق أنفسهم فقد كانوا منذ الفتح الإسلامي يتمتعون بالحقوق والواجبات التي للمسلمين (لهم مالنا وعليهم ما علينا) إلا ما استثني بنص خاص...

المدينة المقدسة أراضي يزرعونها قمحاً وحبوباً لمعاشهم تبلغ مساحتها حتى ميناء يافا. . .) (٤١).

وطلب من سفيره أن يزور البطريرك الماروني ويسلمه رسالة مماثلة ويكتسب صداقته (لأنها بلا شك نافعة في مشروع الأراضي المقدسة الذي نعده) (٤١).

ومن هذا النص يتبين أن المؤامرة ـ التي دخل ضمنها علي باشا جنبلاط ـ كانت ترمي للاستيلاء على المناطق المقدسة في القدس وحولها لا لدعم علي جنبلاط كما توهم كمال جنبلاط وقد جاءت الإغراءات المالية سنوية لضمان استمرار حسن تنفيذ الاتفاق، هذا الاتفاق الذي ينص على منح النصارى اقطاعية في القدس وما حولها حتى يافا وأن تكن في الظاهر خاضعة شكلياً لنفوذ علي باشا . . .

السيء في تاريخ علي هذا ـ فضلاً عن مساوئه الأخرى ـ أنه قبل هذا العرض في رسالته التي وجهها إلى أمير توسكانا مانحاً إياه امتيازات تجارية وقانونية لرعاياه ورعايا النصارى الأوربيين بما لا يمكن تصوره إذ أنها تجاوزت كل حد مألوف ومعقول ـ وإن يكن ذلك لم يظهر عملياً لأن تلك الاتفاقية بقيت دون توقيع من أمير توسكانا وممن اشترطه جنبلاط توقيعاً عليها للبدء بالتنفيذ. . . وهكذا يتبين خطأ كمال جنبلاط في فهم هذه الاتفاقية لجهة الامتيازات الممنوحة للنصارى فهي للنصارى الغربيين لا الشرقيين كما توهم.

أما الجانب السياسي في الاتفاقية غير المنفذة فهي كما يقول علي جنبلاط (ولبلوغ هذه الغاية ـ أي كسر شوكة الأمبراطورية العثمانية وتعزيز بيت جنبلاط وعلى الأخص شخصنا؟؟؟ ـ نعدهم ـ أي يَعد أمير توسكانا والبابا وملك إسبانيا وغيرهم من أمراء النصرانية وملوكها على حد تعبيره ـ بأن نقوم بكل فتح يطلبونه منا مهما كان صعب المنال، ونعاهدهم بأن نزحف على أورشليم المدينة المقدسة وأن نقاتل كل من يجسر على الدنو من أمامنا ونبذل كل الجهد للإستيلاء عليها ـ. . . . نعاهدهم أيضاً على مباشرة هذه الحملة حالما يتوصل سمو الغراندوق إلى حمل الكرسي وملك إسبانيا على توقيع الصداقة والمحالفة معنا وتقديم ما يلزم لها من الذخائر والمؤن) (ونقوم بالزحف على أورشليم دون تأخير حتى تبلغ بشائر فتوحاتنا إلى بلاد النصرانية بأقرب وقت. . .).

لكن، على ما يبدو، وقد وصلت بعض أخبار علي جانبولاد إلى السلطان أحمد وشعر بعصيانه قرر توجيه حملة لإنهاء أسطورته قادها مراد باشا الصدر الأعظم بنفسه. . . ومراد باشا هذا هو والي دمشق في بداية عهد الأمير المعني سنة ١٥٩٣ حيث قامت بين الطرفين موالاة ومودة أنعم الوالي على فخر الدين بولاية صيدا حتى عكا كما مر معنا. . . ويبدو أنه لهذا السبب ولأسباب سياسية أخرى امتنع فخر الدين عن نجدة علي جنبولات الذي غدا وحيداً في معركة غير متكافئة مع السلطنة انتهت بهزيمته (٤٢).

* * *

البابا وأمير توسكانا يخاطبان الأمير فخر الدين نفسياً والأمير يتآمر على القدس:

وفي التاريخ ذاته الذي حمل فضلي قريع الماروني دعوة أمير توسكانا إلى علي جنبلاط والي البطرك الماروني من أجل الخطة التي أعدها مع البابا لاستعادة الأراضي المقدسة والمسيحيين الشرقيين وخض شوكة الأمبراطورية العثمانية ودفع خطرها عن أوروبا كما يقول الأب بطرس ضو ٤/٢٢٦ حمل السفير التوسكاني المذكور إلى الأمير فخر الدين رسالة يبدو أنها استكمال لمفاوضات أولية وتجديد للاتصال التوسكاني بالمعنيين، فرسالة فرديناند الأول إلى علي جنبلاط أرِّخت في ٢٥ / كانون الثاني سنة ١٦٠٧ وكذلك رسالته إلى البطريرك الماروني بينما أرخت رسالة الأمير التوسكاني إلى فخر الدين في ٢٢/ كانون الثاني سنة ١٦٠٧ وأننا هنا نثبت نص تلك الرسالة لأهمية مضمونها الذي يكشف دهاء وخبث الأمير التوسكاني الذي كان يسعى لاكتساب القوى المحلية وإشعارها بأهميتها مما حداه ـ في رسالته ـ إلى تقبيل يدي الأمير فخر الدين!!! هذا الذي لم يكن إلا مقاطعجياً عند والي دمشق في حين أن رسالته إلى البطريرك الماروني لم تتضمن التقبيل المذكور وإن كانت مليئة بالتفخيم والتبجيل؛ يقول أمير توسكانا:

(وفق الله سموك ـ أملي أنك ما زلت تذكر الرغبة الشديدة التي أبديتها سابقاً لأفوز بصداقتك تأكد أني ما زلت راغباً فيها ومقدراً إياها حق قدرها لبسالتك وشرف نفسك.

(ولما كنت قد أوعزت إلى حامل هذه الرسالة أن يقبل يديك بدلاً مني وأن يؤكد لك محبتي أرجوك أن تعينه في حضرتك وتصغي إليه بارتياح وتثق لكلامه كأنه صادر مني فأوصيك به خيراً وأقدم نفسي للقيام بكل ما يمكن أن أخدمك به. خادم سعادتك المحب) (٤٣).

ولا ريب أن رسالة من هذا النوع تنفخ في فخر الدين العظمة ويدرك أنه محور هام في السياسة الدولية وأن عليه أن يقوم بخطوات عساه يحقق طموحاته التوسعية فإن تذكرنا أنه (ذو ميل إلى الطغيان) كما وصفه رحالة إنكليزي ـ كما قدمنا ـ أدركنا كَم تؤثر في نفسه مثل هذه الرسالة وتجعله منجذباً إلى الأمير التوسكاني الذي لم يقل ما قال إلا لتحقيق أهدافه (لأجل المشاريع التي أعدّها الرامية إلى خدمة عظمته تعالى والنصرانية جمعاء) (٤٤) كما قال فرديناند في رسالته إلى البطرك.

ويبدو أن تطورات الأحداث في المنطقة التي قضت على الباشا الجنبلاطي وتقصير أمير توسكانا بنجدة هذا الأخير جعل من الأمير فخر الدين أكثر تحفظاً في التعاون مع توسكانا. . . . ويبدو أن أمير توسكانا أدرك هذا فأراد أن يبرهن عن صدق نواياه واستعداده للتنفيذ الفوري (فأرسل في سنة ١٦٠٨ هيبوليت ليونسيني سفيراً إلى البطريرك الماروني يوسف الرزي والأمير فخر الدين محملاً إياه رسالة إلى كل منهما مع ألف بندقية كهدية إلى فخر الدين. . . .) (٤٥).

ويبدو أيضاً أن المفاوضات بين الأمير والسفير أسفرت عن خطوط عامة لاتفاق شامل بين الطرفين ملخصها:

١ ـ صرح فخر الدين بعزمه على احتلال دمشق والقدس وتسليم القدس إلى أمير توسكانا.

٢ ـ يضع أمير توسكانا تحت تصرف الأمير خبيراً يصب له اثني عشر مدفعاً ويحصن القلاع ويجهزها بالمدافع والذخائر.

٣ ـ أن يوجه البابا براءة يأمر بها الموارنة بالوقوف إلى جانب فخر الدين في الحروب القادمة.

٤ ـ أن يضع أمير توسكانا تحت تصرفه في ميناء صيدا مركبين يستخدمها في تبادل الرسائل والبعثات وتهريب خزينته إلى توسكانا عند الحاجة. . .) (٤٥).

هذه المفاوضات التي قال عنها الأب ضو أنها معاهدة وليست مفاوضات باعتبار أنها لم تترجم إلى واقع إلا لجهة البراءة التي صدرت في ١٦١٠/١٠/٧ من البابا ومنحه بعض سفن توسكانا الحربية. . . غير أن هذه المفاوضات ـ المعاهدة تكشف عن خلفية الأمير المعني الرهيبة الذي انتفخ ـ على قصر جسمه ـ حتى غدا ـ بطلاً قومياً عند غلاة اللبنانيين ـ فيكفيه خزياً أنه كان كعلي جنبلاط عميلاً يسعى لتسليم القدس إلى أمير توسكانا كل ذلك في سبيل إمارة واهية، حتى إذا فشل ـ كما كان يضع في حسابه ـ هرّب أموال شعبه إلى توسكانا بفضل الزوارق الحربية التي اشترطها هدية له. . .

ومن هذه المفاوضات يتبين أن الموارنة ـ مع بعض منفذيهم كانوا معه كما بينّا ـ لم يناصروه في حروبه السابقة كما يجب. . . وإنه انطلاقاً من معطياته في التآمر ضد السلطنة وارتباطه بشكل أو بآخر بأمير توسكانا، كان يرى أن يكون الموارنة ببطريركهم ومنفذيهم أهم قواعده في تحركه الجديد. . . وكان هذا المنظور يزيده في الانحراف والرغبة في التعاون المسيحي لدعم إمارته مما حدا بالبابا بولس الخامس توجيه كتاب إليه (تضمن نوعاً من الدعوة للتحول إلى المسيحية وأشار البابا في هذه الرسالة إلى اعترافه بجميل فخر الدين من حيث الحرية الدينية. . . إذ اعتقدت أنها تعطي فرصة للبابوية لتحقيق أهدافها السياسية والمذهبية وخاصة الاستيلاء على بيت المقدس) (٤٦) وقد ورد في رسالة البابا: (عرّفنا الأخ المحترم سركيس رئيس أساقفة دمشق الماروني عطفك العظيم على أولادنا المسيحيين وخاصة الموارنة فبتنا مدينين لك كثيراً. . . ونحثك ثانياً وثالثاً أن تواصل رعايتك لأولادنا خاصة الموارنة. . . وأن تشمل بحمايتك حامل هذه الرسالة وهو يفصح لك عن رغبتنا الشديدة ومناصرتك على الأتراك الظلمة أعداء الطرفين حتى إذا توسعت في تخليص هذه الأماكن من نيرهم القاسي عاد سكانها إلى الدين القويم مجداً لله وخلاصاً للنفوس ليضيء الإلّه قلبك برحمته ويسدد في طريق الحق خطواتك).

ويبدو أن هذا الكتاب البابوي جاء مدروساً لينسجم مع نفسية فخر الدين وتطلعاته... فعندما يعظم البابا فخر الدين ويطلب منه أن يسمح له ليثبت حبه له بالهدية البابوية فيعني هذا أن الأمير فخر الدين تاه في خضم الذات والأنا والغرور ذلك أن سائر الأمراء والبطاركة يسعون هم للحصول على بركة البابا لا العكس خاصة وأن باباوات ذاك الزمن وقبلهم كانوا يمنحون صكوك الغفران التي - بزعمهم - تدخل حامليها الجنان دون حساب ولا عقاب؟؟؟.

وإن صَدَقَ قرأ لي فقد وجه الأمير المطرانَ جرجس مارون (أسقف نيقوسيا الماروني.... سفيراً له لدى بلاط توسكانا والبابا مكلفاً إياه بإجراء مفاوضات لعقد معاهدة غايتها تنظيم حملة عسكرية لانتزاع الأراضي المقدسة من الدولة العثمانية...) (٤٧).

ويبدو أن هذا الموفد الماروني كان بعد لقاء البطرك الماروني مع فخر الدين محدثاً إياه عن البابا وحبه له واستعداده للوقوف معه ذلك أن البابا كان قد أرسل إلى البطرك بكتاب مؤرخ في ٢٥ / ٩ / ١٦١٠ حَثَّ فيه البطرك (ليرعى صداقه فخر الدين ويقف مع الموارنة بجانبه ليتمتع بحمايته ويساعده على تخليصه وأمته من ظلم الأتراك ويجتذبه إلى يسوع المسيح) (٥٣) وقد حمل موقف البطرك هذا الأمير فخر الدين ليعلن له (إذا كان - البابا - راغباً في هذه البلاد فإني أعده وأقسم أن أقدم موانىء لغلايينه وأشد أزره بكل قواي ضد هذا الكلب التركي).

ويعقب الأب ضو أن من أسباب سفر فخر الدين سنة ١٦١٣ وتركه البلاد - سوى رغبته بعدم مواجهة حافظ أحمد باشا قائد الحملة ضده - هو مقابلة البابا يوحنا الخامس موضحاً له أن قصده تحرير لبنان وسوريا وفلسطين من الأتراك وتسليم الأراضي المقدسة إلى البابا) (٤٨).

الأمير فخر الدين ينحني أمام العاصفة العثمانية ويرفض التنصر:

والحقيقة أن فخر الدين اضطر للهرب من بلاده إلى توسكانا بعد أن

تخلى عنه كبار أعوانه - عندما بدأ والي الشام بزحفه عليه... وبعد أن أدرك أن البابوية أو توسكانا لن تقدم له معونة ذات قيمة) فآثر عندئذ الاختفاء لعلمه أن غاية الحملة، وكامل خططه التآمرية لم تكتشف هو تأديبه وحمله على الامتناع عن الاتصال بأعداء السلطنة التوسكانيين وتأدية ما يتوجب عليه من مال للخزينة وليس غرض الحملة - كما توهم بعض المؤرخين المارونيين القضاء على الإمارة المعنية بدليل أن عائلته، أمه وابنه وأخيه، استمرت في ممارسة الأعمال الاقطاعية في الأمارة المعنية لحين رجوعه بعد أن عفا عنه السلطان سنة ١٦١٨ كما سنبين - وبدليل أن حافظ باشا لم يقم بأعمال انتقامية تذكر وعاد إلى مركز ولايته بعد أن استلم الضرائب المقررة... وهكذا نجح فخر الدين بحني رأسه أمام العاصفة الشامية العثمانية باختفائه عن مسرح الأحداث لبعض الوقت...

غير أنه بعد أن لقي الحفاوة من الأمير التوسكاني قزما الثاني (شعر بأساليب ضغط جديدة يتعرض لها إذ حاولوا تنصيره الأمر الذي أثاره وأصبح فخر الدين يشعر كأنه قد وقع في قفص من ذهب حتى لقد هم في وقت من الأوقات بأن ينسف نفسه مع أسرته تخلصاً من القيود الثقيلة التي فرضت عليه هناك بل لقد منع من العودة إلى وطنه وعندما أصر على ذلك أرسل في سفينة حربية وسلمت إلى قبطانها تعليمات بمنعه من النزول إلى الشاطىء اللبناني وأن من يريد رؤيته فليأت إلى السفينة وهذا ما حدث فعلاً وعادت السفينة بفخر الدين إلى إيطاليا ليظل ورقة يلعب بها غران دوق على مائدة المفاوضات مع الباب العالي العثماني) (٤٩).

ويبدو أن عدم تنصره الذي كان يطمع به البابا وأمير توسكانا جعل العاهلين يعيدان النظر في خططهما لاستعادة الأراضي المقدسة في حملة صليبية فضلاً عن السببين الأخرين اللذين ذكرهما الأب ضو وهما انقسام الملوك المسيحيين في أوروبا - حرب الثلاثين سنة - وهزيمة علي باشا جنبولات - ذاك الباشا الذي كان أشد سطوة وأكثر عدداً من الأمير ورعيته... (لأنها أي الحملة - إذا لم تكن كافية ومحكمة لسحق عدو قدير وبعيد كالأتراك فإنها لا تجدي سوى زيارة نقمتهم على المسيحيين) (٥٠).

وهكذا أعيد الأمير إلى حجمه وقامت عليه الدنيا وشعر أنه يكاد يخسر كل شيء خاصة بعد أن باتت تصله الأخبار عن تفكك أمارتـه واجتزاء الاقطاعيات التي حصل عليها قبل مغادرته لتعود أمارته إلى ما كانت عليه إمارة لإقطاعية الشوف.... بينما هنا في توسكانا يلزمه أميرها بتوقيع سند بما كان ينفق عليه وعلى أسرته من خزانته واعتراف منه إنما يقيم لديه بمحض إرادته وأنه يسعى إلى الحصول على معونة وقوة من البابا وباقي سلاطين النصارى ـ حتى يكون هذا الصك اقراراً من الأمير علـى نفسه لا يمكنـه الانفصال عنه...

ومع أن فشل تنصيره أضعف معاونتـه في استرداد إمـارته، إلا أن المحاولات من أجل الارتداد عن دينه وإعلان تنصره كانت لا تتوقف إذ أنه بعد ضيقه الذي أدركه في توسكانا وجهت إليه الدعوة لزيارة صقلية سنة ١٦١٥ وهناك عرض عليه نائب ملك إسبانيا ولاية تضاهي في اتساعها الولاية التي أعطاها له سلطان المسلمين شرط أن يعتنق المسيحية، فكان جواب الأمير مقتضباً، ما جئنا نفتش عن دين أو ملك إنما جئنا للحماية (٥١). وقد ذكره هذا العرض ـ السخي ـ بالمباحثات الخطية المتبادلة بين أمير توسكانا والصدر الأعظم العثماني نصوح باشا ـ وقد كانت تشمل مجموعة قضايا تتعلق بالأمن وعدم الاعتداء والتجارة والأسرى وبالأمير المعني فيشير الصدر الأعظم أن السلطان يرفض عودة فخر الدين إلى الإمارة في لبنان وعلى الأمير أن يعود إلى الآستانة لتسوية حساباته المالية وبعدها يتسلم حكم سنجقية في بلاد اليونان (٥٢).

الأمير يعتذر من الآستانة فيعود
والياً على عربستان ثم يعود للتآمر

إلا أن الأمير فخر الدين يرفض هذا العرض خوفاً على نفسه إن مَثُلَ أمام السلطان العثماني بعد انكشاف بعض خططه ثم إنه تذكر مصير علي جنبلاط الذي استلم حكم هنغاريا وانتهى الأمـر بقتله ـ لإثارتـه الشعب هناك ـ ... عندئذٍ وبعد أن فشلت مساعي أمير توسكانا في استصدار عفو سلطاني كما فشل بتجهيز حملة عسكرية وجد الأمير أن الحكمة تقضي بأن

يوسط أصدقاءه ليزيلوا لدى السلطات العثمانية الجفوة ويخفضوا من غضبها عليه فوسط صديقه على باشا الذي أرسل له بتاريخ ١٦١٥ كتاباً ينبئه فيه بأنه نجح في مساعيه وأن فرماناً سيصدر بالعفو عنه (وحالما تتسلمه إذا كنت راغباً بالمجيء، تعالَ على عهدتي وبلا خوف ولا قلق...) (٥٣).

وهكذا عاد الأمير سنة ١٦١٨ بمجموعة تجارب وتطلعات فامتد حكمه إلى ١٦٣٣ / ١٦٣٤ وخلال هذه الفترة الجديدة من حكمه تمكن من بسط سيطرته من جديد مسترضياً ولاة دمشـق منفذاً تعليمات الباب العالي في تسليم طرابلس إلى الوالي عمر بعد أن رفض يوسف سيفا تخليه عنها... ومنتقلاً بعد ذلك إلى نصر ضد والي دمشق... وكانت السلطنة العثمانية مشغولة بمعاركها ضد (الصفويين) فآثرت أن تترك ابن معن يتصرف على هواه فأشعرته بأنها تؤيده وتقره في انتصاراته على أن يلتزم بخطها العام ويؤدي ما عليه من ضرائب مُوجهة إليه ولاية عربستان حتى عريش مصر ـ كما بينا ـ وقد ازدهرت ولايته ازدهاراً تجارياً وزراعياً جيـداً لكثرة المبـادلات مع الـدول الأوروبية وفي مقدمتها توسكانا... وكان يهتم هو بالأسلحة والذخيرة ويسعى إلى أسس جديدة في محالفات جديدة مع أوروبا... فتوجه بطلباته إلى إسبانيا إذ كانت مرجعاً لأعداء الدولة العثمانية في ذلك الحين (فقد سعى إليها عباس الأول الصفوي كذلك من أجل عقد حلف ضد السلطان العثماني ولكن اكتفت إسبانيا بالوعود... والسبب في هذا أن إسبانيا كانت قد بدأت في التدهور بعد تدمير الإنكليز لأسطولها في موقعة الأرماد وفي سنة ١٥٨٨ وانغماسها في المشاكل الأوروبية المعقدة سياسياً ومذهبياً) (٥٣) إلا أنه في رسـالته الموجهة إلى البوكرك نائب ملك إسبانيا في صقلية نـوه له فيهـا باهتمـامه بالنصارى وأنه حاميهم (ونحن دائماً في بلادنا كل نصراني إن وجدناه مع المسلمين نخلعه). (٥٣).

وهكذا استمر فخر الدين في سياسته الخرقاء بالارتماء في أحضان أوروبا أملاً في كسب ودهم وزيادة فعاليته العسكرية ضد السلطنة العثمانية ولو أدّى هذا إلى زحف صليبي على بلاده... مما حمل البابا أوربيان الثاني لإرسال كتاب سنة ١٦٢٥ للبطريرك الماروني يعتذر فيه بشكل قطعي عن عدم قدرته

وقدرة الملوك المسيحيين على تجنيد الرجال ضد الدولة العثمانية غير أنه يثني على (الأمير المسلم) ويدعو له (أن يثبت بندى نعمته الإلَهية بذور رأفته في قلب هذا الأمير المسلم ضماناً للسعادة الأبدية) (٥٤) غير أن مؤرخي الموارنة ـ كعادتهم في التضخيم وتحوير الأمور قد اعتبروا أن البابا أوربان قد أبدى أسفه (لعدم إمكانه انتهاز هذه الفرصة الثانية التي قدمها الأمير عن كرم نفس لتخليص الأمة المارونية والأراضي المقدسة. . . . (٥٥).

ويعلّق الأب ضو نقلاً عن قرا لي مدعياً أن علاقات الأمير مع الدولة الفرنسية على الصعيد السياسي لم تكن على غاية ما يرام (ففرنسا كانت في تلك الحقبة مرتبطة بمعاهدات صداقة وتعاون مع الدولة العثمانية والأمير كان ثائراً ضد الأتراك ومن ثم لم يكن ممكناً توقع تجاوب حماسي من قبل فرنسا مع مطالبه ومشاريعه المناوئة للدولة العثمانية) (٥٦) وإن يكن الأمير قد سهل للآباء الفرنسيسكان الفرنسيين الإقامة في الناصرة وفي صيدا وفي بيروت وقرّبهم إليه. . .

السلطنة تقرر القضاء على الأمير
والأمير يلعب أوراقه باتجاه توسكانا

قلنا أن السلطنة العثمانية كانت لا تنظر بعين الارتياح إلى مراسلات فخر الدين واتصالاته بأوروبا وتتوجس من ذلك خيفة. . . وكانت قد غضت النظر عن بعض أنشطته بل منحته فرماناً بولاية عربستان حتى تتفرغ للقتال ضد (الصفويين في إيران) واسترجاع العراق منهم. . . فلا يعقل أن تبدأ حرباً هناك وسواحلها مكشوفة ليست في أيد أمينة. . . فكان لا بد من القضاء أولاً على فخر الدين وإنهاء أسطورته ووضع حد لتجاوزاته وإعادة الأمور إلى نصابها في الإمارة المعنية والإقطاعيات المتصلة بها. . . فكان أن قرر السلطان ذلك وأوعز إلى باشواته ولاة دمشق ومصر بالزحف على الإمارة المعنية كما أمر البحرية العثمانية بالتوجه إلى الساحل منعاً لأية مناصرة محتملة من أوروبا وتأييداً للهجمة البرية. . .

ويروي مؤرخو فخر الدين أنه حاول أن يرشو الباشا والي دمشق

بالأموال الكثيرة التي قدمها إليه بواسطة خطار الماروني فاستلم الباشا المال وقتل أبا خطار إذ أن الأوامر السلطانية كانت صريحة ولا يمكن تجاوزها أو تفسيرها. . .

ويبدو أن الأمير فخر الدين وقد تأكدت لديه الإرادة السلطانية بالقضاء عليه نهائياً قرر أن يلعب آخر أوراقه مع إمارة توسكانا والبابوية فأوفد رئيس أساقفة نيقوسيا المطران جرجس مارون بمشروع معاهدة (٥٧) في أواخر سنة ١٦٣٤ يستصرخهما فيها بسرعة نجدته وباحتلال قبرص ومن ثم القدس ويتعهد فيها أن يمنح (العسكر المسيحي) ميناء واحدة أو أكثر كما يتعهد بتمليك أمير توسكانا (مدينة القدس ويمد لهم دائماً يد العون والمساعدة وقت مباشرة التعاهد والسلم) ويتعهد أيضاً بأنه لا يقبل عهداً أو معاهدة أو عقداً معروضاً عليه من السلطان أو من وزرائه قبل أن يُعْلِم بذلك البابا والدوق التوسكاني ويسير بمقتضى حكمهما. . . ويطالب الأمير إزاء هذه العروض السخية. . . أن يسرع البابا ودوق توسكانا بنجدته بخمسين بارجة على الأقل تبدأ باحتلال قبرص (وهذا يكون سهلاً لديكم لقلة الأتراك الموجودين في الجزيرة. . . وبسبب ضعف أسلحة السلطان البحرية وقوة جيش الأمراء المسيحيين. . .) وأن يرسلا إليه مهندسين ورجالاً خبراء في (فن) الحروب وأن يعطياه مدافع وباروداً وقنابل لمقاومة العدو. . .

وقد استهلك الأمير كل أوراقه في هذه المعاهدة إذ أعلن خضوعه لإرادة البابا ودوق توسكانا ولشروطهما السابقة في منحه إية مساعدة. . . إذ أنه في رحلته التوسكانية سنة ١٦١٣ ـ كما رأينا ـ حاولوا إجبار الأمير على التنصر فرفض. . . كما طلب إليه نائب ملك إسبانيا إعلان مسيحيته في مقابل منحه مساعدات وإقطاعيات كبيرة فرفض أيضاً. . . فأدرك أنه لا مناص له ـ وقد لفّه الخطر العثماني من أن يلوح بمسألة تنصره. فأبدى استعداده لذلك إذا ما أبرمت المعاهدة وبدىء بإرسال البوارج والمساعدات. . . لذلك أجاز الأمير لموفده جرجس مارون أن يعلن للبابا ولدوق توسكانا باسمه (أن سعادة أمير صيدا قد حمّله حبه الشديد للديانة المسيحية وبغضه المغروس ضد الشيعة

المحمدية (*) وعلى الرغبة في أن يتحد مع قداستكم وغراندوق توسكانا برباط غير منحل وباتفاق وسلم دائمين...) وأن الأمير يعده بأن (يسمح لجميع مرؤوسيه أن يعتنقوا الإيمان الكاثوليكي وهو يكون أول من يُنادى به مسيحياً ويجعل عائلته تتعمد...).

ويرجح د. عبد العزيز نوار في الوثائق السياسية أن صياغة (مشروع هذه المعاهدة كان من وضع جرجس مارون (الذي اتفق مع (فخر الدين حول الخطوط الرئيسية للمعاهدة المقترحة...) إلا أنها وإن كانت كذلك فلا يقلل ذاك خطرها الرهيب. ومهما يكن من أمر فإن أفكارها تنسجم مع «خبث» الأمير فخر الدين الذي وصفه به السائح الإنكليزي سنة ١٦١٠ (دهاء كالثعلب) ذاك أن همه الأكبر كان ينصب على جر البابا وتوسكانا إلى معركة لاهبة مع السلطنة وبذلك يحول هدف الحملة العثمانية من إسقاطه شخصياً إلى نزاع دولي... غير أن البابا وتوسكانا كانا على ما يبدو يزنان كل خطوة يخطوانها ضد السلطنة العثمانية خاصة أنهما يعرفان قوة الأمير وخبثه - ويذكران جيداً كيف انهزم جنبلاط أمام حزم السلطنة العثمانية لمّا قررت هذه تصفية الجيب العاصي وأدركا أن فخر الدين لا بد منهزم وقد أحاطت به الجيوش العثمانية وبدأ المقاطعجية التابعون له يتخلون عنه، الواحد تلو الآخر... فكان البابا والدوق أعقل من أن ينجرّا إلى معركة خاسرة ولو أن التنازلات المعنية ووعوده بالتنصر مع رعاياه وتمليك القدس - التي لا يملكها - إلى دوق توسكانا من الأمور التي (تفتح الشهية) غير أن تحليلهما للموقف العام ولأوضاعهما الصعبة والمعقدة في أوروبا سدَّت عليهما كل الأبواب.

دفاع غريب عن الأمير!!

ومما يلفت النظر أن العميد الركن عزيز الأحدب (المسلم السني) وقد

* - عبارة الشيعة المحمدية لا تعني الشيعة أي المتاولة ومن هم على المذهب الشيعي وإنما تعني المسلمين عموماً إذ أن المحمدية - عندهم - تسمية للإسلام كالمسيحية... وهذا بالطبع خطأ يرفضه المسلمون بقوة...

وقع تحت تأثير سعيد عقل (الماروني) لم يمتدح فخر الدين فحسب وإنما دافع عن مشروعه الخطير الذي يتلخص باستدراج حملة صليبية على بلاد الشام نكاية بالأمبراطورية العثمانية الإسلامية. فقد جاء في كتابه فخر الدين مؤسس لبنان الحديث (من أهم ما أقدم عليه فخر الدين مشروعه الخطير بإنشاء دولة في القدس ذلك المشروع الذي سعى إلى إنجازه مدة ثلاثين عاماً من غير كلل ولا ملل...) (٥٨).

وبعد أن يذكر أن الأوروبيين خذلوه في مشروعه هذا روى أن الأب جوزف دي ترامبليه الفرنسي وقد أعجبه مشروع فخر الدين الخطير قد حاول استقطاب ثمانين ألف متطوع أوروبي للقتال ضد السلطنة مع فخر الدين إلا أن الكاردينال ريشيليو الذي كان حاكماً مطلقاً في فرنسا منع دي ترامبليه من متابعة الحملة على الدولة العثمانية) وذلك ضمن ما قدمناه من أن فرنسا كانت تحافظ على استراتيجية العلاقة الحسنة مع الباب العالي...

وتحت عنوان (يا أورشليم) يتابع العميد الأحدب دفاعه عن مشروع فخر الدين الصليبي (لم يكن مشروع فخر الدين ضرباً من الأوهام لأن الأمير استطاع وحده أن يوحد لبنان (؟؟؟) الذي لم يكن موجوداً آنئذٍ ويضم إليه أجزاءه المشتتة شمالاً وجنوباً وشرقاً (كذا) وأصبحت أورشليم حدود مملكته الواسعة. ولو شاء أمراء أوروبا لكان وطد نفوذهم في القدس تاركاً أرض لبنان مستقلة متحررة من أية حماية أونير (؟ ؟) ولكان بهذا العمل قلب وجه تاريخ الشرق بل تاريخ العالم بإعادة المدنية إلى الشرق مزدهرة ووفر على رعايا الدولة العثمانية من مسيحيين ومسلمين ثلاثة قرون من الاضطهاد وعلى تاريخ الإنسانية صفحات مخجلة من التعصب والهمجية (٥٨).

ولا ريب أن هذا الكلام غير التاريخي وغير الوطني هو المخجل بذاته وخاصة أنه صدر من مسلم لبناني... غير أن الذي «يشفع» للعميد الركن أنه عندما كتب ما كتب كان عسكرياً في جيش هيمنت عليه المارونية السياسية بشكل خطير ورهيب كما سنبين في الأجزاء اللاحقة من هذا الكتاب إن شاء الله!!.

الأمير حاول الحصول على مركب
ليلحق بأمواله المجمدة في بنك الرحمة:

ويبدو أن الأمير قد يئس من أية مساعدة بابوية ـ توسكانية وأن أوراقه في اللعبة السياسية ـ العسكرية قد احترقت أو كادت قرر أن يفر من البلاد كما فعل سنة ١٦١٣ فطلب وهو في مخبئه في (المغارة) إلى بطرس دي لوجيده أن يسعى لدى دوق توسكانا ويستعطفه عليه ويشرح له حالة الأمير الصعبة (فرفع هذا تقريراً مطولاً شرح فيه تطورات القتال بين الأمير والعثمانيين وانتهى إلى قوله: (فهذه حالة الأمير الحاضرة وهو في الكروب قد أباح لي أن ترسل إليه مركباً ليتسنى له أن يركبه هو وأولاده مع أمتعتهم فهذا كل ما يطلبه ويتمناه وكل ما فوض إليّ الأمير فيه) (٥٩).

وهكذا تدنت الآمال العريضة وانتهت إلى مركب يحمله إلى توسكانا وفلورنسا... حيث كانت تنتظره أمواله (في بنك جبل الرحمة) (غير أن الرياح سارت في غير ما يشتهي الأمير فعُرف مخبأه واقتيد إلى الآستانة في ١٠ / ٢ / ٣٥ حيث لقى حتفه في ١٣ / ٤ / ١٦٣٥.

ذلك أن الأمير بعد أن ألزمه دوق توسكانا بكتابة صك يعترف فيه بما أنفقه عليه الدوق وعلى حاشيته... صمم الأمير ـ بعد عودته إلى إمارته ـ عام ١٦١٨ على (تهريب أموال إمارته ففتح حساباً في بنك جبل الرحمة هناك باسمه وراح يودعه الأموال الطائلة وأموال التجارة العامة على أن تجري عليها الفوائد وفوائد الفوائد فتكون له تلك الأموال ولأولاده (إلى زمان نختاره نحنا = يقصد نحن = وأولادنا يصال إليهم ـ أي يصل بفائدته على قدر السنين الذي بيقعد أي يحفظ في البنك وفي كل سنة تحسبوا فائدة الدراهم وتكتبوها عندكم وتحطوها بالبنك بالفائدة...) (٦٠).

لكي نأخذ فكرة عن كمية الأموال المودعة هناك باسمه وهي من أموال إمارته ورعاياه ما ذكره الأب أوربان دي لابروس من الآباء الكبوشيين ونقله المطران بطرس ديب من أن الأمير (وضع بتصرف الأب أوربان كمية من الحجارة الثمينة والمال المودع في البنك في أوروبا واعداً بأن يخصص

أولاده ـ الصغار ـ بأكثر من مليون قرش ذهبي...) (٦١) فإذا علمنا أن الضريبة السلطانية المفروضة على الإمارة لم تتجاوز المائة ألف سنوياً أدركنا كم كانت المليون آنئذٍ ثروة هائلة...

كما أن الأب ضو ذكر في تاريخه جزء ٤ / ٢٤١ أن الأمير سنة ١٦٣١ أرسل إبراهيم الحاقلاني إلى توسكانا وكلفه بأن يودع الأموال المتحصلة من بيع أربعين بالة حرير في مصرف الرحمة باسمه ـ أي باسم الأمير ـ وباسم أولاده الصغار ـ... وأن ثمن هذه البالات الحريرية قد عادل ثمن ٢٢٦ سهماً من أسهم المصرف المذكور...

ولأهمية هذا المال ـ الذي بقي في البنك ذاك المصرف (الذي لم يتورع عن إضاعة الحقوق بطريقة أو بأخرى) (٦٢) فقد نهض الأمير حيدر الشهابي ـ الذي يتصل نسبه بنسب الأمير فخر الدين ـ يطلب مال الأمير بعد تسعين سنة تقريباً على وفاة الأمير ففشلت مطالباته فأدرك أنه (لا بد من وساطة مغرية لدى بنك جبل الرحمة في فلورنسا إذا ما أراد أن يحصل على تركة جده فخر الدين المتراكمة في ذلك البنك... فلجأ إلى رجال الدين في روما وخاصة إلى الفاتيكان وإلى مجمع انتشار الإيمان هناك... ثم ان حيدر الشهابي كان قد وضع نفوذه، إلى جانب تأييد الإكليروس الماروني، من أجل التعاون مع البابوية وكان حيدر يعتقد أن رجال الدين الكاثوليك أقدر على الدفاع عن قضيته المالية هذه ولهذا وكّلَ أحدهم لتولي هذه القضية وهو يوسف السمعاني ولكي يغري مجمع انتشار الإيمان ببذل أقصى جهده من أجل تسوية هذه القضية لصالحه تنازل حيدر الشهابي عن ثلث التركة لهذا المجمع...) (٧٢) لعلَّه يحصل على الثلثين.. لكن النتيجة كانت على غير ما يحب واستولى المصرف على المال!!!

دفاعاً عن فخر الدين

«أن تحاكم بعدل
ذلك هو الدفاع الحق»

في الصفحات السابقة قرأنا الأمير الذي حوّله المؤرخون المارونيون والأجانب إلى ما يشبه الأسطورة وأضفوا عليه هالات البطولة والقوة حتى جعل منه المحّدثون في دولة الاستقلال الرمز وبدأوا به ـ كما بينّا ـ تاريخ لبنان الحديث. . .

ونحن وإن كنا نرى فيه شخصية قوية أو مواهب عديدة. . . إلا أننا نرفض أن يحاكم إلا على مقاييس الأخلاق وقواعد الأدب السياسي السليم. . . ذلك أننا بدون الأخلاق تهدر القيم والآداب فتختل المقاييس والمفاهيم فيصبح الحقد وطنية والعمالة استقلالاً والسرقة والقتل والفساد والثعلبة مواصفات أساسية لرجل السياسة وذاك مقياس لا يقول به عاقل أو منتسب إلى حضارة فكيف بدين!!.

غير أن مؤرخي المارونية وقد وضعوا لأنفسهم هدفاً هو صناعة التاريخ وتحريفه من أجل خدمة أغراضهم الجديدة ـ تلك التي ظهرت في الحروب اللبنانية ٧٥ ـ ٧٦ وما بعدها وما رافقها من تبرير لكافة تصرفات الأحزاب المارونية وزعمائها ـ من عمالة أو خيانة أو هدر للقيم. . . فكان لا بد من أن تكون هذه الصفات ملازمة لتواريخ الحقب التاريخية من زمن يوحنا مارون إلى الاستقلال اللبناني فحرب السنتين فالتعاون مع إسرائيل. . . وما يمكن أن يستجد على مسرح السياسة. . . فيما بعد. . .*

وهكذا قرر منظرو المارونية الجديدة ـ ما بعد الحرب اللبنانية ـ أن

* ـ نذكر أن هذا الكتاب قد أعد في سنة ١٩٨٠ وقد استجدت في لبنان أحداث كبرى أكدت ما ذهبنا إليه.

(امبراطورية فخر الدين نفخة جديدة من روح المردة أعادت السطوة اللبنانية إلى ذروة عظمتها والجبروت الماروني إلى أوج عزته). (٦٤).

(أعيدوا الآن)* أيها اللبنانيون والموارنة هذا الجبروت إلى سابق عهده وكونوا قوة عظيمة تصد الأعداء وتطهر لبنان من أرجاسهم ومن الأغراب والدخلاء والأشرار.

(وحشد فخر الدين الوطن اللبناني بزخم قوي لا على الصعيد العسكري فحسب بل على الصعيد الاقتصادي والمعنوي كذلك... وهكذا كون دولة لبنانية من الطراز الحديث طاهرة من الانقسامات القبلية العربية الفتاكة ومن سائر الآفات التي زرعتها الدول المتعاقبة منذ الفتح العربي وعاد بها إلى صفاء دولة المردة شاحذاً عزيمتها بطاقات اقتصادية ومعنوية وروحية وعسكرية هائلة...).

ومن حقنا هنا أن نتساءل لماذا يحاول المؤرخون تزوير الحقائق وتحريفها... فالأمير فخر الدين كما رأينا عاد إلى إمارته في الشوف بعد أن بلغ رشيداً بموافقة عثمانية أي أن سند إمارته كان خضوعه لوالي دمشق... كما أن الإقطاعات التي اتسعت كانت بمنحه من والي دمشق أو من السلطان العثماني... حتى أن عودته إلى لبنان سنة ١٦١٨ كانت بموجب فرمان منحه العفو الذي سعى إليه بواسطة باشوات أصدقاء له بعد أن فشل أمير توسكانا الحصول على ذلك العفو...

وكما رأينا فإن السلطنة العثمانية كانت تقره في توسكانا طالما كان يؤدي الطاعة بين يديها ويؤدي الضرائب المتوجبة وتمنحه الألقاب التي ترضي غروره... (سلطان البر أو أمير الجبل وصيدا والجليل)...

أمَا كان من واجب الأمير أن يكون مطيعاً للسلطنة مهتماً بشؤون اقطاعاته؟؟ فبدل أن يسعى لكسب مودة دوق توسكانا والبابا وملك إسبانيا ضد من منحه الشرعية على إقطاعاته أما كان الأجدر به أن يسعى للانضباط مع الآستانة وأن يكون حامياً لسواحلها من تدخلات استعمارية صليبية.؟؟

* ـ كتب الأب ضو هذا الجزء أثناء الحرب اللبنانية وطبع الجزء في طبعته الأولى سنة ١٩٧٧ وعبارات «الأغراب والدخلاء الأشرار» تعني في القاموس الماروني في هذه الحقبة الزمنية (الفلسطينيين).

ويبدو أن أسباباً عديدة كانت تفرض على الأمير فخر الدين سياسة مناقضة لمصالحه مهدمة لوجوده وإمارته كما جرى في الواقع التاريخي. ومن هذه الأسباب ما يعود إلى شخصيته ومنها ما يعود إلى حاشيته و... منها ما يعود لأسباب مالية محضة.

صفات الأمير بين السلبيات والإيجابيات

فالأمير ذو الدهاء كان يميل للانفراد بالسلطة (طاغية) كما وصفه السائح الإنجليزي أوديكتاتوراً كما يعرف في قواميس اليوم... لذا كان ينفذ أوامر والي دمشق ويحرص على كسب مودته حتى يتمكن من توسيع إمارته ويقضي على خصومه في الإقطاعات المحلية... وقد زادته الإقطاعات المضافة إليه كصيدا وعكا غطرسة وغروراً وبات يشعر أنه أكبر من (حجمه)....

والأمير كان حقوداً... وقد زُرِعَ الحقد في نفسه وعقله وروحه بواسطة أمه ومربيه الموارنة، فمع أن أخواله التنوخيين قد أصلحوا وضعه مع السلطنة، فحفظوا الإقطاعة له، إلا أنه جاءها وهو مملوء حقداً بسبب مصرع أبيه قرقماز... فكان يستخدم دهاءه الممزوج بالحقد فيتعاون مع العثمانيين ويظهر إخلاصه لهم في حين كان بالسر يتعاون مع أعدائهم من أجل (خض شوكة الأمبراطورية) على حد تعبيرهم أو ضد هذا (الكلب التركي) ـ كما ـ كان يقول ـ هذا الذي أُحْسِنَ إليه مرات بإعادته إلى الإمارة وبتوسيعها عن طريق ضم اقطاعات لها وبالعفو عنه سنة ١٦١٨ وبقبول عودته إلى إمارته من توسكانا وأخيراً منحه ولاية عربستان... ولا ريب أن الحقد خنجر مسموم وسيف ذو حدين ينتهي بصاحبه إلى المصير الأسود الذي انتهى إليه الأمير «الكبير»...

والأمير كان انتهازياً مصلحياً فهو في سبيل أطماعه الشخصية وأهدافه الحقودة كان يغامر ببلاده، ولا يتردد في جعلها قاعدة لحملة صليبية تنتهي باحتلال قبرص وتسليم بيت المقدس... ذلك الهدف الذي قصرت عنه حملات الصليبيين الأولى ـ

والأمير كان لا حَدَّ لأطماعه المالية فهو كثيراً ما شن حرباً ضد أصهاره

من آل سيفا ثم يعود عن حصارهم بعد أن يلوح له الباشا سيفا ببضع الآف من الدراهم... كما أن من أسباب غضب السلطنة العثمانية ووالي دمشق أنه لم يكن يسدد ما عليه من ضرائب... ويبدو أن الضرائب تلك وسواها من أموال تجارة الإمارة بدل أن يدفعها للآستانة أو يعود بها إلى أهل إمارته كان يهربها إلى الخارج ويضعها في البنك مرابياً بها... تحسباً ليوم يفر فيه حالما تفشل مخططاته ضد العثمانيين ـ فيجد المال الكثير حيث يعيش به بعيداً عن شعبه البائس.. (وقد سبق الأميرُ في تهريب الأموال إلى الخارج الملوك والرؤساء بل لعلَّ فخر الدين كان أول من سنَّ هذه البدعة السيئة).

والأمير كان دموياً فقد بدأ ولايته في سبيل الحصول على أرض والي دمشق بعد أن قتل عمر بن قرقماز بن منصور فريخ في البقاع وأرسل رأسه إلى الشام... وعندما كان يدخل مدينة أو قرية بعد فتحها كان يدع جنوده يعيثون فيها الفساد **ومنها طرابلس فلما** (**دخلها** أخذت جماعته تنهب المدينة مدة أربعين يوماً حتى وصلها وزير حلب.. وقد تقدمت طرابلس بشكوى على الأمير فخر الدين بأنه ظلم الرعايا ونهب طرابلس) (٦٥) فضلاً عن أنه كان يقتل بالظنة ويصفي خصومه بالتآمر عليهم...

وكثيراً ما كان يصدر أحكام القتل والإعدام دون تروٍ ولا تدقيق فقد قتل شلهوب واعدم مقدم بشري عاشينا ـ قتله فخر الدين بتهمة قتل القس دانيال عكاري وسلبه أمواله ـ لمجرد أن شلهوب جاءه يحتج على قتل ابنه فأمر فخر الدين بإعدامه شنقاً ودفنه بجوار ابنه عند جسر المدفون (٦٦)... كما أن الأمير قد باء بمستشاره الأول الحاج كيوان نعمة الذي أبلى معه بلاء حسناً وذهب معه إلى منفاه في توسكانا فأمر بقتله سنة ١٦٢٣ (٦٧).

والأمير كان في دينه لغزاً... حتى تضاربت فيه الأقوال فمنهم من جعله درزياً ومنهم من جعله نصرانياً ومنهم من رجح سنّيته ـ وهذا ما سنبحثه لاحقاً ـ ويبدو أن مرد هذا التشويش حول هويته الدينية يعود إلى مربيه ومديريه الموارنة فهؤلاء قد أحسنوا إليه عندما ربوه صغيراً وهو أحسن إليهم إذ قربهم وعمَّر كنائسهم واتصل بناء لمساعيهم بالبابا وأمير توسكانا الأمر الذي

دفعه إلى مزيد من التورط حتى أنه لوح بالتنصر وتنصير رعاياه فيما بعد وأنقذه البابا ودوق توسكانا من مصيره الأسود الذي آل إليه... كما أن الأقليات المذهبية التي ترعرعت في مناطق اقطاعاته كالدروز والإسماعيلية والشيعة... جعلته ـ ضمن رغبته في تفجير حقده على الدولة العثمانية ـ ممالئاً لكل الفئات المذهبية بخاصة الدروز والموارنة أملاً في رص صفوفها من خلفه في صراعه مع السلطنة...

غير أن هذه الصفات التي تميز بها فخر الدين لا تسقط عنه بعض مواقفه الجيدة تلك التي ظهرت برفضه القوي وإصراره العنيد على رفض التنصر ورفض الضغوطات التي مارسها عليه دوق توسكانا ونائب إسبانيا والبابا... إبان إقامته بين ظهرانيهم (١٦١٣ ـ ١٦١٨) حتى أنه صرح لنائب إسبانيا ج نابولي بأنه يصلي ويصوم) (٦٨) ويصر عليهما... كما لا تسقط عنه اهتماماته العامة في بناء الجسور والقلاع وتحسين ظروف الزراعة والتجارة وإدخال بعض ظواهر المدنية الأوروبية إلى البلد فإن حكماً يمتد سحابة خمس وأربعين سنة لا بد أن يتكامل مع التطور العام، كما لا بد أن يرضي أو يحقق بعض تطلعات الرعية... فمثلاً بعد أن أباح طرابلس أربعين يوماً للنهب والسرقة وبعد أن أسندت ولايتها إليه سنة ١٦٢٧ ـ وكان يطمح بها طموحاً غريباً حتى أنه في سنة ١٦١٩ أغرى والي دمشق بدفع عشرة آلاف قرش إن آلت إليه ولاية طرابلس فرفض الوالي ذلك ـ حاول أن يتقرب من أهلها فنصب في مفارقها أربعة عشر ألف شجرة توت وجر ساقية القاع؟... وقام بمجموعة أعمال عمرانية... (٦٩).

وتبدو هذه الأعمال طبيعية خاصة إذا علمنا أن التجارة مع بلدان الحوض المتوسط كانت نشطة كما أن عديداً من التجار الغربيين كانوا على صلة بالتجار المحليين... ويقتضي ذلك إنزال تلك الأعمال العمرانية منازلها الطبيعية وعدم تضخيمها... إن ظاهرة التضخيم في التاريخ ـ كما رأيناها ـ تخدم أهدافاً محددة لتضفي عليه مما يعرف اليوم بالتطور والتطوير والتقدم والمدنية والحضارة وليُعْطي (الأمير الدور الوطني) الذي جعله يحرص على ازدهار بلاده ومن أجل ذلك كان سعيه لإقامة تحالفات ضد من يعتبرهم

الموارنة أعداء لبنان ومحتليه، السلطنة العثمانية. (؟!).

والحقيقة أن الأعمال العمرانية مع فخر الدين كانت لا تتجاوز حدود العمران مع بقية الأمراء والولاة والبشوات، كل حسب ولايته وموارده، ويكفي أن ابن سيفا ـ الذي حاصره فخر الدين وحاربه كان والياً على طرابلس وامتدت إمارته حتى أنطاكية يعتبر في الواقع التاريخي أهم من فخر الدين إلا أن عمالة هذا الأخير كرسته أكبر من حجمه بينما ديوان ابن سيفا ضاهى دواوين بغداد في أهم أيامها فوُصِفَ ديوانه بديوان العلم في طرابلس (فقرّب إليه العلماء والشعراء وأغدق عليهم حتى شابه ديوانه ديوان الرشيد في بغداد. . .) (٧٠).

غير أن الخطة التاريخية في لبنان الحديث قضت بطمس معالم ولاة المدن ليبرز فقط أمراء الجبل كأنهم أمراء كل لبنان، بحدوده الحالية، وتُسلّط على عمالتهم الأضواء وتُفَسّر دوماً بالثورة على (الأجنبي التركي) وأن من حقه، في سبيل ذلك، أن يتعاون مع أوروبا والبابا. . . وهكذا كان التضخيم وسيلة لغاية رهيبة. !!!

لماذا افترضوا في فخر الدين النصرانية:

وقد تمكن مؤرخو الموارنة من اعتبار فخر الدين رمزاً كما اعتبروه بداية لبنان الحديث ـ وكما ذكرنا ـ رتبوا على إمارته مقدمات فكان عليهم أن يستكملوها بتأكيد نصرانيته حتى يتم لهم استخلاص الشرعية التاريخية للرئاسة المارونية في لبنان. . . ويعد تنصير الأمير أوجدوا له الأمبراطورية اللبنانية التي أعادت مجد المردة ومملكتهم المفقودة. . . تلك التي بزعمهم كانت في سوريا ولبنان وفلسطين. . . وهكذا (تمكن ـ الأمير ـ وفق رأي الموارنة ـ من تجديد عهد المردة ومملكتهم من اللكام إلى القدس) (٧١).

وانطلاقاً من هذه الأهمية التي أولاها مؤرخو المارونية لدين فخر الدين كان لا بد من حل هذا اللغز الذي تركه لنا الأمير المعني. . . إذ أننا سنرى من خلال تحليلات كثيرة أن ما رتبوه على مسألة دينه كان أشبه بالعصفور في الهواء. . . أو بيت على رمال.

صحيح أننا سنصل من خلال استقراءات كثيرة أنه سنّي إلا أن هذه «الإسلامية» لا تنفع الأمير بشيء فيكفي أن محكمة التاريخ المنصفة ـ التي حاكمناه إليها ـ جعلته خائناً لأمته ودينه وبلاده. . . وأعطته درجات وضيعة في مراتب الأخلاق والسياسة السوية. . .

غير أن إثبات كونه مسلماً يدحض حجة أولئك الذين أرادوا تزوير التاريخ وتحريفه من أجل تأكيد شخصيتهم النصرانية مع أن المردة لم يكونوا ـ كما رأيناهم في بداية هذه القراءة ـ إلا قتلة ولصوصاً وقطّاع طرق ومرتزقة وعملاء. . . كما أن «إسلاميته» هذه قد تساعد على تفسير بعض الأحداث التي وقعت في حياته والتي كان لها تأثيرات معينة في «مسرحياته».

مناقشة حول دين الأمير:

ولا بد بادىء ذي بدء من استعراض حجج من قال بدرزيته ثم من قال بأنه تنصر ومات نصرانياً و(شهيد المسيحية ـ فكان أول الأمراء المسلمين الذين اهتدوا في لبنان إلى المسيحية وقد اقتفى أثره فيما بعد الشهابيون السنّيون واللمعيون الدروز وبنو حرفوش الشيعيون وغيرهم) على حد تعبير الأب ضو (٤ / ٢٠٩).

حجج من قال بدرزيته:

١ ـ إن القاعدة الشعبية العريضة في بلاد الشوف درزية المذهب، لذلك سمي هذا الجزء من البلاد بجبل الدروز كما سمي الحاكم عليهم المقاطعجي أمير الدروز (كانت رسائل تقليد المناصب العثمانية تسمي الحاكم أمير جبل الدروز) وبذلك (اعتبرت إمارة المعنيين بحق إمارة درزية) (٧٢).

٢ ـ . . . (في أثناء انتشار الدرزية شمالاً ـ من جنوب لبنان ـ انضمت إلى طائفتهم قبائل عربية أو متعربة مثل التنوخيين والمعنيين وآل أرسلان وآل جنبلاط الذين تزعموا ولا يزالون يتزعمون الدروز) (٧٣) من أجل هذا قرر فيليب حتي (وقد اعتنق المعنيون دين الأكثرية من رعيتهم الدرزية بعد أن كانوا أسلموا بينما اعتنق الشهابيون، باستثناء قسم منهم ظلوا مسلمين، المسيحية حسب العقيدة المارونية). (٧٤)

٣ ـ ما نقله فيليب حتي عن سانديز في وصف الأمير فخر الدين (أنه لم يُرَ قط يصلي ولا رآه أحد يدخل الجامع) وما نقله عن دي أفريو ـ قنصل إفرنسي شغل مراكز عديدة في الشرق ـ الذي قال عن دين فخر الدين (أن دين الأمير كان دين شعبه الذين لم يكن عندهم من دين..؟). وقد علّق فيليب حتي على هذين القولين بقوله (ويبدو أن المعنيين كانوا يعترفون بالإسلام ديناً في الظاهر أمام العثمانيين أما في الباطن فقد كانوا دروزاً على دين أتباعهم) (٧٥).

٤ ـ ولمكافأة القبائل التي ساعدتهم ضد الصليبيين أقطع المماليك التنوخيين والدروز بيروت والغرب والمعنيين الدروز الشوف والشهابيين حاصبيا وراشيا وصارت العائلتان الأخيرتان الأسرتين اللتين تعاقبتا على حكم جبل لبنان خلال العهد العثماني) (٧٦).

٥ ـ وأما الدروز فلم يجدوا كبير عناء في إثبات درزية الأمير المغني فالأمير فخر الدين ـ بزعمهم وُلِدَ من أبوين درزيين وعاش بين الدروز وبقي درزياً حتى وفاته وهذا في عرفنا الرأي الصحيح) (٧٧).

حجج من قال بتنصره:

أما من قال بأنه تنصر ومات نصرانياً شهيد المسيحية بعد أن اهتدى إلى اللبننة فالكثلكة فإن حججهم تتركز على ما يلي:

١ ـ يقول فيليب حتي (... وهنالك رواية تقول أنه تعمد ـ وهو طقس مسيحي يكون بعد ولادة المولود أو عند دخول المرء بالنصرانية ـ سنة ١٦٣٣ على يدي طبيبه الكبوشي ويقال أنهم وجدوا صليباً بين ثيابه عندما أعدم) (٧٨).

٢ ـ يقول الأب ضو (فخر الدين سليل بني معن الذين اتوا لبنان كعملاء للدولة الإسلامية... أصبح صديقاً للموارنة... بفخر الدين اهتدى المعنيون إلى اللبننة أي إلى لبنان المستقل عن الدولة الإسلامية... وأكمل فخر الدين اهتداءه إلى اللبننة باهتدائه إلى الكثلكة وهذا أمر ثابت بأوثق

الوثائق. كان فخر الدين تربطه صداقة مع الآباء الكبوشيين في صيدا وخاصة أحدهم الأب أدريان دي لاروس. وفي سنة ١٦٣٣ إبّان مرضه ـ أي مرض فخر الدين ـ استدعى الأب أدريان المذكور الذي علّمه ما يتعلّق بالخلاص الأبدي وذكره ببعض الحقائق المسيحية.... ثم أجابه الأمير أنه مشتاق إلى اعتناق الدين المسيحي منذ زمن طويل ولكن الخوف من الدولة العثمانية كان يحول دون إظهار هذا الشوق وإخراجه إلى حيز التنفيذ، ثم طلب إلى الأب أدريان أن يحلف له ويده على الإنجيل بأن يكتم الأمر (عماد فخر الدين وتنصره) عن أي كان وأكّد له أنه مستعد لإجراء كل ما يراه الأب مناسباً لمجد الله وخلاص نفسه فعمده الأب ودعاه «لويس فرانسوا» وتلا الأمير قانون الإيمان طالباً إلى الأب أن يزيده معرفة بأسرار يسوع المسيح طوال مرضه... وبما أن الأمير أراد أن يتنصر أولاده الآخرون الأصغر سناً فإنه وضع بتصرف الأب أدريان كمية من الحجارة الثمينة والمال المودع في البنك في أوروبا وأعداً بأن يخصص أولاده المشار إليهم بأكثر من مليون قرش ذهبي ليتمكن هؤلاء الأولاد من الانتقال إلى أوروبا عن طريقة فرسان مالطة ليتربّوا في بلاد النصرانية على الدين المسيحي ولكن عارض هذا الأمر أبو نادر الخازن وحال دون تنفيذه) (٨٩).

ويقول الأب ضو أنه نقل ذلك هذا النص عن المطران ديب الذي يقول بدوره أن أصل هذه الوثيقة المخطوطة موجودة في مجموعة تواريخ الكبوشيين!!.

٣ ـ يقول الأب ضو (أن التهمة الرئيسية التي حاكمه على أساسها السلطان مراد الرابع في الآستانة ولفظ الحكم عليه بالموت بالاستناد إليها هي كون «الأمير جحد الدين الإسلامي ومال إلى المسيحيين» ولما انتهى السلطان من لفظ الحكم بالإعدام وبدأت التهيئة لتنفيذه طلب الأمير فرصة ربع ساعة ليستعد لملاقاة ربه فاستجيب طلبه عندئذٍ اتجه نحو الشرق وجثا على ركبتيه وعمل إشارة الصليب وبدأ يصلي كمسيحي مما أثار غضب السلطان فأمر بقطع رأسه حالاً. ولما جرد من ثيابه عثر على صليب معلّق

بسلسلة ذهبية على صدره (٧٩).

تمحيص الأدلة:

ومن مراجعة هذه الأدلة ـ الوثائق يتبين ضعفها وسذاجتها من جهة وتناقضها مع أدلة تاريخية دامغة وحقائق علمية لا يمكن للباحث أن يسقطها من حسابه وهو يعالج موضوعاً خطيراً كهذا.

المعنيون سنّة والدرزية تحظر انتحالها:

١ ـ فالمعنيون ـ كما رأينا ـ ينتمون إلى الأمير معن الأيوبي ـ أو العربي لا فرق ولكنه بالتأكيد مسلم سني توجه بأمر من صاحب دمشق سنة ١١٢٠ مع عشيرته إلى البقاع ومنها إلى جبال لبنان المشرفة على الساحل... وعلى هذا الاعتبار وجهت إليهم المقاطعجية في بلاد الشوف سواء في العهد المملوكي أم في العهد العثماني... وباعتبارهم أمراء حلقة في العسكر المملوكي وبعدئذٍ أمراء إقطاع كامل في العهد العثماني انحصرت الأمرة في العائلة المعنية بقطع النظر عن القاعدة البشرية التي تربط بهم سواء كانت درزية أو مارونية أو سنية أو شيعية... إذ أن المهم في المقاطعجية الوراثية بيت الأمير عائلته لا قاعدة الإمارة البشرية...

وبناء على هذا التفسير يمكن فهم عبارة (أمير الدروز) التي وردت في الفرمانات العثمانية أو في كتب المؤرخين فهي تعني الأمير الذي يحكم مقاطعجية منطقة الدروز دون أن يكون جميع سكانها بالضرورة دروزاً.

ومن هنا وقع كثير من الباحثين والمؤرخين بالخطأ والغلط ـ عن قصد أو عن غير قصد ـ أو التبس الأمر عليهم، إذ أن أمير الدروز في ظنهم ـ بمعنى زعيمهم ـ ينبغي أن يكون درزياً لا سنياً... ومن أجل هذا كان تقرير فيليب حتي أن المعنيين قد اعتنقوا (دين الأكثرية من رعيتهم: الدرزية) لكن (الأمير) لا يعني (الزعيم) فالأمير ـ كما رأينا من قبل ـ رتبة عسكرية في سلسلة الرتب في الديوان العسكري المملوكي ثم أطلقت على المقاطعجية... أما زعماء الدروز فهم غير الأمير وغير الأسرة المعنية... فهذه الأسرة غدت ـ بتحول الإقطاعية إلى وراثية ـ البيت الحاكم... وليس بالضرورة خاصة في تلك

الحقب التاريخية أن يكون المقاطعجي على دين أكثرية رعيته... فهو ليس الزعيم الروحي أو الزمني للمذهب الديني للمقاطعة بل هو الحاكم بأمر السلطنة العثمانية... وإن لم تكن السلطنة تتدخل ـ كما رأينا ـ بشؤون الحكم الداخلية الصغيرة طالما أن الأمير ـ أيَّ أمير ـ قد التزم بالقواعد الكلية وبسياسة الدولة العامة وقام بتأدية الواجبات المالية (٨٠).

ولذلك نرى أن الأسرة الحاكمة ـ عندما تنقرض بموت أولادها الذكور ينتهي الحكم فيها وينتقل إلى سواها كما حصل مثلاً للأسر العسافية والتنوخية والمعنية ـ التي نحن بصددها إذ بوفاة الأمير أحمد ـ وكان لا عقب له ـ انتقلت الحاكمية إلى الأسرة الشهابية باعتبار أن الشهابيين مصاهرون للمعنيين... وقد رأينا من قبل كيف أن الأمير حيدر الشهابي قد طالب بثروة جده فخر الدين من بنك جبل الرحمة بفلورنسا...

ومن الرجوع إلى أدلة من قال بدرزية الأسرة المعنية نجدها مبنية على التخمين والاستنتاج لا على أدلة علمية صحيحة... فلا يعني تواجد المعنيين وسواهم من الأسر بين الدروز ـ وفق نظرية حتي ـ لنستخلص درزية المعنيين.... فالدرزية تقوم على مفاهيم تجعلها مذهباً منغلقاً على أتباعه فلا يقبل جديداً ولا مرتداً... فقد أقفل، بهاء الدين، خليفة حمزة، خليفة إسماعيل الدرزي، باب الدعوة. وعلى هذا فإن (العقيدة الدرزية بالغة الوضوح بهذا الصدد. فمن المتعارف عليه أنه ليس لمن لا ينتمي إلى هذه النحلة الباطنية أن ينتحلها ويصير درزياً ثم إن باب الدعوة لم يفتح إلا أبان خلافة الفاطمي الحاكم بأمر الله في حدود السنة ألف ثم أقفل باب الدعوة بعد ذلك ..) كما يقول الزعيم الدرزي كمال جنبلاط (٨١) ذلك أن بهاء الدين المذكور قد أعلن (أن العالم لا يستحق أن ينال البركات والنعم التي وعد بها الدين الجديد لأتباعه) (٨٢).

وعلى هذا الأساس (يمنعون كتبهم الدينية ـ التي هي دائماً مخطوطات إذ لا يجوز طبعها ـ حتى عن الدروز الجهال أما العقال فيجوز لهم أن يقرأوا هذه الكتب ولا يصل درجة العقال إلا من كان فيهم رجلاً حسن الأخلاق عالي

الهمة يوثق بصلاحه وبقدرته على كتمان السر. . .) (٨٣).

وبناء على قفل باب الدعوة لا يمكن أن يتدروز من كان سنياً أو غير سني لا لشيء إلا لأنه ليس من نسل الدروز وبذلك لا يُقبل في عدادهم ـ ولو أراد ـ كما لن تناله (بركات الدين الجديد) وذلك لانحصارها بنسل الدروز الأوائل. . . وعلى هذا فلا يصح استنتاج من ذهب إلى أن الأسرة المعنية قد تدروزت أو أن الأسرة التنوخية التي حكمت الغرب وبيروت ـ وهم خؤولة الأمير فخر الدين ـ قد تدروزت وإن يكن عبدالله التنوخي درزياً وهو أحد شارحي رسائل بهاء الدين المعروف بالسيد والمتوفى سنة ١٤٨٠ وله مزار مكرم عند الدروز. . . إذ أن عبدالله هذا قد يكون سليل بيت من بيوت الأسرة التنوخية قبل الدعوة الدرزية عندما كان بابها مفتوحاً. . . ولكن لا يعني وجود درزي في العائلة للقول أن العائلة التنوخية بكاملها متدروزة. . . فقد يكون شخص بعينه درزياً فتنحصر الدرزية في سلالته ولا تنتقل إلى سائر أقربائه وأخوته، ويؤكد هذا ما يقوله أمين طليع (ومن العائلات الدرزية من يتصل نسبهم بأسر سنية وشيعية تقبَّل بعضها الدعـوة الدرزية ويعني أن البعض الآخر بقي على المذهب السني أو الشيعي ومن الأمثلة على ذلك أن لآل أبي شقرا الدرزي. . . أقرباء من آل مزبود السنة. . . وأن آل المصري الدروز أقرباء آل المصري الشيعة. . .) (٨٣).

ويؤكد ما ذهبنا إليه من أن الأسرة التنوخية ـ وأيضاً المعنيين ـ لم تكن درزية وإنما مسلمة سنيّة كما ذكر هاني فارس (فقد كانت أسرة تنوخ أبو حبش المسلمة السنية تحتكر الدور الرئيسي في الحياة الداخلية للبنان) (٨٤) وما ذكره فيليب حتي بصورة عكسية (وبالرغم من أنهم كانوا ظاهرياً مسلمين سنيين فإنه من المرجح أنهم كانوا دروزاً في عقيدتهم) (٩٦) وترجيح حتي الأخير لا قيمة له لأنه لا ركيزة له إذ لا يمكن الجمع بين الدرزية في السر والسنية في العلن لجملة اعتبارات منها:

١ ـ ما قدمناه من استحالة الدخول في الدرزية بأعتبار أن باب الدعوة مقفل فالسني التنوخي أو المعني لا يمكن أن يعتقد الدرزية ولوارد ذلك.

٢ ـ إن الدرزية في عقائدها تختلف اختلافاً بيناً عن العقيدة الإسلامية السنية، وحتى عن الشيعية التي يعتبر الدروز أنفسهم فرعاً عنها ابتداء من الإمام السابع إلى إسماعيل المتوفى سنة ٧٦٠. . . فلا يمكن أن يبقى المرء مؤمناً بعقيدة تفرض ممارسات ويتظاهر بعقيدة أخرى تفرض ممارسات أخرى فترة طويلة من الزمن دون أن يفتضح أمره. . . فكيف الأمر بأمير تتجه إليه أنظار الجميع؟ ثم كيف الأمر بعائلة كبيرة كـالعائلة التنـوخية أو المعنية!!. . . أيمكن أن تبقى عقائدها موضع سـر وتكتم حقباً زمنيـة متمادية!!؟.

مناقشات حول العقيدة الدرزية:

فالعقيدة الدرزية تقوم على مجموعة مفاهيم تتناقض في أسسها مع الإسلام كما يؤمن به السنّة والشيعة. فالدروز وإن آمنوا بإلّه واحد وبالنبي محمد (ﷺ) إلا أنهم انفصلوا عن أمهات المفاهيم الإسلامية فقالوا (بأن الله ذاته تجسد تسع أو عشر مرات وكان آخرها وأفضلها تجسده بشخص الحاكم) (٨٦) أي الخليفة الفاطمي الذي يعتقدون أنه غاب عند شاطيء بحيرة بعد أن خرج كعادته إلى جبل المقطم في مصر. . . (وأن سر غيبته، وقد مر عليه ألف سنة، سيمر عليها آلاف السنين علمها عند الله سبحانه. . .) (٨٧).

والعقيدة الدرزيـة تقول أن للمعبـود لاهوت ونـاسوت أمـا الحقيقة اللاهوتية فهي لا تدرك بالحواس والقياس. . . أما الناسوت، فهو في العقيدة، أن المعبود يتخذ له من حين إلى آخر مقامات ناسوتية لتذكير مخلوقاته بوجوب طاعته. . .) و(أن الله أنطق بالحق والهدى آدم الكلي (؟) ونوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد فجاء كل منهم تبعاً لبعضه ودينه متمماً للآخر ذاتاً للآخر. . .) (٨٨).

ويعني هذا أن الله يتجسد ـ تعالى الله عما يقولون علواً كبيـراً ـ وأن الأنبياء روح واحدة أشخاصاً وأجساداً؟؟؟.

والعقيدة الدرزية تقول أن (العقل صادر عن باريء الوجود وتابع له أتباع الملاصق للسابق والمعلل للعلة. . .)(٨٩).

والعقيدة الدرزية تقول بالنسخ أي (بانتقال النفس من جسم بشري إلى جسم بشري آخر ومرجع ذلك اعتقادهم بأن النفس لا تموت بل يموت الجسم فقط... وهي تمر في مختلف أدوار الحياة وقد تكون صالحة في دور بينما تكون خاطئة في دور آخر...) (٩٠) كما تقول بأن التقمص أي (أن الجسد قميص للنفس... فإذا أبلت القميص انتقلت النفس إلى قميص آخر...) (٩١).

ومن هنا آمنت الدرزية (بأن النفس المنتقلة من جسم إلى آخر تنتقل معها أحياناً جميع صفاتها أو بعض صفاتها البارزة ومن ذلك نشأ الاعتقاد أن نفوس الأنبياء والمرسلين تنتقل من دور إلى دور مستكملة أروع صفاته فحمزة بن علي ـ وهو خليفة إسماعيل. الدرزي أحد مؤسسي الدعوة الدرزية ـ في دور الحاكم هو نفس سلمان الفارسي في دور النبي وهكذا الأنبياء والرسل الأمر الذي جعل الدروز يكرمون مختلف الرسل ومن جميع المذاهب إذ قد يكون رسول الأمس هو رسول اليوم) (٩١).

و (بالنفس يثبت عدل الله في مخلوقاته وتتكافأ الفرص وتتاح لكل مخلوق... والنفوس لا تفارق الأجسام لحظة واحدة بل تنتقل بسرعة من جسد بشري إلى جسد بشري جديد وتسري... أن خلود النفس لا يكون ولا يمكن أن يكون بالنسبة إلى عدل الخالق تعالى وبالنسبة إلى الثواب والعقاب إلا بواسطة التقمص...) كما أوضح ذلك الشيخ محمد أبو شقرا عقل الطائفة الدرزية (٩١).

والعقيدة الدرزية تضع تشريعاً خاصاً بالنساء فهي تمنع تعدد الزوجات (إن المرأة الدرزية لا تخشى من يزاحمها في بيتها لأن تعدد الزوجات ممنوع عند الموحدين) (٩٢) كما تحرم إعادة المطلقة إلى مطلقها (إذا طلّق الرجل امرأته حُرّم عليه أن يتزوجها ثانية لأن إعادة المطلقة ممنوع) (٩٣) ولمن تسبب بالطلاق أن يُمَلِّك الآخر نصف ما يملك (؟؟) (٩٤).

والدروز (يقيمون خلواتهم الجماعية ليلة الجمعة في أبنية على غاية من البساطة والتقشف تسمى خلوات وتبنى عادة على تلال أورواب تشرف على قراهم) (٩٥).

يقول أمين طليع أن (العقال الدورز هم أولئك الذين ألموا بعلوم الدين ولازموا الصلاة التي تتلى ليلة الجمعة من كل أسبوع يبدأون فيها بالشرح والتفسير للمبتدئين والتائبين عن خطاهم ثم تتلى آيات من كتاب الله... أما... الجهال من المدخنين أو الذين يتناولون المسكر لا يسمح لهم بالصلاة مع الأتقياء قصاصاً لهم وعبرة ومن ثابر على التدخين أو المسكر وارتكب إحدى الكبائر لا يسمح له وقت الصلاة بدخول المجلس أو الخلوة. والمجلس هو مكان الصلاة أما الخلوة فهي مكان خاص بأحد المتدينين...) (٩٦).

ويصوم الأتقياء من الدروز ـ أما الجهال فلا صيام ولا صلاة عليهم ـ (صياماً... لا يقتصر فيه على شهر أو يوم... بل كثيراً ما يلجأ البعض إلى صيام دائماً) (٩٧).

ولا ريب أن محاكمة بسيطة لتلك العقيدة والطقوس العبادية، على ضوء مبادىء الإسلام وعباداته، يتبين الاختلال البين بين العقيدتين والمبدأين والعبادتين... فالإسلام يرفض التقسيم الدرزي للاهوتية بل يكفر من يقوله إذ (ليس كمثله شيء) ـ ﴿قل هو الله أحد الله الصمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد﴾... كما أن الإسلام لا يقول بالتناسخ والتقمص ولا بالعقل والنفس وفق التفسير الدرزي وإنما يقول بأن لكل جسد روحاً لا تنقل بالموت إلى جسد آخر بل تنتظر يوم الحساب لتعود إلى جسد صاحبها وتحاسب معه في آن معاً، وللصلاة في الإسلام قواعد وأصول ومواقيت وهي مفروضة على الجميع لا تمييز بين كبير وصغير أو بين رجل وامرأة أو عالم ومتعلم أو تقي وجاهل أو تائب وعاص... وفي الإسلام مساجد تؤدى الصلاة فيها جماعات وجمعاً وشهر رمضان من كل سنة شهر الصيام المفروض... وإن كان بالإمكان زيادة التقوى بصلاة أو صيام تطوعين... كما تجوز في الإسلام عودة المطلقة إلى زوجها المطلق، فالطلاق ثلاث كما أنه يجوز تعدد الزوجات... ولا نص على تغريم مسبب الطلاق بنصف ما يملكه الآخر...

وقبل أن نختم هذه الإشارات السريعة في الدرزية نشير إلى الفتوى الأزهرية ذات الطابع السياسي التي صدرت في ١٠ / ١٢ / ١٩٦٨ عن

رئيس لجنة الفتوى بالأزهر السيد محمد عبد اللطيف السبكي رداً على سؤال وجهه إلى الأزهر إحسان جابري علوان وجادو عز الدين ـ وكان سبب الاستفتاء دعوى إرث كبيرة عالقة في المحكمة الشرعية في بيروت وقد تدخل السيد كمال جنبلاط شخصياً لدى الرئيس عبد الناصر وكانت الفتوى التالية :

(. . . ومن هذا يتضح أن من نطق بالشهادتين مختاراً فقد ثبت إسلامه مع ملاحظة التفاوت في قوة الإسلام وضعفه بالنسبة لمن أتى بالأركان الخمسة ومن اقتصر على الشهادتين فقط (؟ ؟ ؟).

وحيث أن طائفة الدروز ـ كما جاء بالاستفتاء؟ ؟ ؟ ـ ينطقون بالشهادتين ويؤمنون بالقرآن وبما جاء فيه من أحكام تتعلق بالتوحيد وبالتشريع. ولا يحصل منهم بجانب ذلك إشراك مع الله ولا مناقضة للإسلام في قول ولا عمل (؟ ؟ ؟) فهم مسلمون ولا يجوز لأحد حينئذٍ أن يتهمهم بعدم الإسلام فإن اتهامهم بعدم الإسلام يثير الفرقة بين الجماعة الإسلامية . . .) (٩٨)

وفي الوقائع التاريخية تقرأ كتاباً يُعزى إلى أعيان الدروز ووجهائهم رفعوه إلى الباب العالي في أواخر حزيران سنة ١٨٤١ / جمادي الأولى سنة ١٢٥٧ هـ بمثابة شكوى من ظلم الأمير بشير الثالث لهم ومطالبتهم بتعيين حاكم درزي منهم على مقاطعاتهم وقد ورد في مقدمة هذه الشكوى (لما كانت الطائفة الدرزية تدين بالإسلام منذ عدة قرون وظل أجدادنا خاضعين لأوامر الباب العالي ولبثنا ناهجين نهجهم بإخلاص وأمانة حتى ١٢٤١ للهجرة . . .) (٩٩).

ولا بد هنا أن نشير أيضاً إلى أن القوانين اللبنانية ـ كما أن الوجهة السياسية العامة في لبنان ـ تعتبر الطائفة الدرزية إحدى الطوائف الإسلامية الثلاث المعترف بها وهي السنيّة والشيعية والدرزية.

ونشير أيضاً أن قانون المذهب الدرزي للأحوال الشخصية الصادر في ١٩٤٨/٢/٢٤ يشير إلى تبنّي قواعد المذهب الحنفي ـ لا الشيعي في الإرث مع أن الدروز يعتبرون أنفسهم أصلاً فرقة شيعية افترقت عن هؤلاء عند

الإمام السابع إسماعيل ـ باستثناء قاعدة تنزيل الفروع محل الأصول وفقاً لأقوال مذاهب سنيّة أخرى غير الحنفية . . .

تهافت حجج من قال بدرزية الأمير فخر الدين :

وعطفاً على ما تقدم وإذا أردنا أن نحصر حل اللغز الديني في شخص الأمير فخر الدين وأسرته المعنية يتبين لنا ما يلي :

١ ـ إن الأسرة المعنية المبتدئة بالأمير معن . . أسرة سنية جاءوا بناء على إشارة نائب دمشق إلى البقاع في الشوف لمحاربة الصليبيين والدفاع عن الإسلام وبلاده.

٢ ـ والأمير فخر الدين الأول جد الأمير فخر الدين الثاني شيد سنة ١٤٩٣ في دير القمر مسجداً لا يزال حتى اليوم وقد دون على مدخله الآيات ٣٦ و ٣٧ و ٣٨ من سورة النور (في بيوت أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه يسبح له فيها بالغدو والآصال رجالٌ لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة يخافون يوماً تتقلب فيه القلوب والأبصار . . .).

كما نقش على قاعدة مئذنته ما يلي :

(عمّر هذا المكان المبارك ابتغاء لوجه الله العظيم ورجاء لثوابه الكريم الراجي مد ربه القدير المقر الفخري الأمير فخر الدين بن عثمان بن الحاج يونس المعني غفر الله له ولوالديه سنة ثمانماية وتسع وتسعين هجرية على صاحبها أفضل الصلاة والسلام).

وأيضاً . . . و (كانت عساكر الاحتياط التركية تأتي من بيت الدين لتؤدي صلاة الجمعة في هذا الجامع وكان المؤذن وقتئذٍ الشيخ عبد الرحمن الحجار من شحيم . . . وكان ذا صوت ناعم جميل . . .) (١٠٠).

ويبدو أن الأمير فخر الدين الثاني أعاد ترميم المسجد بحجارة عكار التي جلبها معه بعد غزوه لآل سيفا انتقاماً من يوسف باشا الذي أحرق دير القمر ـ كما مر معنا ـ فأقسم الأمير فخر الدين على أن لا يعيد بناء دير

القمر إلا بحجارة من عكار ويروى أنه قال:

وحق طيبة وزمزم والنبي المختار(*) ما بعمر الدير إلا من حجار عكار.

وقال فيليب حتي الذي أورد قَسَمَ فخر الدين هذا أن الأمير (قد صدق في وعيده... ونقل بعض حجارتها إلى دير القمر وفي بقايا البنايات المعنية في دير القمر وفي مسجدها الذي لا يزال قائماً إلى الآن حجارة صفراء يسهل تميزها عن غيرها...) (١٠١) وهذا ما يؤكد سنّية الأميرين فخر الدين الأول والثاني... والأسرة المعنية.

٣ - ما ينسب إلى الأمير فخر الدين الأول أنه دعا أمام السلطان سليم في دمشق لمّا ذهب إليه مع الأمير العسافي والأمير التنوخي للتهنئة بانتصاره في مرج دابق ولطلب التثبيت في الإقطاعيات ومن دعائه:
(اللهمَّ أدم دوام من اخترته للملك وجعلته خليفة عهدك وقلدته سننك وفرضك ناصر الشريعة النيرة الغراء...) (١٠٢).

وهذا الدعاء في حال صحة الرواية يؤكد سنية الأمير فخر الدين والأسرة المعنية.

٤ - إن مصاهرة فخر الدين الثاني من آل سيفا وتبادل تلك المصاهرة بين الأسرتين وزواج فخر الدين من ابنة الباشا سيفا وزواج ابن يوسف سيفا من حفيدات فخر الدين - كما مر معنا - كما أن مصاهرة الأسرتين المعنية والشهابية السنية، أن هذا التزاوج والمصاهرة لا يمكن أن يتم لو أن العائلتين السنيتين السيفية والشهابية تشكان بسنية الأسرة المعنية إذ أن هذه المسألة - خاصة في تلك الحقبة التاريخية بالغة الأهمية، فإن افترضنا إمكانية التجاوز عند زواج الذكور السنّة من درزيات فلا يصحُ هذا الافتراض مطلقاً عند تزاوج الدروز من سنيات؟؟؟ وهو أمر معروف ومدرك.

٥ - ثبت أن الأمير فخر الدين الثاني قد جمع عدة زوجات في آن واحد أي أنه

* - «طيبة» هي المدينة المنورة - وزمزم في المسجد الحرام بمكة المكرمة، والنبي المختار هو محمد (ﷺ). والذي يختار هذه الرموز لا يمكن أن يكون إلا مسلماً.

قد استعمل رخصة تعدد الزوجات المقرة في الإسلام والممنوعة منعاً مطلقاً في المذهب الدرزي... وهذا أيضاً مما يؤكد سنية الأمير فخر الدين الثاني وعائلته المعنية.

٦ - إن الأمير فخر الدين كما ذكر الرحالة موندرل الذي زار بيروت سنة ١٦٩٦ قد ابتنى قصرا له في بيروت تحيط به حديقة كبيرة فيها مصاطب عديدة لإقامة التماثيل والأنصبة (مما يدل - على حد تعبير موندرل) - على أن الأمير صاحب القصر لا يمكن أن يكون مسلماً متحشماً لإسلامه) (١٠٣) وهذا النص يثبت إسلامه - وإن يكن إسلاماً ضعيفاً نظراً لنشأة الأمير فخر الدين الثاني حيث لم يُفسح له في المجال لفهم الإسلام كما ينبغي، بسبب مربيه الموارنة من جهة ولانشغاله بأمور الإمارة عندما أصبح راشداً.

وقول موندرل فيه صحة باعتبار أن الإسلام يحرم اتخاذ النصب والتماثيل ومن اتخذها لا يكون متحشماً لإسلامه!!!

٧ - ما ذكره العميد عزيز الأحدب في كتابه فخر الدين مؤسس لبنان الحديث ص/ ٢٨ عن فخر الدين (قال المسلمون كان مسلماً سنياً ودليلهم على ذلك بناءه الجوامع وتعدد زوجاته وصيامه رمضان هو وعياله وتصريحه إلى نائب الملك الإسباني في نابولي أنه يصلي ويصوم)؟؟؟.

كما أكّد العميد الأحدب في موضع آخر (ص ١٤٠) بناءه الجوامع كما أشار إلى أنه نصب (ابنه علياً أميراً للحج)...

والغريب أن العميد الأحدب المسلم السني خرج عن رأي المسلمين وعن الوقائع التي ذكرها بنفسه ليرجح - كما رأينا - درزية الأمير - مع أن الذي يبني المساجد ويعيّن أميراً للحج أي على الحجاج المسلمين من رعيته القاصدين تأدية الفريضة لا يكون إلا مسلماً فكيف إذا كان أمير الحج ابنه علياً؟؟... غير أن تلك الغرابة تتلاشى عندما ندرك اختلاط الأمور عند الأحدب وعدم تبصره في مسائل العقيدة وتأثره المكشوف بأفكار سعيد عقل الماروني خاصة عندما نقرأ للأحدب مقولة

إيمان فخر الدين (ذكرنا أنه كان يصلي ويصوم رمضان وأهم من كل ذلك أنه كان يؤمن بأن الله محبة واتحاد) (؟؟؟) ص / ٣٧ من كتابه المذكور، فأيّ اختلاط في العقيدة ـ عند الأحدب ـ أكثر من قوله «الله محبة واتحاد. . .» ؟؟؟.

٨ ـ من خلال دفاع الأمير فخر الدين أمام السلطان (قد مَشّيتُ طريق الحج ومنعت العربان عن التعدي. . . وأيدت الأحكام الشرعية) (١٠٤) يتبين اهتمام الأمير فخر الدين بمسائل إسلامية صرفة وسعيه لتطبيقها، فتأمين طريق الحج للحجاج أمر بالغ الأهمية من الوجهة الإسلامية كما أن تنفيذ الأحكام الشرعية الإسلامية يدل من جهة أخرى على حرص صاحبها عليها وعلى الشريعة. . . وبإبراز هذا في سياق دفاعه يؤكد صدقه. . . ذاك أن ارتكاب الكذب، وهو في حضرة السلطان للدفاع عن نفسه، يكفي وحده للإدانة إن كان بعكسه. . . والأمير كان على ما يبدو حريصاً على الاستدلال بوقائع لا تقبل الجدل. . .

تهافت قول من قال بتنصره:

وانطلاقاً من الواقعة الأخيرة يَثْبُت أنَّ الأمير فخر الدين لم يكن أيضاً نصرانياً إذ أن مضمونها يفيد التزامه الإسلامي. . . ويبدو أن الأمير هَدَفَ من دفاعه إثبات أمرين: التزامه التاريخي بالسلطنة العثمانية (لم ابن القلاع إلا حماية من الأعداء ولم أحارب إلا من كان عاصياً للدولة) وإثبات التزامه الإسلامي بالأحكام والعبادات الإسلامية. . . وفي الأمر الأول كان يُذَكّر بحملاته التي استُعْمِل فيها لتحقيق سياسة الدولة ـ وقد ذكرنا أمثلة على ذلك من قبل ـ وفي الأمر الثاني كان يذكر بتنفيذ أمور يبدو، أنها كانت منفذة حقيقةً، وقد رأينا أنه جعل ابنه علياً أميراً على الحجاج المسلمين ومن قبل جعل مدبره الحاج كيوان أميراً على الحج أيضاً.

ويبدو أن المحاكمة السلطانية للأمير انصبت على علاقات الأمير الخارجية وتحالفاته مع المسيحيين الأوروبيين أعداء الدولة العثمانية لذلك فقد جاء في حكم الإعدام أنه (مال إلى المسيحيين) فلو كان متنصراً لذكر الحكم

ذلك صراحة ولم تبق مسألة دينه لغزاً يبني عليها بعض المؤرخين من الموارنة والإفرنج تخيلاتهم ـ كما فعل الأب ضو في كتابه تاريخ الموارنة بتصويره الأمير يجثو إلى الشرق ويقوم بعمل إشارة الصليب ـ أثر سماع حكم الإعدام. وممّن؟ من السلطان وأمامه علماً أن السلطان لا يتعاطى مباشرة بالأحكام القضائية؟!

فتلك هي تخيلات. . . أو تمنيات تمناها الأب ضو ومن نقل عنهم ذلك وهناك روايات تتعارض كلياً مع الرواية الإعدام فمن الروايات ما قالت إن الأمير مات خنقاً في باحة المسجد في الآستانة مع أولاده الثلاثة بوساطة رجلين أخرسين. . . وهذه الرواية التي نقلها فيليب حتي/١٩٣ تختلف كلياً عن رواية الأب ضو بأن رأس الأمير قد قطع بالسيف بعد أمر السلطان بإعدامه لمّا رآه يقوم بعمل إشارة الصليب. . ؟

أما زعم المطران بطرس ديب بما نقله عن الآباء الكبوشيين من أن أحدهم الأب أدريان قد عَمَّد الأمير سنة ١٦٣٣ لما مرض الأمير ولقبه ب (/ لويس فرنسوا) وأنه كان يريد إرسال أولاده الصغار إلى البلاد النصرانية ليتربوا على الدين المسيحي وأنه لولا أبو نادر الخازن الماروني الذي عارض ذلك لتم إرسال الصغار إلى هناك. . . فأننا نرجح تهافت هذه الوثيقة المخطوطة إن كانت موجودة حقيقةً بالأدلة التالية:

أ ـ أن الأمير رجل سياسة. . . فعلى افتراض أنه قد اعتقد صحة المسيحية فلا يمكن، وفق طموحاته التوسعية واهتماماته الخارجية، أن يجري ذلك على أيدي أي فرنسي يعيش في صيدا. . . ففرنسا ـ كما رأينا ـ لم تكن تنسجم مع مخطط الأمير لعلاقاتها الوثيقة بالآستانة كما قال الأب ضو، وإن كان هذا لم يمنع الأمير الاهتمام بالفرنسيسكان والكبوشيين ومنحهم أمكنة لإقامتهم وتسهيلات مختلفة. . . إلا أن هذا التنصر ـ في حال صحته ـ حدث هام وخطير يمكن أن يوظفه الأمير في خدمة طموحاته إلى أبعد حد، ففرنسا ضمن توجهاتها الخاصة في السياسة الدولية في ذلك الحين والمتعلقة بالأمبراطورية العثمانية لا يمكن أن تساعده. . . بينما كان

إعلان تنصره أحد أهم المطالب البابوية والتوسكانية وبسبب رفضه ذلك رفضوا مساعدته بل استكتبوه سنداً بنفقات إقامته... فلو أن الأمير بات مقتنعاً بصحة العقيدة المسيحية لتعَمَّدَ (العماد) على أيدي أمير توسكانا والبابا فذلك ربما كان من شأنه أن يغير المعادلات الدولية...!!! خاصة وأن عام ١٦٣٣ المزعوم فيه عماده، كان فيه قرار السلطان بتصفية الأمير. إذ أمر باشوات مصر وسوريا بالزحف على أمير جبل لبنان وصيدا والجليل ووضع حد نهائي لأسطورته وعصيانه الدولة وامتناعه عن دفع المستحقات الضريبية للخزينة السلطانية... فالمجابهة هذه كانت سبباً طبيعياً في تغيير المعادلة الدولية باعتبار أن العثمانيين إنما زحفوا ضد أمير أعلن نصرانيته مما يبرر - وفق منطق أحداث تلك الحقبة - تدخل البابا ودوق توسكانا وبعدهما إسبانيا... وربما فرنسا.. من أجل منع الإجهاز على أمير تنصر؟؟.

ولا ريب أن هذا التحليل لم يغب عن ذاكرة الأمير فهو يذكر - كما قدمنا - أجواء الضغوط النفسية التي عاشها في أوروبا لحمله على التنصر، كما يذكر رفضه، ويذكر مع هذه الذكريات رفض من طلب نجدتهم وحمايتهم، وهو يعلم أن تنصره هذا سيعكس فرحاً وبشاشة لا حد لهما لدى الجهات الأجنبية المعنية بأمور التنصر.. فلا يمكن والحال كذلك أن (يقتل) الأمير هذا الحديث وأن يسلكه هذا المسلك الخافت البعيد عن الأضواء...

ب - يؤكد ما قدمناه أن الأمير، في رسالته - المشكوك فيها - عبر مبعوثه المطران مارون إلى البابا ودوق توسكانا سنة ١٦٣٤ أي بعد فرض الحصار عليه والتجائه إلى المغارة في نيحا مع أولاده وجنده، كان يعرض، في مقابل المدد العسكري له، إعلان تنصره أي أن المقايضة واضحة: يُقرر المدد العسكري ويرسل فيتنصر الأمير... تلك هي الصفقة... فإن لم يتحقق المدد فلن يتحقق التنصير...

وقد سبق عند اثباتنا لنصوص مشروع المعاهدة التي حملها المطران

مارون أن أكدنا أن الأمير حاول الضرب على أوتار أحبها البابا ودوق توسكانا بل علقا أية مساعدة فاعلة على استجابة الأمير... فأراد الأمير - وقد حوصر - أن يلوح بهذه الورقة كما أحب أن يلوح بورقة القدس وتمليكهم لها...

فلو أن الأمير كان متنصراً لكان مبعوثه قد حمل من خلال مشروع المعاهدة تلك البشرى ولطلب العون على هذا الأساس... ولأعطي التحرك العثماني هذا البعد ضد الحرب الإسلامية - الصليبية...

ج - أن الأمير - وهو في مواجهة الحملة العسكرية العثمانية سنة ١٦٣٣ وما بعدها.. وهو في أوج أنشطته السياسية والعسكرية لا يمكن أن يكون مهتماً بأمور عقيدية سبق له أن زفضها وهو في حالة النفي والاغتراب... أي في وقت كانت ظروف عديدة تساعده وتدفعه لارتكاب هذا الفعل.

ثم لو أن أبا نادر الخازن، مدبر الأمير ومستشاره الأول قد رفض تنصر أولاده وإرسالهم إلى بلاد النصارى ليتلقوا النصرانية، الأمر الذي حمل الأمير على العدول عن إرسالهم - حسب الرواية المزعومة - لما تردد الأمير ولا أبو نادر من إعادة النظر في هذا المشروع بعد أن أصبح الأمير مع أولاده في المغارة... إذ كان أيسر أمر على الأمير - لو كان متنصراً على أيدي الكبوشيين أن يرسل أولاده الصغار من المغارة إلى خالهم في صيدا ثم إلى الكبوشيين ليقوم هؤلاء بإخفائهم أولاً ثم إرسالهم إلى حيث أحب أبوهم الأمير... غير أنَّ شيئاً من هذا لم يحدث بل أُلقي القبض عليه وعليهم واقتيدوا إلى الآستانة.

د - أما الرواية التي تقول أنه عثر على صليب في ثياب الأمير بعد إعدامه - كما فعل فيليب حتي - أو وُجِدَ على صدره صليب معلق بسلسلة ذهبية (لا فضية) كما يقول الأب ضو فإن هذه الرواية أبعد عن التصديق... إذ أن الأمير يعرف أنه سيمثل بين يدي السلطان الحاكم

فلا يعقل أن يبقى معه (صليبه) ـ على افتراض تنصره ـ لأن هذا وحده كافٍ لإعدامه لثبوت ردّته عن الإسلام به، بينما هو كان يسعى لإقناع السلطان ببراءته (إني مظلوم ولم أبْن القلاع إلا حماية)...

هـ ـ ولا بد هنا من السؤال: لماذا لم يتمورن الأمير؟... ولماذا اختار الكثلكة على أيدي الكبوشيين الفرنسيين ـ مع تهافت هذه الرواية كما بينا ـ ولم يختر المارونية مع أن مربيه ومدبريه وعدداً من حاشيته وبعض رعيته كانوا موارنة، أليس الأقرب إلى تفكير الأمير السياسي أن (يهتدي) إلى (المارونية) بدلاً من (الكاثوليكية) وبذلك يربح عصفورين بحجر واحد موارنة بلاده ونصارى أوروبا..؟؟؟.

صحيح أن المارونية قد تكثلكت إلى حد ما واتبعت البابوية إلا أنها في زمن الأمير كانت ما تزال متميزة عنها بكثير من الطقوس... والبابوية بإصرارها السابق على الأمير لا يهمها أن (يهتدي) إلى الكثلكة بقدر ما يهمها تنصر أمير مسلم على ساحل الأراضي المقدسة...!!.

النتيجة:

وهكذا فإن الأمير فخر الدين لم يكن إلا أميراً مسلماً من الأسرة المعنية التي كان لها حكم بلاد الشوف، حيث استقرت فيها أكثرية درزية وافدة من الجنوب. وقد جاء فخر الدين إلى ـ الإمارة ـ بنفسية مشبعة بالحقد على العثمانيين بعد أن تلقى تربية مارونية ففخر الدين وإن كان سنّي الهوية إلا أنه لم يفهم من الإسلام إلا اسمه وبعض مبادئه، مع أنه كما نقل عزيز الأحدب يصلي ويصوم رمضان ثم انشغل في الإمارة... فتعلّم وعلّم كيف يداهن ويواري فبرع في ثعلبة سياسية فمالأ الولاة أو استخلص منهم براءات لإقطاعات جديدة فشعر بأن حجمه أكبر من حجم بلاد الشوف خاصة عندما أصبح والياً على صيدا حتى عكا...

ثم مارس دور الشرطي العثماني لتأديب بعض العصاة ولتنفيذ سياسة دمشق أو السلطان وكان خلال ذلك يحاول الاتصال بالبابوية وإمارة توسكانا بناء على توجيهات مارونية واضحة... فانزلق في السياسة الدولية... حيث

أريد له أن يكون ورقة فيها... ومورست عليه الضغوط لكي يتنصر فرفض ـ وكانت هذه إحدى أهم مزاياه...ـ ثم عاد إلى الإمارة... ليعود إلى مفهوم المعادلات الداخلية والخارجية وليقع من جديد ضحية أطماعه وجشعه وحبه للمال... ـ الذي كان يقوم بتهريبه إلى بنك جبل الرحمة في فلورنسا ـ فلو أن الأمير أخلص للسلطنة وفهم إسلامه حقّ الفهم... وأدّى ما عليه من مال للخزينة وأخلص للسلطان الذي أطلق عليه سلطان البر أو أمير الجبل وصيدا والجليل لكان غير معادلات وخُلّد من حيث أراد هو أن يخلد ولكن عن طرقٍ غير ملتوية كما سلكها حقيقة فأدّت به إلى مصيره الأسود في الآستانة.

غير أن الأمير كان محظوظاً بعد وفاته... فوجد في لبنان من المؤرخين من حرّفوا التاريخ وضخموا الأحداث وفسروها على غير طبيعتها... ثم جاءت دولة الاستقلال في لبنان لتتبنى ما قاله المؤرخون المهولون المضخمون فجعلوا منه بطل استقلال وبداية لتاريخ لبنان الحديث بعد أن أخذوا منه «شرعية» رئاسة النصارى للبنان... ثم منحوه تمثالاً في دير القمر...؟؟؟

جيش الأمير الانكشاري:

وكما اختلفوا على دين الأمير فخر الدين، اختلف مؤرخو الموارنة على دين الحاج كيوان، أحد أهم مدبري الأمير، والذي سافر معه إلى توسكانا... فمنهم (كالشدياق) قال بمارونيته ومنهم من أنصف الحقيقة (قرأ لي) وقال بإسلاميته مستنداً «إلى أن كيوان هذا قد حج إلى مكة على رأس الحجاج الذاهبين من الإمارة المعنية ١٦٢٢»، إلا أن الأب ضو في كتابه تاريخ الموارنة انتصر لرأي الشدياق مؤكداً مارونية الحاج كيوان ذاهباً إلى أن الذي يثبت مارونية الحاج كيوان هو كونه في جيش الإنكشارية. فهؤلاء على حد زعمه كانوا يُتخذون من بين الشبان المسيحيين لإخلاصهم وصبرهم على الشدائد، ومن غير المستبعد أن يكون كيوان مثل بقية الجنود الإنكشارية تظاهر بالإسلام عندما دخل في سلك الإنكشارية كما كان مألوفاً في مثل تلك الحالة... هذا مكنه من الحج إلى مكة على رأس الحجاج في سنة ١٦٢٢ (١٠٥).

والعجيب أن يتجاوز أولئك المؤرخون كل حد في التزوير والتحريف ليجعلوا جيش الإنكشارية مسيحيين أسلموا ظاهراً... وأن يجعلوا الحاج كيوان مارونياً.. يحج إلى مكة على رأس الحجاج بعد أن عينه ـ طبعاً ـ الأمير فخر الدين، الحاكم المسلم، أميراً على الحجاج من رعيته عام ١٦٢٢؟ غير أن ما يستفاد من نص الأب ضو وقرأ لي هو أن الإنكشارية مسلمون. أما «مسيحيتهم الباطنية» فأمر باطل يلجأ إليه الأب ضو للقول بأن النفاق كان أصلاً في حياة تلك الحقبة التاريخية... وهي نتيجة لا نحسده عليها.

والأعجب من ذلك أن الأب ضو يؤكد أن جيش الإنكشارية هذا العائد للأمير فخر الدين كان من السكان المرتزقة وذلك لأن الأمير كان يستأجرهم ضناً (بحياة مواطنية وعملهم في الزراعة والصناعة ولكن لم يكن هؤلاء المأجورين يعملون بدافع الروح الوطنية مما جعلهم عرضة للتغلب...) (١٠٦) ويروي الأب ضو أن هؤلاء السكمان ـ وهم من غزير البلد السني في ذلك الحين ـ لم ينجدوا الأمير سنة ١٦١٣ فلم يتمكن من تحمل ضغط الأعداء وحده...) (١١٩) مما حمله على ترك البلاد ونفى نفسه إلى توسكانا كما أن هؤلاء السكمان رفضوا أن يساعدوه (في نكبته الأخيرة فتركوه فاقتصر الأمر على جيشه الوطني الماروني بمعظمه...) (١٠٦).

فكيف يمكن أن نوفق بين هذين النصين المتضاربين فإن كان الجيش الوطني الماروني بمعظمه انكشارياً لما كان بحاجة إلى التظاهر بالإسلام... إذ أنهم مسيحيون وموارنة هو أمر لم يقل به أي من الآباء والمطارنة المؤرخين على ما نعلم... وإن كان جيش الأمير من السكمان قاطني غزير وسواها في كسروان فلماذا يفترضهم الأب ضو وسواه مسيحيين تظاهروا بالإسلام مع أنه يقر في النص الثاني أعلاه أنهم خذلوا الأمير بل في (كل معاركة معه ـ على حد تعبير مؤرخي الموارنة ـ كانوا يشتدون عليه في الأجرة ويطالبون بالمزيد..؟؟.).

أن يكون معظم الجيش الوطني للأمير من الموارنة فهو ادعاء في غير محله... إذ أن الأمير في معركة «المصير» سنة ١٦٣٣/١٦٣٥ لم يتمكن من

حشد أكثر من خمس وعشرين ألفاً سيّر منهم اثني عشر ألفٌ بقيادة ابنه علي... من هذا (الاثني عشر) ألف ماروني فقط وألف درزي كما يقول فيليب حتي (١٠٧) فهل لنا أن نسأل الأب لمن ينتسب العشرة آلاف الباقية... هل يبقى إلا أن يكونوا سنة أو سنة وشيعة. ؟؟؟. زد على ذلك أن النصارى لم يُفرض عليهم التجنيد، في ظل الدولة الإسلامية العثمانية، فلا يعقل أن تعفيهم الدولة ليجندهم أحد ولاتها أو مقاطعجيها؟.

ومن هنا يتبين أن أسلوب التضخيم والتحوير والتحريف هو الطابع الأصيل لمؤرخي الموارنة لا في الوقائع والأحداث فحسب بل في أديان الناس والأمراء فدَرْوَزُوا الأمير ثم مورنوا جيشه ثم نصروا جيش الإنكشارية ثم نصّروا الأمير، كل ذلك في سبيل إثبات أن الإمارة والرئاسة في لبنان، في واقعها التاريخي هي للنصارى دون المسلمين... وهي حقبة أثرت وتؤثر على كل تحركات النصارى في لبنان...

وهناك خلفية هامة في التفكير الماروني التاريخي هي مسألة التنصير... فمؤرخو الموارنة يحاولون إخفاء المورنة أو النصرنة أو على الأقل (قلة التدين) على كل من يتعاون معهم ويقربهم إليه، فلا يفهمون التعاون أولا يفهمون التسامح والانفتاح إلا من منظور ضمور الناحية الدينية في المتسامح أو المنفتح أو باستعداد فطري لديه نحو النصرانية...؟! وهو أمر خطير له معقبات كبيرة على أكثر من صعيد!!.

وبهذه الخلفية الخطيرة فسر فيليب حتي نظرة الإمام الأوزاعي الشرعية في عدم جواز أخذ غير المذنب بجرم المذنب ﴿ولا تزر وازرة وزر أخرى﴾ كما أرسل إلى صالح بن علي العامل العباسي كتابه المشهور ـ كما رأينا ـ فسّر هذه النظرية الإسلامية الشرعية (بروح لبنانية سمحة؟؟) وهو تعبير مؤدب يستخدمه النصارى تاريخياً بدل كلمة نصرانية... فلو أن غير الإمام الأوزاعي قال ما قال الأوزاعي لفسّر مؤرخو المارونية موقفه هذا بميله إلى النصارى إن لم يعتبروه نصرانياً في الخلفاء مسلماً في الظاهر؟؟ فقد قال حتي في الإمام الأوزاعي: (أن النظرة اللبنانية الكاملة والروح اللبنانية السمحة

تتجسد في سماحة روح الأوزاعي ونبل أخلاقه فإنه كان يشدد على فكرة العدل والرفق والعطف عندما كان الأمر يتعلق بالرعايا من غير المسلمين) (١٠٨) نسي حتي الإسلام وعدل الإسلام ومبادىء الإسلام التي عاشها الإمام الأوزاعي في فكره وروحه وأخلاقه وتصرفاته... واعتبر العدل والعطف والرفق والتسامح أفكاراً وأخلاقاً لبنانية.؟.

وبهذه الخلفية التاريخية التحريفية اتهم مؤرخو الموارنة لا الأمير فخر الدين ولا مدبره الحاج كيوان ولا جيش الإنكشارية بالتنصر فحسب، وإنما اتهموا بها الأمير يحيى العثماني الذي كان يسعى لاستخلاص عرش السلطنة من أخيه السلطان أحمد (١٠٩).

فهل يمكن أن نتصور عثمانياً يتنصر ليصبح خليفة على المسلمين؟؟؟ فعلى افتراض أن ذلك التنصر يفيد الأمير فخر الدين باعتبار أن مدبريه ومستشاريه من الموارنة، وبعض رعاياه من الموارنة فهل لنا أن نتمكن من فهم تنصر الأمير العثماني يحيى وهو يحاول استعادة منصب الخلافة من أخيه السلطان أحمد ورعاياه مسلمون وهو يُستخلف عليهم بالإسلام لا بالنصرانية.

إن هذه الخلفية الغريبة هي وراء مشاعر المؤرخين المسيحيين الموارنة وهم يكتبون التاريخ... فيكفي ـ عندهم ـ أن الأمير يحيى قد راسل دوق توسكانا وكان يفكر ـ على حد زعمهم ـ بطلب النصرة من الأمير فخر الدين ـ لَمّا كان هذا والي عربستان للقول بأن الأمير يحيى عثماني متنصر؟؟؟ وفي هذا إسفاف رهيب وتزوير تاريخي فاضح.!!.

المراجع
والمصادر
للقسم الثاني

١ ـ حتي / ٤٣٨ نقلاً عن عيسى المعلوف في تاريخ الأمير فخر الدين المعني.

٢ ـ حتي / ٤٥٢ نقلاً عن الشدياق ويزيد وليد فارس في كتابه التعددية ص/١٠٧:
(المشايخ والمقدمون الموارنة كان يعينهم الإقطاعيون المسلمون في كل أنحاء لبنان).

٣ ـ يوسف السودا في كتابه تاريخ لبنان الحضاري جعل لبنان الحديث يبدأ مع المعنيين وبصورة خاصة مع فخر الدين الكبير ١٥٧٢ ـ ١٦٣٥ ويقول (صفحة بارزة في تاريخ لبنان تزينها هامة من الحب والإعجاب) ١٨٩.

٤ ـ التعددية مرجع مذكور ١٠١ / و١٠٢.

٥ ـ حتي / مرجع مذكور / ٤٥٤.

٦ ـ هاني فارس في (النزاعات الطائفية في تاريخ لبنان الحديث) في / ٢٠ نقلاً عن كمال الصليبي في كتاب له (بالإنكليزية)..

٧ ـ التعددية مصدر مذكور ص / ١٠٩ و ١١٠.

٨ ـ الأب بطرس ضو ومصدر مذكور ص / ٢٠٨ و ٢٠٩ و ٢١٠.

٩ ـ حتي نقلاً عن مرجع إنكليزي ص / ٤٥٧.

١٠ ـ تاريخ لبنان الحضاري يوسف السودا / ١٨٧.

١٠ ـ تاريخ لبنان الحضاري يوسف السودا / ١٨٧.

١١ ـ حتي ٤٠٣.

١٢ ـ حتي ٤٥٨.

١٣ ـ يوسف السودا مصدر مذكور / ١٨٩ .

١٤ ـ بطرس ضـو / ٢٠٦ نقلاً عن الأب توما منيتالي.

١٥ ـ محمد علي مكي / لبنان من الفتح الإسلامي إلى الفتح العثماني ص / ٢٦٤ .

١٦ ـ بطرس ضو / ١١٩ و ١٢٠ أليس من الغريب أن يُرْجع الموارنة الفضل بتواجدهم في بلاد كسروان إلى العثمانيين ثم يتهمون الحكم العثماني بكل نقيصة؟؟؟ .

١٧ ـ محمد علي مكي مصدر مذكور / ٢٦٤ .

١٨ ـ بطرس ضو ٤ / ١٢٦ .

١٩ ـ بطرس ضو / ١٨٤ .

٢٠ ـ حتي / ٤٥٤ .

٢١ ـ محمد علي مكي مصدر مذكور / ٢٦٢ .

٢٢ ـ فؤاد قازان مصدر مذكور / ٢٣٤ و ٢٣٥ نقلاً عن بولياك.

٢٣ ـ وثائق سياسية من تاريخ لبنان الحديث / ١٥١٧ ـ ١٩٢٠) الدكتور عبد العزيز سليمان نوار من جامعة عين شمس وجامعة بيروت العربية وهذا الكتاب صدر عن جامعة بيروت العربية سنة ١٩٧٤ .

٢٤ ـ تاريخ طرابلس قديماً وحديثاً للأستاذ سميح وجيه الزين / ١٨٢ ويروي الأستاذ سميح في كتابه هذا مسلسلاً لمنازعات الأمراء المحليين مع والي دمشق وهذا الأخير مع باشا طرابلس وهذا الأخير مع السلطان من أجل تسديد الديون الضرائبية المتوجبة للخزينة العامة.

٢٥ ـ ضو ٤ / ٢١٣ نقلاً عن (فخر الدين المعني الثاني للخوري بولس قرأ لي) وهو المرجع الذي اعتمده ـ الأب ضو في أكثر أخباره عن الأمير فخر الدين. . . ؟ .

٢٦ ـ حتي / ٤٥٤ .

٢٧ ـ تسلم آل حرفوش البقاع من مراد باشا والي دمشق بعد أن خاضوا إلى جانبه معركته ضد الأمير منصور فريخ.

٢٨ ـ حتي / ٤٦٢ .

٢٩ ـ ضو / ٤ / ٢١٦ .

٣٠ ـ حتي / ٤٦٣ .

٣١ ـ حتي / ٤٦٦ .

٣٢ ـ حتي / ٤٦٧ .

٣٣ ـ ضو / ٢٠٩ .

٣٤ ـ يوسف السودا / ١٨٧ .

٣٥ ـ وثائق سياسية مصدر مذكور ص / ٤٠ .

٣٦ ـ وثائق سياسية مصدر مذكور ص / ٤٤ نقلاً عن بولس قرأ لي وكذلك الأب ضو في تاريخ الموارنة ٤ / ٢٢٦ .

٣٨ ـ كمال جنبلاط هذه وصيتي / ٤٠ .

٣٩ ـ لمراجعة النص الكامل لهذه الوثيقة راجع تاريخ الموارنة للأب ضو في الصفحات / ٢٢٩ / لغاية / ٢٣٢ وهي من أخطر الوثائق التي تكشف مدى تآمر جنبولات هذا وانحرافه طمعاً بالسيطرة والحكم.

٤٠ ـ كان أهم حكام توسكانا مات سنة ١٦٠٩ وكان قبل توليه الحكم كاردينالاً ولهذا كان معنياً جداً بالسياسات الصليبية الموجه ضد المسلمين كما كان له نشاط اقتصادي كثير ـ انظر حاشية الوثائق السياسية مصدر مذكور.

٤١ ـ ضو ٤ / ٢٢٧ قارن بين موقف علي جنبلاط وبين موقف السلطان المملوكي لّما عرض عليه البابا وأمير توسكانا شراء صور فرفض ومن موقف السلطان عبد الحميد برفض بيع فلسطين لليهود. . .

٤٢ ـ بعد هزيمة جنبلاط فرّ إلى مالطه ثم طلب العفو من السلطان فعفا عنه ثم منحه لقب وزير وعينه والياً على هنغاريا ويبدو أنه عاد لسيرته الأولى فأحدث شغباً هناك (فعُرض أمره إلى باب السلطنة الأحمدية فبرز الأمر بقتله وعدم إخراجه من القلعة فقتل وأرسل رأسه إلى السلطان وكان ذلك في حدود ١٦١١) راجع ضو ٤ / ٢٣٥ نقلاً عن قرألي. غير أن كمال جنبلاط يرى خلاف ذلك كما ذكر في ـ هذه وصيتي ـ فقد زعم أنه هاجر إلى الشوف (ووجد نفسه لاجئاً في مزرعة الشوف مع عائلته الصغيرة وأصبح أعزلاً مجرداً من كل شيء. . .) ص / ٤٠ ولا بد من إجراء تدقيق وتحقيق حول نهاية هذا الرجل.

٤٣ ـ الوثائق السياسية مرجع مذكور ص / ٤٢ .

٤٤ ـ الوثائق السياسية مرجع مذكور ص / ٤٤ .

٤٥ ـ ضو ٤ / ٢٣٦ .

٤٦ ـ الوثائق السياسية (مصدر مذكور) ٤٦ و٤٧ ولا بد أن نتذكر أن فخر الدين كان قد عُبِّىء نفسياً ضد الأتراك لمصرع والده على أيديهم بعد حادث الاعتداء على الأموال الأميرية في سنة ١٨٥٤ كما قد خضع (لتقاليد) في التربية المارونية بواسطة آل الخازن كما نوهنا من قبل.

٤٧ ـ ضو ٤ / ٢٣٧ .

٤٨ ـ ضو ٤ / ٢٤٣ و٢٤٤ .

٤٩ ـ الوثائق السياسية مصدر مذكور / ٥١ و٥٢ .

٥٠ ـ ضو ٤ / ٢٤٤ .

٥١ ـ حتي نقلاً عن الخالدي / ٤٦١ .

٥٢ ـ الوثائق السياسية / ٥٤ ومن مراجعة نص الكتاب الموجه من الصدر الأعظم إلى أمير توسكانا يتبين قوة اللهجة والسطوة التي كان يتمتع به السلطان العثماني ويعتبر هذا الكتاب بحق إحدى الوثائق الهامة في المراسلات الدولية في ذلك الحين. . .

٥٣ ـ المرجع السابق ص / ٦٨ و ٧٠ .

٥٤ ـ ضو ٤ / ٢٤٤ .

٥٥ ـ ضو ٤ / ٢٤٧ .

٥٦ ـ الوثائق السياسية ص / ٧٤ لغاية ٧٨ وقد أثبتت هذه الصفحات النص الكامل لمشروع المعاهدة وقارن بها النص الذي أثبته الأب ضو في تاريخ الموارنة ٤ / ٢٤٥ .

٥٧ ـ فخر الدين مؤسس لبنان الحديث مصدر مذكور ص / ١٥٧ و ١٦١ و ١٦٢ للعميد عزيز الأحدب.

٥٨ ـ راجع في مسألة الجيش اللبناني ما كتبناه باختصار في كتابنا (المسلمون في لبنان مواطنون لا رعايا) وقد صدر قبل حرب السنتين اللبنانية بسنتين ولنا أمل أن يعود العميد ـ الذي قاد انقلاباً عسكرياً في ١٣ آذار ١٩٧٦ وإن انتهى بالفشل ـ عن أفكاره وأن يقرأ فخر الدين قراءة جديدة.

٥٩ ـ الوثائق السياسية ص / ٨٣ .

٦٠ ـ المصدر السابق ص / ٧٢ وهذه العبارات منسوبة إلى الأمير في رسالته إلى دوق توسكانا في تشرين أول سنة ١٦٣٢ .

٦١ ـ الأب ضو ٤ / ٢٠٨ .

٦٢ ـ وثائق سياسية / ٧١ .

٦٣ ـ وثائق سياسية / ٩٠ وما بعدها وقد وردت هناك عدة رسائل أرسلها الأمير حيدر. . . وتتعلّق بالموضوع المذكور. . .

٦٤ ـ الأب ضو ٤ / ٢٦٤ .

٦٥ ـ تاريخ طرابلس مصدر مذكور ص / ١٩٤ .

٦٦ ـ ضو ٤ / ٣٤٨ .

٦٧ ـ الوثائق السياسية ص / ٥٢ .

٦٨ ـ فخر الدين مؤسس لبنان الحديث للعميد عزيز الأحدب ص / ٣٨ .

٦٩ ـ تاريخ طرابلس ص / ١٩٥ .

٧٠ ـ لبنان في التاريخ ص / ٤٥١ .

٧١ ـ ضو ٤ / ٢٥٨ .

٧٢ ـ النزاعات الطائفية في تاريخ لبنان الحديث ص / ٣١ .

٧٣ ـ حتي ص / ٣٢٥ .

٧٤ ـ حتي ص / ٤٥٠ .

٧٥ ـ حتي ص / ٤٦٥ .

٧٦ ـ النزاعات الطائفية ـ مصدر مذكور ص / ٣٩ .

٧٧ ـ فخر الدين مؤسس لبنان الحديث / الأحدب ص / ٣٩ .

٧٨ ـ حتي / ٤٦٥ .

٧٩ ـ تاريخ الموارنة ٤ / ٢٠٨ و ٢٠٩ .

٨٠ ـ ولكن لا يمنع هذا في حال شكوى الرعية ضد الوالي أو الأمير في حال ظلمه وتعسفه من عزله واستبداله بسواه كما حصل للأمير فخر الدين نفسه عندما أسندت إليه إمارة طرابلس فظلم فيها فشكاه أهلوها للسلطان فعزله. . وإن كان قد عاد وأسند إليه ولاية طرابلس كما رأينا من قبل.

٨١ ـ كمال جنبلاط (هذه وصيتي) ص / ٤١ .

٨٢ ـ حتي لبنان في التاريخ / ٣١٩ .

٨٣ ـ أمين طليع أصل الموحدين الدروز ٢٢ / ٢٣ .

٨٤ ـ النزاعات الطائفية ص / ٣١ .

٨٥ ـ حتي / ٤٠٦ / .

٨٦ ـ حتي / ٣١٦ .

٨٧ ـ أصل الدروز مصدر مذكور / ١٠٤ .

٨٨ ـ أصل الدروز مصدر مذكور / ١١٢ .

٨٩ ـ أصل الدروز مصدر مذكور / ١١٥ .

٩٠ ـ أصل الدروز مصدر مذكور / ١٢١ و١٢٢ و١٢٣ .

٩١ ـ أصل الدروز مصدر مذكور / ١٢٨ نقلاً عن مجلة الضحى التي تصدر عن المجلس المذهبي الدرزي العدد العاشر سنة ١٩٧١ .

٩٢ ـ أصل الدروز مصدر مذكور / ١٣١ وقارن به قانون الأحوال الشخصية للطائفة الدرزية الصادر في ٢٤ / ٢ / ٩٤٨ في المواد ٩ و١٢ .

٩٣ ـ أصل الدروز مصدر مذكور / ١٥٤ والمواد ٩ و١٢ من القانون المذكور.

٩٤ ـ أصل الدروز مصدر مذكور / ١٣٠ غير أن قانون الأحوال الشخصية الدرزية أعطى القاضي الحكم بعطل وضرر مادي ومعنوي دون أن تُقر قاعدة نصف المُلك المذكور آنفاً.

٩٥ ـ ويقول حتي (وأقدم هذه الخلوات وأرفعها مقاماً عندهم خلوات البياضة قرب حاصبيا. . . وخلوة شبعا التي نهب كتبها جيشُ إبراهيم باشا سنة ١٨٣٤ فكانت المرة الأولى التي تعرّف فيها العالم إلى كتبهم).

٩٦ ـ أصل الدروز / ١٣٦ .

٩٧ ـ أصل الدروز / ١٣٨ .

٩٨ ـ أصل الدروز / ١٠٧ وقد نشر السيد طليع الفتوى ونص الاستفتاء في الصفحات / ١٠٥ و١٠٦ و١٠٧ وقد سبق ذلك نشره بمجلة الضحى الصادرة عن المجلس الدرزي الجزء الثاني عشر سنة ١٩٦٨ .

٩٩ ـ الوثائق السياسية مصدر مذكور صفحة / ٣٥٧ / .

١٠٠ ـ دير القمر في آخر القرن التاسع عشر لشكري البستاني من منشورات مركز الأبحاث في معهد العلوم الاجتماعية في الجامعة اللبنانية سنة ١٩٦٩ .

١٠١ ـ حتي / ٤٦٣ .

١٠٢ ـ حتي / ٤٣٧ .

١٠٣ ـ حتي / ٤٦٤ .

١٠٤ ـ إن كان هناك فعلاً حكم بالإعدام نتمنى أن تُنشر وثيقته المحفوظة ـ قطعاً ـ بين وثائق الباب العالي في استنبول والتي تحولت ـ على ما يظن ـ إلى وزارة الخارجية التركية .

١٠٥ ـ ضو ٤ / ٢٠٧ .

١٠٦ ـ ضو ٤ / ٢٢١ .

١٠٧ ـ حتي / ٤٦٦ .

١٠٨ ـ حتي / ٣٢٩ .

١٠٩ ـ ضو ٤ / ٢٠٧ .

القسم الثالث

القراءة الرابعة

- عهد ما بين «الأميرين الكبيرين»
- معادلة العلاقات المستجدة بين أعيان الموارنة وفرنسا
- المستجدات الدولية على الساحة العثمانية

القسم الثالث

معادلة العلاقات المستجدة بين أعيان الموارنة وفرنسا

ويتضمن:

- السلطان سليمان يأمر قاضي طرابلس بمعاقبة من يتعدى على البطاركة.
- صفحة مشرقة من تاريخ الدولة العثمانية في العدل والحرية والحماية واحترام القضاء.
- أحقاد مؤرخي الموارنة: الدولة العثمانية مصدر كل ظلم.
- وجوب إعادة كتابة تاريخ الدولة العثمانية «المظلومة».
- أمين الجامعة العربية ووزير رومانيا ورئيس محكمة التمييز يؤدون الشهادة لصالح الدولة العثمانية.
- النزاع بين البطريرك ومقدم بشري.
- النظام المالي اللامركزي في السلطنة العثمانية.
- العثمانيون لا يتدخلون في ارتباط البطاركة بالبابوية.
- الحرية الدينية في السلطنة يعيدها مؤرخو الموارنة إلى السفير الفرنسي. لا إلى السلطان العثماني؟؟
- الامتيازات الأجنبية تشمل الموارنة؟
- نظام الملة وجه حضاري والخطأ في الممارسة والتحريف.
- المدرسة المارونية في روما وبعثات إلى موارنة الجبل.
- فخر الدين استخدم الموارنة وسواهم من أجل أطماعه والعكس غير صحيح.

- البلاط الفرنسي بين المحاماة عن الكثلكة والمصالح التجارية.
- حماية لويس ١٤ المعنوية للموارنة.
- الباب العالي يحذر السفير الفرنسي، «لا تتدخل في شؤوننا» التحذير جاء متأخراً.
- البلاط الفرنسي يتقصى الحقائق ويحافظ على علاقته بالسلطنة.
- مقدمية بشرى - بعد الحماية الفرنسية - يحكمها مسلمون والموارنة لا يدعون بحق موروث.
- مؤسسات الدولة بين الاسلامية والعلمانية.
- آل الخازن - يلوحون بالقدس للبابا للوصول إلى قنصلية فرنسا ويطالبون بمقاطعة كسروان ويكتفون بقنصلية بيروت.
- فرنسا تكشف نهج التضخيم وغاياته في رسائل البطاركة وآل الخازن.
- فرنسا تتوسط لمنع اعتداء الروم على الموارنة في قبرص.
- البطريرك الدويهي يجهد لجعل البطريركية لدمشق لا لطرابلس.
- أقصى ما حلم به أعيان الموارنة تحوير إداري ضمن شرعية السلطنة.
- معادلات السياسة الفرنسية تجاه الموارنة.
- الأب ضو: الموارنة استقطبوا ذهن العالم ونالوا التأييد على كل صعيد.
- جبل لبنان - ذلك اللغز - الذي لم يرتفع إلى مستوى ولاية.
- فرنسا تسرق من الموارنة الاتصال المباشر بالباب العالي.

معطيات الدولة الإسلامية العثمانية
في التعاطي مع القضاة والولاة والبطاركة...

بيّنا - من قبل - أن الموارنة كانوا قبل الفتح العثماني وبعده يتمركزون في الجبال الشمالية من لبنان حيث كان لهم (مقدمية) في بشرى يتبع مقدمها من يعينه أو يمنحه «براءة التثبيت. (فمقدمو بشرى منذ سنة ١٥١٦ كان يعينهم أمراء آل عساف التركمان الذين كانت قاعدتهم (غزير) وكانوا خاضعين لنائب دمشق. وكان مرجع مقدمي بشري أمراء آل عساف المذكورين) (١) - ثم - ولاة طرابلس بعد أن أصبحت طرابلس باشوية... وكانت المقدمية وراثية لكن لا يعتبر المقدم شرعياً إلا إذا ولاه معتمد الدولة الإسلامية... وكان على المقدم أن يدفع الضريبة للوالي الذي يقوم بدوره بدفعها إلى الخزينة الأميرية... أما البطريرك الماروني فكان يرعى شؤون الموارنة الدينية. غير أن المراسلات البابوية وإتصالات المبعوثين البابويين أذكت في نفوس البطاركة بوجه عام - كما بينا من قبل - تطلعات لم تكن عندهم وأخذوا يميلون إلى العمل السياسي. مما أوجد - في بعض الأحيان - منازعات واختلافات بينهم وبين المقدمين يستنجد خلالها البطريرك بالبابا ليتدخل هذا لدى المقدم من أجل التوفيق أو لإزالة الجفوة... وقد فسر الأب ضو الاختلاف هذا بضعف «الناحية المارونية» في المقدم فقال (لذلك كان البطريرك عندما تضعف في المقدم الناحية المارونية يستعين بالكرسي الرسولي الروماني لتشديد الناحية المارونية) (٢) في حين أن الأصح من ذلك تفسيره بحقيقته وهو اختلاف الرؤيا

السياسية وتنازعها على السيادة الزمنية على الموارنة فكان المقدم يرى أنه هو المسؤول عن الموارنة وينبغي عليه بحكم انبثاق شرعيته من معتمد الدولة الإسلامية أن يخلص في التعاون معه وأن على البطريرك أن يسير في النهج ذاته دون أن تؤدي اتصالاته الخارجية إلى تعقيد الأوضاع المارونية في مقدميه بشرى.

ومن جهة أخرى كان بعض البطاركة عند وجود أي اعتداء على الأديرة أو أملاك الكنيسة يسعى للحصول على ترتيبات أمنية أو على ضمانات من السلطان أو القضاء الشرعي... وكان القضاء والسلطان - في نظر الموارنة - عادلين. وكانا يهتمان بالبطريرك وبالكنيسة وبأملاكها فلا يقبلون بأي عدوان... وقد روى الدويهي صاحب تاريخ الأزمنة - كما نقلها الأب ضو في تاريخ الموارنة - حادثتين فصَلَ بإحداها القاضي الشرعي وتتعلق بدعوى مارانطونيوس قزحيا، والأخرى فصل بها السلطان سليمان القانوني لما كان في حلب. يقول الدويهي: (وفي سنة ١٥٥٣ صار تعدى على رزق دير قنوبين - قرب بشرى - وأخذ منه شوباصي سنجق طرابلس ماية وعشرين فليري زود عن الخراج المعتاد - أي زيادة - فأرسل البطريرك - موسى سعادة العكاري - عرض حال إلى السلطان سليمان، وهو مقيم في حلب، فكتب سعادته أمرهمايون لقاضي طرابلس ينظر في الدعوى ويأمر السنجق برد الدراهم لدير قنوبين) (٣) كما استحصل مبعوث البطرك وهو الراهب انطون الحصروني الذي كان يتقن السريانية والعربية والتركية على أمر من السلطان سليمان (بأن لا أحد يعارض النصارى في دينهم ولا بزواجهم وبأن ترمم الكنائس) كما استحصل على مرسوم سلطاني آخر (يقضي بأن لا أحد يعارض بطرك الموارنة بدير قنوبين في أمور البطركية بل أن قاضي طرابلس يمنح وينتقم من المتمردين والمعاندين) (٣).

ومن هذه النصوص يتبين مدى عدل سلاطين آل عثمان ومدى رغبتهم في العدل والانصاف وإصرارهم على معاملة النصارى وفقاً للمبادىء الإسلامية، الانفتاح والعدل. فلا يجيزون تعدياً ولو كان يسيراً ويصرون على منع التعدي ومعاقبة المعاندين والمتمردين. كما يستدل من هذا النص توفير

الحماية والاستقلال للبطرك فيما يتعلق بأمور البطركة ولو جاءت من مقدمه في بشرى، وتوفير الحرية الدينية للجميع فلا أحد يعارض النصارى في دينهم ولا بزواجهم... بل أن الأمر السلطاني الزم ولاية طرابلس بما فيها مقدمية بشرى بترميم الكنائس...

ويبدو أن هذه الأوامر السلطانية صدرت بصورة مستقلة ولا علاقة لها بالزيادة الضريبية التي أخذها سنجق طرابلس زيادة ضريبة مقدارها ماية وعشرين... إذ أن الشكوى التي قدمها البطرك إلى السلطان سليمان انتهى أمرها بصدور الإحال إلى قاضي طرابلس لينظر في الدعوى وصحة الزيادة... غير أن السلطان العثماني أحب أن يدقق في أحوال النصارى في أمور أخرى لم يشملها عرض البطرك العكاري ثم رأى أن يصدر أوامره زيادة في الحيطة وتداركاً لأي ظلم قد يقع عليهم... كما أن نص الدويهي يفيد من جهة أخرى مدى احترام السلطان للقضاء فهو لم يفصل في مسألة الزيادة الضريبية التي اشتكى منها البطرك والتي أسماها الدويهي (تعدياً) وإنما أحال الشكوى إلى قاضي طرابلس ليتحقق من صحة حصول الزيادة المشكو منها وفي حال حصول هذه الزيادة إصدار أمره القضائي إلى السنجق - الذي هو حاكم طرابلس الإداري - برد الدراهم...

إنها بلا ريب صفحة مشرقة، من التاريخ الإسلامي في العهد العثماني... تلك صفحة لا تطفح بالعدل واحترام القضاء وحماية الحرية الدينية فحسب، وإنما تؤكد «مواطنية» الجميع، مسلمين ونصارى، أمام الدولة، وأن النصارى لا مشكلات لهم مع الحكم الإسلامي... لولا مثابرة البابوية وإصرارهم على تعكير تلك العلاقات وخلق أجواء يمكن لها ولحلفائها الأمراء في أوروبا من إعادة الحروب الصليبية وتحقيق المطامع التي لم يتمكنوا منها من قبل.

لا مركزية الحكم العثماني:

غير أن وجود تلك الصفحة المشرقة التي هي الأصل في معطيات الحكم الإسلامي - لا يعني عدم وجود إساءات وتعديات أخرى لم تلحق النصارى

وحدهم بل شملت المسلمين أيضاً.. وتكاد تنحصر تلك الإساءات في المسائل المالية والضريبية... فعندما تحتاج الدولة إلى مزيد من المال تغطيةً للحاجات العسكرية الخارجية أو الأمنية الداخلية، تضطر إلى زيادة الضريبة على عاملها فيزيد هذا على المقاطعجية ومنهم ـ مقدم بشري ـ... فيزيد هذا على عموم أفراد رعيته. وبدل أن تفسر الأحداث أو الإساءات على هذا النحو نجد مؤرخي الموارنة ينتهزون الفرصة ليجعلوا بعض الوقائع قضيةً، ناسين أو متناسين أن الإساءة لم تشمل النصارى فقط...

ومما لا شك فيه أن نظام تلزيم الضريبة الذي كان متبعاً في العهود العثمانية وقبلها المملوكية كان نظاماً غير متكامل إذ كان يفتقر إلى مراقبة الدولة على الولاة الذين كان بإمكانهم أن يزيدوا في الضريبة إلى حجم أكبر من الحجم الذي أرادته السلطنة... وهذا مرده إلى طبيعة النظام اللامركزي الذي اتبعته الدولة.... إذ أن اتساع الرقعة وصعوبة المواصلات ـ في ذلك الزمن ـ جعلا من الحكم المركزي أمراً متعذراً فاكتفى السلطان بحكم مركزي في مركز حكمه أما الولايات التابعة له فاقتصر الأمر فيها على اختيار الوالي الذي قد يحسن أو يسيء وقد يطيع أو يعصي وعلى إنفاذ الأوامر السلطانية العامة المتعلقة بالشريعة عبر القضاء... وعلى تأمين الواردات المالية التي يقدمها الولاة والتي كثيراً ما كانت سبباً مباشراً لدخول معارك مع السلطنة ـ كما رأينا ـ.

غير أن هذا النظام اللامركزي ـ وهو ما سنبحثه فيما بعد ـ لا يجوز أن يكون سبباً للطعن والتشهير بالدولة العثمانية تلك التي لها أخطاؤها ـ ونحن هنا لا ندافع عن تلك الأخطاء، لكن لا يمكن كذلك أن نفهم تجنّيات مؤرخي المارونية إلا من خلال أحقاد دفينة لم تكن في أسلافهم بل تطورت معهم مع تطور الانفتاح البابوي عليهم، ذلك الانفتاح الذي لم يكن ليتم لولا الحرية التي وفرتها الدولة العثمانية لجميع الرعايا ـ وكانت في ذلك الحين قادرة على منع أي اتصال وربما لو فعلت لتغير وجه التاريخ ولكان موارنة اليوم كموارنة العهود الأوائل بلا أحقاد ولا ارتباطات بالأجنبي ولا أماني في الانعزال عن المجموعة العربية والإسلامية.

تجنٍ ماروني ضد الدولة العثمانية:

«الدولة هي الظالمة الكبرى»

يقول الأب ضو معقباً على بعض الإساءات التي يزعم أنها أصابت الموارنة (كان كل هم عمال الأتراك التكالب في جباية الأموال لإرضاء الدولة العثمانية من جهة وللإثراء من جهة ثانية. ولم يكن يهمهم إشاعة العمران وتوحيد الأمن وخدمة مصالح العباد وأحقاق الحق وإقامة العدل وأنصاف المظلوم) (٤).

ولو أن الأب ضو اكتفى بهذا الهجوم الرهيب على الولاة جميعاً ـ بغير استثناء ـ لأعتبرنا أن في الأمر مأرباً محلياً للنيل من الولاة المقصرين... أما أن يربط هذا الهجوم بقوله: (كيف كان بإمكانهم إنصاف المظلوم ما دامت الدولة وحكامها هي الظالمة الكبرى ومصدر كل ظلم...) (٤) فإن الأمر بات لا يفسر إلا بأحقاد دفينة لم يتمكن من كبتها وهو يحاول اصطناع تاريخ لموارنته...

ليس بإمكاننا هنا أن نستعرض الأمور العمرانية وخدمة مصالح العباد وأحقاق الحق وإقامة العدل وإنصاف المظلوم غير ما قدمناه ـ على لسان الدويهي ـ فهذا شأنه إلى دراسة أخرى... وإنما ما ينبغي قوله هو أن الدولة العثمانية كانت هدف سهام مسمومة لطخت تاريخها فلم تظهر منه إلا الجوانب المظلمة الأمر الذي يفرض على المنصفين إعادة كتابة التاريخ وترتيب أوراقه... تلك التي بعثرها حزب الاتحاد والترقي والحرب العالمية الأولى ووصول أتاتورك إلى السلطة في تركيا... إذ أن أمثال هذه التحريفات والطعن الحاقد رتب موروثات سلبية في خلفيات العرب والمسلمين فضلاً عن النصارى....

مؤرخون منصفون:

في الدولة العثمانية إدارة حسنة وحرية وعدالة.

ولا بأس هنا من إيراد بعض الأقوال التي تدحض، بعمومها، أقوال الأب ضو وسائر المنظرين غير المنصفين وتضع مقدمات أولى في فهم الدولة العثمانية

يقول عبد الرحمن عزام أمين الجامعة العربية الأسبق:

«لما وصل العثمانيون إلى شرق أوروبا وكلُّها سجون أبدية يتوالد فيها الفلاحون للعبودية فكسروا (أي العثمانيون) أغلال السجون وأقاموا مكانها صرح الحرية الغربية، فهم (أي العثمانيون) همُ الذين قضوا على نظام الإقطاع والأرستقراطية ليحل محله نظام المواطن الحر والرعية المتساوية الحقوق، فوصل في دولتهم الرق الشركسي والصقلبي وغيره إلى أكبر مقام في الدولة كما وصل النابه من عامة الناس حتى المجهول الأصل إلى مقام الصدارة العظمى والقيادة العليا، وتعلمت أوروبا الشرقية على يد محرريها سيادة القانون على الإحساب والانساب والطوائف والملل والنحل، فترتب على ذلك، تطور هائل في اتجاه الحرية والديمقراطية الغربية الحديثة. وكانت القرون الأولى لسيطرة آل عثمان عصوراً ذهبية شمل فيها الناس، الأمن والرخاء والسلام الروحي، ولم يكن فوز آل عثمان كما يظن بعض الناس مستمداً من سيف وشجاعة بل مما هو أعظم من السيف والشجاعة، احترام الحق والوفاء بالعهد والخضوع للسلطان القانوني والشرع، ولو كان الأمر كما يتصوره الذين ينخدعون بآثار دور الانحطاط من استخدام الطوائف والغيرة بين العناصر والبطش لتغطية الضعف لاستحال أن يدوم ملك آل عثمان ستمائة سنة منها مائتان لا يسندهم فيها إلا سيف مبتور، لقد رويت لي (أي لعبد الرحمن عزام) في رحلاتي بالبلقان وملدافيا أمثلة باقية في لغة العامة من عدل آل عثمان بين بيوت الملك الذي طال أمره وتنوعت رعاياه وقد ثقلت كفته بالخير والرحمة والمروءة والشرف» (٥).

ويقول دجوفارا وهو وزير روماني خضعت بلاده للسيادة العثمانية ومؤلف كتاب (مائة مشروع لتقسيم تركيا) كان قد ألفه عقب الحرب العالمية الأولى:

«إن احترام المعاهدات والعمل بموجب الكلمة المعطاة من مزايا العثمانيين يدور عليها التاريخ كله» و«كانت السلطنة العثمانية سلطنة عسكرية محضاً مستندة على شرع سماوي» و«العداوة الحقيقية كانت عدواة

النصارى للمسلمين برغم تسامح المسلمين في الحرية الدينية التي يتمتع بها المسيحيون في السلطنة العثمانية».

ويقول ريتشارد لوح صاحب كتاب تاريخ أوروبا الحديث وتعريب محمد عبدالله عنان (الجزء الأول ص / ٤٧): «إن سر نجاح الترك يرجع إلى استبسالهم في تضحية نفوسهم وهي عاطفة الجهاد غرسها الإسلام في قلوبهم وكذا يرجع بالأخص إلى حسن إدارتهم المدنية والحرية» (٥).

يوسف الحكيم يشهد:

العدل العثماني لا يفرق بين مسلم وغير مسلم:

ويعلق السيد يوسف الحكيم وهو نصراني كان نائباً عاماً في طرابلس عام ١٩١١ وكانت طرابلس بتولية متصرف مسلم، وكان أن نشب بين الطرفين صراع انتهى بصدور الأمر العالي بعزل المتصرف المسلم ومحاكمته، يعلق السيد الحكيم على هذه الحادثة في كتابه بيروت ولبنان في عهد آل عثمان ص / ٢٨٣ و ٢٨٤ بقوله:

(العدل الذي اتخذته الحكومة العثمانية شعاراً لها في ذلك العهد لا تفرق بين التركي والعربي ولا بين المسلم وغير المسلم، كان خصمي أكبر مني سناً ومقاماً وكان هو والمحقق الذي أوفدته وزارة العدل ورئيس المحكمة التي أعمل لديها ورؤساء العدلية في بيروت من الأتراك الخلص وكانت النتيجة التي أقرتها الحكومة الرئيسة التركية في العاصمة لمصلحتي أنا العربي) النصراني.

(فلو وقع مثل ما وقع بيني وبين المتصرف في إحدى الدول الأوروبية الراقية بحضارتها وتشريعاتها هل يكون مصيره أعدل وأفعل من ممارسات الحكومة العثمانية)؟

ويتحفظ السيد الحكيم فيقول: أرجو أن لا يحمل قولي هذا على اعتقاد في سلامة الحكام الترك من كل شائبة فهم كغيرهم من الأمم قد وجد فيهم الصالح والطالح وظهر منهم خير وشر... ولكنني لست مؤرخاً عاماً بل اقتصرت في ذكرياتي على سرد الأحداث خدمة للتاريخ وعبرة للحكومات

والأفراد في الجيل الحاضر وما بعد..).

ويطالب السيد الحكيم بإعادة كتابة تاريخ الدولة العثمانية التي يقول عنها أنها ظلمت ويقول: (أما وقد انتهى العهد العثماني وغادرنا بجيشه وحكامه ورجاله الأتراك... وغدت الدولة العثمانية (تركيا) ككل دولة أجنبية غريبة عنا فقررت أن أؤدي الحساب عن سابق صلتي بها:

(لم أشعر أثناء دراستي في معاهد الدولة ولا أثناء ممارستي الوظائف في محاكمها ودوائرها بأي فرق في الحقوق والواجبات وبين غير الموظفين وقد تجلت هذه المساواة في الحوادث التي مرت بي في اللاذقية ويافا والقدس وطرابلس وجبل لبنان ورأيت في كل منها عدل الحكومة ومساواتها بين جميع رعاياها بدون تفريق بين عناصرهم ومعتقداتهم. وهل من دليل على ذلك أبلغ من أنصاف رجالها في الوزارة والإدارة النائب العام العربي المسيحي في طرابلس ضد خصمه المتصرف التركي المسلم فاحتفظت بالأول ونبذت الثاني وساقته إلى القضاء فهل ترى أعظم من هذه العدالة بين الأوروبيين الذين يتسابقون إلى كسب ودنا ومحالفتنا)؟(٦).

ويقول ص / ٣٠٥ (كنت أدافع عن رأيي وعقيدتي المخالفين أحياناً لآراء أولي الأمر الترك دون أن أتعرض يوماً لغضبهم ونقمتهم كما دافعت عن لبنان وحاكمه أثناء مقابلتي القائد الأعلى جمال باشا بملء الحرية والصراحة. يعود الفضل في جميع ذلك إلى ثقة أولي الأمر بإخلاصي للدولة وقد ساعدني على كسبها انتفاء كل صلة بيني وبين ممثلي السياسة الأجنبية غير صلة المتصرف ومقتضيات الحياة الاجتماعية) (٦).

ولا ريب أن هذه الشهادة المنصفة لها أكثر من مغزى، خاصة وأنها صدرت عن قاض مسيحي رفيع المستوى خبر الحياة العثمانية على أكثر من صعيد وفي وقت تردت فيه الأوضاع في دولة (الرجل المريض) كما أحب أن يسميها نقولا قيصر روسيا، إذ أن شهادة السيد الحكيم التي تؤكد على توافر العدل والحرية والنزاهة في العهود الأخيرة من آل عثمان فكيف بهذه القيم في عصور الدولة الذهبية...؟

يعجبني في نص الحكيم قوله «إن عدم ارتباطه بالأجنبي واطمئنان رؤسائه والولاة إلى إخلاصه جعله معارضاً «محترماً» يدافع عن رأيه حتى أمام جمال باشا الذي عرف تاريخياً «بالسفاح» وذلك شرط بديهي لا يقبل عكسه.. بينما نرى مؤرخي الموارنة أو المتهوسين في كراهة عهد آل عثمان يريدون من الحكم العثماني أن يوفر لهم الحرية ويغدق بنعمه وهم يرتبطون بأكثر من محور وبأكثر من جهة في تآمر مفضوح ضد الدولة العثمانية... من هنا تغدو أقوالهم تعسفاً وظلماً وافتئاتاً على الحق بينما تحتل شهادات الانصاف والاتزان كالتي صدرت عن يوسف الحكيم وسواه الصدارة في البحث والتاريخ...

* * *

الأب الدويهي يشهد
والأب ضو ينقض:

نعود إلى الأب ضو الذي نسي إثباته، من قبلُ، لنص الدويهي ـ الأنف الذكر ـ حيث أكد فيه عدل العثمانيين والحرية الدينية وحماية البطرك في أمور البطركة... تلك التي تمّ تأكيدها بواسطة الراهب انطوان الحصروني فراح بعد هذا النص الواضح، يعزو ضمان حرية الموارنة في ممارسة دينهم إلى السفير الفرنسي على أثر المعاهدة التي تمت بين السلطان سليمان وفرنسوا الأول ملك فرنسا سنة ١٥٣٥... ومما لا ريب فيه أن مثل هذا التحريف أو التخيل المريض... ينسجم مع التقاليد المارونية التي أثبتنا خرافيتها عندما تحدثنا عن الحماية الفرنسية المفروضة من لويس التاسع للموارنة على حدود عكا سنة ١٢٥٠... فأحب الأب ضو أن يكمل هذه التقاليد بخرافة جديدة متناسياً أن السلطان سليمان قد أكد تلك الحرية ـ التي كانت موجودة من قبل والتي لم تكن موضوع شكوى حتى لمواطن نصراني واحد من رعاياه لم يكن السفير الفرنسي في ذلك الحين ـ على افتراض عدم توفر الحرية للموارنة ـ أن يطالب بمثل تلك الضمانة ـ فيما لو كان من مخطط السلطنة منعهم منها ـ ويؤكد ما أسلفناه أن الأب ضو استنتج رأيه استنتاجاً في سياق «الأماني المتخيلة» وذلك عندما أورد نصاً من المعاهدة ـ الامتياز فيما بعد بـ/ الامتيازات الأجنبية وهو

نص يتعلق بحرية التجار الفرنسيين ولا علاقة له بالموارنة من قريب ولا بعيد وهو كما يلي:

(أما فيما يتعلق بالديانة فقد وعد صريحاً ومنح وتم الاتفاق على أن التجار الفرنسيين المذكورين وعيالهم وخدمهم وكل تابعي الملك (ملك فرنسا) لا يمكن الاعتداء عليهم ولا تجوز محاكمتهم عند قضاء المسلمين أو بكوات السناجق أو الشوباصية أو سواهم بل تجرى محاكمتهم لدى الباب العالي وحده... ولا يمكن أن يصيروا أو يعتبروا أتراكاً، يعني مسلمين، ما لم يريدوا ذلك ويعترفوا به بأفواههم دون إكراه. وهكذا فليكن مباحاً لهم التمسك بديانتهم) (٧).

عقب الأب ضو على هذا النص بقوله: (هذه المعاهدة وإن اقتصرت على ذكر الفرنسيين إلا أنها بالواقع والفعل شملت أيضاً الموارنة...) وذلك باعتبار أن لويس التاسع ـ على رغم التقاليد المارونية الخيالية ـ قد اعتبر الموارنة جزءاً من الشعب الفرنسي... وبذلك تصبح المعاهدة الخاصة بالفرنسيين شاملة للجزء الماروني؟؟؟ فتأمل!!.

والأعجب من ذلك ـ والامتياز ـ يتعلق بقضايا تجارية ـ أن يعتبر الأب ضو ـ كما اعتبر سواه من منظري المارونية ـ إن هذه الامتيازات (وهي الأولى من نوعها في سلسلة المعاهدات الرامية إلى حماية الأراضي المقدسة والمسيحيين في الشرق والمقررة ما عرف منذئذ بالامتيازات). (٧).

ونحن هنا أيضاً لن نناقش مسألة الامتيازات تلك ومدى خطئها أو صوابها (وإن كنا نميل إلى اعتبارها تسامحاً من السلطان أكثر مما يجب مما أسيء فهمه كما أسيء استعماله ثم توسعت دائرته لتصبح حصانة فوق العادة للرعايا الأجانب ولتحركات القناصل ما أدى إلى مزيد من الاضطراب والتدخل في شؤون الدولة العثمانية، وسيأتي الحديث عنها في الفصل الخاص بلعبة الأمم والدولة العثمانية في آخر هذا الكتاب). ولكن نود هنا أن نشير من خلال ما ذهب إليه الأب ضو، إلى مدى تمكن عملية التحريف والتزوير من منظري

المارونية الجديدة فيندفعون دفعاً إلى إيجاد مزيد من التبريرات لعلاقتهم المفضوحة والمشبوهة بأكثر من جهة خارج أماني أكثرية أهل البلاد...؟؟

* * *

بطاركة الموارنة يفيدون من الحرية فيرتبطون بالبابا:

خلال تلك الحقب الزمنية اشتدت العلاقات بين البطاركة والبابوية وبدأت خطط ليل تجد متنفسات حقيقية بتركيز البعثات والرسل والاباء وترابط الموارنة بالبابا... ومن المؤسف أن الدولة العثمانية كانت تغض النظر عن هذا الأمر في حين كان بإمكانها ـ وهي الأقوى ـ أن تضع حداً سريعاً له... وهكذا عين البابا سنة ١٥٥٤ معتمداً له لدى الموارنة ثم عين لهم محامين لدى روما ثم في سنة ١٥٨٢ انشأ البابا مؤسسة في روما. لينزل فيها الموارنة القادمون وخص المؤسسة بأوقاف هناك، ثم أنشأ البابا مدرسة للموارنة في روما وأنشأ ريعاً «ثابتاً» للمدرسة المذكورة، (التي أكملت الصلات بين الموارنة والغرب لا على الصعيد الديني فحسب ولكن أيضاً على الصعيد العلمي والسياسي والعسكري والوطني والحضاري...) (٨).

وكان قد سبق تأسيس المدرسة المارونية طلب من البطرك موسى إلى البابا بولس سنة ١٥٤٣ يسأل فيه (قدسه أن يوصي ريس الرهبان الصغار حتى يوجه إليه ـ أي إلى البطرك ستة كهنة من رهبانه يقيموا مدرسة في جبل لبنان(؟؟) لتأديب الأولاد في اللغة اللاتينية ليعلموا الكتب المقدسة ويرشدوا الرعية... (٩).

وهكذا استفاد الموارنة من ضمان حرية العبادة والتدين لإنشاء مزيد من العلاقات المتميزة بالبابا الذي كان يحرضهم دوماً ضد «اللامؤمنين» ويشيد بصبرهم على الحياة بين، «العليق والأشواك»... تلك العلاقات ـ كما رأينا ـ أوجدت في نفوس الموارنة منزلقات التمايز. الخطر..

* * *

بدايات التدخل الفرنسي:

أخذ الموارنة ـ وقد تكاثر عددهم ـ بالإفادة من إمكانية الانتقال خارج

حدود مقدمية بشرى والإقامة في كسروان ـ كما رأينا ـ ثم تمكن بعضهم من التقرب إلى الأمراء العسافيين أولاً ثم المعنيين... وقد رأينا أيضاً كيف تمكن أبو نادر الخازن من لعب دور بل أدوار في حياة الأمير المعني ذاك الأمير الذي أحب له المؤرخ الماروني قرأ لي أن يخترع معادلة حكمت العلاقة بين الأمير وبين الموارنة فقال: (وهكذا استعان الأمير بالموارنة على التوسع والتوطد واستعانوا به على إنشاء وطن قومي لهم في لبنان؟) (١٠).

والحقيقة ـ كما بينا من قبل ـ أن فخر الدين الثاني لم تكن لديه إلا رغبات شخصية في التوسع ولم يكن لديه أو لدى موارنة ذلك الزمن وبصورة خاصة مدبري أمر الأمير من آل الخازن أو آل حبش أية أفكار حول ما يسمى بوطن قومي للموارنة في لبنان؟؟؟ وإن استخدم الأمير الموارنة وسواهم من أجل أطماعه، فالعكس غير صحيح، لأن الموارنة كما قلنا لم يكن لهم في ذلك الحين كيان سياسي خاص... وإنما هناك كان منهم رجالات من آل الخازن يعملون بوحي مصالحهم الخاصة لا وفق ما يزعم منظرو المارونية، إنشاء وطن، لم تتفق عليه أذهان موارنة ذلك الزمن في أية صورة من الصور...

غير أن استمرار الاتصال والمراسلات بين البابا والبطاركة من جهة، وقيام قناصل فرنسا، من جهة أخرى بإرسال تقارير مضخمة إلى البلاط الفرنسي تخدم الاستراتيجية الفرنسية لإيجاد مواطىء قدم لها في هذه البلاد بهدف دعم التجارة الفرنسية ولدعم الملك سيد البلاط الفرنسي في منازعاته الأوروبية ليظهر بمظهر حامي الديانة الكاثوليكية في العالم كما كان يجب أن يعلن نفسه (وإني لمستعد دائمًا للمحاماة عن الدين الكاثوليكي الروماني في كل مكان) (١١) ويقول في كتاب له إلى سفيره في الأستانة عن الأهداف الخاصة العائدة له شخصياً من وراء إرساله سفيراً إلى الباب العالي لظهوره أنه هو حامي المسيحية (تعلم أن أخص غرض لي في إرسال سفير إلى الباب العالي هو حماية الدين في المشرق)

ومن جميل التناقضات أن البطاركة وسواهم ممن كانوا يوسطون لويس الرابع عشر وسواه من الأمراء والملوك كانوا يشكون من بعض ما يسمونه مظالم تتعلق بالضرائب... في حين كان أولئك الملوك والأمراء يحكمون

بلادهم بعنف مالي واقطاعي أكثر بكثير مما كان يشكو منه سكان الجبل...!!

غير أن الامتيازات الفرنسية التي منحتها السلطنة العثمانية والتي هي تجارية في الأصل... كانت إحدى أهم النوافذ الواسعة التي عبر منها «التدخل الفرنسي» إلى شؤون الموارنة... كما أصبح البطاركة يعتبرون القناصل الفرنسيين «محوراً» يرجعون إليه ويطلبون مساعدتهم ويحملونهم كتباً إلى البلاط الفرنسي، كما قال البطريرك سركيس الرزي (صار لنا رستاق على يد القنصل والخواجكة الإفرنج) (١٢) مما أعطى لفرنسا دوراً في الشرق أخذ يكبر بسرعة مصطنعاً مساراً جديداً ضمن مفهوم جديد هو الحماية الفرنسية للمسيحيين في الدولة العثمانية... ولم تكن الدولة العثمانية ـ وهي أقوى دولة في ذلك الحين ـ لتأبه لمثل هذا التدخل المتتالي والظاهر.

الحماية الفرنسية للموارنة دينية
والباب العالي يرفض التدخل في الشؤون الداخلية:

ويبدو أن أول تصريح فرنسي رسمي وضع الموارنة والبطريرك في الحماية الفرنسية كان ذاك الذي صدَّره لويس الرابع عشر في ٢٨ أبريل ـ نيسان/١٦٤٩) (١٣) أي بعد موت فخر الدين بأربعة عشر عاماً.

غير أن هذه الحماية لم تكن سوى (للعناية بهم والرعاية لهم والعطف عليهم وبالتوسط من أجلهم) لدى (الباب العالي لعزيزنا السلطان صديقنا الوفي أو... أمام أي جهة أخرى تتطلب ذلك حتى لا يتعرضوا لأية معاملة سيئة بل بالعكس يتابعون شعائرهم ومسؤولياتهم الدينية).

كما أن المرسوم الفرنسي السالف الذكر أوصى القناصل الفرنسيين تسهيل سفر أي ماروني ـ سواء كان للدراسة أو للعمل. ومن جهة أخرى أبدى ذلك المرسوم وإرادة لويس الرابع عشر ورغبته بأن يقبل تلك الحماية ـ بمعناها السالف الذكر (أصحاب السعادة والفخامة والباشوات من موظفي عظمته) أي السلطان العثماني ـ من أجل (أن يبدو اهتمامهم وأن يساعدوا

صاحب النيافة رئيس أساقفة طرابلس وكل الأكليروس والموارنة المسيحيين) واعداً ومتعهداً أن يقوم بالمعاملة (بالمثل نحو كل من توصون به) ويشير المرسوم المذكور إلى رغبة لويس الرابع عشر بأعلام بطرك الموارنة وسائر الأكليروس والموارنة بحمايته تلك (وإننا لنرغب في أن يدركوا هم ذلك).

ومن الملاحظ أن الإرادة الفرنسية تلك بقيت وحيدة الجهة أي لم تقترن بموافقة الباب العالي... ذلك أنها تتعلق أساساً بالجانب الديني - ذلك الجانب الذي حفظه الإسلام منذ أول يوم... ولم يبد الحكام أساساً والخلفاء والسلاطين إرادة واضحة في إكراه غير المسلمين على الإسلام بل أننا - رأينا - أن السلطان سليمان القانوني سنة ١٥٥٣ قد منح تأكيدات خاصة حول حرية التدين وترميم الكنائس ومنع أي اعتداء أو زيادة ضريبية أو التدخل في أمور البطريركية وشؤونها ومعاقبة المعتدين أو المعاندين ولا شك أن الحماية السليمانية هذه أعظم شأناً من حماية لويس الرابع عشر... ويبدو أنه بفضل الحماية السلطانية تلك التي وردت عبر أوامر إلى قاضي طرابلس شجعت البطاركة على استئناف علاقاتهم غير الدينية مع البابا ودوق توسكانا ومن ثم بلويس الرابع عشر... ومن المؤكد أن السلطنة العثمانية وولاتها لم يكونوا على علم بفحوى تلك المراسلات التي تعتبر إحدى الخلفيات الهامة في التحرك الدولي الذي شهدته المنطقة بعد ذلك... غير أن السلطنة قد اكتفت بالحد من التدخل الفرنسي لما كثرت المراجعات وتأكدت المحاولات في المحاماة عن بعض الرعايا العثمانيين من النصارى خلافاً لنصوص الامتيازات والمعاهدات وروحها مما حمل الصدر الأعظم لتوجيه نظر الفرنسيين وبشكل حاسم وجازم بأن أمثال هذه التدخلات مرفوضة رفضاً قاطعاً فقال مخاطباً السفير الفرنسي في الأستانة: (الشكوى من حيث المرسلون - أي القناصل والرعايا والرهبان الفرنسيون والأجانب - تقبل وننظر فيها أما رعيتنا فنسألك باسم السلطان أن لا تتدخل في شؤوننا فلجلالته وحده النظر فيها ولا يريد أن يرى يداً خارجية تمتد إليها...) (١٤).

غير أن المصارحة العثمانية لم تنتج إلا تكاذباً. ففرنسا تابعت اتصالاتها

بموارنة لبنان بصورة خاصة - كما أن السلطنة العثمانية لم تأخذ مبادرات لمراقبة تطور العلاقات بين القناصل الفرنسيين والموارنة أو أنها لم تحب أن تجعل من تلك المسألة قضية تؤثر في العلاقات. ذلك أن تطور الأوضاع الداخلية في الولايات العصرية والشامية والحروب الخارجية التي تخوضها السلطنة على حدودها الأوروبية لم تكن لتسمح لها بفتح مسألة الاتصالات تلك...

ومن جهة أخرى فإن فرنسا أيضاً لم تكن لتجاذف بعلاقاتها الخارجية مع السلطنة العثمانية، بناء على مكاتبات البطاركة. إذ أن البلاط الفرنسي كان يرسل قناصله للتأكد من بعض الأمور، موضع الشكوى، وخاصة المالية منها. فقد قام قنصل صيدا بزيارة لبنان الشمالي بناء على طلب الوزير الفرنسي ومعه هدية مالية ألف ليرة ذهبية للبطريرك فرفع القنصل بنتيجة الزيارة كتاباً جاء فيه:

(إنه يوجد في لبنان الشمالي - جبة بشرى حول وادي قاديشا - بما فيها إهدن - من خمسة إلى ستة آلاف رجل ما عدا النساء والشبان الذين هم دون العشرين فهؤلاء لا يدفعون خراجاً طالما هم في لبنان... أما في بيروت وصيدا وعكا فأنهم يؤدون للباشا مالاً مقرراً كل سنة. الفقراء يدفعون خمسة قروش والذين في سعة عيش يدفعون عشرة قروش، وفي كسروان بلغ الموارنة نحو عشرين ألف رجل ومائة قرية...) (١٥).

ولا ريب أن تقصي الحقائق هذا يؤدي في النتيجة إلى كشف الأمور وإلى جعل السلطة الفرنسية (الحامية) تتمهل عند كل مخاطبة... ولا تخاطر بمصالحها بناء على تضخيم الأحداث عبر مراسلات بطريرك.... فيكتفي عندئذ البلاط الفرنسي بإرسال مساعدات مالية حتى يبقى هؤلاء البطاركة والموارنة مرتبطين به ضمن استراتيجيته الخاصة.

والذي يؤكد هذا أن الحماية الفرنسية الصادرة عن لويس الرابع عشر بقيت محصورة في اهتمامات فرنسا بالبطريركية كرمز ديني وبتدعيم وجودها وتسهيل سفر الموارنة إلى الخارج إذ أن مقدمية بشرى التي كانت رمزاً للموارنة ولتجمعهم ومركزاً للبطريركية، يتقلب عليها مقدمون موارنة، أصبحت هذه

المقدمية، بعد الحماية الفرنسية، يتقلب عليها معتمدون منهم المسلمون ويعينون من قبل باشا طرابلس... وهكذا ولّي والي طرابلس محمد العكبري (أصبح فيما بعد صدراً أعظم) سنة ١٦٥٤ على جهة بشرى أحمد محمد عبادة بن قانصوه، وفي سنة ١٦٥٩ جعلت بشرى مع بلاد البترون تحت ولاية المقدم علي بن الشاعر وفي ١٦٧٤ تولي جبة بشرى إبراهيم آغا أمين سروالي طرابلس، وفي سنة ١٦٧٧ عيّنَ والي طرابلس الجديد محمد باشا بيت حمادة على جبيل والبترون والجبة وأصبح حاكم الجبة حسين أحمد حمادة حيث استمر حكم آل حمادة في بشرى وجوارها قرابة مائة سنة... (١٦).

* * *

ممارسة الدولة لسيادتها في تعيين الولاة لا يثير أي إشكال:

ومما يلفت النظر - في هذه المسألة أن الموارنة لم يعترضوا على «مبدأ تعيين مسلمين - على جبة بشرى وسواها ولم يكتب بطاركتهم في هذا إلى الوالي العثماني ولا إلى البابا ولا إلى لويس الرابع عشر... كما لم تتدخل من أجلها البابوية ولا البلاط الفرنسي فذلك يتعلق بصلب سيادة الدولة على مقدمية بشرى والبترون وليس لأيهما أن يعترض على الممارسات الإدارية للدولة، فذلك حق الرعايا وأبناء البلاد وهؤلاء لم يعترضوا لتسليمهم المطلق بالسيادة العثمانية على الجبل...

ولا ريب أن هذا الأمر مسألة مهمة إذ تكشف أبعاداً رئيسة لدى مجموع الناس (في الحدود الجغرافية للبنان اليوم) فهؤلاء موارنة ودروز وشيعة - خلال الحقب التاريخية حتى منتصف القرن التاسع عشر لم يكن أحدهم ليدعي حقاً مذهبياً موروثاً في تولي الأحكام الإدارية كمعتمدين من الدولة الإسلامية، وهذا الرأي يدعم ما سبق أن نوهنا به عند بحثنا في مذهب المعنيين والأمير فخر الدين... وقلنا - هناك - إن الأسرة الحاكمة على الدروز لم تكن بالضرورة درزية إذ أن الحاكمية تولية من الدولة على مقاطعة محدودة، فأمير الدروز قد يكون سنياً - وهو كذلك - ولا يشعر الدروز بأي حرج في هذا، وكذلك هنا فإن الموارنة وإن كانت مقدميتهم مارونية وقد تولاها فعلاً موارنة

بتعيين وتثبيت من ولاة طرابلس إلا أن هذا لم يجعلهم يشعرون بأية مرارة وكما لم يظهروا أي احتجاج عندما تولاها مسلمون.... إذ أن المسألة كانت تدور عندهم حول الحرية الدينية - وهذه بصورة عامة مضمونة - وبجباية الضريبة المالية والتخوف من زيادتها، وبتجاوزات المقدمين والولاة، تلك التجاوزات التي، في حال وجودها، تصدر ضمن توجهات الوالي في نضجه واتزانه أو اسفافه وجهله، وتصيب عموم الرعية لا النصارى فحسب، ومما يؤكد هذا أن آخر مقدم ماروني ورث المقدمية في بشرى وكان يدعى عاشينا قد أقدم سنة ١٦٢١ على قتل القس دانيال المكاري في دير مارتوما بحصرون طمعاً بماله... مما حمل أبو صافي الخازن التابع للأمير فخر الدين على إلقاء القبض على المقدم المذكور وأحاله إلى الأمير فخر الدين الذي أمر بقتله.... (١٧).

وعلى هذا فإن التجاوز والتعدي في حال حصوله لا يوجه من وال مسلم ضد النصارى لكونهم نصارى إذ أن مثل هذه التعديات قد تحدث - كما رأينا - من حاكم مسيحي ماروني على رجال الدين عندهم طمعاً بالمال أو أمور أخرى.

ويبدو أن الناس جميعاً - في تلك الحقب التاريخية - يعتبرون مسألة التولية من اختصاص الدولة، فلها وحدها حق التعيين والتثبيت وكان الناس يتوقعون تعيين أي مسلم سني على أية مقاطعة من مقاطعات الولايات الشامية، فذلك أصل... غير أن هذا الأصل يمكن أن يتعدل بإرادة الوالي فيعين غير مسلم في مناصب مختلفة، مهمة أو ثانوية، وفق مقتضيات الحال. وقد تنبه السيد إيليا حريق إلى هذا المعنى إلا أنه أحب أن يربطه بمعنى جديد لم يكن في تلك الأيام - أعني العلمانية - وهو تفسير مغلوط لتوجهات الناس وتصوراتهم فالأصل في ذلك الحين الإسلامية لا العلمانية... والإسلامية كانت تعني، وبصورة عامة، توجهات السياسة العثمانية وقبلهاالمملوكية والعباسية والأموية التي انعكست إيجابياً على كل صعيد في أنحاء الدولة. فلم يكن في تلك العهود من تمايز يذكر أو تحديات طائفية بمفهومها الحالي... يقول السيد حريق (... من الواضح أن الارتباط الديني لم يكن عاملاً مهمًا في تشكيل سياسة الإمارة قبل نهاية القرن الثامن عشر ومع

أن العلمانية لم تكن مبدأ معيارياً يعتقد به بصورة شعورية فإن مؤسسات الإقطاع كانت عملياً ترتكز على روح علمانية...) (١٨).

فرنسا توازن بين مصالحها وإيجاد مرتكزات لها وتفهم خلفيّات تحرك بعض أعيان الموارنة:

ومن المؤكد إن الحماية الفرنسية «اللويسية» المعنوية كان لها بعض الفوائد غير أن أبا نوفل الخازن شقيق أبي نادر وكان كل منهما معاوناً للأمير فخر الدين الثاني ـ كما رأينا ـ.. ذهبا بالأمر كله إن صح التعبير ـ فلما أن انتهت أسطورة فخر الدين حتى هربا إلى توسكانا باعتبارهما من مدبري الأمير ظناً أنهما مسؤولان عن سياسته فآثرا الفرار... ثم بعد سنتين عادا إلى البلاد حيث قرَّبهما إليه الأمير ملحم المعني الذي تولى حكم بلاد الشوف وكسروان بعد آل علم الدين... غير أن أبا نوفل تابع اتصالاته بالبابوية ودوق توسكانا... فنال من البابا رتبة فارس روماني سنة ١٦٥٦ مما مكنه من متابعة اتصالاته مستفيداً من مرسوم لويس الرابع عشر سنة ١٦٤٩ السالف الذكر فراسل البابا سنة ١٦٥٧ ليطلب منه التوسط لدى ملك فرنسا ليعينه قنصلاً فرنسياً على صيدا فتلك غنيمة لا يستهان بها... إذ أن الخازني أبا نوفل هذا كان قد خَبِر الأمور فادرك أن الحصانة القنصلية أنفع له من الحماية الفرنسية التي لا قيمة لها إذا ما تقلبت الأحداث. أما القنصلية فتمنحه مزيداً من التحرك والمنفعة، فلوح للبابا بمنافع القنصلية إذا ما وجهت إليه فقال (وهذا وجه خير وإصلاح ونفع إلى التجار والرهبان ورفع أيادي الضرر عنهم من الحكام وغيرهم...) ولم ينس الخازني أن يدغدغ عواطف البابا فيحدثه عن القدس فيقول (وفي أيامكم السعيدة تتقدم خطوات الفرح والخير لهذه الجوانب وإلى القدس الشريف وليس على الله شيء عسير حتى نكون نحن وكل أتباعنا من أكبر المجاهدين) (١٩) فعين لويس الرابع عشر سنة ١٦٥٩ أبا نوفل قنصلاً على بيروت، ثم تبعته، في ذلك، جمهورية البندقية وكان لويس الرابع عشر هذا قد منح، بناء لتوصية قنصله في حلب، أبا نوفل الخازن صفة الشرف فأصبح أبو نوفل من أشراف فرنسا (وله أن يتمتع بجميع الإنعامات والإعفاءات المختصة بهذا اللقب كما جاء في براءته الشرفية الصادرة

عن ملك فرنسا سنة ١٦٥٧.

ويأتي الأنعام الفرنسي على أبي الخازن بالقنصلية كجزء من المخطط الفرنسي القاضي بإيجاد مرتكزات فاعلة في هذه البلاد تبرر بها حمايتها لمسيحيي الشرق فتكون تلك الحماية ورقة ضغط في أية مفاوضات أو سوء تفاهم محتمل مع الدولة العثمانية... ومن أجل هذا لم تكن فرنسا لتوظف رصيدها لدى الباب العالي وتقبل بالتدخل في الشؤون الداخلية للولايات الشامية وبالاستجابة إلى بعض الطامحين والطامعين بإسناد الحكم الإداري لهم عبر مساعيها لدى الباب العالي لحمله على إصدار براءات سلطانية بتعديل الأنظمة الإدارية وبتسمية الطامعين ولاة على جبة بشرى أولاً ثم ـ بوحي رسالة أخرى سنة ١٦٩٥ ـ على مقاطعة جديدة تضم بالتحديد بلاد جبيل وبلاد البترون وجبة بشري ويكون هذا المقاطعجي خازنياً (لولد ولده) على أن يكون مسؤولاً تابعاً لوالي طرابلس، فإن لويس الرابع عشر ـ على ما يبدو ـ كان يفهم خلفيات الكتب التي يرسلها باستمرار البطاركة والخازنيون تلك التي تنضح بالنفعية والابتزاز وبمحاولة تجيير الصداقة الفرنسية ـ العثمانية لمصالحهم الشخصية... لذلك نرى لويس الرابع عشر كيلا يصدم البطرك وآل الخازن... وقد أعلن نفسه محامياً عنهم ومدافعاً ـ كما رأينا ـ وكيلا يغضب البابا إن لم يلب بعض رغباته، نراه ـ ينعم على الخازني أبي نوفل بالقنصلية بدلاً من المقاطعجية التي طلبها...

إن روح النفعية هذه التي هيمنت على رسائل أبي نوفل الخازن وعلى بطاركة الموارنة هي التي تفسر لماذا كانت تلك الرسائل تحوي من التضخيم وتحريف الوقائع الشيء الكثير المذهل مما لم يغب عن ذهن لويس الرابع عشر الذي كان حسب موقعه في فرنسا والعالم يدرك كيف تكون المكائد وتضخيم الوقائع منهجاً ينتهجه المستفيدون والطامعون والمنتهزون. من أجل ذلك لم تكن تلك الكتب ـ على خطورتها بما فيها من وقائع مضخمة ـ لتحرك فيه أي عطف سوى انعامات ملكية فرنسية على أصحاب الكتب والرسائل وهبات مالية على البطاركة.

فقد كتب البطريرك السبعلي إلى لويس الرابع عشر سنة ١٦٥٧، كذلك

أرسل أبو نوفل (الفارس الروماني) إلى ملك فرنسا يذكر فيه (أنه صابر مع سيدنا البطريرك والمطارنة والكهنة والرهبان وبقية النصارى الموارنة في جبل لبنان في جبة بشري مضايقة من الظلم شيء لا يوصف (؟) وغالب الديورة خربت من زود الضيم والظلم - أي زيادة - وطلبوا من عبدكم - أي من أبو نوفل الخازن - أن تسعى - أي لويس الرابع عشر - في بلادهم - أي بلاد البطرك والرهبان والخازني - ونفردها من حاكم طرابلس ونضمنها بحالها من إسلام بول (الاستانة) ونورد مالها مستقلاً بحاله. وهذا الشيء لا يصير بدون حسن نظركم السعيد علينا وعليهم وبدون أن تكتبوا مكاتيب شريفة إلى سفير سعادتكم في الأستانة ليكون مساعدنا في إتمام هذا الأمر (٢٠).

وبدل أن يستجيب لويس الرابع عشر لموفد البطرك الخاص ولأبي نوفل الخازن وقد أدرك لويس «بغية الخازن» بضيرورته مقاطعجياً فإنه أنعم عليه بصفة الشرف وكأنه مولود في فرنسا... - كما قدمنا - وطلب إلى سفيره في الأستانة ليسعى لدى الباب العالي ليمنع والي طرابلس - إن كان متجاوزاً على جبة بشرى من الناحية المالية - والاكتفاء بالضريبة السلطانية كما هي مفروضة من الأستانة...

ثم بعد «الإلحاح الخازني» منحه الملك الفرنسي القنصلية... فلويس الرابع عشر - بوصفه حاكماً يدرك أن التجاوز من الولاة الإداريين ممكن الحصول ولا يعني هذا أنه مخطط من قبل السلطة... خاصة وأن البابا قد توسط لدى لويس نفسه للسعي لدى الباب العالي لوضع حد لاعتداءات الأكليروس الرومي على الموارنة في قبرص... وللتأكيد على الضريبة السلطانية التي وحدها ينبغي أن تجبى في قبرص فصدرت الأوامر السلطانية في ١٥ تموز سنة ١٦٨٦ (٢٠) إلى قاضي فماغوستا ليمنع اكليروس الروم من التدخل بشؤون الموارنة وازعاجهم كما تطلب تلك الأوامر من القاضي ليؤكد على الضريبة السلطانية وحدها وإسقاط ما عداها...

ويبدو أن الخازنيين كانوا يطمعون بلويس الرابع عشر فكان كبيرهم إذا أراد أن يصل إلى منافع شخصية يغلف مطالبه بتضخيم الأوضاع العامة

ويناشد لويس أن يتدخل لينقذ النصارى... غير أن المطالب سرعان ما كانت تَسْكُت بعد أن يعتبر متزعمو الموارنة أنهم وصلوا إلى حقوقهم بمجرد أن يُمنحوا ألقاب شرف فرنسية أو توجه إليهم قنصلية ما...!!؟

وهكذا في سنة ١٦٩٥ كتب الشيخ ناصيف الخازن إلى لويس الرابع عشر يعلمه فيها بأن حكم البلاد انتقل من الأمير أحمد معن إلى خصمه موسى علم الدين مصوراً هذا الأخير بأنه ظالم ثم يقول (فإن رسمتم يكون نظركم السعيد علينا وتكتبوا إلى سلطان ابن عثمان يصدر لنا أمراً شريفاً بولاية بلاد كسروان) واعداً بتأدية الأموال الأميرية لخزانة السلطان بواسطة باشا طرابلس الذي يبقى «الخازني» مسؤولاً أمامه على أن (لا يتغير علينا أمر إلى ولد الولد حتى نظل طائفة النصارى معمرين كنيسة الشرق...) (٢١) وقد كلف حامل تلك الرسالة بالحصول على قنصلية بيروت لأخي الشيخ ناصيف... ويبدو أن الملك الفرنسي - وقد اكتشف أطماع مشايخ الموارنة أدرك أن الغاية من الرسالة هي (طلب القنصلية) فحسب، فمنحها للشيخ حصن الخازن مع الإشارة الظاهرة من الملك بوجوب القيام بأعباء الحماية التي منحه إياها لـ(يساعد رعاياي الذين يتعاطون التجارة في سوريا) (٢١) إذ، أن غاية الأمر - بدوره - عند الملك لويس هو تحقيق المساعدات وتوفير الحمايات للتجار وللتجارة الفرنسية في البلاد الشامية أما الرسالة الخازنية أعلاه بالسعي لمنحه بلاد كسروان (لولد الولد) فبقيت ذكرى للتاريخ تكشف أطماع مشايخ الموارنة ومحاولتهم توظيف أوضاع البلاد العامة في تحقيق مصالحهم ولتنفيذ رغائبهم الخاصة!!

وقد حاول عبثاً البطريرك الدويهي إقناع لويس الرابع عشر، بعد أن فشلت محاولات إقناعه بالتدخل في مسائل الإقطاعات الإدارية للسلطنة العثمانية في منطقة سوريا ولبنان، أن يعتبر دير قنوبين (مركز البطركية) في بشري تحت وكالة سفير وقناصل فرنسا وأن يستحصل على خط سلطاني يعيد فيه الضريبة على سابق عهدها وعلى أمر لحاكم طرابلس بألا يضايق جبة بشري بوجه من الوجوه... وقد أرسل لهذا الصدد عدة رسائل، إلا أن لويس الرابع عشر كان يكرم الموفدين وينعم عليهم ثم يمنحهم لقب فارس

ماروني. . . وفي أحسن الأحوال ـ وكان ذلك في تموز سنة ١٧٠١ أحال لويس الرابع عشر على سفيره في الأستانة معرفة البطريرك مزوداً بكتاب يقضي أن تصغي إلى ما يقوله لك السيد الخوري إلياس كاتب سر البطريرك وتبحث وإياه في ما يمكن عمله وتنجده في كل القضايا عاملاً لدى الباب العالي على تحقيق ما قد يكون عادلاً ومعقولاً في مطالبه. . .) طالباً من سفيره الاقتراح على الباب العالي ليجعل مرجع الكرسي البطريركي الشام لا طرابلس (٢٢).

غير أن الصدر الأعظم وجه تحذيراً لسفير ملك فرنسا ونصحه بعدم التدخل في شؤون رعايا السلطنة إذ أن هذا مرجعه إلى السلطان وله وحده حق النظر فيها وهو أي السلطان (لا يريد أن يرى يداً خارجة تمتد إليها. . .) . . . كما بينا من قبل.

وهكذا، يتبين أن لويس الرابع عشر ضمن فترة ملكيته الطويلة في فرنسا (قرابة الخمسين سنة) وقد عاصر زمنه أكثر من سلطان وأكثر من صدر أعظم. . . كما تلقى أكثر من كتاب من أكثر من بطريرك وأكثر من خازني وعرف أطماع الجميع فكان واعياً لتلك المسائل خاصة وأن الأوضاع الداخلية في فرنسا في عهده كانت سيئة بل أن المظالم والإضطرابات أخذت حجماً لا بأس به، ويكفي أن يكون عصره وفترة ما قبل حكمه وما بعده، الحقب الأساسية في المتغيرات التارخية لفرنسا التي انتهت بالثورة الفرنسية وتحطيم سجن الباستيل الكبير.

معادلات العلاقة المستجدة بين الموارنة وفرنسا:

ويمكن أن نلخص المحاولات المارونية بعد حماية لويس الرابع عشر في الانفتاح نحو فرنسا والسياسة الفرنسية تجاههم بالمعادلة التالية:

١ ـ حاول البطاركة وأعيان آل الخازن الارتماء الكامل في أحضان البلاط الفرنسي أملاً في إعانات مالية وسعياً وراء ترضية خاصة بآل الخازن ليكونوا مقاطعجية وراثية (لولد الولد) تتبع البطاركة، لجعل البطركية خاضعة للنفوذ الفرنسي.

٢ ـ أما السياسة الخارجية الفرنسية تجاه الموارنة أو المتصلين بالبلاط الفرنسي فتتلخص بما يلي:

ـ إعلان حماية معنوية للبطريرك وللإكليروس والتوصية بمساعدة من يشاء السفر للدراسة أو العمل مع الحرص على عدم التورط في ذلك الزمن المبكر بالنزاعات الداخلية للسلطنة وسياستها المالية. . . وتكتفي فرنسا إزاء الحاح بعض أعيان الموارنة بلفت النظر فيما يمكن أن يكون منسجماً مع الإرادة السلطانية. فإن تجاوز الوالي المحلي في فرض الضرائب خلافاً لإرادة الباب العالي يسعى سفير فرنسا للفت النظر فتصدر الأوامر السلطانية بوجوب الالتزام بالسياسة المالية العامة. . .

ـ يمكن السعي لدى الباب العالي لمنع ظلم قد يقع أو تجاوز محتمل من وال محلي أو من طائفة على أخرى كما حصل بالنسبة لطائفة الروم في قبرص لما ضايقوا الموارنة هناك.

ـ انتهاج سياسة تحقيق المصالح الخاصة للأعيان من آل الخازن وتلبية المطالب بمساعدات مالية للبطاركة. . . وهكذا ينعم لويس الرابع عشر على أعيان آل الخازن بالألقاب الشريفة وبالرعوية الفرنسية ثم بالقنصلية ويرسل بالليرات الذهبية إلى البطريرك. . . وهذا البند الأخير في السياسة الخارجية الفرنسية تعويض عن مطالب أخرى غير ممكنة التحقيق وتشد، في الوقت نفسه، من الارتباط العضوي بين فرنسا وفئة من مواطني الدولة العثمانية، يمكن في الوقت المناسب، توظيف هذا الارتباط ضمن المصالح الفرنسية العليا، فضلاً عن أن ذلك يوجد الحماية والازدهار للتجارة الفرنسية وللمصالح الاقتصادية للفرنسيين في الخارج. .

ويبدو أن هذه التوجيهات الفرنسية منها والمارونية لم تكن مكشوفة لدى السلطات العثمانية ولا من سائر الناس فأكثرها كان يجري من خلال مراسلات وكتب ووفود وبعثات ترتدي في الظاهر طابع العلاقات الدينية خاصة وأن لويس الرابع عشر اعتبر نفسه بتأييد من البابا حامياً للديانة الكاثوليكية في العالم. . . فأبو نوفل الخازن مثلاً لما وصله كتاب تعيينه قنصلاً

إحتفل به في بيروت في حفل عام شاركه فيه ـ على ما يقول الأب ضو ـ الموارنة والمسلمون على حد سواء، مع أنه في كتبه ومراسلاته كان يدغدغ عواطف البابا بوجوب استعادة «الأرض المقدسة» فيكون هو وأتباعه من (المجاهدين) وتلك خلفية لو عرفت في ذلك الحين لقاطعه المسلمون في أبسط تقدير ولما ارتضت السلطنة أن يكون أبو نوفل هذا (مدبر الأمير فخر الدين) قنصلاً لفرنسا في بيروت.

ومن جهة أخرى فإن طبيعة العلاقات بين دولة أجنبية وإحدى الفئات العثمانية داخل الامبراطورية لم تكن موضع تحليل ودراسة من قبل الباب العالي. ففي البدء كانت الدولة تعتبر تلك العلاقات من الأمور البسيطة إلا أنها بعد زمن أدركت أن الامتيازات الأجنبية باتت تفسر على غير الهدف التي رسمت من أجله فلم يملك الباب العالي يومئذ إلا التحذير بأن السلطان لا يرضى أن تمتد أيد خارجية إلى شؤون رعيته، غير أن فاعلية التحذير كما هو معلوم يخضع لاعتبارات شتى أهمها أن يأتي في الوقت المناسب وتحذير الباب العالي هذا قد جاء متأخراً وبعد فوات الأوان باعتبار أن علاقات المودة والتعاطف والانفتاح بين فرنسا والبطاركة والإكليروس الماروني بصورة خاصة قطعت مرحلة متقدمة مما أثر على سياسة هذه المنطقة في الحقب التاريخية اللاحقة.

محاولات منظري المارونية
التحريفية بقصد الإيحاء بوطن قومي:

غير أن استقراء مهماً يفرض نفسه في هذا السياق وهو أن الموارنة، البطاركة والأعيان، لم يفكروا في ذلك الزمن ـ (بما يجب أن يسميه منظروهم اليوم) ـ (الوطن القومي الماروني أو المسيحي السيد المستقل) فتلك الصيغة لم تكن لترد على أذهانهم، وهم يومئذ في أوج اتصالهم بفرنسا، فارفع ما حلم به بعضهم هو أن يكون اقطاعياً في مقاطعة كسروان وتوابعها يتبع والي طرابلس أو أن تكون جبة بشري خاضعة لدمشق بدل طرابلس أو أن تكون البطريركية بوكالة قنصل فرنسا... على أن يتم هذا كله بإرادة سلطانية أي ضمن شرعية الدولة العثمانية.

وليس عجيباً أن يتوهم منظرو المارونية الجديدة فهماً مناقضاً للاستقراء المبين أعلاه المأخوذ من تاريخهم هم لا من كتابات أخرى أو شواهد عثمانية. وكم نتمنى لو أن محفوظات الدولة العثمانية ووثائقها تنشر، إذن لاستبانت أمور كثيرة وعرفت حقائق تاريخية ولتمكن المؤرخ أن يربط بين الوقائع والأحداث خاصة في المجالات الدولية وأبعادها المعقدة.

ليس عجيباً أن يعقب منظرو المارونية الجديدة على علاقات البطاركة مع فرنسا في القرن السابع عشر بتخيلات وأماني كاذبة كالتي سجلها الأب بطرس ضو في نهاية بحثه (لم يكلُّوا ـ أي البطاركة ـ ولم يتقاعسوا ولم يتراجعوا أمام أية صعوبة أو نفقات أو مشقات هكذا استقطبوا حول قضايا لبنان (؟؟) والموارنة ذهن العالم واهتمامه (؟؟) ونالوا التأييد الشامل معنوياً وسياسياً وعسكرياً ومادياً واقتصادياً (؟؟؟) وأبقوا رأس المارونية ولبنان شامخاً فوق الجميع بالرغم من إرادة الدولة العثمانية كانت في أوج قدرتها وسطوتها وقوة عمالها ومخالبها وأذنابها؟؟؟... فنفوذ الموارنة وبطاركتهم من خلال الواقع الصلد إلى العالم الغربي وتمكنهم من إبقاء النوافذ مفتوحة بيننا وبين الموارنة بالرغم من الحواجز لهو دليل على حرية المارونية الجبارة التي لا تقهر واستقلالها الصامد الذي لا ينال منه)(٢٣).

أليس من المضحك أن يفهم منظرو المارونية من النصوص التي أثبتناها آنفاً أن يكون العالم قد شغل في قضايا لبنان والموارنة بفضل جهود البطاركة التي استقطبت اهتمام العالم... علماً أن لبنان بجبله الشمالي حيث مقدمية بشري وجبله الأوسط والجنوبي حيث بلاد الشوف وكسروان وتوابعهما... لم يكن لبنان هذا في ذلك الحين ولاية عثمانية بل كان في شماله تابعاً لطرابلس وفي وسطه أمارة معنية هي امتداد للأسرة المعنية التي أخذت بالأفول بعد مقتل فخر الدين الثاني كما وأن الموارنة هؤلاء الذين (دوخوا العالم) ـ حسب منظري المارونية ـ لم يتجاوز عددهم في ذلك الحين في جبة بشري وفي كسروان وفق شهادة قنصل فرنسا في صيدا أكثر من خمس وعشرين ألف ماروني من غير النساء والأولاد... ويعني هذا أن الموارنة ومقاطعات الجبل بأسرها لم يكونوا يستحوذون على ذهن السلطنة فكيف بالعالم؟.. فهي أي

تلك المقاطعات كانت تتبع لولاة طرابلس ودمشق ثم صيدا... غير أن منظري المارونية ومن بعدهم «دولة الاستقلال» جعلت من تاريخ جبل لبنان وتاريخ أمرائه المضخم حلقة وحيدة في تاريخ لبنان الكبير مما أضفى أهمية خاصة على تلك الاقطاعات التي لم ترتفع إلى مرتبة الولاية في يوم من الأيام إلا استثناء في عهد فخر الدين الثاني الذي ارتفع هو إلى مرتبة والي عربستان ولم يرتفع جبل لبنان بذاته إلى مستوى الولاية...

* * *

نظام الملة حل لمشكلة الأقليات
وفرنسا تسرق الاتصال بالباب العالي:

من المعلوم أن للأجانب حرية التنقل والإقامة في البلاد العثمانية مع ما يستتبع ذلك من حصانة التجارة والتقاضي. إلا أن التسامح هذا كان يحمل دوماً بالنسبة للمنظرين وبعض المؤرخين - على أنه ضعف من السلطنة وقوة من الرعايا غير المسلمين... كما أنّ الحرية تلك الحرية كانت - في تخيلهم - تنتزع انتزاعاً في حين أنها، في حقيقة الأمر، جانب محتوم من الفكر الإسلامي الذي يرفض الإكراه كما أن (نظام الملة) الذي كرسه العثمانيون بشيء من التوسع والتساهل والتسامح قد أنتج ما لا يمكن أن تقبل به أية دولة في العالم وكان بذاته سبباً في أطماع صليبية وفي أحداث كانت الدولة العثمانية، فضلاً عن هذه البلاد، في غنى عنها - كما سنرى.

يقول فيليب حتي (وكانت كل طائفة من هذه الطوائف الدينية في السلطنة تعرف بالملة وكان الإسلام ذاته يعرف بالملة الإسلامية، وطبيعي أن يكون الإسلام أهم ملة وأكبرها. وكانت تلي ذلك ملة الروم الأرثوذكس وكانوا يعنون بالروم الأرثوذكس جميع الرعايا العثمانيين الذين ينتمون إلى الكنيسة الأرثوذكسية بقطع النظر عن اللغة والعرق. وبحسب نظام الملة أصبح جميع الرعايا العثمانيين من غير المسلمين ينتظمون في طوائف مستقلة يرعى شؤونها الرؤساء الروحيون وكانت القضايا التي تتعلق بالأحوال الشخصية كالزواج والطلاق والإرث والتبني والتربية الدينية والمؤسسات الدينية تخضع لسلطة الرؤساء الروحيين لهذه الطوائف وقد كان هذا النظام إلى حد،

بمثابة قيام دولة مصغرة ضمن دولة كبيرة ويمكن النظر إلى نظام الملة على أنه محاولة من قبل المسلمين لحل مشكلة الأقليات بإعطائها شكلاً معترفاً به غير أن الحالة زادت تعقداً وذلك أن «الأمة» بالمعنى الديني أصبحت تعني «الأممية» فصار الموارنة والكاثوليك ديناً في صف واحد مع فرنسا والروم الأرثوذكس مع روسيا والبروتستانت مع بريطانيا) (٢٤).

والحقيقة أن أصل النظام ليس خطأ فهو لا يقضي بالأممية التي آل إليها الأمر في النتيجة... فتلك نزاعات استعمارية صليبية كانت تسعى لإيجاد مرتكزات لها في الدولة العثمانية فاستغلت الدول الكبرى المتطاحنة نظام الملة هذا لتفرض نفسها حامية لتلك الأقليات ولتحاول عبره ممارسة (خلق الذات) ضمن كيان الدولة العثمانية الكبير... كما أن من الخطأ الفاضح أن يفهم المعنيون بنظام الملة أنهم دولة ضمن دولة... وأن ينتهزوا الحرية الدينية وحصانة الكيان الديني الشرعي ليمارسوا عبرها اتصالات مشبوهة وليقيموا علاقات على حساب الدولة التي منحتهم ذلك الاعتراف وتلك الحرية...

ومن العجيب أن يتطلع غير المسلمين إلى الخارج ليطلبوا منه العون والمساعدة والسعي لدى السلطان لرفع ظلم أو تأكيد معنى من معاني الحرية التي يتمتعون بها أصلاً... في حين أن هؤلاء لو لم يتطلعوا إلى الخارج وصبوا اهتمامهم على محاورة السلطة العثمانية لتمكنوا من تحسين أوضاعهم والإفادة من كثير من خيراتها ولعاشوا حياتهم مواطنين شرفاء لا تحركهم أيد خارجية. وهكذا غدا بالإمكان مثلاً اعتبار مرسوم لويس الرابع عشر في حماية الموارنة وسائر الكاثوليك في الشرق بداية تحول في الذهنية السياسية لمسيحي الشرق وبصورة خاصة لموارنة جبل لبنان، أو على الأقل أيضاً، في ذهنية البطاركة وبعض الأعيان... إذ إن هؤلاء كانوا، في الأصل، يلتجئون إلى السلطان العثماني مباشرة فيمنع عنهم الظلم وينصفهم في الضريبة ويؤكد كرامتهم ويوفر لهم ضمانات ويأمر بترميم الكنائس كما رأينا مع السلطان سليمان القانوني، لما زاره موفد البطريرك العكاري.. فلو أن مثل هذا النهج ظل سائداً - من قبل الموارنة - لتغيرت معادلات كثيرة... غير أن الموارنة أو قادتهم الروحيون - المتخرجون من مدرسة روما - أساؤوا كثيراً إلى طائفة الموارنة بارتمائهم في أحضان البلاط

الفرنسي حتى وصل الأمر بهم إلى استجداء المال وطلب التصدق به على مقام البطريركية. (٢٥) وهو أمر لم يكونوا بحاجة إليه خاصة وأن الباب العالي لم يوصد في وجوههم الأبواب. كما لم يرفض لهم طلباً ولم يمنعهم من حق طلبوه... غير أن التدخلات الأجنبية لدى بطاركة الموارنة تركت بصماتها على أنفسهم وسائر تحركاتهم فعندما يراسلهم البابا مكبراً فيهم إرادتهم في العيش ببطولة ويصف إيمان الكاثوليك بين (اللامؤمنين) بما يشبه (الورد بين العليق)... فلا شك أن هذا يترك أثاراً شتى في الخلفيات العامة لدى الموارنة - كما رأينا - مما جعل هؤلاء يتحولون تدريجياً ليرتبطوا بفرنسا فتقوم هذه - بالنيابة عنهم - بمراجعة الباب العالي في قضاياهم الداخلية البسيطة بدل أن يقوموا هم بالمراجعة والاتصال... وهكذا تمكنت فرنسا من سرقة الاتصال وأشعرت الباب العالي بأنها - في أبسط الاحتمالات - وكيلة أو محامية عن الأقليات المارونية في جبل لبنان وقبرص، ومن المؤسف أن الموارنة يرفضون الاعتراف أن فرنسا لم تحقق لهم في هذا السبيل أية مكاسب تذكر، في حين أن اتصالاتهم المباشرة مع السلطنة حققت لهم مزيداً من الطمأنينة والاحترام...

* * *

مراجع ومصادر
القسم الثالث

١ - تاريخ الموارنة للأب ضو ١٤١/٤.

٢ - المرجع السابق ١٤٥/٤.

٣ - المرجع السابق ١٤٣/٤ و ١٤٤.

٤ - المرجع السابق ١٥٢/٤.

٥ - نقلاً عن مجلة المجتمع الكويتية العدد ٤٨٢ تاريخ ١٩٨٠/٥/٢٧.

٦ - بيروت ولبنان، عهد آل عثمان - يوسف الحكيم ص/٣٠٤ و ٣٠٥.

٧ - تاريخ الموارنة الأب ضو ٤/ ص /١٧٥ و١٧٦.

٨ - المرجع السابق ٤/ ص /١٧٩.

٩ - المرجع السابق ١٨٢/٤.

١٠ - المرجع السابق ٢٠٤/٤ نقلاً عن الخوري بولس قرأ لي الحملة البطريركية سنة ١٩٣٥.

١١ - المرجع السابق ٣٨٨/٤ من رسالة جوابية من الملك لويس الرابع عشر إلى البطرك الماروني الدويهي مؤرخة في ١٧٠١/٨/١٠ والذي كان قد أرسل كتاباً في آذار سنة ١٧٠٠ فيكون الجواب قد تأخر ما يقارب السنة والنصف.

١٢ - المرجع السابق ١٧٦/٤.

١٣ - راجع النص الكامل لمرسوم لويس الرابع عشر في الوثائق السياسية مرجع مذكور.

١٤ - تاريخ الموارنة الأب ضو ٣٩١/٤.

١٥ - تاريخ الموارنة الأب ضو ٣٩٢/٤.

١٦ - تاريخ الموارنة الأب ضو ٣٥٠/٤ وما بعدها.

١٧ - تاريخ الموارنة الأب ضو ٣٤٨/٤.

١٨ ـ النزاعات الطائفية مصدر مذكور ص / ٣٢ نقلاً عن إيليا حريق في كتاب له بالافرنسية.

١٩ ـ وثائق سياسية ص/٨٨.

٢٠ ـ تاريخ الموارنة ضو ٤/٣٨٣ و ٣٨٥.

٢١ ـ المصدر السابق ضو ٤/٣٨٧. عن كتاب «صديقة ومحامية» الخوري بطرس غالب.

٢٢ ـ المصدر السابق ضو ٤/٣٩٠.

٢٣ ـ المصدر السابق ضو ٤/٣٩٥/٣٩٦.

٢٤ ـ المصدر السابق لبنان في التاريخ فيليب حتي ص /٤٤٣ و٤٤٤.

٢٥ ـ في رسالة الشيخ أبي نوفل الخازن إلى لويس الرابع عشر ما نصه (ويلزم لقضاء هذا الأمر ١٢ ألف قرش إذا جاز تتصدقوا على البطرك والكهنة والرهبان والرعية بها...).

(راجع تاريخ الموارنة للأب ضو جـ ٤/ص /٣٨٣.

القسم الرابع

الأمير بشير الشهابي الكبير

بين «تقيته الدينية» و «استراتيجيته الالتزامية».

وقراءة جديدة لعلاقة محمد علي باشا الالتزامية بالسلطنة العثمانية

ولمواقف الأمير بشير من الباب العالي والولاة

القسم الرابع

تقية الأمير الشهابي واستراتيجيته الالتزامية

ويتضمن:

١ ـ معادلة الحكم في الامارة الشهابية السنية:

- الحسين بن فخر الدين وافق على تحول الإمارة إلى الشهابيين السنة.
- اهتمام الموارنة بكافة الأنشطة مد وجودهم حتى بلاد الشوف.
- الإرساليات تعزز مصالح الكاثوليك الموارنة.
- اللامركزية في الولايات الشامية والتطلعات الانفصالية.
- فولني: النصارى يظهرون تعصباً، والتدابير الاستثنائية لم توجه إليهم لكونهم نصارى.
- السياسة الاستيطانية المارونية في الجبل: الموارنة لم يقابلوا تسامح الدروز بالمثل.
- أسباب التسامح الدرزي: العامل المذهبي والعامل الاقتصادي.
- الدروز يغلقون مذهبهم ويلتجئون إلى المناطق الوعرة ويتهربون من الجندية.
- الموارنة يعملون مزارعين عند الدروز.
- جنبلاط: أجدادنا مارسوا الحكم عبر الإمارة والأسرة الشهابية صلة الوصل بالباب العالي.
- الشيخ بشير جنبلاط «يحلم» بأن يكون أميراً فيشيد جامعاً في بعقلين.
- الموارنة: لعبة الحكم بأيدينا وبشير أعاد الإمارة نصرانية؟؟
- الموقف الماروني مؤيد لنابليون والأمير بشير يرفض التعاون معه ويصر على

التعاون مع الباب العالي.

- حرب محمد علي في بلاد الشام تقلب معادلة الحكم في الإمارة وحملات عسكرية ضد الدروز بأيدي الموارنة لقاء أجر؟؟
- نماء في الشخصية المارونية وانكفاء في القوة الدرزية.
- الكنيسة أكبر مالك للأراضي ونافست المقاطعجية الموارنة.
- من أسباب تحالف الأمير مع الموارنة، الأمير يستغل البطرك

٢ ـ الأمير بشير: الرمز السني في الحكم:

- الرمز السني والمد الأوروبي وخلفية التنظير الماروني.
- التنظير الماروني نصّر الأمير قاسم والد الأمير بشير... والسؤال لماذا يتنصر الأمير قاسم؟
- الأمير ملحم أخو الأمير قاسم يعتزل الإمارة ويعكف على دراسة الإسلام ويسعى للحصول على الإمارة للأمير قاسم.
- البطرك أسطفان يتوهم تنصير الأمير قاسم عبر رسالة إلى لويس ١٤.
- قصة البطرك أسطفان مع الراهبة هندية وغضب البابوية على البطرك.
- الأمير قاسم مسلم سني مات على الإسلام وابنه بشير «مسلم بالميلاد» ولم يتدروز ولم يُنصر زوجتيه...
- الجزار: طاعة الأمير طاعة للسلطان، ويُكَلِّف الواليَ سليمان بتطبيق الأحكام الشرعية.
- والي صيدا الجديد يعزل الأمير ويعين الأميرين حسن وسليمان بعد أن اشترط عليهما إعلان إسلامهما في دير القمر.

٣ ـ خلفية الأمير الالتزامية بالسلطنة العثمانية وبمحمد علي والي مصر:

- موقف طرابلس الرافض للمصريين يعكس التزامية المسلمين بالباب العالي والأمير يحرص على الانصياع للسلطان...
- من أخبار الأمير الالتزامية: الأمير يعتزل الحكم ليجنب الباب العالي

صراعاً مع الجزار. الأمير من دمشق: تنفيذ أوامر الدولة العلية ولو خربت الشام.

- والي صيدا يزف البشرى للأمير بانتصار محمد علي على الحركة الوهابية.
- والي صيدا الجديد يتشدد على الأمير. وعامية انطلياس تؤكد على الحق والعدل بما فرضه الله.
- علاقات والي صيدا ـ تمتد من الأمير إلى محمد علي...
- الأمير يخطىء التقدير فينضم إلى والي صيدا ضد والي دمشق ثم ينصاع للباب العالي.
- بيروت ترفض إقامة الأمير المعزول وتندد به وبواليها باعتبارهما عاصيين.
- تقرير عبدالله باشا إلى محمد علي يكشف خلفية المسلمين والعساكر الالتزامية بالباب العالي.
- محمد علي يطلب من الباب العالي الصفح عن عبدالله باشا والأمير بشير.
- محمد علي وحرب اليونان واستنفار القوات في بلاد الشام.
- عبدالله باشا يعلن التعبئة العامة في الإمارة الشهابية.
- تهافت استقراء كمال الصليبي حول علاقة فخر الدين بالأمير الشهابي. والتنظير الماروني الجديد يقيم بينهما اتفاقاً لتحرير لبنان.؟
- أسد رستم: تحالف بين الأمير ومحمد علي ببركة فرنسا والفاتيكان؟؟
- محمد علي ملتزم بالسلطنة ويدافع عن ولاياتها ويؤمن بوحدة العالم الإسلامي بزعامة السلطان.
- محمد علي يفرض الجندية في مصر فيهرب فلاحون إلى عكا... وعكا ترفض تسليمهم.
- صراع محمد علي مع عبدالله باشا. الأمير يستعد لنجدة عبدالله.
- الباب العالي يعين إبراهيم باشا والياً على صيدا.. وولاية طرابلس تسبب الصدام بين محمد علي والسلطنة ـ خلفيات قرار الاعتداء...
- والي طرابلس يحاول فصل الأمير عن إبراهيم... والأمير لا يستطيع الانفصال.

- طرابلس تدفع ثمن موالاتها للعثمانيين مجموعة كبيرة من الشهداء.
- الأمير يفاوض بشأن ثورة ضد الحكم المصري...؟!
- استراتيجية الأمير أن يدور مع الباب العالي حيث دار.

٤ ـ تقية الأمير في دينه سخرت المؤرخين الموارنة للدفاع عن أخطائه:

- لماذا دافع مؤرخو الموارنة عن الأمير والصقوا بإبراهيم باشا كل نقيصه.
- مؤامرات الأمير في تصفية خصومه: القتل وسمل العيون والتغريم.
- عامية لحفد ضد الأمير والأمير يطارد في جبيل والنصارى يحترمون إرادة السلطان.
- كيف برر منظرو المارونية استيفاء الأمير لضرائب باهظة: الظلم لا يأتي إلا من إبراهيم.

٥ ـ الثورة ضد الأمير بين «التقية» و«الاستراتيجية».

- الأمير أول بين متساويين مارس التقية بذكاء.
- توهَم بعضُ المؤرخين تحولَ الأمير إلى المارونية بسبب تحرك الدروز ضده.
- الأمير حارب الدروز قبل إبراهيم باشا بسنوات.
- الأمير ينفذ سياسة الدولة في رمضان.
- الخديوي يأمر حكام دار الشام بمقاومة التبشير والتنصير أيام الحكم المصري. فكيف يمكن أن يتنصر الأمير في ذلك الوقت؟!
- الأمير يتلقى مرسوم إبراهيم باشا بنزع سلاح النصارى (في أيمن طالع).
- محمود شهاب يعلن الثورة باسم السلطان وفرنسيس الخازن قائد الموارنة والثوار يرتبطون بالقائد العثماني.
- القائد البريطاني يحرض الجيش المصري وأهالي سوريا ولبنان على الثورة والعودة إلى حضن السلطان.
- أعيان الشام للسلطان: ماذا فعلنا حتى حرمنا نعمة العلم السلطاني...؟

- الموارنة والنصارى مع ثورة الحكم العثماني... أما أساطير التنصير والاتصال فلم تكن آنئذ موجودة.
- فرنسا والبابا عبر البطرك حبيش: الحرم الكنسي لكل ثائر وفرنسا تنظم مؤيدي حبيش تحت علمها لقاء راتب.
- فرنسا تحذر الباب العالي وبريطانيا تخطط لحرب ضد محمد علي.
- فرمانان متعاكسان بشأن الأمير...!!

٦ ـ الجبل بين مطالب الدروز وتحديات البطريرك حبيش:

- الأمير بشير الثالث يواجه مطالب الدروز العائدين وتحديات البطرك حبيش.
- فرنسا تحرض على إعادة بشير الثاني.
- مجلس لبحث النزاع حول الأراضي. الدروز يرفضون والبطرك يحرض على التمرد.
- الدروز يتذكرون إساءات الموارنة في محاولة للاستقلال عنهم.
- هل انتشرت البروتستنتينية بين الدروز..
- الشكوى الدرزية للباب العالي: نؤمن بالاسلام ونخضع للسلطان.
- الطلب الدرزي: تعيين رئيس علينا كعهد بشير جنبلاط!!
- خلفية مشروع القائمقاميتين المقترح من رئيس النمسا ظهرت في كتاب الدروز للسلطان؟

١ ـ معادلة الحكم في الإمارة الشهابية السنية

تحول الإمارة إلى الشهابيين السنّة
بموافقة الأمير حسين المعني:

بعد فخر الدين الثاني ولىّ وزيرُ دمشق الأميرَ علي علم الدين التنوخي أميراً على بلاد الشوف... فبدأت بتوليته صراعات محلية بين آل علم الدين والأمير ملحم معن ابن أخي فخر الدين الذي وفق فيما بعد وضمن ظروف ومعطيات عدة إلى توجيه الإمارة إليه بديلاً عن علي علم الدين ثم كانت أحداث فرضت تجاذب الإمارة بين (الآلين) المتصارعين إلى أن مات آخر الأمراء المعنيين وهو الأمير أحمد سنة ١٦٩٧ بدون عقب... وكانت الإمارة المقاطعجية ـ كما بينا ـ قد أصبحت وراثية ولكنها كانت تحتاج إلى تثبيت وبراءة من والي دمشق أو من الباب العالي...

غير أن معنياً مهماً كان لا يزال في الأستانة مقرباً من البلاط السلطاني وهو حسين بن فخر الدين الثاني وكان فتى تركه أبو نادر الخازن لما فرَّ به إلى حلب ثم نجا أبو نادر بنفسه دون أن يلتفت إلى الأمير حسين... فألقي القبض عليه ونقل إلى استنبول حيث غدا من حجاب البلاط وظل يترقى هناك حتى غدا ممثلاً للسلطنة العثمانية في بلاد الهند... وكان حسن الإسلام.

ويبدو أن الباب العالي وقف على إرادة حسين بن فخر الدين في مسألة الإمارة... باعتبارها إرثاً في أسرته فرفضها ولم يقبلها لنفسه... ثم لما توفي الأمير أحمد ولم يبقَ معني آخر... أعيد النظر في الأمور واستشير الحسين

ـ فأشار بأن يجتمع الأعيان في بلاد الشوف ويختاروا واحداً منهم على أن يكون متصل النسب بالمعنيين. . . ويتضح من إشارة الأمير حسين بأن يكون الأمير الجديد معنياً مغزى واضح وهو أن يكون الأمير المختار مسلماً سنياً باعتبار أن أسرته كذلك. . . (فأذن العثمانيون للأعيان اللبنانيين) (١) باختيار الأمير على شرط الحسين بن فخر الدين، ويظهر أن كلمة الأعيان ـ فيما بعد ـ قد أجمعت على الأمير الشهابي ابن أخت الأمير أحمد وهو من وادي التيم. . . (وكان الشهابيون يدينون بالسنّة) (٢) فرفع الأعيان رأيهم إلى والي صيدا ثم إلى الباب العالي حيث عرض الأمر مجدداً على الأمير حسين بن فخر الدين الذي وافق مبدئياً على تحول الإمارة إلى البيت الشهابي السني، غير أنه أشار (بإقامة الأمير حيدر بن موسى شهاب ابن بنت المير أحمد أميراً على بلاد الشوف على أن يكون الأمير بشير ـ الذي اختاره الأعيان ـ وصياً على الإمارة إلى أن يبلغ حيدر أشده إذ كان ما يزال قاصراً)، (٣) فصدر الفرمان العثماني بما أشار به الأمير حسين وهكذا انتقلت الإمارة الإقطاعية على بلاد الشوف وكسروان ووادي التيم إلى أمراء وادي التيم الشهابيين السنة حيث بدأت معهم صفحة جديدة من تاريخ جبل لبنان وانتهت باشتداد الصراع بين الموارنة والدروز وبانحسار السُنَّة عن الجبال إلى المدن الساحلية. . .

* * *

الموارنة يوسعون رقعة انتشارهم
وتحول ظاهر في الحس الطائفي لديهم:

فقد تمكن الموارنة في أواخر العهد العسافي وفي العهد المعني من الامتداد إلى بلاد جبيل وكسروان حتى بلاد الشوف معقل الدروز. . . وأخذوا يهتمون بمختلف الأنشطة العامة السياسية (التقرب من الأمراء الحاكمين السنة والتأثير على سياساتهم وتحالفاتهم) وكذا بالأنشطة الاقتصادية حيث برعوا في أعمال الزراعة والفلاحة وتربية دودة الحرير. . . وبالعلمية حيث أضحى لديهم عدد من المتعلمين ـ خاصة بعد فتح المدرسة المارونية في روما سنة ١٥٨٤ ـ وبعد تكاثر الإرساليات والمبشرين والرسل بجبل لبنان وفي المدن الساحلية ودأبهم على تعليم أولاد النصارى بصورة خاصة. . . وهكذا برع عدد منهم في اللغات

العربية والسريانية والتركية واللاتينية. . ونشأت مع الأيام بين الموارنة طبقة متعلمة اعتمدها الأمراء الشهابيون والمقاطعجية وتعددت فيها أوجه الخدمة العامة. . . وقد أدرك الموارنة فوائد التعليم فتحولت الأديرة ـ في كل قرية ـ إلى ما يشبه المدرسة لتأمين الأعداد الكافية ولملء مختلف الاحتياجات. . . ومما لا ريب فيه أن انخراط الموارنة في الأنشطة السياسية عبر الأمراء ومحاولاتهم المستمرة التأثير عليهم فضلاً عن عملهم النشط في الزراعة والتجارة وبخاصة الحرير وانفتاحهم على التعليم مستفيدين من تكاثر الإرساليات التبشرية أدى هذا كله إلى تزايد دور الموارنة في الجبل اللبناني كما أدى إلى تمكنهم من شراء الأراضي والعقارات وإلى استمرار اتصالاتهم بالبابوية وفرنسا. . .

ويقول كمال صليبي (كان للكنيسة الكاثوليكية الرومانية نفوذها السياسي المباشر في لبنان فبعد أن شملها فخر الدين بحمايته تزايد مراسلوها بكثرة في البلاد مما جعلهم حتى في أيامه مسموعي الكلمة في الشؤون اللبنانية وما إن جاء القرن الثامن عشر حتى نشط عدد من الإرساليات في لبنان من فرنسيسكان وكرمليين ويسوعيين وكانوا جميعاً مقربين لدى الشهابيين وعلى صلةٍ مباشرة بهم فوجدوا في حظوتهم لدى الأمراء ولا شك مجالاً كبيراً لتعزيز المصالح الكاثوليكية بما فيها المارونية في لبنان) (٤).

وكان من النتائج المباشرة للإرساليات الدينية ـ كما يقول الرحالة الفرنسي فولني سنة ١٧٨٢ ـ ١٧٨٥ (كانت الفائدة الجلى من نشاط هذه الإرساليات الدينية أنَّ فن الكتابة أصبح أكثر شيوعاً بين الموارنة مما جعلهم في هذه المناطق بمقام الأقباط في مصر أي أنهم أصبحوا هم الكتاب والنظار والحجاب عند الأتراك وخصوصاً عند جيرانهم الدروز) (٥).

كما كان من نتائج الإرساليات أيضاً تمكنهم من تنصير بعض الأمراء الشهابيين واللمعيين بعد أن استفادوا من خصوماتهم السياسية وأطمعوا الناقمين منهم ـ على ما يبدو ـ بمساعدات. . . . وسنرى ذلك فيما بعد.

ولا ريب أن هاتين النتيجتين: تمكن الموارنة من أعمال السلطة وتنصر بعض آل شهاب قد أديا إلى مجموعة متناقضات ظهرت على الساحة اللبنانية

فيما بعد واكتسبت النصارى مجموعة مرتكزات سياسية انطلقوا منها للقول ـ تاريخياً ـ بوجود وطن قومي مسيحي وأن عليهم اليوم أن يستكملوا المسيرة..!!؟

ورافق حركةَ الإرساليات تلك ازديادُ الاتصال بالبابوية وبفرنسا مما أدى إلى قول ظاهر لدى نصارى المقاطعات في جبل لبنان الذين أخذوا يشعرون بفك الارتباط بينهم وبين الدولة العثمانية ثم بالارتماء في أحضان الغرب... خاصة وأن الدولة العثمانية هذه ـ ضمن ظروف متعددة ـ أخذت في التقهقر والتراجع في علوم الدنيا (والدين أيضاً) وفي الأخذ بأسباب النهوض وإعمار الأرض فلم تعد تقوم بما يتوجب عليها من حقوق للرعية بينما أخذ ولاتها في الولايات الشامية خاصة يتمتعون بمزيد من اللامركزية وتفتحت عندهم تطلعات الانفصال والاستقلال شأن دويلات أواخر العهد العباسي... وقابل هذا الضعف نهضة ملموسة في أوروبا وفي إيطاليا وفرنسا بصورة خاصة وهو متصل لمسيحيي (لبنان) ورغبة أكيدة في تطورهم وتطويرهم خاصة بعد أن تم الارتباط الكامل بالكرسي البابوي بعد مجمعي سيدة اللويزة سنة ١٥٩٦ و١٧٣٥ وساعد على ذلك تكاثر خرّيجي المدرسة المارونية في روما الذين ـ بعد عودتهم ـ تبؤوا مراكز أساسية في كنائسهم ولدى العلمانيين والتجار فكان ذلك بداية الإحساس الخاص بتولد شخصية نصرانية مستقلة عن مجموع الناس من المسلمين السنة والشيعة والدروز الموحدين... مما سمح لهم بإبراز حس تعصبي مزعج لم يكن ليظهر بصورة مباشرة طيلة القرون السالفة.. وكان هذا الحس الطائفي ملفتاً لنظر النصارى الأجانب كالسائح فولني (١٧٧٠ ـ ١٧٨٨) (عندما ذكر أن النصارى والدروز كانوا يتعايشون بسلام ـ على حد قوله لكن النصارى غالباً ما كانوا يظهرون تعصباً فاضحاً مزعجاً ربما أدى إلى تعكير صفو هذا السلام) (٦).

ملاحظة فولني هذه كانت إشارة واضحة إلى إحساس ـ قد زرع ونمي بصورة مقصودة في فترة طويلة تعود بدايتها إلى الحروب الصليبية... ويومها انقسم النصارى بين متعاطف مع الصليبية الدولية وبين معارض لها يفضل عليها السلطة الإسلامية متعاوناً مع المسلمين لإخراج المحتل ـ كما بينا

من قبل ـ ثم ظهرت عوامل أخرى ساعدت على إنماء شعور التعاطف مع الإفرنج والنظر إلى المسلمين نظرة لا تتفق مع أسس العلاقات السليمة التي أرادها الإسلام من أول يوم ومارسها عمر بن الخطاب على باب القدس وعمل بموجبها ـ بوجه عام ـ الخلفاء وحكام الولايات وصرح بها الأوزاعي دون إنكار عليه من أحد من علماء المسلمين أمثاله... إلى أن جاء المماليك ومن بعدهم سلاطين آل عثمان الذين لم يشذوا عن هذه القواعد ـ كما رأينا مع السلطان سليمان القانوني.... ولا يستثنى من هذا التاريخ المجيد إلا مجموعة تدابير استثنائية لم تكن لتوجه إلى النصارى ـ لكونهم كذلك ـ وإنما وجهت إلى (مجموعات العملاء) الذين كانوا يفضلون الأجنبي ويتعاملون مع أعداء البلاد...

وقد شملت تلك التدابير أيضاً بعض الأقليات المذهبية المنشقة عن الإسلام... غير أن الولاة والحكام والسلاطين سرعان ما غفلوا عن (الحالات الاستثنائية) تلك ليتعاملوا مع الجميع بروحية جديدة دونما تمييز، خاصة وأن ما عرف بجبل لبنان ـ لم يكن ليشكل عندهم عبئاً ثقيلاً إذ أنه لم يكن في يوم من الأيام ولاية بل كان دوماً اقطاعات موزعة بين طرابلس وصيدا ودمشق فضلاً عن أن الموارنة لم يتواجدوا إلا في شماله (في جبة بشري) حيث أقاموا ـ بصورة عامة ـ علاقات حسنة مع ولاة طرابلس... إلى أن تظالم (الحماديون ـ آل حمادة) فسبَّب ظلمهم نزوحاً من بشرى وجوارها إلى بلاد جبيل وكسروان... وقد حرَّك ظلم الحماديين ـ سوى الموارنة ـ والي طرابلس محمد الكرجي الذي جرد عليهم سنة ١٧٦٣ حملة لتأديبهم ووضع حد لإساءاتهم ولتجاوزهم ثم أقصاهم إلى بلاد بعلبك.

* * *

خلفيات تقرب النصارى من الأمراء وانتشارهم في مناطق حلفائهم الدروز:

من جهة أخرى فإن تجربة آل الخازن مع المعنيين أو بالأحرى مع فخر الدين الثاني وخلفائه كانت تجربة غنية ولدت في نفوس العديد من الموارنة شبقاً عميقاً نحو احتواء الأمراء المسلمين والعمل من خلالهم لتوجيه السياسة العامة وايجاد حالات من التنافر مع السلطنة العثمانية... وكانت تلك

التجربة - على ما يبدو - موضع دراسة وتأمل من الدوائر البابوية على الأخص مما حملها على تأطيرها في معطيات اشربوا بها نفوسَ الطلبة في المدرسة المارونية كما زودوا بها المبشرين من فرنسيسكان وكرمليين ويسوعيين... فعمل هؤلاء بمزيد من السرية للتقرب إلى الأمراء المسلمين السنة الشهابيين وإلى الأمراء الدروز وسواهم...

وقد ساعد في تنمية الشخصية المسيحية المتميزة نجاحهم إلى حد منظور في التقرب إلى العائلة الشهابية - مما سنبينه - أو تسلمهم فعلياً بعض أهم المراكز وتقلدهم مهام - تربية أولاد الأمراء الحاكمين - مما أطمعهم في تكثيف هجراتهم تمهيداً لاستيطانهم أنحاء مختلفة من الجبل... حتى بين الدروز أنفسهم... إذ أن هؤلاء لم يشعروا - لأمور سنبينها - بأي غزو منظم أو بأية خلفيات مضمرة عند الفريق الآخر أو ما عبر عنه كمال الصليبي إذ يقول (من الصعب التكهن متى أفاق الدروز على واقع فقدانهم السيطرة فلحين طويل من الزمن ظلوا ينظرون إلى الموارنة كحلفاء دون أن يداخلهم شك في مطامع النصارى السياسية فكان الموارنة يستوطنون القرى الدرزية بحرية وكذلك الروم الأرثوذكس والروم الكاثوليك الذين نزحوا من داخل بلاد الشام إلى لبنان ليزيدوا في عدد النصارى غير أن تسامح الدروز هذا لم يقابله النصارى دائماً بالمثل) (٧).

وينوه المؤرخ اللبناني المعاصر إبراهيم الأسود (٨) بتشييد الكنائس كما ينوه (باريحيه الشيخ علي جنبلاط الموحد (الدرزي) الذي وهب للموارنة أرضاً فسيحة ليشيدوا عليها دير المخلص* وأرضاً أخرى جعلها وقفاً للدير كما نوه آل يزبك - الدروز - الذين ساعدوا على إنشاء دير المشموشة حتى أن قداسة البابا بعث إليهم من رومية عام ١٨٠٦ رسالة يعترف لهم بالجميل ويبارك هذه الخطوة التي تربط الجميع بالتعاون والمحبة والإخلاص؟؟؟ كما نوه الأسود بالشيخ قاسم اليزبكي الموحد - الدرزي - الذي شيد للموارنة كنيسة المختارة

* - هو الدير الذي تلتقي به الجبهة اللبنانية أثناء وبعد الحرب اللبنانية وتعقد فيه خلواتها.

سنة ١٨٢٠...) (٩) بينما ذكر الأب شيخو اليسوعي (أن الأمير عبدالله اللمعي الموحد أقام ديراً في صليما عام ١٧١١...) (١٠).

عوامل ساعدت على التسامح الدرزي
فاستغل النصارى هذا التسامح:

ومن المؤكد أن هناك أكثر من عامل دعا الدروز إلى إفراز هذا النوع من التسامح الذي أدى إلى استغلال بشع من الموارنة والنصارى كما ذكر بعض المؤرخين النصارى والفرنسي فولتي...

فهناك العامل المذهبي... إذ أن الدروز - كما رأينا من قبل - اعلنوا مذهبهم مغلقاً فلا يقبل جديداً ولو أراد ذلك عن اعتقاد عميق إذ أن الرحمة - على حد تعبيرهم - قد حصرت بالذين آمنوا من قبل... فهم كما يصفهم كمال جنبلاط (براء من كل نظرة تبشيرية فلا جدوى إذن في أن تفرض على أي كان أن يصبح درزياً لكل إنسان يظل على ما هو عليه أما الروح الدرزية فإنها تنتقل بعد الموت وتتقمص في جسد درزي ثم في جسد درزي آخر وهكذا دواليك إلى آخر الزمان) (١١).

وعلى هذا فقد (أباحوا ولوج الموارنة خصوصاً والمسيحيين عامة إلى مناطق كسروان والمتن في شمالي جبل لبنان وإلى منطقتي عاليه والشوف اللتين يشكل الدروز قوتها السياسية القتالية) (١٢).

زد على هذا فإن الإيمان (بتجسد الإله) وهو الاعتقاد باللاهوت والناسوت جعل الدروز يأنسون بالنصارى الذين يشاركونهم هذا المعتقد بوجه من الوجوه فقد ذكر الأستاذ أمين طليع (أن الموحدين الدروز لم ينفردوا بهذا الأمر لأن الاعتقاد باللاهوت والناسوت قد بشرت به الأديان السماوية كما بشر به الانجيليون الأولون عندما بشروا، بأفعال المسيح وتعاليمه في الجسد...

* - باستثناء الإسلام الذي يرفض رفضاً مطلقاً تلك النظرة للألوهية ويعتبر من قال ذلك كافراً...

فقد جاء في مقدمة إنجيل يوحنا «في البدء كان الكلمة». والكلمة كان لدى الله والكلمة صار جسداً وسكن فيها بيننا وقد شاهدنا مجده مجسداً من الأب لابنه الوحيد الممتلىء نعمة وحقاً).... والصورة المرئية للناسوت في عقيدة الدروز الموحدين هي ـ...... كذلك هذه الصورة الظاهرة وتراها بعين الطبيعة فتظنها صورة كصورتك فإذا دنوت منها بعين العلم لم تجدها صورة ووجدت الله عندها) (١٣).

إن هذا الاعتقاد كما ذكرنا ـ جعل من التقارب الدرزي ـ النصراني أمراً ممكناً كما جعل التنافر بين الدرزية والإسلام أمراً واقعاً... إذ أن العيش المشترك بين المسلمين والدروز ـ كان في تلك الحقب التاريخية ـ مما يثير إشكالات كبرى باعتبار أن الدرزية فرقة انفصلت عن الشيعة فكونت لنفسها منطلقات لتؤمن بمبادىء تختلف ـ في جوهرها ـ عن العقيدة الإسلامية السنية وحتى الشيعية... مما حمل الدروز على اللجوء إلى مناطق ومسالك وعرة يعيشون فيها بعيدين ـ قدر الإمكان ـ عن الاحتكاك اليومي بسائر المسلمين... وأدى هذا الانعزال إلى مزيد من الغموض في مواقفهم الفكرية والمذهبية وإلى مزيد من الاعتماد على النفس وإلى تملك القوة العسكرية...

ورافق العزلة الدرزية عن عامة المسلمين انفتاح على النصارى الأمر الذي جعل الدروز وعقالهم يميلون إلى عدم وجود خطر نصراني على رعيتهم الجهال... ـ وقد أخطأوا في ذلك خطأ مبيناً كما سنبين ـ فسمحوا للنصارى أن يعيشوا معهم دون تحفظ مما أدى إلى تسرب أفكار نصرانية عديدة إلى «جهالهم» وربما أيضاً إلى أمرائهم فقد ذكر فولني سنة ١٧٧٠ (إن عائلات درزية ومارونية تعيش جنباً إلى جنب متصافية متوادة وأحياناً يصطحب الموارنة جيرانهم الدروز إلى الكنائس ويؤمن الدروز بفعل الماء المقدس الذي يصلي عليه الكاهن وأحياناً «إذا ألح» المبشر في تبشيره للدرزي فقد يقبل الدرزي سر المعمودية، وقد لاحظ ماريتي الراهب الإيطالي الذي زار البلاد سنة ١٧٦٠... أن الدروز يظهرون خالص الود والاحترام للنصارى ويحترمون دينهم...).

ولا يزال الدروز ـ كما يقول فيليب حتي ـ إلى يومنا هذا يشتركون مع

جيرانهم النصارى في كثير من الاحتفالات والأعياد ولهذا مغزاه العميق وينقل عن بلس قوله: (الدروز لكي يتخلصوا من الخدمة العسكرية التركية كانوا يعلنون أنهم بروتستانت ويؤكد ضابط فرنسي كان مقر خدمته في حوران أن العائلات الدرزية الأرستقراطيةإذا فقدت طفلاً أو أكثر فإنهم يعمدون الطفل الذي يولد بعده، وقد عمد الابن الثاني لسلطان الأطرش سنة ١٩٢٤ وقد تكون ممارسة هذه التقاليد نوعاً من التقية وقد يكون ممارسوها يعتقدون بأثر سحري لها يعود عليهم بالنفع ولا يزال الدروز والنصارى يشتركون في تقديس بعض المزارات المقدسة عند كلا الطائفتين وليس بمستغرب أن يتبرع درزي قطن قرية أكثر سكانها من النصارى بالمال لكنيسة القرية وفي لبنان أشجار قديمة يتبرك بها الدروز والنصارى على السواء...) (١٤).

وفضلاً عن العامل المذهبي والظروف العقيدية التي تحيط بالدرزية هناك العامل الاقتصادي الذي أفسحَ المجال رحباً للموارنة والمسيحيين عموماً في التغلغل في جبل لبنان بقسمه الدرزي... فقد كان عدد الدروز قليلاً بالنسبة لاتساع الأرض التي يسيطرون عليها علاوة على أن شعورهم بأنهم قوم محاربون وأنهم يشكلون أهم قاعدة للإمارة في بلاد الشوف وما حولها وللأسر التنوخية والمعنية ثم الشهابية جعلهم ينصرفون عن الأعمال الزراعية التي أوكلوا أمرها إلى الموارنة، يقول كمال جنبلاط (١٥) (أما الدروز فإنهم لما كانوا ارستقراطية فإنهم استدعوا الموارنة للعمل في أراضي منطقتهم الشاسعة ولهذا أصبح المسيحيون يشكلون بصورة عامة اليد العاملة الزراعية وامتهنوا الحرف الصغيرة والتجارة وإذاً فقد كانوا في تلك الفترة بروليتاري لبنان الحقيقيين وإن كانوا ينكرون اليوم تحدرهم هذا ولا يعود مرد هذا الوضع إلى عجز الدروز عن ممارسة الزراعة بل إلى قلة عددهم التي ترتبت عن مجازر سنة ١٥٨٥ واضطلاعهم بدور يتجاوز أهميتهم العددية بكثير)* (١٦).

---

* ـ نرجح أن كمال جنبلاط كان يقصد حادثة التشليح التي وقعت في عكار لجيش الإنكشارية على مال الخزينة السلطانية حيث استقرت التهمة يومئذٍ على الدروز والأمير قرقماز والد فخر الدين الثاني فسيَّر الباب العالي والي دمشق =

غير أن منظري المارونية علاوة على ما ذكر كمال جنبلاط عن رفضهم لاعتراف بالواقع التاريخي السالف الذكر فإنهم يحاولون ضمن أسلوبهم في التحريف والتغيير ـ «رد الجميل للدروز» بالإعلان أن الموارنة قابلوا الانتشار الماروني في المناطق الدرزية بالسماح للدروز بالانتشار في المناطق المارونية في المتن وكسروان وباستقبال مجموعات درزية وفدت من سوريا إلى الجبل طلباً للأمن والراحة ومجالات العمل) (١٧).

ولا بد هنا من أن نتذكر أن كسروان هذه والمتن لم تكونا في الأصل مناطق مارونية حتى القرون الخامس والسادس والسابع والثامن عشر وبداية التاسع عشر أيضاً وإنما كانتا للمسلمين وبخاصة للسنة حيث قابل ازدياد انتشار الدروز والموارنة انحسار إسلامي.. وبقيت تلك المناطق مختلطة بين الدروز والموارنة والمسيحيين إلا من قلة سنية وأخرى شيعية حتى قيام مذابح سنة ١٨٤٠ ـ كما سنبين ـ.

وهكذا تمكن الموارنة من استيطان مناطق جديدة في لبنان ممدّين وجودهم من شمالي الجبل إلى الوسط فالجنوب من الجبل ضمن المناطق الدرزية مستفيدين من كل الفرص التي سنحت لهم سواء في حقول السياسة والتقرب من الأمراء السنيين إلى العمل المكتبي والتعليمي والتربوي إلى أعمال الزراعة وتعاطي التجارة إلى استمرار العلاقات والاتصالات الخارجية بالبابوية مع استقبال البعثات التبشيرية والإرساليات إلى محاولات تنصير عائلات درزية

= بحملة استهدفت القوى الدرزية انتهت بنزع السلاح من بين أيديهم وقتل ستماية من عقالهم وأكثر من ستين ألف درزي ـ حسب رواية مؤرخي الموارنة الدويهي والشدياق ـ وحرق أربعين ضيعة ونهب خلواتهم وقد عاد الوالي إلى دمشق بعدد من كتبهم المخطوطة المقدسة، انظر فيليب حتي تاريخ لبنان ٤٥٣ و٤٩٧... كما لا بد من ملاحظة هامة في كلام كمال جنبلاط هي الشعور بأن دور الدروز هو أكبر من حجمهم العددي وهي خلفية أكّدها جنبلاط من خلال ممارساته السياسية.!!

والتأثير في العائلة الشهابية وحَرْفها عن إسلامها والعمل على تنصير بعض أفرادها...

* * *

لعبة الإمارة السنية في الجبل
الشيخ بشير جنبلاط يخطط لإقامة إمارة درزية
فيبني جامعاً في المختارة:

وكانت الأسر الحاكمة المعنية والشهابية وهما أقلية سنية آل إليها الحكم عن طريق الإرث واكتسبت بذلك صفات الإمارة والسيادة منتزعة من المجموعتين المتناميتين الدرزية والمارونية، الاعتراف الدائم بسلطانها وبحقها في الإمارة...

ويبدو من الأسباب، التي لم تنازع كلا القوتين الدرزية والمارونية الأسرةَ المعنية ومن ثم الشهابية حقها في الإمارة والسيادة، أن تلك الإمارة وإن استمرت وراثيةً إلا أنها كانت تستمد شرعيتها من السلطان العثماني أو من والي دمشق أو والي صيدا... فكان لا بد من براءة تؤيد الحق الأرثي هذا ومن أجل ذلك لم تفكر كلتا المجموعتين بمنازعة الأمر أهله حتى أنهم في حال معارضة الأمير الشهابي ـ ومن قبله المعني ـ كان يلجأ المعارضون إلى أحد الأمراء من الأسرة الحاكمة لتكون المعارضة وبالتالي الثورة على الأمير باسم الأمير الآخر فيحاول هذا الانقضاض على مقاليد الأمر للقضاء على خصمه ثم يسعى فيما بعد ـ وربما قبله ـ لكسب تأييد والي دمشق.

ومن أجل هذا كله أبقي للسنَّة حق الإمارة على الطائفتين الدرزية والمارونية خاصة بعد أن تمكن على مرور الزمن كلاهما ـ الدروز والموارنة ـ من ممارسة نوع من الحكم الذاتي ضمن مناطقهم وعبر الإقطاعات في قرية أو في مجموعة القرى...

غير أن كلاً من الفريقين ـ الدروز والموارنة ـ قد اقتنع بممارسة دور الحكم من خلال الأمير الحائز على براءة الحكم من الدولة العلية... وهكذا تمكن كمال جنبلاط من القول (وهكذا لعب أسلافنا دوراً كبيراً أبان الحقبة

الشهابية بل الواقع هو أنهم هم الذين كانوا يحكمون لبنان حقيقة أبان حكم الأمراء الشهابيين على شاكلة ما كان الأمر بالنسبة إلى ريشيليو في فرنسا ومرد قناعتهم لهذا الدور هو أن الأمارة تقتضي الانتماء إلى سلالة الأمراء الذين يحكمون لبنان) (١٨).

ويبرز كمال جنبلاط دور هذه السلالة ـ التي هي سنية ـ في تأمين الاتصال بالباب العالي وتحقيق الخضوع والارتباط بالسلطنة العثمانية فيقول (وكان يفصل ما بين هذه الإمارة نصف المستقلة وبين الإسلام السياسي خضوعها للباب العالي وذلك في الوقت ذاته الذي كانت تتمتع فيه باستقلال ذاتي واسع وكان شأن هذا الاستقلال أنه كان يتسع أو ينحسر بحسب المنحى الغالب وبحسب القوة ووهن الأمبراطورية العثمانية وبحسب توازن القوى في المنطقة) (١٩) ذلك أن الدروز كانوا ـ على حد تعبير جنبلاط ـ (يستطيعون أن يبحثوا لأنفسهم ـ باعتبارهم قلة من النحل الإسلامية ـ بعض الحرية إزاء الأمبراطورية العثمانية الأمر الذي كان يمكنهم من تنظيم ضرب من الدولة الصغيرة المستقلة عن تركيا تلك الأيام) (٢٠) غير أن الدروز ـ كما أوضح ـ اقتنعوا بممارسة دور فاعل عبر الحاكم الأمير الذي كانت أسرته صلة الاتصال بالسلطنة والخضوع لها...

ومما يؤكد على أهمية الأسرة السنية في تولي الحكم على الجبل هو أن الشيخ بشير جنبلاط خطط على ما يقوله آل الأشقر في كتابهم «الحركات في لبنان إلى عهد المتصرفية» (لانشاء منطقة درزية تمتد من البحر إلى الجبل حوران... على أن ـ يكون هو المهيمن عليها ويكون معظم سكانها جنوداً له) ولذلك (كان ينوي أن يأتي بدروز الجبل الأعلى بحلب فيسكنهم في سهل البقاع الذي كان كله ملكاً له (؟) وأن يأتي بدروز فلسطين فيسكنهم في إقليم جزين وكان معظم هذا الإقليم ملكاً له (؟)) (٢١).

وفي سبيل الحصول على براءة سلطانية بتولية حكم هذه المقاطعة وحكم لبنان سعى الشيخ بشير للظهور بالمظهر الإسلامي فبنى مسجداً في المختارة كما سعى أبان علاقته المستعلية على الأمير بشير قبل سنة ١٨٢١ عندما كان الأمير

يهاب الشيخ بشير ولا يقدم على (تعيين مأمور أو يعزل موظفاً إلا بأمر الشيخ أيضاً) (٢٢) سعى الشيخ بشير لتعيين قاض مسلم سني على قضاء دير القمر بدلاً من القاضي اليزبكي الدرزي شرف الدين، وهكذا عين الأمير بشير بناء لاقتراح الشيخ بشير (رجلاً مسلماً برجاوياً) اسمه أحمد البزري) (٢٣) غير أن الشيخ بشير لما بدأ حربه ضد الأمير بشير الذي لم يحارب الشيخ بالرغم من تقدم الشيخ على بتدين إلا بعد موافقة الوالي العثماني عبدالله باشا والي عكا ـ وكذلك أيده في معركته ضد جنبلاط ولاة دمشق وطرابلس ومحمد علي والي مصر ـ وقد قرر والي عكا بعد هزيمة الشيخ بشير (هدم جامع المختارة لأن الدروز غير أهل له) (٢٤) وأمر بذلك الأمير بشير فهدمه وقد ذكر والي عكا عبدالله في كتاب الأمر (حيث أن الشقي بشير جنبلاط قد كان بنى جامعاً في قرية المختارة كي يتدلى في ديانة الإسلام بالمكر والنفاق وحيث أن أصل بناء ذلك الجامع بالنفاق فليهدم حالاً) (٢٥).

وقد كشف آل أبو شقرا في كتابهم (الحركات في لبنان) خلفيات بناء الجامع هذا فقالوا (وكان الشيخ بشير يحلم بتولي حكم لبنان ولعل بناءه جامع المختارة من الأمور الممهدة لذلك وما هدم الأمير ذلك الجامع إلا وهو يقصد إلى إزالة ما كان يهيئه الشيخ بشير من الوسائل الممهدة للحكم) (٢٦). وذلك أن بناء الجامع لا يقوم عليها إلا مسلم... والدروز كما رأينا لا جامع لهم بل يتخذون المجالس والخلوات... فكان على الشيخ بشير ليحقق أحلامه أن يقوم بممارسة المظهر الإسلامي السني ليصل إلى اقتناص الشرعية من السلطان الذي لا يمنح براءة الحكم إلا للأسر السنية.

منظرو المارونية: الدور الخفي في لعبة حكم الإمارة هو للموارنة:

غير أن الموارنة لا يسلمون للدروز ولا لكمال جنبلاط بما ذهب إليه فيعتبرون أن الدور الخفي في لعبة الحكم في الإمارة كان لهم أي للموارنة ويستدلون على ذلك ـ بأن مدبر الأمير كان دوماً مارونياً والمدبر حسب تعريفهم لهذا اللقب كان مخطط السياسة وكاتم السر والقائد العسكري الأعلى؟؟؟ وبناء على هذا الظن لا يتردد منظرو المارونية من اعتبار حدود

الإمارة المعنية والشهابية وطناً قومياً درزياً ـ مارونياً بأمرة أمير سني أو درزي ـ لا فرق ـ وبمدبر ماروني إلى أن أصبح الأمير بشير الكبير ـ ويعتبره المنظرون ومؤرخو الموارنة مارونياً كما سنرى ـ أميراً على البلاد فعادت الحاكمية إلى النصارى وبقيت إلى يومنا هذا يقول الأب ضو (... وفي الفترات الذهبية من عهد الأمير فخر الدين وغيره من الأمراء المعنيين والشهابيين توحد لبنان أرضاً «وشعباً» وقام الوطن الماروني الدرزي المشترك مقام الوطن القومي الماروني الذي انشأه المردة وقام الحكم الواحد المشترك المتكون من أمير درزي أو سني ومدبر ماروني مقام الحكم الماروني المستقل في الوطن القومي الماروني والحكم السني أو الدرزي في الوطن الدرزي وزاد النفوذ الماروني عمقاً واتساعاً تدريجياً في عهد المعنيين والشهابيين حتى أصبح الحكم أو الأمير مارونياً أو مسيحياً كاثوليكياً وذلك بصورة مستمرة منذ بشير الثاني الكبير حتى يومنا هذا مروراً بعهد المتصرفية فالانتداب والاستقلال) (٢٧).

المواقف الحاسمة للإمارة الشهابية
لم تخضع لتأثير الفريق الماروني:

ولن نتولى الرد ـ هنا ـ على الأسلوب التخيلي للأب ضو فيما يتعلق بالوطن القومي الماروني أو الوطن الدرزي أو المشترك بينهما... فتلك تخيلات وأوهام لم تكن في هاتيك الأيام... وإنما الذي يهمنا من كلامه هو الإصرار على أن لعبة الحكم كانت بيد الموارنة عبر مدبر الأمير... وهو كلام تعوزه الدقة ويحتاج إلى دليل علمي.

فالموارنة والنصارى عموماً كانوا في أواخر القرن السابع عشر يشكون من ضعف سياسي ـ على حد تعبير كمال صليبي ـ بسبب أن جبة بشري ـ كما رأينا ـ قد غدت في أيدي آل حمادة الشيعة... وهم وإن كانوا في كسروان أشد منعه بفضل مشايخ آل الخازن الاقطاعيين الذين اعترفوا بسلطة أمير بلاد الشوف عليهم واستمدوا منه شرعية الاقطاعية بعد أن فشلوا ـ كما رأينا ـ في توسيط لويس الرابع عشر لدى الباب العالي للحصول لهم على براءة بإقطاعية كسروان وجبيل والبترون على أن تكون لآل الخازن (ولولد الولد...) فضلاً عن أن النصارى النازحين الذين شجع نزوحهم إلى بلاد الشوف وجوارها

الأمراء المعنيون والشهابيون (كانوا في معظمهم من الفلاحين الذين استقروا في مزارع أعيان الدروز وعملوا في خدمتهم ـ كما أشرنا من قبل ـ وكان هؤلاء الأعيان... هم أصحاب السلطة الفعلية...) فلا عجب أن (يبقى الموارنة والملكيون ـ أي الروم ـ دون وزن سياسي (٢٨).

وفضلاً عن ذلك فإن كثيراً من المواقف السياسية اتخذها الأمير بخلاف رأي الموارنة ولعل أبلغها موقف الأمير بشير الثاني ـ الذي عدوه نصرانياً ـ لما استنجد به نابليون للالتفاف على الجزار في عكا فرفض الأمير ذلك وكانت مناصرة بونابرت أمنية أعيان الموارنة لِمَا كانوا عليه من علاقات جيدة بفرنسا (فانتظر الموارنة وهم أصدقاء فرنسا وصول بونابرت إلى لبنان بشوق) كما ذكر كمال صليبي (٢٩) (لكن الأمير اعتذر عن مساعدة بونابرت) فلو كان المدبر الماروني مخطط السياسة الشهابية لأمير اعتبروه مارونياً أو مسيحياً كاثوليكياً لا فرق لكان من الواجب أن يلبي الأمير بشير نداء نابليون الذي احتل مصر ووصل إلى حدود عكا فضلاً عن أن هناك مبررات أخرى سياسية محلية نعني العداء الشديد الذي استحكم بين الجزار والأمير قبل قدوم نابليون بفترة وجيزة إذ أرسل الجزار عزلاً للأمير بشير فكان الموقف العقائدي الماروني ـ وفقاً لتعبيرات منظري المارونية ـ والموقف السياسي يحتمان على الأمير إعلان الحرب على الجزار والانضمام إلى نابليون أمبراطور فرنسا والعالم في ذلك الحين، ولو فعل لربما غيرت فعلته تلك وجه التاريخ ـ إلى حين ـ ولما ارتد نابليون عن أسوار عكا خاسئاً حسيراً منهزماً.

ولا يمكن القبول هنا بأن موقف الأمير كان قلقاً إذ أن الدروز قد خشوا الزحف الفرنسي... ذلك أن الدروز وإن كان موقفهم قلقاً ومضطرباً إلا أن نابليون كان قد أرسل إليهم رسالة استعمل فيها عبارة (الأمة الدرزية تعهد لهم بموجبها بالاستقلال وبتخفيف الضرائب عن كواهلهم ووعدهم بأن يعطيهم ولاية بيروت وموانىء أخرى ذات أهمية لسلامة مواصلاته البحرية والتجارية...) (٣٠) فهذا الكتاب كان من شأنه فيما لو وقف الأمير بشير الموقف الذي تمناه الموارنة وهو الانتصار للأمبراطور الفرنسي أن يدفع الدروز إلى موقف التأييد للأمير بشير أو على الأقل إلى موقف عدم المعارضة... غير

أن موقف الأمير بشير كان عكس ذلك كلياً إذ أنه والى وخضع للصدر الأعظم العثماني (الذي قدم سورية على رأس جيش من تركيا لايقاف الغزوة الفرنسية... فإن الأمير قدم له الخيل في حماه والحنطة في دمشق وكان مستعداً لأن يضع إهراء الحنطة في بعلبك والبقاع تحت تصرف الجيش التركي...) (٣١).

هذه الواقعة وكثير مثلها تؤكد أنّ الإمارة الشهابية لم تكن تخضع في الظروف الحاسمة لمدبّري الأمير الموارنة أو لتأثيرات الفريق الماروني... وهكذا يمكن القول بوجه عام أن الشهابيين وإن كانوا (يدينون بالسنة غير أن الأمارة التي انتهت إليهم خضعت في الأكثر للاقطاعية الدرزية فالنصارى على الرغم من نفوذهم في العدد لا سيما موارنة الجبل شَكُوا من الضعف السياسي) (٣٢) (مع أن بعض أعيان الموارنة توصلوا إلى احتلال مراكز النفوذ كمساعدين ومستشارين للأمراء إلا أن زعماء الدروز الاقطاعيين ظلوا دعامة الأمارة اللبنانية) (٣٣).

* * *

تسخير الموارنة ضد جيرانهم
الدروز لقاء بواريد واعفاءات ضريبية.
بداية التسلح الماروني بموافقة السلطة:

غير أن هذه الصورة لم تستمر طويلاً إذ أن تقلب الأحداث ابتداءً بالربع الأول من القرن التاسع عشر شهدت تطوراً ضد مصلحة الدروز... كان أقصاها لمّا قرر إبراهيم باشا المصري تجنيد الدروز إجبارياً سنة ١٨٣٦ فرفض دروز حوران ذلك بحجج مختلفة منها: وجود بدو عربان حولهم أعداء لهم مما يقتضي استمرار تملكهم القوة والشباب... وكان التجنيد العسكري قد مارسه إبراهيم باشا بسهولة في أنحاء سوريا ولبنان من بين السُنَّة إذ كانت عساكره تقف على أبواب المساجد والأسواق وتأخذ من تجده صالحاً للجندية... عندئذ اعتبرهم إبراهيم باشا عصاة ووجّه عليهم حملات عسكرية غير أن لجوء الدروز إلى المناطق الوعرة في حوران المعروفة باللجاة

أدى إلى انهزام عسكر إبراهيم باشا فشدد هذا عليهم الحصار وسرعان ما أنجد دروز الشوف ووادي التيم أخوانهم دروز حوران، وكان لواء القيادة قد عُقِد لشبلي العريان... عندئذ قرَّ رأي إبراهيم باشا والأمير بشير على تجريد حملة على الدروز يستخدم فيها النصارى والموارنة الذين يعرفون مسالك الجبال واعتادوا على المناطق الوعرة... وهكذا صدرت الأوامر من إبراهيم باشا إلى الأمير بشير لتجنيد أربعة آلاف من النصارى وأن يسلمهم أسلحة وذخيرة... ويبدو أن الموارنة اشترطوا أن تكون الأسلحة لهم ولذريتهم مؤبّدة لا يجوز نزعها... إذ أنهم بخوضهم معركة ضد جيرانهم الدروز يكشفون ظهورهم، ولا بد لهم من حماية دائمة فبذل إبراهيم باشا عهوداً بذلك وتفهم أوضاعهم... وهكذا سار كبار الموارنة وأعيانهم من آل الخازن وحبيش تحت قيادة الأمير خليل ابن الأمير بشير والأمير محمود ابن الأمير خليل... ثم كانت معارك مشتركة خاضها الموارنة إلى جانب عسكر الأمير بشير وعسكر إبراهيم باشا انتهت بالقضاء على العصيان الدرزي كما سماه مؤرخو الموارنة يومئذ... وبقتل عدد كبير بلغ ثمانية آلاف قتيل.

وفي معركة عيحا قتل عدد من كبار أعيان الموارنة... غير أنه سرعان ما قبض الموارنة ثمن خصومتهم ضد الدروز ـ الذين أحسنوا إليهم من قبلُ كما رأينا ـ وانضوائهم تحت لواء إبراهيم باشا، بأن كافأهم محمد علي باشا وأرسل إليهم ـ وللأمير بشير ـ أربعة وعشرين ألف بارودة ـ منها عدد لا بأس به (للموارنة وأولادهم وأولاد أولادهم) وجدد لهم عهود ابنه إبراهيم باشا التي قضت ـ عند انتصاره بهم على جيرانهم الدروز ـ بتخفيف الضرائب عن كاهلهم وبإعفائهم من السخرة) (٣٤).

ولا شك أن الانقلاب الماروني على الدروز قد زاد في تعاظم القوة المارونية ونماء شخصيتهم وإدراكهم أن تواجدهم القوى إلى جانب وجودهم الاجتماعي والمالي والتعليمي قد يمنحهم امتيازات ويقضي على الضعف السياسي الذي عانوه في السابق... وقابل هذا انكفاء في القوة الدرزية التي كانت قد مزقتها الخلافات الزعامية المعروفة باسم الخلاف الجنبلاطي ـ اليزبكي.

* * *

نحو مزيد من سيطرة الكنيسة
والبطرك يتحالف مع الأمير بشير ويتدخل في الحرب لمصلحة الدراهم :

من جهة أخرى كانت الكنيسة المارونية قد حسمت مسألة انضمامها كاملاً إلى البابوية ونظمت أمرها عبر مجمعين عقدا في سيدة اللويزة سنة ١٥٣٥ و ١٧٣٦. أدى هذا إلى مزيد من التنظيم الرعوي وإلى ظهور سلطة الإكليروس لينافسوا مع الزمن سلطة العلمانيين الموارنة، ساعدهم في ذلك القوة الاقتصادية الكبيرة التي غدت للبطريركية وللرهبان وللكنائس والأديرة المنتشرة هنا وهناك وقد قدر بعضهم أن الكنيسة ملكت في منتصف القرن الثامن عشر (ربع السطح الكامل للجبل واعتبرها بعضهم الأخر (أكبر مالك في لبنان) (٣٥).

تلك القوة التي أضفت ثراءً واضحاً للكنيسة وسيطرة ونفوذاً واسعين في الأوساط الشعبية والفلاحين الموارنة أولئك الذين غدا ارتباطهم بالكنيسة مشدوداً بارتباطين ديني واقتصادي... مما جعل الكنيسة بتحريض من الخارج (البابا وفرنسا بصورة خاصة)* تحاول أن تصبح الناطقة الوحيدة باسم الطائفة المارونية وأن يكون لها دور حاسم في شؤون الإمارة وممارسة سياساتها المختلفة. ويؤكد إيليا حريق في كتابه السياسة والتغيير في لبنان سنة ١٧١١ - ١٨٤٠ على أن (المؤسسة الدينية كانت قد نمت إلى حد أن الأكليروس لم يعودوا يرضون بإبقائهم في مكانة ثانوية في المجتمع... وكان واضحاً أن الكنيسة هي في مركز يمكنها من أخذ المبادرة في العلاقات مع الدولة لمصلحتها...)

وهكذا تمكن بعض البطاركة من سرقة بعض الأضواء في الإمارة فراح الأمير يعتمد في تحالفاته المارونية مع البطريرك بدلاً من المقاطعجية بوحي بعض مدبّريه الموارنة الذين شجعوا، ضمن سياسة صراع النفوذ بينهم وبين

* - لا بد هنا من المقارنة بين موقف فرنسا في تلك الحقب من الكنيسة في بلادها وثورتها العلمانية وبين موقفها في الشرق بتشجيع الكنيسة في التدخل بالشؤون السياسية ضمن الأهداف والمخططات العليا الفرنسية...

المشايخ الاقطاعيين العلمانيين، على إقامة مزيد من الصلات مع البطريركية... ومن ذلك أن فوض الأمير حيدر البطريرك دون سواه حل (جميع النزاعات الناشئة بين الموارنة منذئذ فصاعداً) (٣٦)، وكذلك فعل من بعده الأمير بشير الذي استفاد من تلك العلاقة المتميزة مع البطريركية فأوعز إلى مدبّره الماروني يوحنا البحري ليطلب من البطرك المساعدة على تعبئة الموارنة لّما قرر الدخول إلى جانب إبراهيم باشا بن محمد علي سنة ١٨٣٢ فأجاب البطرك يوسف حبيش بمجموعة رسائل وجهها إلى المطارنة الموارنة يعلمهم فيها بتحرير جناب (ولدنا الخواجة يوحنا البحري) ورغب إليهم أن «تعلنوا ذلك لجميع أولادنا أبناء رعيتكم وتحثوهم ليسارعوا كل من فيه الكفاية لهذه الخدمة الشريفة حسبما هو مدون بالتحرير المرقوم... وعلى كل حال ستوجه أوامر خصوصية بهذا الصدد من جناب افندينا الأمير أمين المفخم (ابن الأمير بشير) فأخطركم حرّضوا الجميع ليكونوا مستعدين لتتميم هذه الأوامر الشريفة بغير توقيف...) (٣٧).

كما أن الأمير عاد واستفاد من علاقته الحميدة بالبطرك يوسف حبيش لّما بدأ الموارنة في الجبل يعدون للثورة ضد إبراهيم باشا وضد الأمير بعد أن فرضا عليهم الضرائب الفاحشة وبدأا - خلافاً للتعهدات السابقة - بنزع سلاح الموارنة وتجنيدهم إجبارياً في بداية سنة ١٨٤٠ إذ أن البطرك حبيش وجه مع مطارنته منشوراً إلى عموم الشعب يدعو الثوار إلى ملازمة الهدوء والنظام ويهددهم بالحرم إذا لم يرعووا..) (٣٨).

ومن الأسباب الداعية إلى تحالف الأمير بشير مع البطريركية تنازع النفوذ بينه وبين الشيخ بشير جنبلاط - الذي طمع في الحكم كما رأينا - وكانت له الكلمة المسموعة المهابة لدى الأمير بشير نفسه... وقد طار صيت الشيخ بشير إلى روما حيث أرسل البابا بولس السابع في شباط سنة ١٨١٧ بكتاب (إلى الشيخ بشير جنبلاط الذائع الصيت الكبير السطوة..) ينوه فيها البابا أن (الابن العزيز يوسف السمعاني المدير الأول للجمعية (الرهبانية - الحلبية اللبنانية) قد أخبره بعطف الشيخ بشير على الكاثوليك الموارنة ويطلب البابا من الشيخ بشير (أن تسهروا بحمايتكم واهتمامكم على أولادنا الأعزاء

الكاثوليك الموارنة... واعلموا أنكم بعملكم هذا تحققون أمراً عزيزاً علينا وتساهمون في سبيل ازدهار الطائفة المارونية الكريمة وتوطيد السلام... (٣٩) فإن كان لمثل الشيخ بشير يوجه البابا هذا الكتاب وهو ليس بحاكم، فكم من الكتب وجهت إلى الأمير الحاكم... (تلك التي لم تنشر بعد؟؟) غير أن كتاب البابا للشيخ بشير كاف وحده لأن يسعى الأمير إلى كسب ود الموارنة وإلى الإحسان إليهم وإلى مجاراتهم وإلى التحالف مع بطاركتهم ومطارينهم باعتبار أن البابا يحرص على تدعيم سلطة الكنيسة المارونية...

* * *

٢ ـ الرمز السني في حكم الأمير بشير

مما تقدم من صفحات أمكننا أن نفهم لماذا مالأ الأمراء المعنيون والشهابيون السنّة الدروزَ والموارنةَ بآن معاً أو إحدى الطائفتين تارة والأخرى تارة ثانية...

فالأمراء السنة كانوا هم الرمز للسيطرة السلطوية على مقاطعات كسروان حتى الشوف، إلا أن أكثر المسلمين السنة كانوا قد انسحبوا منها ليتمركزوا في المدن الساحلية أو داخل الولايات الشامية... كما أن الدولة العثمانية لم تكن تنظر إلى الولايات وخاصة المقاطعات نظرة تطويرية رعائية حانية... مما أوجد التخلف في أكثر من صعيد، قابله مد أوروبي نصراني عبر الإرساليات والإعانات والمساعدات المالية والاجتماعية والتعليمية... وازدياد نماء في القوة المحلية المارونية والنصرانية ومزيد من التشبث بالأرض وبشراء عقارات أخرى ومد النفوذ إليها... الأمر الذي أضفى مزيداً من الغموض على الأمراء الشهابيين ضمن معادلات سياسية ودينية وطائفية بالغة التعقيد. تلك الصورة الباهتة للأمراء الشهابيين أدَّت إلى ضياع في الهوية الدينية دخل من خلالها المبشرون ليزيدوا في التشكيك محاولين خلع التنصير عليهم... بينما وجدها الموارنة ـ في غياب التأريخ الإسلامي والمحايد ـ فرصة نادرة للاصطياد في الماء العكر «فنصروا» كل من وجدوه ضرورياً لخدمة أسلوبهم في التضخيم والتحريف وضمن استراتيجية حديثة وهي السيطرة الكاملة على رئاسة الدولة اللبنانية بالاستناد إلى خلفية تاريخية سابقة؟؟؟.

ونحن هنا ـ كما كنا مع الأمير فخر الدين الثاني ـ لا نعول أهمية كبرى

على الهوية الدينية للأمراء الشهابيين. . . إذ أن تلك الهوية كانت أشبه بالمُعطّلة ضمن سياسة (التقية) التي اتبعها بعض أولئك الأمراء. . . مما قلل من التأثيرات الإسلامية المباشرة، باستثناء ما كان منها إزاء المواقف المصيرية الحاسمة. غير أن تعمد مؤرخي المارونية تحريف بعض الوقائع وتغيير مساراتها وتحويل وجهتها لتصب فيما ابتدعوه من امتياز رئاسي في لبنان الحديث، أوجب أن تحاكم الأسرة الشهابية دينياً وأن يُكشَفَ الغطاء عن تلك التقية التي مورست ـ في بعض الأحيان ـ في محاولة لإعادة الحق إلى نصابه.

ولا بد أيضاً هنا من الإشارة إلى أن أمراء الشهابية والمعنية في القرن السابع عشر والثامن عشر والتاسع عشر، لم يتربوا ـ بصورة عامة ـ التربية الإسلامية السليمة ولم يَتَفقهوا في الدين بل شغلتهم الإمارة والسيادة عن العلم والعلماء. . . ودب فيهم الاختلاف مما أدى إلى مزيد من التشرذم واللامبالاة. . . زد على ذلك أن وقوع أبناء الأمراء بمخالب الإرساليات والمبشرين والمدبرين الموارنة والمسيحيين عموماً أثر إلى حد كبير في تشويه التصورات والتبعية الإسلامية عندهم، غير أن هذا لا يسقط عمن مارس الحكم هويته الإسلامية. . .

ومما يسترعي الانتباه أن أكثر من أرّخ لتلك العائلات الحاكمة موارنة أو نصارى أو أجانب. . . الأمر الذي لا يوفر لنا الحقيقة كاملة خاصة في مسائل حساسة ذات طابع شخصي كالتدين أو الممارسة الدينية سواء كانت مشوهة أم سوية. . . مما يحملنا على محاولة الاستقراء والتمحيص فيما كتبه هؤلاء وأولئك، فنميز الخيط الأبيض من الخيط الأسود، ما أمكننا إلى ذلك سبيلاً.

تنصير الأمير قاسم والد الأمير بشير
وَرَدَ في رسالة البطرك أسطفان
الذي توهم يوماً صلاح الراهبة الهندية فعزله البابا:

تكاد تنحصر مسألة التنصير في الأمير قاسم بن عمر والد الأمير بشير الثاني. . . إذ في ثبوت تنصر هذا الأمير تثبت نصرانية الأمير بشير بالوراثة!!. . . على هذا فقد ذكر مؤرخو الموارنة أن الأمير قاسم أقام في غزير

قبل وفاته بثلاث سنوات (وغزير من إقطاعاته وغدت بأكثريتها موارنة وكانت إقامته فيها في سنة ١٧٦٤ وفق رواية الأب ضو وفي رواية أخرى له أنه تنصر في سنة ١٧٦٣، أما كمال صليبي فيذكر أنه تنصر سنة وفاته في ١٧٦٧. وعلى كل فقد رُزق بابنه حسن في السنة الثانية لإقامته في غزير (١٧٦٥)، ثم رزق بابنه الثاني الأمير بشير في السنة الثالثة ١٧٦٧ حين توفي، وفي رواية أخرى انه تنصر في نيسان سنة ١٧٦٨، أي بعد وفاته ومن المتفق عليه أنه دفن في القبة في مدفن أمراء بني عساف (٤٠).

فالأمير قاسم هو أخو الأمير ملحم الذي حكم ما بين (١٧٣٢ ـ ١٧٥٤) والأمير ملحم هو ابن الأمير حيدر الذي حكم من ١٧٠٧ إلى ٢٧٣٢ وهو ـ أي الأمير حيدر ـ الذي اقترحه الأمير حسين بن فخر الدين ليكون أميراً على بلاد الشوف وارثاً الأسرة المعنية.

ويتفق مؤرخو الموارنة على أن الأمير بشير الأول الوصي على الأمير حيدر (وفق اقتراح الأمير حسين) والأمير حيدر والأمير ملحم مسلمون سنيون. . . يقول الأب ضو عن الأمير حيدر (كان مسلماً سنياً ومتزوجاً من أربع نساء. . .).

أما الأمير ملحم المسلم السني أيضاً فقد ذكر فيليب حتي أنه (في سنة ١٧٥٤ تنازل عن الإمارة وانقطع إلى حياة التدين والزهد وأقام في بيروت (وعكف على درس الفقه ومعاشرة علماء الإسلام) (٤٢) غير أن الأب ضو عزا اعتزاله الإمارة إلى شوكة شيك بها فمرض واعتزل الأحكام وأقام في بيروت (٤٣) دون أن يذكر حبه للعلم ودروسه للفقه ومعاشرة علماء الإسلام. . . وهكذا عاش الأمير ملحم حاكماً على الإمارة ثم اعتزل الحكم ليتتلمذ على أيدي علماء بيروت. وفي هذه الإشارة مغزى كبير إذ أن الجوعة الروحية والفكرية للأمراء الشهابيين كانت بادية وجلية. . . فعلماء الإسلام والسنّة عموماً أقاموا في المدن والساحل بينما حكم الأمراء الشهابيون السُنّة بلاد الشوف وكسروان التي شكل الدروز والموارنة معظم سكانها. . .

تنازل الأمير ملحم عن الإمارة لأخوية الأمير منصور والأمير أحمد. . .

غير أن الأميرين تنازعا الإمارة وأساءا التصرف ولم يكرما الأمير ملحم المعتزل والمقيم في بيروت فاستدعى الأمير ملحم ابن أخيه الأمير قاسم وأرسله بكتاب إلى الآستانة يطلب فيه أن توجه الإمارة رسمياً إلى الأمير قاسم بدلاً من الأميرين المتنازعين، ومما لا ريب فيه أن إقدام الأمير ملحم على مخاطبة السلطان والصدر الأعظم تكشف ـ وهو الأمير المعتزل المتعلم المتتلمذ على أيدي علماء الإسلام في بيروت ـ مدى ثقته بنفسه واحترام السلطة له... وقد سافر الأمير قاسم فعلاً إلى استنبول إلا أن موت السلطان وقتئذٍ حال دون رجوعه مع فرمان الإمارة... غير أن كتاب الأمير ملحم لم يهمل فكان موضع احترام حتى لدى السلطان الجديد ـ فما أن عاد الأمير قاسم حتى ورد الخط الشريف بتولية قاسم جبل الشوف وتوابعه... فأبلغ الأمير قاسم عميه بالفرمان الجديد فنازعاه فاستنجد هذا بوالي صيدا نعمان باشا لينفذ فرمان السلطان فخف الوالي وأمد الأمير قاسم بالعسكر فتوجه بهم من بيروت إلى البقاع حيث (فتك بعسكره وباء الطاعون فتكاً ذريعاً... وعلى أثر ذلك جرى الصلح بين قاسم وعميه) ثم اعتزل قاسم أيضاً الإمارة، فأقر نعمان باشا الوالي الأميرين منصور وأحمد على حكم الشوف، أما عربون مصالحة الأمير قاسم مع عميه فكان أن تزوج الأمير قاسم ابنة الأمير منصور سماء الشرق والمعروفة بأسماء... فتزوجها في عيندارا ثم انتقل بها (إلى بشامون التي توطنها أربع سنوات ومنها ذهب إلى بيروت فغزير التي كانت من إقطاعه وفيها كانت وفاته سنة ١٧٦٧) (٤٤).

وباعتبار أن الأمير بشير الثاني هو ابن الأمير قاسم وانطلاقاً من أن منظري المارونية يعتبرون الأمير بشير هذا مارونياً بالميلاد فكان لا بد من تنصير أبيه قبل وفاته بثلاث سنوات ومن تأخير ميلاد حسن وبشير إلى ما بعد التنصير حتى يكونا نصرانيين ومعمدين حسب العادات النصرانية... وهكذا فإن زواج الأمير قاسم بسماء الشرق لم ينجم عنه ذرية سحابة أكثر من عشر سنوات فيطوف الأمير بعروسه في مقاطعات البشامون وبيروت وعين دارا حتى يستقر في غزير فيتنصر فيرزق بوليدين...!!

ومن العجيب أن مسألة تنصره وهي في غاية الأهمية في ذلك الزمن قد

تمكن مؤرخو المارونة من (تمريرها) دون ضجة إذ ليس بالأمر الهين أن يُسرق المسلم من دينه إلى النصرانية ويرتد... دون أن يكون لهذه المسألة حيز من الجدل أو الضجيج إن لم نقل تتدخل السلطة لحبسه بالآستانة أو لمحاكمته وفقاً لأحكام الشريعة الإسلامية المعمول بها في ذلك الحين. علماً أن الجدل هذا أو الضجة تلك يرافقان مروق أيٍ كان من العاديين، فكيف إذا كان المارق أميراً؟ لا ريب أن الجدل سيكون أكبر بكثير وأعنف مما يتصوره مؤرخو المارونة خاصة وأنهم هم الذين أعلنوا في تاريخهم المضخم أن الدولة العثمانية حاكمت الأمير فخر الدين الثاني (لجحود هذا الأخير للدين الإسلامي وميله إلى المسيحيين الإفرنج) ـ كما بينا ـ فكيف يمكن أن يكون هنا صمت مطبق وأن يمر تنصير الأمير قاسم وأن يبقى سرا لا يذيعه إلا البطريرك بولس أسطفان مدعياً أن تنصير الأمير قاسم تم على يديه عندما كان مطراناً وأن تأتي هذه الإذاعة عبر رسالة يرسلها هذا البطرك إلى بولس الخامس عشر في فرنسا... ذلك أن ملك فرنسا كان قد اعتبر نفسه حامي المسيحية في العالم وكان البطاركة الموارنة قد درجوا على إبلاغ انتخابهم إلى ملك فرنسا لطلب تجديد الحماية لهم. (فقد صرح البطريرك بذلك ـ أي بتمكنه من تنصير الأمير قاسم ـ في رسالة بعث بها إلى ملك فرنسا لويس الخامس عشر) (٤٥).

ويبدو أن المطران ـ البطرك قد توهم هذا أو أحب أن يتوهمه ليقدم بين يدي لويس الخامس عشر أعمالاً يعتبرها لويس وربما أيضاً الدبلوماسية الفرنسية شيئاً هاماً تدل على حسن ولاء البطرك وعلى عمله ضمن الاستراتيجية الدولية للبابوية وفرنسا في ذلك الحين... نقول أن البطرك يوسف أسطفان قد (توهم) (تنصر) الأمير قاسم ـ كيلا نقول أمراً آخراً ـ إذ أنَّ جميع مؤرخي المارونة قدْ أخذوا هذا النص دون جدل واعتمدوه مرجعاً دون نقاش... ولم يتساءل أحد عن الأسباب التي دفعت الأمير قاسم إلى التنصر كما لم يذكروا مراحل هذا المروق شأنهم في إدعاء تنصر الأمير فخر الدين أو من هو أقل شأناً من الأمير قاسم نعني الأمير اللمعي عبدالله بن قيدبيه ـ الذي اخترعوا له قصة طويلة في ادعاء تنصره شارك بها في حرارة (الآباء والمبشرون الكبوشيون...) (٤٦).

ولا بد لنا هنا أن نسأل عن سر إيراد هذا النص في كتاب وجهه البطرك إلى فرنسا...؟ ويأتي الجواب واضحاً هو أن البابا كان قد كَفّ يد البطريرك أسطفان إذ (صدر الحبر الروماني بأن يكون - البطرك أسطفان - مربوطاً - عن التصرف بسلطانه البطريركي وأن يشخص إلى رومه ليعطي جواباً عن محاماته للهندية وعن عصاواته) (٤٧)... فقد حصل أن أدعت هندية هذه وهي راهبة جاءت من حلب وادعت القداسة واشترت بكركي وأقامت فيه رهبنة وحرّفت في الديانة المسيحية وألَّفَتْ كتاباً أسمته (اللاهوت السري) زعمت فيه إمكان اتحاد الإنسان الكاثوليكي بلاهوت المسيح كاتحاد لاهوته هو بناسوته ثم ادعت النبوة والوحي... وقد أيدها البطريرك اسطفان هذا مما أثار الشبهة حول صحة إيمانه ومعتقده وقدرته على ممارسة سلطانه البطريركي... فلما صدر ربطه من البابا وكفت يده عن البطريركية دُعي إلى رومه جيّشَ البطرك هذا أعوانه وبخاصة الشيخ سعد الخوري مدبر الأمير يوسف الشهابي فكتب إلى البابا بولس السادس رسالة يستعطفه على البطرك (ويلتمس عودته إلى منصبه البطريركي) (٤٨) كما أرسل البطرك إلى ملك فرنسا رسالة يدافع فيها عن صحة معتقده ويطلب إليه تدخله لدى البابا لإنصافه وفي هذه الرسالة يكشف البطرك سر جهاده في نصرة النصرانية فيزف البشرى إلى الملك الفرنسي بأنه تمكن من تنصير الأمير قاسم المتوفى آنئذٍ.

ويبدو أن البطريرك قد وقع في تخيل «تنصير الأمير» المتوفى ليخلي ساحته من تهمة الانحراف الديني... وهو نفس التخيل الذي طرأ عليه بصدد الراهبة الهندية (وانخداعه بقداستها وصحة إيمانها ومحاماته عنها - كما يقول المطران دبس أو كما يقول هو عن نفسه بالإقرار الذي قدَّمه إلى البابا يعلن فيه غلطته فيقول (أنا المدون اسمي أدناه أقر وأعترف بغلطتي واعتقادي الباطل بقداسة حنه عجيمي راهبة دير بكركي وانخداعها... ثم إني أقر وأعترف أن هندية المذكورة كانت مخدوعة بخبث واضح وأن تخيلاتها وأوحيتها ونبواتها التي كانت تتفاخر بها وجميع آرائها الحديثة المستغربة ولا سيما زعمها أن جسدها ونفسها يتحدان مع جسد المسيح ونفسه فهذه كلها باطل واختراعات وقحة...) (٤٩).

كما أن العرائض التي قدمت إلى فرنسا والبابوية، لاستدرار العطف على البطرك، كانت تذكر بالحماية الفرنسية للموارنة وللبطاركة وكيف أن معاملة البطرك هذه (تكسر خاطر الطائفة وتحزن قلبها) (٥٠)... وعلى هذا فمما يمكن قوله إن البطريرك اسطفان توهم مرتين مرة بانخداعه بالهندية (الصابئة) ومرة بأن جعل الأمير قاسماً محور تخيله فنصّره. وقد يكون الأمير قاسم على صداقة ما مع المطران - البطرك شأن آل شهاب ضمن معادلات الحكم في الإمارة - كما بينا من قبل - فاستفاد البطرك من تلك الصداقة - وقد مات الأمير، ليعلن تنصره عبر رسالة خاصة إلى فرنسا خاصةً وأن الأمير قاسم قد اعتزل الإمارة منذ أكثر من عشر سنوات من وفاته وليس له ذرية إلا قُصّراً لا يمكنهم الادعاء بعكس مضمون الرسالة إذا ما افتضح أمرها!!!

الأمير قاسم عاش ومات مسلماً:

وهنا لا بد من طرح السؤال: لأي أمر يتنصر الأمير قاسم؟ فهو - من جهة - قد عاصر عمه الأمير ملحم الذي تخلى عن الحكم ليتفرغ للعلوم الإسلامية والتزود بها وتقرب منه بإقامته معه في بيروت مما دفع الأمير ملحم ليختاره بديلاً عن أخويه منصور وأحمد فوجهه بكتاب إلى الباب العالي، ثم ورد الفرمان السلطاني بتنصيبه، مراعاةً لطلب الأمير ملحم العالم العابد ثم وافاه والي صيدا التزامه بأمر السلطنة ونصرُهُ له من أجل إمارته. بالإضافة إلى زواجه من أسماء بنت الأمير منصور، كل ذلك دوافع أساسية للتشبث بسنيته تجعل مسألة تنصره ضرباً من الوهم الذي اعتاد أن يطرأ على البطريرك فقد كان البطريرك يعيش ظروفاً صعبة أثناء عزله عن البطريركية واضطراره إلى الدفاع عن نفسه وإيمانه... الأمر الذي جعل البطرك أسطفان أكثر تسامحاً - مع الحقيقة - إذ (استخدم) صديقه المتوفى ستاراً يُظهر فيه ومن خلاله، ومذ أن كان مطراناً، محاماته عن النصرانية وقدرته على تنصير أمراء مما عجز عنه مبشرون وإرساليات!!.

ويمكن بكثير من الجدية والجزم التأكيد بأن الأمير قاسم المسلم السني عاش ومات في الإسلام.. ومما يؤيد وفاته على الإسلام أيضاً أنه دفن في مقابر المسلمين الخاصة بالأمراء العسافيين المسلمين السنيين كما يقول الأب

ضو. فلو كان نصرانياً لما دفن في تلك المقابر بحال من الأحوال... ويكفي مدفنه هذا دحضاً كاملاً لتنصيره المزعوم...

منظور الدروز: الأمير بشير تنصر نكاية بالدروز:

وعلى هذا فإن الأمير بشيراً الثاني بن الأمير قاسم مسلم بالميلاد وسني المذهب على نهج الأسرة الشهابية... وقد قال بإسلام الأمير بشير الأساتذة أبو شقرا في كتابهم (الحركات في لبنان) ولو أنهم ذهبوا ـ خطأ ـ إلى أنه قد مرق عن الإسلام إلى المسيحية نكاية بالدروز فقد قالوا (ترك ـ أي الأمير بشير الثاني ـ دينه الإسلامي الذي ولد فيه وشب عليه واعتزّ به مارقاً منه إلى الدين المسيحي وما ذلك لجزمه بصحة هذا أو فساد ذاك لأنه لم يكن ذا معارف نيرة يتبين بها مثل هذا الأمر بل كان مجرد تنصره نكاية بالدروز وإعلاناً بالبغض لهم والابتعاد عنهم والحب لغيرهم) (٥١) ولا شك أن رأي آل أبو شقرا في هذا الصدد وهو موافقتهم للمؤرخين النصارى في تنصره، بعد أن شب مسلمًا، كان لأجل أن يمتلكوا تفسيراً ينطلقون منه إلى توضيح مواقف الأمير العنيفة ضد الدروز وفي تفسير الخصومات السياسية والعسكرية التي ذر قرنها بين الفريقين وأدَّت إلى هزائم منكرة بالدروز وإلى تشتت قواهم في البلاد...

الأدلة والقرائن التاريخية تؤكد
أن منصب إمارة جبل لبنان هو
لمسلم سني وأن الأمير بشير مسلم
بالوراثة ولم يتنصر:

غير أن جميع القرائن والأدلة التي توفرت لنا والتي سنذكرها لاحقاً، تؤكد أن الأمير بشيراً بقي على إسلامه وعلى سنيته، ولعلَّ اختياره الآستانة ليقضي نهاية عمره بعد نفيه من البلاد حيث مات فيها لتشير بوضوح إلى بقائه على الإسلام إذ كان بوسعه أن يختار بلداً نصرانياً بدلاً من عاصمة الإسلام التي دحرته!!! غير أن مؤرخي الموارنة حتى يتمكنوا ـ كما بينا ـ من إيجاد مصدريه تاريخية للرئاسة المارونية للبنان اليوم كان عليهم أن يكدحوا وأن يَشْقَوا في سبيل اختراعها مهما تكن الاعتبارات. وهكذا وبعد أن حرَّف المنظرون الحقائق من جهة وبعد أن زوروا بعضها الآخر من جهة ثانية وبعد أن

استفادوا من التقية التي مارسها الأمير بشير ومثله بعض الأمراء الآخرين... تمكنوا أن يقولوا (... قيل أن الأمير بشير كان درزياً أو مسلماً يشاركه مدبر ماروني. في المرحلة الثانية التي ابتدأت مع بشير الثاني أصبح الأمير والحاكم مارونياً... وهكذا الذل والظلم الذي عاناه الموارنة... مدة طويلة انتهيا بانقلاب أبيض سلمي انتهيا بتنصير الإمارة عندما ارتقى سدتها بشير الثاني الماروني، هذا كان رد الموارنة على الظلم التركي نَصَّروا الإمارة بعد أن كانوا شركاء مع الأمراء في الحكم أصبحوا هم الأمراء)... وتبعاً لتنصيره المزعوم بالميلاد ـ على حد التعبير الماروني ـ أو بالكناية ـ على حد التعبير الدرزي ـ فقد نصرّوا معه زوجته المسلمة السنية الست شمس (ولم يتزوج الست شمس إلا بعد أن تنصرت) كما أنهم نصروا زوجته الثانية جهان الجركسية المسلمة السنية، ولو كان بإمكانهم أن يزوجوه ثالثة مارونية أصلاً لما ترددوا... أليس عجيباً أن يصر الأمير على تزوج المسلمات ثم يشترط عليهن التنصر؟؟. وهو أمير على مقاطعة تابعة لوالي صيدا المسلم التابع للباب العالي الممثل الأوحد للخلافة الإسلامية آنئذٍ..؟.

زد على ذلك وخلافاً لما يقولوه فإن زوجته جهان الشركسية توفيت على الإسلام ودفنت في قصر بيت الدين ونصب الأمير على قبرها (شاهد) عليه اسم سورة الفاتحة القرآنية... وهذا يحسم إسلامية جهان زوجة الأمير فضلاً عن إسلام الأمير نفسه، إذ لا يجوز من الناحية الشرعية أن تتزوج المسلمة غير مسلم فأما أن تتنصر هي أو يسلم هو* ... فإن ثبت إسلامها حين وفاتها ثبت بشكل قطعي إسلام الزوج خاصة إذا علمنا أن الأمير كان مغرماً بزوجته الشركسية المسلمة هذه حتى أنه كُنّي بأبي سعدى نسبة إلى ابنته سعدى من زوجته جهان الشركسية...

غير أن بعض مؤرخي الموارنة كفيليب حتي كان أكثر اعتدالاً من المتطرفين منهم كالأب ضو. فقد ذهب حتي إلى عكس ما ذهب إليه منظرو المارونية الجديدة ـ فجعل الأمير مسلماً بالزواج أي أنه رفض أصلاً فكرة تنصير

* ـ راجع في بحث تحريم المسلمة على غير المسلم كتابنا الزواج الإسلامي أمام التحديات. من منشورات المكتب الاسلامي ودار الايمان.

المسلمات لأجل زواجهنَّ بالأمير فكونهنَّ مسلمات غدا الأمير مسلماً أي أن فيليب حتي أسلم الأمير بشير ـ لظنه أن الأمير نصراني بالميلاد آخذاً برواية البطرك أسطفان السالف الذكر ـ ولم ينصر النساء ـ كما زعم الأب ضو ـ فقد ذكر فيليب حتي ما نصه ـ (كانت سياسة الأمير بشير في الأمور الدينية على كثير من التسامح وسعة الصدر (؟) فقد كان مسيحياً بالمعمودية ومسلماً بالزواج ودرزياً بالمصلحة عن اعتقاد) (٥٣) إلا اننا قد بينا، من قبل، بطلان زعم معموديته وأوضحنا تناقضاته مع الدروز التي أدَّت إلى التقاتل وتدمير قراهم ونفورهم منه وغضبهم عليه... فلم تكن هناك من مصلحة بين الأمير والدروز ليتدروز. فضلاً عن أن التدروز ممنوع أصلاً لغلق الباب على الأتباع الجدد، كما بينا أيضاً، وعلى هذا فلم يكن الأمير إلا مسلمًا عاش ومات على الإسلام... وتؤكد مسألة إسلامه مجموعة أدلة منها:

ـ كان الأمير (يأمر) بإقفال المقاهي ويمنع الأكل والشرب نهاراً طيلة شهر رمضان التزاماً بالإسلام الحنيف (لا تظاهراً بالإسلامية) كما ذكر صاحب أخبار الأعيان الذي أورد النص على الشكل التالي: أن يقفلوا القهاوي في شهر رمضان ويمنعوا المآكل والمشارب نهاراً تظاهراً بالإسلامية) (٥٤).

ـ إنه، شأن سائر الولايات العثمانية، يطبق أحكام الشريعة الإسلامية وينفذ ما يصدره الباب العالي من أحكام ـ الأمر الذي أزعج وليد فارس (الكسليك) فذكر (أن الأمير بشير... بدأ عهداً تميز بالمساواة بين الدروز ـ الإسلام والموارنة ولكن هذه المساواة لم تكن إلا انتزاعاً لبعض حقوق الموارنة وَفَرضَ الشريعة الإسلامية عليهم...) (٥٥) وهذه الدراسة الجديدة عن الأمير التي صدّرها الكسليك بعد حرب ٧٥ ـ ٧٦ لم تشر من قريب أو من بعيد إلى قصة تنصر الأمير بل اعتبرت الأسر الشهابية مسلمين سنّة وإنما أشارت إلى أن من الأمراء من تدروز ومنهم الأمير بشير... (٥٦) أما التنصر ـ كما ذكر الأب ضو ـ فلا..

ـ سمّى حفيده ابن الأمير خليل (محموداً) وهو اسم مختص بالمسلمين وبصورة خاصة السنّة... وعلى ما نعلم ـ وكما نقل إلينا ذلك

الأستاذ الشيخ طه الولي المؤرخ اللبناني المعاصر ـ أن ولديْ الأمير بشير أمين وخليل مسلمان وقد دفنا في مقابر المسلمين في الجبل وعلى قبريهما (شاهدان مزدانان بالآيات القرآنية).

ـ بنى الأمير في قصره بيت الدين جامعاً. فقد ذكر فيليب حتي (وكان قصره في بيت الدين يحتوي على جامع) (٥٧).

ـ لم يكن والي عكا أحمد باشا الجزار مضطراً ـ وهو الذي حمل عليه مؤرخو الموارنة واتهموه بكل ثقيل من الكلام فضلاً عن ذمهم له بأنه كان متعصباً ـ ليُحْدِثَ (الإنقلاب الأبيض السلمي الذي حلم به الأب ضو بتعيينه على بلاد الشوف أميراً نصرانياً مارونياً بالمعمودية ثم يتغاضى عنه إذا نصّر زوجته الست شمس ـ كما زعموا ـ ؟! وعلى افتراض أن الجزار لم يكن يعلم بتنصير المسلمة إلا بعد حين أما كان سارع بخلع الأمير لهذا السبب بالذات ومعاقبته وحتى إعدامه؟؟ ألم يكن الجزار جزاراً؟... فقد رَسَمَ الجزار الأميرَ بشيراً أميراً على الجبل سنة ١٧٩٨ وألبسه خلعة الولاية وأمده بألف ـ وفي رواية ـ بعشرة آلاف مقاتل مسلم مغربي وأرناؤوطي حتى ينتزع السلطة من خلفه الأمير يوسف الذي غضب عليه الجزار... فلو لم يكن الأمير مسلماً لَمَا ولّاه، خاصة وأن (التقاليد في الإمارة) أن تكون للمسلمين السنة فكيف إذا كان الأمر متعلقاً بالجزار (المتعصب؟؟؟) فهل يعقل أن يدفع الجزار بالآف المسلمين لتثبيت أمير متنصر بالعماد ينصر امرأة مسلمة؟؟؟.

ـ يؤيد هذا بيان من أحمد باشا الجزار صَدّره أثناء سفره لتأدية فريضة الحج (وزيارة نبينا السيد البشير النذير) إلى أمراء ومشايخ ورعايا وسائر سكان جبل الشوف والمتن وكسروان بوجه العموم. (من أجل تأكيد ولاية الأمير بشير ولزوم طاعته (طاعة لخليفة رسول الله، مالكِ ذمة الخليفة، شمس تلك الدولة العثمانية) وفيه يقول: (أنذرناكم وحذّرناكم غاية التحذير... عرفناكم عن هذه الأفعال السيئة الردية والطرقات المعوجة الغير مرضية... وابتعدتم عن قول الحق المبين يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله والرسول وأولياء أصحاب الأمور (أصل الآية وألي الأمر منكم) فتزحزحتم بغرور أنفسكم عن ذلك

وأشهرتم الجور والاعتساف وتركتم الصواب والإنصاف) . . . و (نظن في حلول ركابنا السعيد عن طريق الحاج الشريف أن يتغير الخبث الذي بأنفسكم إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بنياتهم (أصل الآية ما بأنفسهم) ثم يُذَكر سكان الجبل بأن الأمير سيطلب منهم الأموال الأميرية فيقول (طلب منكم افتخار الأمراء الكرام ولدنا الأمير بشير شهاب الخدامة . . . فاعلموا واعرفوا وتحققوا إن سلكتم فيّ إلا طاعة وكنتم خاضعين إلى ولدنا الأمير المشار إليه فعليكم من طرفنا الأمان وأمان رسوله ثم أماننا . . . وإن عاندتم تندموا . . . وإياكم المكر ومخالفة الصواب واعتبروا قول رب الأرباب) إلخ . . . والسؤال هنا هل يعقل أن يوجه الجزار هذا الكلام ويطلب من سكان الجبل مسلميه ودروزه وموارنته وسائر مسيحييه الالتزام بطاعة نائبه طاعة لله وللرسول، ونائبه ماروني لا علاقة له أصلاً بالتزام نصائح إسلامية ضمن الأحكام الشرعية . . . إذ كيف يمكن للأمير الماروني أن يطلب الطاعة لله ولرسوله ويدعو إلى ما دعا إليه الجزار من دعوة صادقة وإيمان شامل وتغيير ما في النفوس؟؟؟ (٥٨).

ـ في سنة ١٨١٠ صدر عن والي صيدا سليمان باشا مرسوماً قضى بتعيين الأمير بشير ملتزماً جبل الشوف وجبيل وكسروان وتوابعهما بمدة حياته ما دام مراعياً للشروط وانتهى المرسوم بما يلي: (فيلزم من مزيد حميتك تشمر عن ساعد اهتمامك في الضغط والربط وإجراء الأحكام الشرعية الشريفة وتأييد القوانين المعنية ومطابقة كامل أمورك عليها) * (٥٩) فهل بعد هذا من شك في دين الأمير، إذ هل يعقل أن يطلب إليه الوالي ضبط الأحكام الشرعية وأن تكون أمور حياته في إمارته مطابقة لها وهو ماروني لا علاقة له بها؟؟.

ثم يقول المرسوم (وتسعى في إعمار البلاد والعباد وتأمين الطرقات وأبناء السبيل وقطع دابر كل مفسد ومنافق ومن يتعدى الحدود من غير أدنى مسامحة والسعي بأداء مال الدولة العلية والأموال الأميرية وسائر المطاليب والخدمات بوقتها والتحيد عن الجور والتعدي والاعتساف).

* ـ لا شك أن هذا المرسوم يكشف اهتمام الولاة من حيث المبدأ على حسن =

ولا ينسى الوالي أن يُذَكِّر الأمير، كمألوف عادته، بالدعاء للسلطان فيحثه على (استجلاب الدعوات من الخاص والعام بدوام وبقاء سلطة مولانا . . . قامع الكفرة والمشركين ناشر ألوية العدل والدين . . .) فهل يوجه وال مرسومه هذا إلا إلى أمير مسلم . . . إذ لا يعقل توجيه مثل هذه الأمور إلى نصراني، كما لا يخفى، خاصةً وأنه صدّر رسالته بقوله (بسم الله الرحمن الرحيم وفوضت أمري إلى الله).

ـ ما كان يقوله والي صيدا وفلسطين عبدالله باشا عن الأمير لسكان نابلس (ما سار في مهمة إلا الله سبحانه ينصره على الأعداء) (ولو لا شفقة الأمير على حريم الإسلام لدخل الشام في ساعة واحدة) (٦٠) فمثل هذا الوصف لا يسوقه مسلم إلا لمسلم . . .

ـ وكان عبدالله باشا والي صيدا (تولى ولاية صيدا سنة ١٨١٩ بعد سليمان باشا) قبل أن تتوطد علاقات الود والمناصرة بينه وبين الأمير، كان يكثر مطالبة الأمير بضرائب إضافية . . . فلما عجز الأمير عن تأديتها استغل عبدالله عجزه هذا ليعزله محققاً بذلك مطالبات اليزبكية من الدروز معيناً بديلاً عنه الأميرين حسن وسلمان الشهابيين وأرسل عبدالله خلع الولاية مع مشايخ اليزبكية مشترطاً على الأميرين أن يعلنا إسلامهما مجدداً أمام جموع الناس في عاصمة الإمارة . . . إذ أسلما أمامه في عكا فأراد الوالي تأكيد إسلامهما، ـ إن صحت أقوال مؤرخي الموارنة ـ فقد تنصر والدهما الأمير علي بن الأمير حيدر الشهابي سنة ١٧٤٤ وولد له الأميران حسن وسليمان . . . فعندما طلبا الإمارة متزعمين معارضة الأمير بشير وأيدهما في ذلك الحزب اليزبكي ـ الذي كان يضم موارنة إلى جانب الدروز وهم الأصل ـ اشترط عبدالله باشا أن يعلنا إسلامهما باعتبار أن الإمارة لا تكون إلا

= تطبيق الشرعية والحض على الأعمار واستتباب الأمن ونشر العدل والإنصاف فإن وقع جور أو ظلم من أحد الولاة أو الأمراء فلا يجوز أن يحمل الظلم إلا على الظالم ولا يجوز أن تنعت به الدولة بعمومها . . .

لمسلم . . . فلما توثق من ذلك وجه إليهما خلعة الولاية وأرسل أيضاً (الشيخ محمد الدسوقي لإرجاعهما إلى الإسلام) (٦١) إيماناً لا مصلحة (وفي دير القمر أظهرا إسلامهما واستقرا في دست الحكم) كما يقول الأب ضو في تاريخه .

فلو كان الأمير بشير نصرانياً لعزله الوالي لهذا السبب وهو أهم بكثير من حجة عدم تمكن الأمير من إيفاء المال المطلوب، هذا من جهة . . . ومن جهة أخرى لَمّا اشترط على الأميرين حسن وسليمان إشهار إسلامهما وأرسل إليهما من يعلمهما شؤون الدين الإسلامي . . . فإن كان ـ قصد الوالي التبشير بالدين الإسلامي لكان فعله هذا مع الأمير بشير ـ على افتراض أنه نصراني . . . زد على ذلك أنه لو كان الأمير بشير نصرانياً لأثار المسألة على صعيد ديني ـ وقد أبعد هو عن الإمارة لهذا السبب وجيء بأميرين ارتدا إلى الإسلام ـ ولا ستنفر حمية الموارنة والنصارى أو على الأقل لأوغر صدورهم ضد الأميرين المنافسين اللذين تخليا عن دينهما في سبيل الإمارة . . . أو ـ وهذا في أسوأ احتمال ـ لقامت ضجة حول إسلام الأميرين سواء من الدروز الذين طلبوا الإمارة لهما ـ أو من النصارى غير أن شيئاً من هذا لم يحدث مما يؤكد حقائق منها أن جميع سكان الإمارة أعياناً وعامة مؤمنون إلى أبعد الدرجات بأن الإمارة حق للمسلمين السُّنة وأن شرط التولية إسلامية الأمير الشهابي وأن الأمير بشيراً المعزول أو المستقيل ـ لا فرق ـ هو أمير مسلم سني ولذا فإن وريثيه ينبغي أن يكونا مسلمين سنيين . . . من أجل هذا تلقى الجميع مسألة إسلام الأميرين بالقبول والتفهم والترحيب فإسلامهما قد أعلن في وسط الاحتفال الكبير الذي أقيم في دير القمر وبحضور الشيخ المعلم محمد الدسوقي . . . ثم وعلى افتراض أنَّ عَرْضَ الإسلام على الأمير بشير ـ على افتراض نصرانيته ـ من جانب الوالي عبدالله لم يكن قد ورد على ذهن هذا الأخير قبل عزله للأمير (٦٢) . . . فإن الوالي المذكور لَمّا قرر إعادته إلى الإمارة وعزل الأميرين منها لم يشترط على الأمير بشير إظهار إسلامه كما اشترط على الأميرين . . . إذ أن المفاوضات بين عبدالله والأمير إنصبت فقط على المال الأميري الواجب دفعه . . . فلما اتفقا وجه إليه الإمارة مدى حياته . . . وهو أمر يحسم الجدل في كون الأمير مسلماً . . . كما كان مشهوراً في تلك الأيام .

٣ ـ (خلفية) الأمير بشير الالتزامية بالسلطنة العثمانية وبمحمد علي والي مصر

كانت مواقف الأمير بشير الثاني وعموم الأمراء الشهابيين من الدولة العثمانية تنبثق من سياسة الإلتزام بإرادة الدولة العلية، بل إن التزام الأمير بذلك أبرز وأوضح ولا يستثنى من ذلك فترة تورطه مع إبراهيم باشا، ذاك التورط الذي بدأ بموافقه السلطنة وبأذنها ـ كما سنرى ـ غير أن الأمير وقد بلغ ارتباطه بالباشا المصري بعيداً وغدت إمارته فعلياً تحت النفوذ العسكري المصري لم يكن من السهل عليه أن ينفض يديه منه. إن الموقف الإلتزامي هذا بالسلطنة هو موقف عموم المسلمين في بلاد الشام . . . فهؤلاء اعتبروا حملة إبراهيم باشا قد تجاوزت أغراضها وباتت تهدد مركز الخلافة في استنبول وهو أمر مرفوض ولا يمكن أن يقبلوا به في حال من الأحوال . . . من أجل هذا رفض سكان الولايات الشامية التجنيد الإجباري والانخراط في الجيش المصري، كما قامت عليه الثورات في المدن والقرى الفلسطينية والسورية وفي طرابلس . . . ولنأخذ مثلاً على ذلك الموقف الإسلامي في طرابلس فهو يعكس خلفية المسلمين آنئذٍ ويعطي صورة واضحة عن عمق الارتباط بالباب العالي بما يمثله هذا من قيم إسلامية في الخلافة ووحدة المسلمين . . .

فبعد أن خضعت طرابلس للحكم المصري، وقبل أن تعلن الدولة العثمانية الحرب على إبراهيم باشا، تحركت طرابلس ضد المصريين وضد جيش الأمير بشير لَمّا علمت أن السلطان قد اعتبر إبراهيم باشا ومن معه عصاة، مصدراً براءته بتعيين والٍ على طرابلس هو عثمان باشا وآمراً إياه بالتوجه لاستلامها وطرد المصريين منها. وفي طريقة استنفر عثمان باشا الأهلين

وأنهض همتهم لمحاربة إبراهيم باشا الخارج على الدولة والدخيل على سلطة الباب العالي وسلطة الخليفة الأعظم المتمرد عليه) (١) ولما أبطأ عثمان باشا بالوصول إلى طرابلس راسله أعيانها، وقد حمل الكتاب تواقيعهم إلى جانب توقيع القاضي والمفتي (يطلبون بهذا الكتاب من عثمان باشا أن يسرع لاستلام البلدة لكي يتخلصوا من الحكم المصري) (٢) خاصة وأن ظواهر انحرافية باتت جلية في حكم إبراهيم باشا ـ لم يكن الطرابسيون ليقبلوها بسهولة. فإبراهيم باشا قرر تلزيم الرسوم على الخانات بعد أن أباح شرب الخمور وبيعها... ـ على ما يرويه مؤرخو الموارنة ـ وكان في هذا دلالة على تجاوزه الأمور والخلافات السياسة مع السلطنة إلى مسائل تتعلق بنصوص تحريمية قاطعة في الإسلام. فرفض بربر آغا ـ وهو الذي لجأ إلى مصر بعد أن عزله العثمانيون لأسباب محلية وعاد مع الحملة المصرية حاكماً على طرابلس ـ رفض بربر آغا تنفيد أحكام بإبراهيم باشا في الخمور والقبول بأنظمته فاعتزل الحكم أو أعفاه إبراهيم باشا (٣).

معالم إسلامية في حياة الأمير
السياسية:

قلنا إن الأمير بشيراً كان في سياسته حريصاً على الانصياع الكامل للولاة العثمانيين باعتبارهم ممثلين للسلطنة العثمانية وللخلافة الإسلامية وقد تحكم هذا التصور بمختلف مواقفه، منذ أن تولى الإمارة ولم يتراخ عنها إلا عند تغير موقف السلطنة من إبراهيم باشا إذ أنَّ الأمير كان قد تورط في القتال إلى جانبه... ونستعرض فيما يلي مسلسل مواقفه من الولاة العثمانيين فتتضح معالم أساسية في حياته الإسلامية كما تتضح طبيعة الجبل التابعية لولاية صيدا وعكا على الأخص...

١ ـ في بداية عهده وقف نابليون أمام أسوار عكا ـ كما قدمنا ـ وراسل الدروز والأمير والموارنة للانضمام إليه باذلاً لهم العهود والوعود. إلا أنَّ الأمير رفض الانصياع إلى الأصوات المارونية المؤيدة لنابليون وأصر على التعامل مع السلطنة العثمانية وفق توجيهاتها المحددة. فلما زحف الصدر الأعظم على رأس جيش لطرد نابليون والفرنسيين من فلسطين كان موقف الأمير

(موقف الولاء والخضوع) كما يقول فيليب حتي، ومده بكل ما يطلب ووضع جميع إمكانات البلاد الاقتصادية في تصرف الجيش الزاحف مما ترك في نفس الصدر الأعظم أطيب الأثر فاستصدر له فرماناً عين بموجبه الأمير بشير حاكماً على جبل الدروز ووادي التيم وبلاد بعلبك والبقاع وجبل عامل ومنطقة جبيل وأعطاه صلاحية أن يخابر الباب العالي مباشرة) (٤).

ولا ريب أنَّ في موقف الأمير هذا دلالة على عدم نصرانيته إذ لو كان كذلك لخف إلى نجدة نابليون ـ الذي أطبقت الدنيا بأخباره وهو الذي احتل مصر من قبل ـ ثم أن الموارنة يريدون ذلك فقد (فرح أهالي الجبل بقدوم الإفرنسيين) كما اتخذوا موقفاً معاكساً لموقف الأمير إذ أنهم قاموا بتقديم المؤن لنابليون وباعوه الخمور فأقدم آل عماد الدروز على قطع الطريق على الجبليين الذين يمدون جيش الفرنسي بالمؤن (٥) ومن أجل هذا اتهم وليد فارس في كتابه التعددية في لبنان ص / ١١٢ صادر عن (الكسليك) الأمير بشيراً بأن سياسته كانت درزية (حيث أنه لم يماشِ نابليون بونابرت سنة ١٧٩٩ في حصاره لعكا رافضاً لسياسة الموارنة المتضامنين مع فرنسا).

ولم يقتصر التعامل مع الإفرنسيين على موارنة الجبل إذ أن بعض متاولة جبل عامل في الجنوب تعاملوا معهم أيضاً... ومع هذا فإن موقف الحكم الرسمي كان موقفاً إسلامياً واضحاً ويتلخص برفض التعاون مع بونابرت وبالتأييد المطلق للسلطنة العثمانية.

صحيح أن الأمير لم يلبِ نداء أحمد باشا الجزار ولم يعينه لمّا استغاث به... من أسباب ذلك ما يعود إلى النزاع الخفي بينهما، فقد كان الجزار عندما زحف الفرنسيون على عكا قد أصدر أوامره بعزل الأمير بشير وتولية أولاد الأمير يوسف الشهابي مكانه... مما حمل الأمير ـ عندما استنجد به الجزار ـ على الاعتذار (بحجة أن الأمر الأخير بعزله ـ وهو لم ينفذ بسبب الحرب الفرنسية ـ أحرج موقفه في البلاد) (٦) وقد كان الأمير بشير يهدف

إلى الانتقام لنفسه من الجزار الذي كان دوماً يمارس عليه ألوان الأذلال فيعزله ثم يعيده وهكذا. . . غير أن الجزار بعد أن انتصر على نابليون لم يغفر للأمير تمنعه عن نجدته فتمرد الجزار على مرسوم الصدر الأعظم لما عينه على الجبل - كما رأينا - معتبراً أن بلاد الشوف كانت وتبقى تابعة لوالي عكا وصيدا، من هنا فإن من حقه هو أن يعلن تعيين أو عدم تعيين الأمير على تلك البلاد. . .

ولما كان الجزار منتصراً مجاهداً ضد الإفرنسيين لم تر السلطنة الدخول معه في نزاع من أجل الأمير - مع أن والي طرابلس ووالي دمشق كانا مع الأمير - غير أن الأميروقد أدرك موقف الباب العالي هذا أثر عدم النزاع وقرر ترك البلاد على بارجة انكليزية أقلته من طرابلس إلى العريش في سيناء لمقابلة الصدر الأعظم الذي كان هناك فأكرم الصدر الأعظم يوسف ضياء الأمير وشرح له الظروف في المنطقة وخاطبه بقوله (أنت أعز رجال الدولة وخصيص مولانا السلطان وقد بلغني أنك صاحب حمية وحماية وغيرة فكن طيب الخاطر). (٧) ومما لا ريب فيه أن هذا كان له الأثر الطيب في نفس الأمير مما جعله مرتبطاً أكثر فأكثر بسياسة السلطنة وجعله مطمئناً إلى موقفه الحكيم مع السلطان وضد نابليون. . .

ثم أن الجزار عاد فرضي على الأمير وسمح له بالعودة إلى إمارته وصدر عنه مرسوم بعودته في ١ / ١ / ١٨٠٣ يقول فيه:

(افتخار الأمراء الكرام. . . ولدنا الأعز الأكرم الأمير بشير زيد بمجده. . . أنه قد وصلنا عرض حالك وتراميك لدينا فلأجل صدوقيتك وخدامتك السابقة لدينا صفحنا عن خطياك وعفونا عنك. . .) (٨).

٢ - بعد وفاته حاول إسماعيل باشا أحد رفاق الجزار المتوفى السيطرة على عكا في حين أن الدولة العثمانية وجدت، بعد الجزار، أن تستعيد حكمها المباشر على الولايات الشامية فرسمت إبراهيم باشا - العثماني - والياً على ولايات طرابلس ودمشق وصيدا، وهي الولايات الشامية في ذلك الحين وكانت هذه المحاولة الأولى (لمركزة الإدارة) في البلاد الشامية، غير أن

إسماعيل باشا هذا أشاع أن السلطنة ستصدر مرسوماً بتعيينه والياً على صيدا فتحصن في قلعة عكا. . . فما كان من الباب العالي إلا أن فوض إلى إبراهيم باشا الأمر باحتلال عكا وكتب الصدر الأعظم إلى الأمير بشير مرسوماً يطلب إليه فيه التعاون مع الوالي الجديد من أجل طرد إسماعيل باشا وأرّخ المرسوم في ربيع الأول ١٢١٩ / حزيران سنة ١٨٠٤.

ومن خلال هذا المرسوم تتضح نظرة الباب العالي إلى الأمير بشير وتأكُّدها من صدق الأمير في تعامله معها وفي التزامه أحكامها وتمشيه مع سياستها، فقد رفض الأمير التعاون مع إسماعيل باشا قبل أن يصل كتاب الباب العالي إليه - وهو موقف حفظته السلطنة له، نجد ذلك في كتاب الصدر الأعظم إذ ورد فيه: (اتصل - بعلم الباب العالي - أنه - أي إسماعيل باشا دعاك إلى معاونته واتباعه لكنك لأجل فطنتك الزايدة رديت عليه جواب ضد قوله ولإظهار ثباتك برضا الدولة العلية حررت إلى متسلم الشام وتحريك ذاته عرض علينا من طرف إبراهيم باشا ولأجل اتباعك الدولة العلية صرت سبباً لحظنا بغاية النهاية فقد صار معلوماً منا مقدار استقامتك كما أن صدقك مجرب لدينا. . . لأنك قد أبرزت قبل هذا في سفر مصر حسن الخدامة وكمال السعي والصداقة. . . أما الآن. . . المراد الذي نرومه منك. . . والواجب عليك. . . أن تتبع إرادة إبراهيم باشا وامتثال أمره واتباع إرادته. . . فإن دعاك إلى إسعافه بادر إليه بالعساكر الوافرة، وكما قلنا اتبع إرادته وامتثل أمره) (٩).

وانتهى الأمر بأن تمكن إبراهيم باشا من إسماعيل العاصي ثم عادت السلطنة إلى سياسة تقسيم الولايات مبتعدة عن المركزية الجديدة، فصدر مرسوم بتعيين سليمان باشا على ولاية صيدا التي تشمل عكا وتوابعها. . .

٣ - سليمان باشا الذي حكم حتى سنة ١٨١٩ حين توفي كان - كما يصفه المؤرخون (وزيراً عادلاً حليماً وقد كانت جميع أيالته مرتاحة في أمان عظيم

لأنه كان من طبعه محباً للبلاد والصلح) وهذا الوالي هو الذي منح الأمير بشير الإمارة حتى مماته ما بقي منفذاً للشروط ـ كما مر بنا ـ وهو الذي حضّ الأمير بشيراً على العمران ونشر ألوية العدل والدين واستجلاب الدعوات للسلطان (قامع الكفرة والمشركين).

وفي أيامه قرر الباب العالي نقل والي الشام يوسف باشا لخوض الحرب ضد روسيا في البلقان ووجه بذلك كتاباً إلى سليمان والي صيدا وأسند إليه فيه ولاية دمشق ومنحه حق التنفيذ بالقوة إن عارضه يوسف... ويبدو أن يوسف هذا حاول التهرب ضمن خطة اتفق بشأنها ـ على ما يبدو مع محمد علي باشا فما كان من سليمان إلا أن جهز جيشاً وسار به مع الأمير بشير الثاني إلى حدود دمشق حيث جمع سليمان أعيان دمشق وجوارها وأطلعهم على الأمر السلطاني، ويبدو أن الأمير بشيراً تكلّم في الأعيان حاضاً على الاستجابة لسليمان باشا والتزام طاعته ونقل البعض أنه قال: (إني مزمع أن أنفذ أوامر الدولة العلية على التمام ولو خربت الشام وسوف أجلب عساكر من بلادي مثل الغمام ولا أحول إلا أن أبلغ سليمان باشا المرام). (١٠).

وفي عهد سليمان باشا هذا، وقد غدا والياً على الشام كله، جرت وبتوجيه من السلطنة الهجمة الشرسة من محمد علي باشا والي مصر ضد الوهابيين في الحجاز... وبالرغم أن محمد علي كان يكره سليمان باشا وقد طلب مراراً من السلطان إقالته عن إيالة الشام حتى يتمكن من القيام (بعمله الخيري) في الهجوم على الحجاز... وانتزاعه من الموحدين الوهابيين وإعادته إلى (حامي الحرمين الشريفين) ـ لقب السلطان الذي كان يفخر به ـ كانت قد انطلقت حركة محمد بن عبد الوهاب الإصلاحية الهادفة إلى تنقية الدين الإسلامي من البدع والانحرافات محققة انتصارات شتى خاصةً بعد التعاون الإيجابي مع آل سعود فأخضعوا الحجاز ونجداً ثم امتدوا إلى جهات العراق وفلسطين مما أخاف السلطان العثماني ـ ويبدو أن السلطنة لم تفهم الحركة الوهابية على حقيقتها ـ وقد ظهر فيها بعض المتشددين ـ فشوه العثمانيون سمعتها حتى أن والي الشام ومصر اعتبر

الوهابيين كفرة... وهو موقف ـ كما نرى ـ خطير بلا ريب... كما أن سليمان باشا لما بلغه انتصار محمد علي في الحجاز على الوهابيين سطر مرسوماً إلى الأمير بشير يزف إليه فيه البشرى وأن (الأخ الأمجد والي مصر القاهرة) قد (قطع دابر الملة الفاجرة الوهابية الكافرة ودارت عليهم الدايرة بقدرة ملك الدنيا والآخرة وتطهرت تلك الرحاب الشريفة والبقاع المنيفة... وبحسب أن هذه البشارة تجلب السرور التام أصدرنا لكم مرسومنا هذا لكي تشهروه على رؤوس الخاص والعام وتستجلبوا الدعوات إلى حضرة... السلطان نصره العزيز الرحمن ولنا وإلى العساكر المسلمين وزمرة الموحدين (١٢) وهل يمكن ـ بعد هذا ـ أن يكون الأمير إلا مسلماً؟؟؟.

٤ ـ يبدو أن الأمير بشيراً قد وافق وتعهد برفع الأموال الأميرية التي يتعين عليه أداؤها للوالي الجديد على صيدا وصور وغزة ويافا عبدالله باشا المعيّن من قبل الباب العالي أثر وفاة سليمان باشا... غير أن الأمير عجز عن تأمين تلك الأموال خاصة بعد أن عقد أركان العائلات في الشوف وكسروان اجتماعاً عرف بـ(عامية انطلياس) وانتهى بتحرير تعاهد وميثاق بين موقعيه على مجموعة أمور مهمة من بينها:

أ ـ الدعوة إلى التكاتف فيما بينهم (من غير تواني ولا محاباة... ويكون الحق مشيد بموجب الشرع الشريف بحسب العادة قاضي درزي بجبل الشوف والمتن... وقاضي نصراني إلى النصارى في بلاد كسروان يقضيان بالحق...).

ب ـ التعهد بعدم دفع إلا (مال الأصل السلطاني المرتب منذ القديم على حياة المرحوم الأمير حيدر الشهابي) الذي حكم بين سنة ١٧٠٧ ـ ١٧٣٢... ولو أدّى هذا الامتناع مقاساة (أشد الأتعاب ومر الأحوال...) وفي حال القبول بدفع زيادة يشترط حصول ذلك (القبول بها برأي جميع مناصب البلاد ـ و ـ تتفرع عن مال الميري الأصلية...)

ج ـ الإصرار على الحق والعدل و(المقاصصة على الخطأ... حسب أفعاله بما فرضه الله تعالى كل نفس بما كسبت رهينة...) و(... كل من يبدع أشياء قبيحة.. خارج عن الحق والعدل نكون بريئين منه وعلى أولياء الأمور أيدهم الله بالنصر بردعه وقصاصه بما هو أجدر...)

وقد بدىء الميثاق بـ(بسم الله الرحمن الرحيم وما توفيقي إلا بالله العظيم) (١٣).

ويبدو أن أمر هذا الميثاق عرض على عبدالله الوالي مع شكوى الظلم لفرض الأمير بشير عليهم ضرائب غير مال الأصل السلطاني (فأجابهم عبدالله أن لا يؤدوا سوى مال واحد حسب عادتهم)... (عندئذٍ وجد الأمير نفسه بين شاقوفين الوزير الملح في الطلب ـ أي عبدالله ـ من جهة والأهالي الممتنعين عن تلبية الطلب من جهة أخرى فأيقن أنه عاجز عن تحقيق ما تعهد به للوالي وعزم على ترك الحكم ومغادرة البلاد إلى الشام... وكان باستطاعة الأمير أن يقاوم عبدالله بالقوة لأن عسكرة من الأهالي كان يزيد على خمسة آلاف مقاتل ولكن كانت خطته ألا يقاتل الدول) (١٤) عندئذٍ خلع والي صيدا على الأميرين حسن وسليمان بن علي بن حيدر خلعة الإمارة بعد أن أعلنا إسلامهما ـ كما رأينا من قبل ـ كي يتمكنا من الاستقرار في دست الحكم بعد الأمير بشير المسلم السني.

٥ ـ كان عبدالله والي صيدا يطمح إلى ولاية دمشق التي كان عليها محمد درويش باشا وكان ينتهز الفرص للوصول إلى أطماعه وكان على ما يبدو وقد اتفق في هذا مع محمد علي باشا والي مصر الذي كان بدوره قد طمع بإيالة الشام وكان ـ في السابق ـ قد طلب ذلك رسمياً من الدولة العثمانية بموجب كتاب صدّره إلى الباب العالي بتاريخ شعبان / ١٢٢٨ / آب سنة ١٨١٣ بحجة أن ضمان نجاح الحملة ضد الوهابيين في الجزيرة العربية ـ يوجب ـ تولية الشام بكاملها واعداً بتقديم استقالته فور انتهاء

(مصلحته الخيرية على ابن سعود) ـ إلا أن الدولة لم تجب طلبه... (١٥) وعلى هذا فقد شجع محمد علي باشا عبدالله والي صيدا على التقدم باتجاه الشام وعلى إنشاء اتصال دائم معه (في الجمعة مرتين) كما ظهر ذلك جلياً في كتاب عبدالله إلى محمد علي بعد هزيمة الأول السياسة أمام درويش باشا بفضل تعاطف الدولة معه ضد عبدالله والي صيدا ـ والذي سنتحدث عنه فيما بعد ـ وبعد أن صفا الود بين عبدالله والأمير بشير أعاد عبدالله الأمير إلى إمارته في بلاد الشوف وعزل الأميرين حسن وسليمان اللذين التجآ إلى والي دمشق درويش باشا مما دفع بالأمير بشير وعبدالله باشا إلى توثيق العلاقات بينهما إلى درجة المحالفة الكاملة.

ويبدو أن عداوة قد استحكمت، لأمور عدة، بين عبدالله والأمير من جهة وبين درويش باشا من جهة أخرى... وأصبح كل من الفريقين ينتظر السانحة وقد جاءت هذه عندما قام حاكم البقاع المعين من درويش باشا بمناوشات فسرها الأمير بعدوان على أملاك خاضعة لإمارته فـ(عرض الأمير على الوالي عبدالله تعدي والي الشام على البقاع) فقرر هذا التصدي لدرويش باشا وحض الأمير على طرد المعتدين)...

وهكذا بدأت حرب محدودة كادت تنتهي بصلح بين الأمير ودرويش غير أن انتهاز عبدالله الفرصة ـ على ما يبدو ـ لتحقيق توسعه على حساب درويش باشا ـ جعل الأمير متردداً بقبول الصلح... وهكذا (لم يوافق والي صيدا عبدالله الذي أشار على بشير أن يوجه عسكراً... ينضم إلى عسكر عبدالله... فحصلت مواقع وحروب أدَّت إلى اشتداد النزاع بين درويش وعبدالله الذي قرر الزحف على دمشق فـ(سارع الأمير بشير إلى تأييد عبد الله ظناً منه أن الباب العالي سيفعل ذلك أيضاً وبلغت به الحماية لإظهار ولائه لوالي عكا أنه سار على رأس رجاله لمهاجمة دمشق نزولاً على طلب حليفة بسحق عساكر درويش باشا في معركة المزه في ٢٦ / أيار سنة ١٨٢١ لكن الأمير أخطأ التقدير فما أن انجلت نتيجة تلك المعركة حتى تدخل الباب العالي) (١٦) وبعد أن تحققت الدولة من (تعدى عبدالله على إيالة دمشق مما يلحق إهانة كبرى بالدولة)... عندئذٍ أمرت مصطفى والي حلب أن يسير

بجيشه إلى الشام لمساعدة درويش. . . ولدى وصول مصطفى أرسل يوعز
باسم الدولة للأمير بشير بالذهاب إلى بلاده ويبلغه الفرمان المتضمن تولية
درويش على صيدا فانصاع الأمير. . . ثم أعلن درويش مرسوماً يقضي بعزل
عبدالله . . . ويندد بالأمير وبتمرده ـ ويعزله عن ولاية الجبل. . .) (١٧)
واختار الأمير لنفسه مغادرة البلاد إلى مصر. . . وولى درويش باشا الأمير
عباساً الشهابي والياً على بلاد الشوف وكسروان وجبيل. . .

ومن طريف ما يذكر أن الأمير بشيراً المعزول قبل سفره إلى مصر حاول
أن يقيم في بيروت وكانت تابعة لولاية صيدا ـ بناء على مشورة عبدالله الذي
قرر أن يعصي هو في عكا ريثما يتمكن من مخاطبة الباب العالي ـ عبر محمد
علي والي مصر ـ لتخفيف غضب السلطان عليه. . . غير أن أهل بيروت
المسلمون رفضوا دخول الأمير بشير إليها ونددوا به وبعبدالله باعتبارهما
عاصيين للدولة العثمانية. . . وهذا يكشف خلفية هامة من خلفيات
المسلمين ومعطياتهم في نظرتهم إلى الباب العالي الذي كان ـ على هزاله في آخر
أيامه ـ يمثل الخلافة الإسلامية وإنْ إسمياً. . . وكان المسلمون في البلاد
الشامية يحرصون على طاعة الخلافة لما تتمثل من قيم إسلامية شرعية باعتبار
أن ذلك من الفروض الشرعية الواجبة التنفيذ. . . وهي الخلفية نفسها التي
تمتع بها الأمير بشير المسلم. . . وهو في حربه ضد درويش باشا الوالي على
دمشق كان يناصر والياً آخر وكان ـ كما ذكر كمال صليبي ـ يقدر أن الباب
العالي سيفعل كما يفعل الأمير بالانتصار إلى عبدالله باشا ـ الذي يعتبره
الصليبي ابناً لأحد أعيان الدولة في الآستانة لا كما ذكر الأب ضو أنه أحد
مماليك الجزار (١٨) ـ أي أن خروج الأمير على درويش كان ضمن استراتيجية
الأمير وهي عدم الخروج على طاعة الدولة العثمانية شأنه في ذلك شأن سائر
مسلمي البلاد الشامية.

أرسل والي صيدا المعزول ـ عبدالله باشا ـ إلى حليفه محمد علي باشا
تقريراً سياسياً وعسكرياً عن الأوضاع التي آلت إليها ولايته (ولاية طرابلس
وصيدا وفلسطين. . .) بعد رفض الدولة العثمانية لمبررات هجومه على دمشق وفي
الكتاب ـ التقرير الذي يطلب فيه مساعدة محمد علي القصوي يشير عبدالله إلى

معلومات مهمة عن مواقف أهل عكار ـ شمالي طرابلس ـ الذين انضموا إلى
درويش باشا ضد متسلم طرابلس بربر آغا والجند التابعين لعبدالله في
طرابلس وأسكلتها وفي بيروت وصيدا وصور وجبال نابلس والقدس وغزة
ويافا. . . الذين تابعوا درويش باشا ـ لأن السلطنة العثمانية أرادت
ذلك ـ ويكشف عبدالله في كتابه عن أسرار مشورته على الأمير بشير الإقامة في
بيروت وكيف أن أهالي بيروت عصوا أوامر عبدالله نفسه، واليهم، الذي أُعتُبِر
عندهم عاصياً فيقول: (. . . وما عاد أمكن الأمير المذكور الإقامة في الجبل
وحضر إلى بيروت وقصدنا إقامته في بيروت لسبب قربها إلى الجبل لكي
تعاطى تفكيك الأهالي وتجليبهم نحوه ويضعف حزبه الأشقياء الذين خرجوا
عليه ويتمكن من مرغوبه في الجبل) وأصدرنا أوامرنا من طرفنا إلى أهالي
بيروت تشعر بإقامته في بيروت. . . فأهالي بيروت أظهروا الخشونة مع الأمير
المومي إليه وما نفذوا الأمر الصادر لهم) كما يشكو عبدالله عساكره الذي
أقامهم في أسكلة طرابلس لمساعدة بربر آغا وقد أقامه عبدالله عليها من
قبل ـ وأمده بالذخائر في البحر ضد هجوم (العامرة الموافقين لوالي الشام. . .)
غير أن عساكر عبدالله في طرابلس انضموا إلى علي الأسعد متسلم عكار. . .
وكذلك فعل عساكر صيدا (كنا معينين في صيدا أو في صور أرناؤوط وغير
أجناس عساكر لأجل محافظتهم فقبل تاريخه بيومين حضر شوية خيل من
جانب الشام مقدار ثلاثمائة خيال وبمجرد وصولهم إلى صيدا! فالعساكر
الموجودة بها من طرفنا سلموهم المحل ـ أي المدينة ـ من غير ضرب ولا
مصارعة ـ . . . وانضافوا إليهم. . . كذلك العسكر الذين. . . في طرفنا في
صور قبل أن يصل أحد من عسكر الشام أرسلوا سلموا لهم المحل. . .)
(١٩) وما كان هذا ليحصل لولا تعاطف الجميع في تلك الأمصار مع الدولة
العثمانية ـ التي ـ كما ذكرنا ـ كانت تمثل سلطة الخلافة وبذلك كانت طاعتها
واجبة. . . وهذا الأمر يظهر عند أهالي المدن والأمصار والعساكر التابعين
لسلطة الوالي عبدالله باشا المعزول غير المستسلم المعتصم في عكا والمدافع عن
سلطاته. . . !!!.

ويبدو ـ أن سفر الأمير بشير إلى مصر كان أيضاً بمشورة عبدالله

نفسه . . . ـ الذي يشعر أنه ورّط الأمير بشيراً وأنه كان سبب تشتيته ـ فضلاً عن أن وجود الأمير في مصر من شأنه إن استحكمت المودة بينه وبين محمد علي باشا أن يكون على مقربة منه لأجل الانتصار للوالي المعتصم بعكا . . . وقد خف والي مصر فعلاً لنجدة عبدالله والأمير سياسياً واتصل بالباب العالي طالباً ـ وهو الذي أسدى خدمات جلّى للسلطنة بالهجوم على الوهابيين ـ إصدار عفو عن عبدالله والأمير (ونزلت الآستانة عند رغبة محمد علي فصفحت عن عبدالله باشا وغادر الأمير مصر حاملاً إلى حليفه في عكا قرار إعادة تعيينه) (٢٠) ومن هناك عاد إلى بلاد الشوف . . .

محمد علي باشا وخلفيته الالتزامية
بوحدة العالم الإسلامي بقيادة السلطان:

ومن المرجح أن إقامة الأمير بشير في مصر قد أفسحت المجال أمام محمد علي لدراسة مسألة إيالة الشام دراسة شاملة ويبدو أن من بين الأمور التي نصح بها محمد علي الأمير بشيراً أن يسير الأمير على قواعد محددة في تحضير جيش منظم لاستخدامه في أية معارك يخوضها محمد علي والسلطنة ـ عند الضرورة ـ وقد تعهد الأمير بذلك. يكشف عن هذا كتاب الأمير أمين بن بشير سنة ١٨٢٣ الذي أرسله أثناء زيارته لمصر فسأله محمد علي عن أخبار العسكر المومى إليه؟ (كذلك سألني أدام الله سعده عن العسكر الذي كان صدر أمره الشريف بتحضيره فأعرضت لسعادته أنه حاضر تحت الأمر الأسمى فرسم أن ذلك لا حاجة له لأن لله الحمد عساكرنا المنصورة صارت فوق الكفاية) (٢١).

ويبدو أن محمد علي باشا كان يشعر بوجوب تنظيم الجيوش العثمانية على أحسن حال استعداداً لمعارك محتومة مع الدول الأوروبية وقد أجرى ذلك فعلاً في مصر وجلب إليه الخبراء الفرنسيين ونظم جيشاً حسن التدريب مما حمل السلطان العثماني على اعتماده في معاركه ضد الوهابيين ثم في إخماد ثورة المورة في اليونان كما سنرى ـ وقد كتب محمد علي إلى السلطان يرغبه (في تجهيز جيش قوي حسن التجهيز يجري تدريبه على النمط الأوروبي ويضم جميع الشبان القادرين على حمل السلاح في السلطنة وجعل الأمة الإسلامية مستعدة

بصورة حازمة لكل احتمال عسكري تقوم به أوروبا كما يقترح على السلطان العثماني خطوات عملية للتصدي في حال قيام أوروبا بضربة مفاجئة للسلطنة العثمانية) (٢٢) فليس عجيباً وأمرُ محمد علي كذلك، أن ينصح الأمير بتنظيم عسكره استعداداً لأية احتمالات قادمة غير أن بعض المؤرخين أرادوا أن يربطوا بين هذه النصيحة التي كانت سنة ١٨٢١ وبين غزوة محمد علي لولاية الشام سنة ١٨٣٢ واعتبروا أن تلك النصيحة كانت جزءاً من مخططات محمد علي للاستيلاء على الشام . !!!

وعلى ما نعلم فليس من وثيقة تاريخية تشير إلى أن محمد علي كان يفكر جدياً باحتلال الولايات الشامية زمن استقباله الأمير بشير. . . غير أن مؤرخي الموارنة، وربما الإفرنج إلى حد ما، بعد أن انضم الأمير بشير إلى الحملة المصرية ـ كما سنبين بعد صفحات ـ أرادوا أن يعطوا الأمير حجماً أكبر من واقعه يجعله طرفاً أساسياً في تخطيط الحملة المصرية فأعادوا ذلك إلى زمن إقامة الأمير في مصر سنة ١٨٢٢ . . . علماً أن الحملة المصرية جرت في وقت متأخر جداً في آذار سنة ١٨٣١ أي بعد ما يقرب من عشر سنوات خاض خلالها محمد علي بطلب من الباب العالي حرباً رهيبة في اليونان لقمع حركات التمرد والانفصال هناك. . . وقد أبلى جيش محمد علي وأسطوله بلاء حسناً لولا تدخل الدول الكبرى الأوروبية وخاصة روسيا وفرنسا وبريطانيا دبلوماسياً وعسكرياً ضد القوات المصرية فأغرق الأسطول الإنجليزي في سنة ١٨٢٧ الأسطول المصري ـ العثماني المشترك غدراً وخلال ساعات مما حمل محمد علي على الانسحاب. . . وقبل البدء بهذه الحرب استنفر محمد علي بإذن من السلطنة القوات ا شامية على اعتبار أن الحرب هناك. . . (نوع من الحرب الصليبية التي تشنها أوروبا ضد الإسلام ممثلاً في السلطان العثماني خليفة المسلمين ودولته) (٢٣).

وانطلاقاً من هذا المفهوم لبى محمد علي نداء السلطان للتوجه إلى اليونان ـ فيما عرف (بحرب المورة) كما لبى عبدالله والي صيدا نداء السلطان ونداء محمد علي فكتب إلى كافة ممثليه على المقاطعات التابعة له لتجهيز قواتهم واستنفارها. . . وأصدر مرسومه إلى (أمراء ومقدمين ووجوه ـ مشايخ جبل

الشوف وجبل كسروان وتوابعها بوجه العموم) بناء على طلب الأمير بشير حيث أن الأمير قد أبدى خالص تفهمه وأبدى طاعته في ذلك... غير أنه نظراً لقرب عودته إلى الإمارة ـ بعد نفيه ـ ولوجود الاختلاف والمشاحنات الحزبية والعائلية ضده في البلاد التي يحكمها وجد الأمير أن إعلان ما يعرف اليوم بـ (التعبئة العامة) من قبله قد يثير عليه الخصومة من جديد فرأى أن يكون ذلك الإعلان من قبل الوالي ـ الذي يتبع إليه الأمير ـ فيفهم الناس أن ذلك أمر سلطاني واجب الاتباع وقد ذكر ذلك الوالي عبدالله في منشورة إلى الأمراء والمقدمين والوجوه... حيث ورد فيه (أرسلنا طلبنا ـ إلى ـ افتخار الأمراء الكرام... ولدنا الأمير بشير المكرم... ومن بعد المداولة والتكلم معه بهذه المادة أمرناه أن يرتب عشرة آلاف نفر بمعرفة الرجال المتدورة ويبقيهم في محلاتهم لكي ـ حين اللزوم ـ حالاً يكونوا حاضرين...) ويشير الوالي إلى عدم جواز التخلف عن هذه الخدمة فيقول (... أصدرنا مرسومنا هذا إليكم... وإن هذه الخدامة فرضٌ لازم على جميعكم... من دون رد أحد من تهاون بالمصلحة أو أحد يطلب الإقالة منها...) (٢٤) وقد أرخ الكتاب المومي إليه في شوال سنة ١٢٣٩ / تموز سنة ١٨٢٤، وقد دخل الأمير بيت الدين ـ بعد عودته من مصر ـ في أيار سنة ١٨٢٣... ومن هذا يتبين تهافت الاستنتاج الذي توهمه كمال صليبي في تاريخ لبنان الحديث ص / ٥٧ عندما أعاد أمر الاتفاق على إمداد محمد علي، في حربه ضد المورة، إلى أثناء إقامة الأمير ضيفاً على محمد علي في مصر إذ جعل الإثنين يعقدان (اتفاقاً... يتضمن، في الجملة، وعداً بإمداد حملة على اليونان بعشرة آلاف مقاتل لبناني إذا ما لزم الأمر)... فلا يعقل أن يكون أمراً من هذا قد حصل والأمير منفي عن بلده... ومحمد علي باشا مطلع على الاختلاف الكبير بين أمراء ومقدمي ومشايخ ووجوه بلاد الشوف وكسروان وتوابعها ضد الأمير المنفي... وهو ما ظهر بشكل غير مباشر في مرسوم الوالي عبدالله إلى هؤلاء جميعاً... علماً أن الأمير أقام بين ظهرانيهم مجدداً أكثر من سنة، بعد عفوه عن خصومه ومحاولاته المتكررة إيجاد مصالحات كثيرة... ولو أن الأمر كما ذكر الصليبي صحيحاً لأصدر محمد علي أمره مباشرة إلى الأمير بتجهيز القوة... بينما نجد أن محمد

علي لم يخاطب الأمير في تجهيز القوة إنما طلبها من والي صيدا عبدالله باشا الذي يتبع إليه الأمير... لذا يبقى استنتاجنا الذي قدمناه أقرب إلى الواقع والحقيقة وهو أن من جملة توجيهات محمد علي إلى الأمير بشير عند عودته إلى الإمارة أن يحاول تنظيم جيش ـ على النسق المصري ـ حتى يكون قادراً على الحكم من جهة وعلى مناصرة محمد علي في حروب قد يخوضها... وهذا لا يعني بحال أن تكون تلك الحروب في الشام، إذ أن كمال الصليبي نفسه يعترف (أن محمد علي لم يكن قد وضع بعد خطة لضم بلاد الشام) (٢٥) وكما ضخم الصليبي وسواه مسألة التحالف بين محمد علي والأمير تمهيداً لحملة الشام بهدف تضخيم الأمير نفسه فإننا نجد الأب ضو يشتط في هذا التضخيم لدرجة أنه أطلق لنفسه ولخياله العنان ـ كعادته ـ من أجل التوهم أن مسألة انفصال لبنان الجبل عن الدولة كان تخطيطاً من الأمير ـ الذي نصّروه ـ تخطيطاً يصب في الوطن القومي المسيحي المتوهم...

فقال الأب ضو (وليس من المستبعد ـ كذا؟ ـ أن يكون جرى الاتفاق على التعاون بين محمد علي والأمير على تحرير لبنان وسوريا وتركيا من نير الأتراك ـ تأمل كلمة تركيا ولم يقل لنا الأب كيف يحرر تركيا من الأتراك ـ وأخذ محمد علي الخلافة والسلطنة على أن يكون للبنان ضمن هذه السلطنة وضع حر مستقل سيد يرتبط بمحالفة مع محمد علي وحلفائه (؟؟) (٢٦).

ومن المضحك أن الأب ضو الذي ذكر أن هذا الاستنتاج من بنات أفكاره إذ وطأ له بقوله: (وليس من المستبعد)... بنى على توهمه هذا ـ الذي غدا عنده بعد تسطيره له حقيقة ـ قوله.. هكذا جاء عمل المير بشير الاستقلالي انتفاضة متممة لعمل المير فخر الدين مثلما أن هذا عقد تحالفاً مع إمارة فلورنسا والكرسي البابوي في الغرب لتحرير لبنان والقدس وقبرص من الأتراك وجعل لبنان إمارة مع إمارة فلورنسا والكرسي البابوي في الغرب لتحرير لبنان والقدس وقبرص من الأتراك وجعل لبنان إمارة مستقلة سيدة مرتبطة مع هذه الدول الغربية بمحالفة صداقة وتعاون ودفاع مشترك (؟؟) هكذا كان نوع التحالف الذي ارتبط به المير بشير مع محمد علي... (٢٧).

فبعد أن أثبتنا تهافت الاستنتاج بأن تعهداً من الأمير قد قطع لتقديم

عشرة آلاف مقاتل لمحمد علي في حربه ضد المورة - وإن كان هذا الطلب قد جرى من عبدالله والي عكا فيما بعد - فإن مسألة التحالف بين محمد علي والأمير بشأن الاستيلاء على إيالة الشام تغدو أكثر تهافتاً ويصل التهافت في التحليل إلى قمته مع أسد رستم في كتابه (بشير بين السلطان والعزيز) كما وصل انحراف الوهم إلى منتهاه مع الأب ضو كما رأينا إذ أن أسد رستم يقول اضطر بشير الثاني في عام ١٨٢٢ (اللجوء إلى مصر حيث وضعت بتشجيع وبركة فرنسا والفاتيكان أسس تحالف بين الأمير ومحمد علي) (٢٨)... وهكذا يكدح وينشط المؤرخون المسيحيون في كل سبيل - بعد أن توهموا نصرانية الأمير - ليؤكدوا أنه بهذه الصفقة غدا محوراً هاماً في السياسة الدولية وكيف أن فرنسا والبابا تتدخلا لدى محمد علي ليقيم تحالفاً مع هذا الأمير الطريد الشريد؟؟؟ ويكفي لتسخيف هذا الرأي - المعروفة أهدافه - أن محمد علي هذا، بعد قصة المحالفة المخترعة ببركة فرنسا والفاتيكان، خاض حرباً جهادية في اليونان، ضمن ما فهم في ذلك الحين بأنه حرب صليبية من قبل الدول الأوروبية، وأن فرنسا مع بريطانيا وروسيا قد حاربوا عزيز مصر - كما أسماه أسد رستم - وأنهم أغرقوا له أسطوله البحري وأخرجوه من حرب اليونان...

غير أن عامة المؤرخين ربطوا بين اقتراح محمد علي للسلطان سنة ١٨١٣ ليوليه على الشام من أجل القضاء على الوهابيين في الحجاز وبين حملته التي قام بها سنة ١٨٣١ وجعلوا الاستيلاء على الشام محور اهتماماته ولقاءاته وتحالفاته... ولو أن هذا الأمر كان صحيحاً لانتهز محمد علي فرصة نجاحه ضد الوهابيين ليكمل سيره نحو الشام للاستيلاء عليها أو على بعضها على الأقل خاصةً وأن الباب العالي قد رفض له اقتراحين أولهما إعادة يوسف كنج باشا على ولاية الشام وإبعاد سليمان باشا وثانيهما منحه ولاية الشام. والاقتراحان يصبان في الجهود التي طلبها محمد علي لإنجاز الحملة ضد الوهابيين... - أو - وهذا في أسوأ احتمال - لرفض القيام بالحملة المذكورة - ممارساً بذلك الضغط على الباب العالي - أو لتهيئة الأسباب إذا ما نجح الوهابيون باحتلال أجزاء من فلسطين للهجوم عليهم وعلى الشام بآن

واحد... ونستدل أيضاً على أن محمد علي لم يكن يفكر باحتلال الشام عسكرياً بفرصة أخرى سنحت له وهي استنجاد عبدالله والي عكا به واستغاثته بطلب النجدة فحَلّ الخلاف مع الباب العالي بالشفاعة وتوظيف رصيده لدى السلطان للحصول على العفو لوالي عكا والأمير بشير - كما رأينا... ثم واتته الفرصة مرة ثالثة إذ استنجد به السلطان لقتال الثائرين في اليونان فقد وعده الباب العالي، في حال نجاحه، بمنح ابنه إبراهيم باشا الولاية عليها. وكان بإمكانه أن يشترط الشام بدلاً عنها، وكان السلطان يومئذٍ مستعداً لتلبية طلبه. إذ أن الحرب دقت أطراف الآستانة الغربية في اليونان بتأييد من الدول الكبرى... غير أن شيئاً من هذا لم يكن وكان بديلاً عنه الاستنفار السريع وخوض غمار القتال هناك... حتى إذا جرى ما جرى من تدخل الدول الأوروبية وانفصلت اليونان عن الدولة العثمانية واستقلت عنها طالب محمد علي السلطان أن يعوضه بالشام بدلاً من المورة... إلا أن السلطان رفض هذا ووجه إليه ولاية جزيرة كريت...

وعلى هذا فيمكننا أن نؤكد ما ذهب إليه الدكتور مسعود ضاهر في بحثه المنشور في مجلة الفكر العربي المعاصر (٢٩) من أن محمد علي كان (مؤمناً بوحدة العالم الإسلامي بزعامة السلطان العثماني نفسه شرط أن يسارع السلطان لحماية المسلمين في أثر هزيمة نافرين. - المعركة البحرية، حيث أغرقت أساطيل بريطانيا وفرنسا وروسيا الأسطول العثماني المصري خلال ست ساعات ضمن خديعة حربية كما بينا - يرسل محمد علي في ١٢ / كانون الأول سنة ١٨٢٧ رسالة مطولة إلى السلطان العثماني منبهاً إلى ضرورة تجديد السلطنة على قاعدة الدين الإسلامي الحنيف. يقول محمد علي في رسالته: «لقد سبق وكتبت إليك بأن مصيرنا مرتبط بخيط واه وقصدت بذلك أن أعالج تحديداً العواقب الخطيرة التي تتهدد وجود الأمة ووجود الدين الإسلامي. أما بالنسبة للكرامة التي أذكرها فإنها لا تعطى بل تؤخذ بالأفعال التي تجهد النفس وهي تقضي بالعمل على تقوية الدولة وتنمية مواردها وقوتها بمجهودٍ كبير لا يعيقه شيء) ويقول: (... لا شيء يحملنا على اليأس والقنوط تجاه قضيتنا نفسها وإلا أوقعنا بذلك السلطنة العثمانية والدين الإسلامي في كارثة

نكون المسؤولين عنها أمام الله وأمام التاريخ). ويقول أيضاً: (... وهكذا فعوض أن نموت ببلاهة ولكي نتحاشى لعنة أو غضبة الأمة الإسلامية والأجيال القادمة من الأفضل ألف مرة أن نعيش ونخدم أمتنا وديننا وأن نموت بعد ذلك ميتة المؤمنين الحقيقيين مخلفين وراءنا آثاراً ثابتة... إني أضع نفسي وأضع ابني كذلك في خدمة السلطنة والدين الإسلامي) وقبل أن يثبت الدكتور مسعود ضاهر رسالة محمد علي الآنفة الذكر يقول: (فليس صحيحاً القول أن محمد علي كان يسعى لتهديم السلطنة العثمانية...) ذلك أن (مجابهة السلطنة تعني عملياً الانخراط في حرب ضد السلطنة وهذا ما لا يجد قبولاً في نفوس المسلمين...) كما لا يجد استحساناً في نفس محمد علي إذ كان (يؤمن بوحدة العالم الإسلامي بزعامة السلطان العثماني) كما قال د. مسعود.

غير أن الأمور وإن سارت في مسار آخر ـ كما سنرى ـ إذ تحول تأديب والي صيدا إلى مجابهة مع السلطنة عند حدود طرابلس. إلا أن خلفية محمد علي، وهو يجابه السلطنة ويحتل جزءاً من الأناضول كانت هي هي إياها فقد نقل قنصل روسيا بتاريخ ١٢ / ٨ / ١٨٣٢ إلى حكومته رسالة بمضمون مقابلته لمحمد علي وقد كان إبراهيم باشا قد دخل الأناضول، كما كان السلطان قد استنجد بالروس لحماية الآستانة جاء فيها (أن السلطان يتهمني بالعصيان لكنه هو الذي سيكون مسؤولاً عن ذلك أمام المسلمين إني لا أريد شراً بالسلطنة ولا بالسلالة الحاكمة فيها فهي وحدها الشرعية لكنني أوجس خيفة من قدرته في الحفاظ على تاج لا يستخدمه إلا لخراب السلطنة وولاياتها أما من جهتي فسأعلن عزمي الصريح على رفع مجد الهلال وسعادة المسلمين ولن يسير ابني بجيشه إلى الآستانة إلا بناء على قرار يتخذه علماء جميع المدن المقدسة في السلطنة العثمانية) (٢٩) ثم على أثر معاهدة كوتاهية التي ألزمته بالإنسحاب من الأناضول والاحتفاظ بالشام عاد محمد علي ليؤكد في ٨ / ٧ / ١٨٣٣ أنه (لا يطمع مطلقاً في خلافة المسلمين بل يسعى إلى تجنب انهيار السلطنة العثمانية) (٣٠).

تردي العلاقات بين محمد علي
ووالي عكا وصيدا بدايةُ الصراع
في بلاد الشام، وسط
لا مبالاة الباب العالي:

وفي كل حال فقد أدرك محمد علي أن عليه أن يملك جيشاً قوياً يكون ذراعاً له في كل الحروب خاصةً وأن السلطنة باتت تعتمد عليه أكثر فأكثر وهي المهددة بأطماع الدول الكبرى المحيطة بها... فكان أن أدخل التجنيد الإجباري إلى مصر بواسطة الكولونيل سيف الفرنسي (Sive) الذي أعلن إسلامه ـ وسمي بسيف الدين ـ غير أن هذا التجنيد ـ وهو ما لم يألفه الشعب المصري وخاصة الفلاحين ـ قد ساءهم ـ على ما يبدو ـ فحاول بعضهم النجاة من تلك الخدمة بشتى الأساليب فهرب من هرب إلى جهات في فلسطين تابعة للوالي عبدالله باشا حليف محمد علي... وبلغ عددهم ما يزيد عن ستة آلاف كما أن بعض المحكومين بغرامات مالية هربوا أيضاً إلى عكا مما أغضب محمد علي إذ خشي من هذه البدعة في الهروب والالتجاء إلى ولايات أخرى... فطالب حليفه عبدالله باشا بأن (يعيد الهاربين لمصر فأبى عبدالله باشا والي عكا إجابة الطلب... محتجاً بأن المصريين هم من رعايا الدولة العثمانية ولهم نفس الحقوق التي لبقية رعايا الدولة وبالتالي لهم الحق بالإقامة حيثما شاؤوا ضمن الولايات العثمانية (٣١) ويبدو أن هذا الجواب أزعج محمد علي فطالب عبدالله باشا بديونه التي له عليه (وكان مديناً لمحمد علي بعشرة آلاف كيس...) فامتنع هذا عن الدفع...

ثم في سنة ١٨٣١ حاول عبدالله باشا أن يزعج محمد علي بمنع إخراج بزر الحرير من الولايات التابعة لعبدالله ـ ومنها بلاد الشوف وصيدا... وكان محمد علي قد أدخل لمصر تربية دود الحرير. ويبدو أن المصريين الفارين إلى عبدالله كانوا قد حولوا تجارة حاصلاتهم إلى طريق سيناء بدلاً من تصديرها عن طريق الموانىء المصرية فاعتبر محمد علي هذا التحويل إلحاق ضررٍ بمصلحته وكَبُرَ على والي مصر أن يمارس عبدالله باشا معه تلك الأساليب، مع أنه هو ـ أي محمد علي ـ ولي نعمته فهو الذي استصدر العفو عنه وثبّته في ولاية صيدا

وعكا وتوابعها. . . (فكتب لعبدالله أنه سيأتي بنفسه لإرجاعهم (٣٢) أي لإرجاع الفارين من الجندية ومن دفع الغرامات ولتسديد حساباته مع عبدالله. . .

وقد حاول عبدالله الاستنجاد بالباب العالي لمنع محمد علي مما هم به وأرسل وفداً إلى الآستانة لهذا الغرض غير أن الباب العالي وقد اعتبر النزاع محلياً بين واليين لم يجد من مصلحته ردع محمد علي الذي قدم له الخدمات الجلى، وعاد الوفد إلى عكا بعد أن زحفت الجيوش المصرية في العشرين من تشرين الثاني سنة ١٨٣٢ ووقع جواب الآستانة في يد إبراهيم باشا فإذا هو لا يتضمن أي وعد بالانتصار لعبدالله مما شجع إبراهيم باشا قائد القوات المصرية الزاحفة إلى تشديد قبضته وقد اطمأن إلى موقف الباب العالي.

أما عبدالله باشا فما ان وصل إبراهيم باشا (إلى يافا وكان عبدالله في عكا متحصناً بأسوارها المنيعة ـ كتب عبدالله باشا إلى الأمير بشير يستدعيه إليه برجاله فأطلعه الأمير بشير أنَّ على جميع رجال المقاطعات أن يستعدوا للسفر (٣٣) وفي هذا دليل حاسم آخر على أنَّ اتفاقاً مسبقاً بين الأمير ومحمد علي بشأن احتلال الولايات الشامية وضمها إليه لم يجر مطلقاً، إذ لو كان ذلك حاصلاً لأطلع عليه عبدالله أثناء عودة الأمير من منفاه في مصر حيث أقام عنده قرابة أربعين يوماً. ومن البديهي والتحالف وثيق بين الأمير وعبدالله أن يكون قد أحاطه بكافة تفاصيل علاقته بمحمد علي أو بأفكار محمد علي التوسعية ـ إذ أن المؤرخين الذين نسبوا هذا الخيال جعلوا محمد علي يعتمد في تخطيطه لضم ولاية الشام إليه على الأمير بشير وعلى الوالي عبدالله باشا نفسه ويوجب هذا ـ في حال صحته ـ تشاور في العمق بين الثلاثة. . . فلو أن شيئاً من هذا قد حصل لما وقعت الواقعة بين عبدالله وبين محمد علي. وعلى افتراض وقوع خلل في العلاقة بين الواليين مما فرض الحرب بينهما، لسارع عبدالله في توظيف المخطط التوسعي لمحمد علي في طلب النجدة لنفسه من الباب العالي. لو فعل ذلك لوقف السلطان موقفاً مغايراً من طلب الوالي عبدالله، هذا من جهة، ومن جهة أخرى وعلى افتراض وجود علاقة تحالف بين محمد علي والأمير لما أقدم محمد علي على طلب. النصرة من الأمير المرتبط ـ على ما توهم

المؤرخون ـ بمحمد علي ثم لو كان هناك حلف لما هم الأمير بالتدخل لمصلحة عبدالله ولهب سريعاً إلى نجدة إبراهيم باشا دونما طلب بل إننا نجده على عكس ذلك لا يتدخل إلا بعد حين، بعد اشتداد الحصار على عبدالله في عكا وبعد وصول إنذارات شديدة اللهجة ومتتابعة من محمد علي إذ أن هذا الأخير قد عرف بأن إبراهيم باشا قد كتب إلى الأمير يستدعيه وإن هذا لا يزال صامتاً ـ وكان محمد علي يظن أن الأمير لن يتردد في نجدته إذا ما طلبت، باعتباره قد أحسن إليه كثيراً (فغضب العزيز من الأمير بشير وكتب إليه كتاباً يتهدده على أنه إذا تأخر عن الحضور إلى ولده إبراهيم يخرب مساكنه ويغرس موضعها تبناً (ثم إن محمد علي مع ترهيبه هذا أرسل إلى الأمير هدايا ثمينة ترغيباً، منها (جوز ـ أي زوج ـ طبنجات ذهب وسيف ذهب فإن شاء الله تعالى عند وصولها. . يتقلد بهم بالصحة) (٣٤).

ويبدو أن هذا الترغيب، فضلاً عن تبين موقف الباب العالي اللامبالي بتلك الأحداث، قد حسم التردد عند الأمير فتخلى عن حليفه القديم عبدالله وبدأ بإمداد إبراهيم باشا متورطاً معه في حملاته ضمن تنسيق عسكري كامل. . . مغلباً الظن أن الباب العالي لا يعارض انتصار محمد علي.

خلفيات التصدي المصري للباب العالي
وحاكمية طرابلس مفتاح الحرب:

أما الباب العالي، فرأى ، وقد بسط محمد علي نفوذه على ولاية صيدا وتوابعها ـ استسلمت له أكثر مدنها دون مقاومة باعتباره والياً يتبع الباب العالي وله ماضيه في الجهاد وكان آخره قتاله في اليونان في حرب شبيهة بالحرب الصليبية ـ رأى الباب العالي أن يعين إبراهيم باشا ابن محمد علي والياً على صيدا مكان عبدالله معتبراً أن في هذا التدبير ترضية جديدة لمحمد علي عن اليونان. . . وهكذا صدر الفرمان بعزل عبدالله وتولية إبراهيم باشا والياً على صيدا. . . الأمر الذي منح إبراهيم باشا الحصانة والشرعية. واستناداً إلى ولايته الجديدة بدلّ إبراهيم باشا متسلمي المدن كبيروت وصيدا وصور ونابلس ويافا. . . وأقام مقامهم متسلمين جدداً. . .

إلا أن طرابلس وتوابعها لم تكن ضمن ولاية إبراهيم باشا... وكان المصريون قد دخلوها من قبل وأقاموا فيها حماية مولياً عليها صديقه مصطفى بربر آغا متسلم طرابلس السابق ـ وقد كان نفى نفسه ـ إلى مصر بعد عزله ثم عاد مع الحملة ـ وعينه حاكماً على طرابلس بتاريخ ٢٥ رجب سنة ١٢٤٧ ـ غير أن قرار تعيين بربر آغا على طرابلس اصطدم بمرسوم سلطاني قضى بتعيين عثمان باشا والياً على ولاية طرابلس... فكان هذا التصادم بداية الأشكال الفعلي بين إبراهيم باشا ومحمد علي من جهة، وبين الدولة العثمانية... إذ أصر إبراهيم باشا على حاكمية بربر آغا وعلى أن طرابلس تابعة له ـ كما كانت في عهد عبدالله باشا ـ في حين أن الدولة العثمانية أصرت على تنفيذ مرسومها وعلى تسلم عثمان باشا لصلاحياته في ولاية طرابلس وأرسلت عثمان باشا هذا مع أربعة آلاف مقاتل لاستلام المدينة. فلما علم بمسيرته استنجد بربر آغا بصديقيه إبراهيم باشا والأمير بشير اللذين كانا قد أرسلا له ألف مقاتل بقيادة الأمير خليل بن الأمير بشير... وكما أصرت الدولة العثمانية على تنفيذ قرارها أصر إبراهيم باشا على تنفيذ قراره وعلى إبقاء بربر آغا متسلماً لطرابلس... فكان لا بد لهذا الصراع السياسي أن يتطور إلى تصادم عسكري.

ويبدو أن محمد علي باشا قد أخذ قرار التصدي للباب العالي ضمن خلفيات عدة فقد أنس في جيشه القوة ووجد الدولة العثمانية في حال من التدهور والتفكك ـ وهو الأخبر بقواها العسكرية ـ وقد غدت مكسر عصا للدول الأوروبية الكبرى ومحط مؤامراتها فضلاً عن أطماع روسيا ببلاد القرم وفي الوصول إلى المياه الدافئة... وكان تنازع المصالح التجارية والاستعمارية بين بريطانيا وفرنسا على أشده... فوجدت فرنسا في محمد علي البغية المنشودة لتحقيق مطامعها في شرق البحر المتوسط بعد أن فشل نابليون بذلك عسكرياً فنظروا إليه ـ أي إلى محمد علي ـ كأنه (خليفة بونابرت الروحي في مصر) (٣٥) وهكذا وقع محمد علي أسير عاملين: أسير نفسه إذ رأى أن الباب العالي قد ظلمه عندما منعه من ولاية الشام في حين أنه قد أدّى خدمات جليلة له ولبى كافة نداءاته.. وأنه ـ في نظر نفسه ـ أصلح من ولاة

الشام، أولئك الذين يتقاتلون ويتنازعون ولا يوجدون حالاً من الاستقرار لتتفتح المدنية والعمران في ولايتهم كما حصل لديه في مصر. وربما فكر محمد علي ـ يومئذٍ ـ بأن يكون هو المجدد في الحكم الإسلامي بعد أن يستأثر بحكم الشام فقد تؤول إليه الخلافة ويكون هو بداية التغيير في المنطقة كما كان السلطان سليم بعد انتصاره في مرج دابق سنة ١٥١٦... وإن كان على أثر ظهور الروس في الآستانة وضغوط الدول الأوروبية عليه للانسحاب من الأناضول قد صرّح خلافاً لذلك ـ كما رأينا ـ أنه لا يطمع بالخلافة الإسلامية.

تلك الخلفيات ـ على ما يبدو ـ دفعته للموافقة على قرار المجابهة المتخذة عملياً عند حدود طرابلس لينتقل بعده إلى قرار احتلال وإخضاع سوريا ومن ثم الهجوم على الأناضول مهدداً الآستانة نفسها، خاصة بعد أن أعلن السلطان عصيان محمد علي... غير أن المسلمين في الولايات الشامية ـ لا يعارضهم في ذلك النصارى بوجه عام ـ اعتبروا انقلاب محمد علي على السلطان وحربه ضد هذا الأخير خيانة إذ ليس بمقدور الجماهير الإسلامية السير وراء والٍ يعلن السلطان عصيانه وتمرده ويشهر عليه الجهاد لإسقاطه... يدل على هذا ـ كما سنبين ـ إقامةُ الموالد والاحتفالات في طرابلس عندما سمعوا بأسر إبراهيم باشا في الخليل ـ تمكن من التفلت منه بعد تدخل والده على رأس حملة ومَدَدَ ـ وذلك كابتهاج شعبي إجماعي بقرب عودة الحكم العثماني... ثم إن أهالي الشام عندما رفعوا كتابهم إلى السلطان عبد الحميد في تموز سنة ١٨٤٠، وقد أعلنوا الثورة ضد الحكم المصري، ذكروا (أن محمد علي الذي يدعي أنه أحد عبيد جلالتكم (أي الباب العالي) (وقد تجرأ على أن يسلك مع المرحوم والدكم المعظم الخالد الذكر «أي السلطان محمود الثاني» مسلك الخيانة أنزل بنا أنواع المظالم وحروب الاستبداد) (٣٦) وهذا يعني أن محمد علي لما وجَّه حملته ضد والي عكا ثم أسند الباب العالي ولاية صيدا لابنه إبراهيم بعد أن خضعت له المدن الفلسطينية والمدن والمقاطعات التابعة لولاية صيدا بما في ذلك بلاد الشوف وكسروان وجبيل لم تكن تعتبر محمد علي عاصياً ولا خائناً بل هو تابع للدولة العثمانية مقبول عندها كما بينا...

الأمير الأسير يتردد

بين الولاء والثورة:

من جهة أخرى سعى عثمان باشا والي طرابلس - المعين وغير المستلم - لفصل الأمير بشير عن إبراهيم باشا باشعاره أن الدولة العثمانية مصممة على تنفيذ قرارها، وقد فعل عثمان ذلك قياساً على مواقف الأمير السابقة... فالأمير طيلة فترة حكمه - كما رأينا - يمحور سياسته على نهج وإرادة الباب العالي، وهكذا أرسل عثمان باشا إلى الأمير في ٢٥ رمضان سنة ١٢٤٧ / آذار سنة ١٨٣٢ أي بعد توليه بربر آغا من قبل إبراهيم باشا بحوالي شهر تقريباً - كتاباً دعاه فيه مع سائر مشايخ الشوف وكسروان أن (أصغوا إلى أوامر الدولة العلية...) مذكراً إياهم بطاعتهم الماضية للدولة (عندما صدق محبتكم ومقيمين بالإطاعة والخضوع وما قط عرجتم ولا خالفتم وأما بهذه المرة خدعوكم وغشوكم... فإننا لوجه الله تعالى ومرحمة إلى حالكم... ننصحكم قبل وقوعكم بجريرة الندم اتركوا طريق الظلام واتبعوا طريق النور الواضح...) (٣٧).

وكان قد سبق هذا فرمان إلى محمد باشا والي حلب للتوجه بعساكره لصد إبراهيم باشا ويعلن هذا متمرداً على الخليفة...

هذا وذاك أوقعا الأمير وأعيان البلاد في إشكال كبير إذ أن الدروز قد رفضوا الخروج عن أمر الدولة بل انضموا إليها وانتقل بعضهم إلى حلب ليؤكدوا ارتباطهم بالدولة بينما كان الأمير - وقد وقع تحت سيطرة إبراهيم باشا وعساكره المنتشرة في كثير من مقاطعات إمارته - وجد أن لا مفر له من متابعة المسيرة التي انتهت به بعد أقل من عشر سنوات إلى مالطة فالآستانة منفياً عن إمارته وبلاده... وكانت هذه هي المرة الوحيدة التي يخرج فيها الأمير عن أمر الباب العالي بل يمارس الحرب ضد عسكره...

مذبحة في طرابلس لاحتفالها بعودة الباب العالي:

ولا بد هنا من التذكير بأن أعيان طرابلس ومفتيها وقاضيها - لما عرفوا

بأن إبراهيم باشا قد خرج على الدولة وأن الوالي هو عثمان باشا لا بربر آغا - المعين من قبل إبراهيم - وكان لا يزال بربر في المدينة أرسلوا إلى عثمان ليسرع بتسلم المدينة معلنين طاعتها للباب العالي... وقد دفعت طرابلس ثمناً كبيراً لإصرارها على الارتباط بالباب العالي فقد ثارت طرابلس مراراً على الحكم المصري. ولما شاع في المدينة أن إبراهيم باشا قد قبض عليه في الخليل - وكان محاصراً بعد أن ثار عليه أهل الخليل باعتباره عاصياً على الدولة العثمانية - إلا أن محمد علي باشا قاد حملة عسكرية بنفسه وحرره من الحصار - (ظهر على أهالي طرابلس السرور كراهة لحكم إبراهيم باشا الذي أباح المحرمات ورغبة برجوع حكم الدولة العلية العثمانية وصدر منهم كلمات التشفي وعددٌ منهم قرأ قصة المولد النبوي الشريف تيمناً برجوع الحكم العثماني... وقد حُرر لإبراهيم باشا بأسماء أكابر الشخصيات) التي احتفلت، أثر شائعة هزيمة إبراهيم باشا، فأمر هذا بقتلهم جميعاً فكانت مجزرة بشعة قضت على عدد كبير. من (وجهاء طرابلس وقد جرى صف رؤوسهم على بركة الملاحة الباقية في مكانها لليوم كما ألقيت جثثهم في الأسواق من سوق العطارين حتى الملاحة) (٣٨).

الأمير في شهادات السلطان عبد المجيد

وسفيري فرنسا وبريطانيا

من جهة أخرى... يبدو أن الأمير بشير كان يحاول هو بدوره أيضاً أن يخرج على إبراهيم باشا وأن يعود إلى حظيرة الباب العالي - كما كان دوماً - مع أن إبراهيم باشا كان بعساكره مسيطراً بقوة على إمارة الأمير بشير... فكان هذا أشبه بالأسير، ومع هذا فقد كان يلتقي سراً بالمندوب بونسوني سفير بريطانيا في الآستانة الذي كان (يستحثه على الثورة على إبراهيم باشا...) وقد دخل الأمير مع المندوب الإنكليزي بتفصيلات دقيقة - وقد تولى الإنكليز هذه المفاوضات باعتبارهم في محور مضاد مع الفرنسيين المؤيدين لمحمد علي وباعتبارهم يقفون في الدفاع عن ظهر الباب العالي - فقد أكّد الأمير لضمان نجاح الثورة التي سيقوم بها ضد إبراهيم باشا أن (تصبح السهول الساحلية والداخلية بيد الأتراك أو حلفائهم إذ لا ينتج الجبل من الحنطة ما يكفي أبناءه

ثلاثة أشهر فإذا قاموا بثورة وظل المصريون أسياد الساحل والسهول فيمكن هؤلاء من القضاء على اللبنانيين جوعاً بإقامة حصار حولهم وأكّد الأمير على وجوب أخذ بيروت وطرابلس من المصريين على الأقل...) (٣٩).

من جهة أخرى يروي قنصل فرنسا في حلب السيد هنري نميز تصوراته عن الأمير بشير التي يتضح منها بُعدَ الأمير عن البلاط الفرنسي وارتباطه الوثيق «بالمسؤولين عنه ممثلي الباب العالي...» كما يتضح تصور الأمير لخطر الدور الفرنسي عند تدخله في شؤون البلاد الداخلية وتعاظم هذا الدور، يقول السيد نميز (... كان ينكر علي دائماً حقوق مواطنيّ حتى أني لم أتمكن من الوصول إلى حق في الجبل إلا بجهود لا تعرف الكلل وبالمثابرة أو الالتجاء إلى توسط السلطات التي كان يخضع لها الأمير).

(عرفنا دائماً في هذا الأمير شعوراً مسيطراً يمتلك جميع عواطفه وعقله ألا وهو حب المحافظة على سلطانه... ولهذه الغاية ظن أنه بخلقه العراقيل وإقامة المصاعب يرضي باشوات عكا ومصر). (٤٠).

* * *

من خلال ما تقدم ثبت بلا شك استراتيجية الأمير الثابتة في تعامله مع الباب العالي ومع الولاة ممثلي الدولة، هذه الاستراتيجية التي تتلخص بأن يدور الأمير مع إرادة الباب العالي حيث دارت... ولم يشذ عنها كما رأينا إلا في موقفين أولهما عندما ناصر أحد الولاة عبدالله باشا والي صيدا على والي دمشق درويش باشا بناء على ظن وترجيح لديه من أن الدولة سوف تنتصر لعبدالله لا لدرويش... وكان ظنه هذا في غير محله فاستقال أو أقيل وسافر إلى مصر... وثانيهما لما انضم إلى إبراهيم باشا بعد تولية هذا الأخير من قبل السلطنة العثمانية على صيدا. غير أن التواجد العسكري المصري الكبير في مختلف أنحاء إمارته وتعرض مصالح حليفه بربر آغا في طرابلس عندما عزله الصدر الأعظم معيناً بديلاً عنه عثمان باشا... كما رأينا... فضلاً عن أمله الكبير الذي راح يتسع في نفسه من إمكان سيطرة إبراهيم باشا على سوريا وربما على الباب العالي نفسه... ذلك الأمل الذي أزكاه بلا ريب القناصل

الفرنسيون والإرساليات الأجنبية كل ذلك أوجد حالة ارتباك شديدة ظهرت لدى الأمير في مفاوضات المبعوث الإنكليزي حيث أظهر بجلاء رغبته في العودة إلى الحظيرة العثمانية ضمن تكتيك عسكري تمناه... ويكشف (فعلَ الندامة) عند الأمير المعروف جيداً لدى الباب العالي بطاعته له اختيارهُ الآستانة منفى أخيراً له حيث توفي... ولا ريب أن إختيار الأمير هذا يكشف مدى حرص الأمير على الباب العالي والتزامه بنهجه... حيث كان ـ أثناء نفيه وإقامته في الآستانة يطلب بين الحين والحين مقابلة السلطان... ولا شك أن خلفية الأمير هذه كانت هي إياها خلفية المسلمين السنّة، في طول البلاد وعرضها.

غير أن الذي يقطع بولاء الأمير المطلق للباب العالي هو السلطان عبد المجيد إذ ذكر ذلك صراحة في فرمان عزله بشير وتعيين الأمير بشير الثالث محله فيقول: (أنه كان من المتوجب على الأمير بشير أن يأتمر بالأوامر التي صدرت إليه ويظهر دائماً بمظهر التابع المخلص.. ويطيع أوامرنا ويبذل جهده في كل ما يطابق رغائبنا ويجتهد في حماية الأهالي والعشائر التي وكلنا إليه أمر رعايتها ويوجه كل عناية حكومته مستعملاً كل الوسائل التي لديه لحمايتهم وتأمينهم من كل أذى ومظلمة وفقاً لما توجبه عليه تابعيته بيد أنه اتصل بنا أن الأمير بشير لم يقم بهذه الشروط الأساسية وأنه لا يزال مصراً على اتباع مقاصد محمد علي باشا ومأموريته والجري وفقاً لنصائحهم وتعليماتهم سالكاً مسلكاً مخالفاً لما كنا ننتظره منه...) (٤١).

٤ ـ تقية الأمير في دينه (سخرت)
المؤرخين الموارنة للدفاع عن أخطائه

من خلال العرض والتحليل التاريخيين ثبت أن الأمير بشير وعائلته مسلمون سنة... غير أنه، كما نوهنا، لا يهمنا من هذه «الإسلامية» إلا دحض أفكار مؤرخي الموارنة ومن تبعهم في هذا السبيل وهي تأكيدهم لخلفية تاريخية غير صحيحة سيقت لاثبات حق الموارنة في رئاسة «لبنان» الحالي... ثم لنتبين كيف يكون التحريف لدى المؤرخين والمنظرين الموارنة ومن حاكاهم في ذلك وسايرهم وماشاهم... وما كان لهؤلاء وأولئك أن يتجنوا هذا التجني لو أن نفراً من المؤرخين المنصفين أرخوا لهذه المنطقة، وعلى هذا فقد كادت كتابات مؤرخي الموارنة، مع الأسف، تكون الوحيدة في تاريخ الجبل والمناطق المحيطة به فاعتمد كتاب التاريخ المحدثون ـ بعد أن اعتبروا ما فيها مسلمات ـ ليلقنوا الناشئة والأجيال الصاعدة تحريفات في التاريخ كأنها الحقائق...

ومما يلفت النظر استكمالاً لهذا البحث المهم... أن مؤرخي المارونية ومنظريها انطلاقاً من اعتبارهم أن الأمير بشير (ماروني ابن ماروني) على حد تعبير الأب ضو، فقد أضافوا إليه كل فضيلة في الأخلاق والتقى والاعتزاز بالدين المسيحي... (وشب في الدين المسيحي الماروني وبه اعتز وتميز طوال حياته بفضيلة الحشمة والطهارة وسمو الأخلاق...) (١).

ومن طريف تحليلات أولئك المنظرين أنهم يبررون جرائم القتل وتصفية الخصوم والإرهاب التي مارسها الأمير بشير، كما يبررون تعامله المطلق مع إبراهيم باشا ويفتخرون بأن الموارنة تم استخدامهم في عمليات قمع الثورة

الفلسطينية ضد إبراهيم باشا وفي أنحاء متفرقة من سوريا وفي حرب إبادة ضد الدروز... ثم لما ثار المسيحيون وقبلهم المسلمون والدروز في الولايات الشامية ضد إبراهيم باشا وتابعه الأمير بشير صب أولئك المؤرخون، انطلاقاً من المقدمات التي رسموها للأمير بشير الماروني ذي الأخلاق الرفيعة، صبوا جام غضبهم على إبراهيم باشا واتهموه بكل نقيصة واعتبروه المسؤول الوحيد فيما كان الأمير مشاركاً له في كل التدابير بل يمارس أمثالها. ويوافق إبراهيم باشا دون تحفظ على تدابير القمع ورفع الضرائب وجمع السلاح والتجنيد الإجباري، دعماً له وللأمير في حروبهما الطويلة..

* * *

ولا بد هنا من لفت النظر إلى الوقائع التالية التي تعطي صورة عن شخصية الأمير والتي حاول مؤرخو الموارنة تصويرها بشكل باهت باعتبار (الأمير ماروني ابن ماروني):

● أن الأمير بشير قبل أن يصطدم بالزعامة الدرزية المتمثلة بالشيخ بشير جنبلاط سنة ١٨٢٤... اصطدم بالزعامة المارونية المتمثلة يومئذٍ بجرجس وعبد الأحد باز سنة ١٨٠٧ وكان جرجس باز سيداً في بلاد كسروان وجبيل وذراعاً عسكرياً للأمير يوجهه - على ما يقول المؤرخون - لقتال آل رعد في عكا والضنية وصقر المحفوض حاكم صافيتا انتصاراً لحليفة مصطفى بربر آغا متسلم طرابلس... ثم بتحريض من الأمير حسن شقيق الأمير بشير الماروني أيضاً - بزعمهم - (اقتنع الأمير بشير بوجوب القضاء على جرجس باز وأخيه...) بحجة أن جرجس باز يتعاون مع أولاد عمه الأمير يوسف... يصف الأب ضو تآمر الأمير بشير هذا - الذي أتى ضمن خطة بشعة - مبرراً تآمره بضرورة تصفية آل باز جسدياً. فقد كلَّف الأمير شقيقه الأمير حسن بتنفيذ المؤامرة في قتل عبد الأحد باز ثم إلقاء القبض على أولاد الأمير يوسف ونقلهم (إلى درعون حيث سُمِلَتْ عيونهم ووضعوا هناك في الإقامة الجبرية، وفي اليوم ذاته قتل جرجس باز مع مدبره يوسف الترك في دير القمر وفي ١٥ نوار سنة ١٨٠٧ تظاهر بعض النصارى بدير القمر احتجاجاً على قتل جرجس

باز فاقتص منهم الأمير وألزمهم بدفع ثمانين كيساً كغرامة، وغرَّم غالب بو شاكر وبطرس بو نجم بخمسين كيساً) (٢).

* * *

● بعد أن أعاد عبدالله باشا والي صيدا الأمير بشير على بلاد الشوف وتوابعها سار الأمير في ملحقاته ليجمع المال الأميري وذلك في ١٣ / تموز سنة ١٨٢١ غير أن أكثر تلك الملحقات رفضت أن تؤدي المال (ثم سار إلى نهر إبراهيم... ووصله خبر من ابنه قاسم أن الجميع عاصون يرفضون تقديم المال مالين (أحدهما للوالي والثاني له) وعند وصوله إلى عزمنين بلغه أن الأهالي مجتمعون في شامات لمنع الأمير من المرور...) وكان أن انعقد لقاء بين أهالي كسروان والبترون وجبيل النصارى وهو ما عرف بعامية لحفد، فاتفقوا هناك على مجابهة الأمير بعدم دفع المال (مالين) (ووضع الأهالي شروطاً أخرى من جملتها أن الذي يوليه عليهم - الأمير - يجب أن يكون من بلادهم فرفض الأمير...) وقد رفض الدروز أن ينضموا إلى هذه العامية بقولهم: (لن ننقاد إلى عامية نصارى تلك البلاد فإنه شين عندنا...) (٣).

ثم أن المجتمعين هناك - لما مر الأمير بقرب ناحيتهم - أخذوا (يطلقون النار على جيش الأمير... ثم انتقم منهم الأمير (فمات من الأهالي ثمانون شخصاً ما عدا الجرحى... (ولما وصل الأمير إلى عمشيت طاردته الجماهير إلى هناك... وفي الغد (وصل بشير جنبلاط وزعماء الشوف إلى جبيل) وكان الأمير قد استنجد بهم... ثم (طلب الأهالي العفو من الأمير فصفح عنهم وطلب المال المعتاد)... ثم انتقل إلى إهدن ومنها إلى بشري حيث أجرى قصاص المذنبين وغرمهم بمائتين وخمسين ألف قرش نفقة عسكر وجبي الأموال الأميرية ثم جاء إلى جبيل حَسَّنَ القلعة وأورد الأموال إلى الوالي عبدالله وبقي مدة في جبيل للمحافظة عليها من الأروام ومراكبهم وغرم أهالي كسروان بمائتي ألف قرش وقاطع أهل بكفيا بمائتي ألف قرش لأنهم تظاهروا مع العامية) (٤) أي عامية بلاد جبيل المعروفة بعامية لحفد كما قدمنا...

في يقيني لو أن مؤرخي الموارنة كانوا يعتبرون الأمير بشير مسلماً

سنياً لجعلوا من عامية لحفد هذه ثورة هائلة ضد الأمير المسلم المطارد في بلاد جبيل وقد أطلقت عليه النار فاختبأ. . . ومن جميل ما يذكر أن أهالي جبيل وكسروان وبلاد البشري لم يخضعوا للأمير إلا بعد أن ورد كتاب من والي صيدا عبدالله باشا يولي الأمير بشير رسمياً على تلك النواحي (٥). . . وهذا يكشف بعداً مهماً في حياة الناس في ذلك الزمن من نصارى ومسلمين ودروز وهو الاحترام العميق لنواب السلطنة العثمانية.

● أما بالنسبة للضرائب التي فرضت في عهود الجزار وسليمان باشا وعبدالله من جهة وللأمير بشير من جهة أخرى، فقد كانت مماثلة:

٥٠٠ كيس = ١،٢٥٠،٠٠٠ غرش للدولة
كمية مماثلة للأمير بشير المجموع ٢،٥٠٠،٠٠٠ غرش
أما في عهد الحكم المصري فقد أصبحت الضرائب:
٥،٠٠٠،٠٠٠ خمسة ملايين للأمير بشير
٣،٧٥٠،٠٠٠ لإبراهيم باشا ابتداء من سنة ١٨٣٦

٨،٧٥٠،٠٠٠ أي بزيادة مليون وربع المليون للأمير عن الضريبة المفروضة لصالح الحكم المصري وبزيادة ثلاثة أضعاف عما كان يتقاضاه في عهود الجزار وسليمان وعبدالله باشا. (وهكذا زادت الضرائب في مدة ثماني سنوات فقط ثلاثماية وخمسين بالمائة، هذا ما عدا الضرائب غير الشرعية غير الملحوظة في القانون والتي يفرضها الحكام اعتباطاً) (٦).

لو لم يكن الأمير في نظر مؤرخي المارونية مارونياً لجعلوا ثورة الأهالي عليه لا على الحكم المصري فحسب. . . ولجعلوه رأس الفساد فهو الذي أعلن نزع السلاح ـ حتى من الموارنة ـ والتجنيد الإجباري وسمح للجيش المصري بالتواجد في بيت الدين. غير أنه انطلاقاً من «مارونيته» المقدرة وباعتباره لم يعصِ أمراً أصدره إبراهيم باشا. . . وبما أنَّ إبراهيم باشا هذا مسلم سني لذلك فقد حمل المؤرخون كامل مجابهتهم وألصقوا بإبراهيم باشا كل عار وشنار فيوزد الأب ضو فصلاً مطولاً سماه (ثورة الموارنة على الاحتلال المصري) (٧).

ومن جميل تعليقات الأب ضو بصدد الضرائب دفاعاً عن الأمير ـ باعتباره في نظره مارونياً ـ (بهذا الصدد تجدر الملاحظة إلى أن الظلم لم يكن متأتياً من كون الأمير يتقاضى ضريبة مماثلة لضريبة الحكم المصري. . . الظلم متأت من كون الحكومة المصرية كانت تفرض ضرائب فاحشة وكان الأمير يجاريها في ذلك لأنه على الأرجح لم يكن باستطاعته مقاومة الحكومة المصرية العاتية الطاغية) (٨) وما كان هذا التبرير ليكون إلا لاعتبار النصرانية في الأمير بشير؟؟؟.

٥ ـ الثورة ضد الأمير
والحكم المصري بين التقية والاستراتيجية

تقية الأمير الدينية:

يبدو أن الأمير، وقد حكم زهاء خمسين سنة تخللها نفي إجباري وإقالة واستقالة ومد وجزر وعلاقات وممارسات في غاية الصعوبة والدقة، وهو المسلم السني، الذي قبل ما قبلت به العائلتان المعنية والشهابية ـ أن يكون الحاكم بين متساويين يتجاذبان القوة والنفوذ: الموارنة والدروز.. وجد أن من الحكمة تعمية أخبار دينه ما استطاع إلى ذلك سبيلاً... حتى أن (التقية هذه وكانت سائدة ومعمولاً بها لدى الدروز والشيعة) قد فرضت جدلاً كبيراً حول حقيقة هويته الدينية فهو كما أقام مسجداً في بيت الدين أقام كنيسة... وقرَّب إليه الأدباء والمدبرين والكتاب الموارنة... حتى أنه احتوى البطريركية التي استخدمها بذكاء ـ كما رأينا ـ إذ أن البطريك حبيش هدد بـ(الحرم) الموارنة الثائرين على الأمير وعلى المصريين، غير أن البطرك عاد وأعلن (الحرم) ضد كل من لا يثور ضدهما... ثم ان البطرك بعد أن نفي الأمير عاد مطالباً بعودته إلى الإمارة وإلى حكم البلاد... وقد ظن الأمير أنه لا يمكن أن يصل إلى هذه المرتبة العالية لدى البطريركية لولا (التقية) تلك التي مارسها بكثير من الذكاء... حتى خُيِّل للنصارى أنه ماروني، فأرسل له البابا غريغوريوس السادس عشر كتاب شكر ومودة مؤرخاً في ١٠ تشرين الثاني سنة ١٨٣٥ لاحتضانه وحمايته للإيمان الكاثوليكي اللذين وإن يكن يجب انتظار المجازاة عنهما من الله الذي يجازي خدامه) ويبعث له مع الرسالة هدية تمثال المسيح من فضة مع جزء من عود صليب وأيقونة ذهبية ويناشده في النهاية (لأن

تظهروا بكل عناية غيرتكم الفعالة التي أظهرتموها دائماً نحو الديانة الكاثوليكية ونحو خدامها وبنوع خصوصي نحو القاصد الرسولي...) (٩).

ومن الملاحظ أن هذه الرسالة جاءت مع بداية تفتح بذور الثورة في الأوساط المارونية ضد الأمير وإبراهيم باشا... كما يسترعي الانتباه - مناسبتها - أن الأمير - الذي اعتبره الموارنة مارونياً - لم تكن لديه اتصالات بالبابوية وبالملوك الذين يدورون في فلكها... ولم تكن له طموحات مع الخارج في سبيل ما أسموه هم الوطن القومي الماروني أو المسيحي... ولعلّ رسالة البابا هذه هي الوحيدة في المراسلات وقد جاءت لشكر الأمير على الاهتمام برعيته النصرانية ويبدو كما يتضح من نصها أن البابا قد أرسلها بناء لطلب من قاصده الرسولي ومن (رؤساء الكنيسة في سوريا) وفق ما جاء فيها... وضمن استراتيجية الجذب والتبشير المعروفة...

ويبدو أنه بسبب هذا الكتاب وهداياه توهم بعض المؤرخين حتى المسلمين الذين قالوا بإسلامية الأمير من قبل فزعموا أنه قد مال إلى الموارنة كدين - بعد الحرب المصرية - وإن كانوا قد علّلوا ذلك بسبب سياسي إذ قالوا: (عندما تحالف الأمير بشير مع محمد علي سعت السلطات العثمانية إلى تحريك الزعامات الدرزية ضد الأمير والإدارة المصرية وهذا التحرك أدّى إلى أن يجد الأمير أن الموارنة هم الذين بقوا طيلة الوقت خاضعين له ويساعده ذلك في التحول إلى المذهب الماروني وخاصة وأن هناك العديد من أفراد الأسرة الشهابية وبعض زعامات درزية تحولت فعلاً إليه) (١٠).

الأمير لم يتنصر والحكم المصري يشن حملة على التبشير والتنصير:

ويمكن الرد على هذا بما يلي:

١ - إن صراع الأمير مع الدروز وابتعاد هؤلاء عنه ومحاولاتهم المستمرة للكيد به بدأت مع بداية ولايته ثم - بعد أن سيطر عليه الشيخ بشير جنبلاط لفترة من الزمن انفجر الموقف العسكري بينهما - كما رأينا - انتهى بإعدام

جنبلاط في عكار وبإحراق وتدمير عدد كبير من القرى الدرزية... وما كان موقف الدروز المؤيد للسلطنة ضد الحملة المصرية إلا استمراراً في موقفهم ضد الأمير وبهذا فإن الأمير كان يعتمد في القاعدة على الموارنة الذين غدوا أكثر عدداً وثقافة ومالاً... غير أن هذا الاعتماد (القاعدي) كانت تشوبه دوماً صراعات وتصفيات فالموارنة لم ينجوا من الأمير شأنهم في هذا شأن الدروز وإن كانت الحرب الدرزية قد ارتدت طابع المجابهة العنيفة وأيدها أكثر من والٍ من ولاة البلاد الشامية والمصرية.

٢ - إن الأمير - لم ينفك يأخذ بالمظاهر الإسلامية من منع المقاهي والأكل والشراب في نهار رمضان ومن تنفيذ الأحكام الشرعية الإسلامية العامة على النصارى والدروز باعتبارها من الأمور الدينية ومن قوانين الدولة العثمانية.

٣ - إن الدروز في شكواهم (١١) إلى الباب العالي حزيران سنة ١٨٤١ - سنتكلم عنها فيما بعد - قد أثبتوا أن الأمير (نشأ مسلماً ثم اعتنق الديانة المسيحية إنما كان يجتهد بأن يظهر أمامنا بمظهر مسلم ولكنه بدون ريب كان نصرانياً) والعجيب في هذه الشكوى في حال صحتها أن الدروز يعلنون فيها أن ما أصابهم من الأمير كان بسبب مسيحيته مع أنهم يقرون فيها أنه (خلا ما تقدم - أي نصرانية الأمير - فقد كان يعاملنا برعاية متناهية تفضل معاملته للمسيحيين وبقي مثابراً على نهجه حتى يوم نفيه)... مع أن الأمير - كما رأينا خاض ضدهم المعارك الكبيرة... حتى أهلكتهم وقضت على مراكز نفوذهم... الأمر الذي يجعل من الكتاب المذكور - في حال صحته - تزلفاً للباب العالي ونيلاً من الأمير بشير - عدوهم الأكبر - ومحاولة (لتسييس) خلافهم على أساس أنهم حماة للإسلام ضد نصرانية الأمير (المتوهمة) إذ أنه - باعترافهم الصريح - نشأ مسلماً واجتهد أن يظهر بمظهر المسلم... وهذا دليل على إسلامه حتى نفيه - وطبعاً بعد نفيه وحتى موته -

٤ - إن المصريين - حكام الولايات الشامية - كانوا يرقبون مسألة التنصر الذي

دأب في السعي له المبشرون والإرساليات المنتشرون هنا وهناك... ويبدو أن تعليمات مشددة صدرت عن محمد علي وابنه إبراهيم تشدد في مقاومة هذا التبشير تكشف عنها رسالة (١٢) وجهها محمد شريف باشا حكمدار سوريا إلى سامي بك في أيلول سنة ١٨٣٦ يقول فيها (فأما حقيقة هذه القضية هو أنه كان بعض الأشخاص وقليل جداً جداً أراد التداخل بالطريقة العيسوية فأظهرنا التنبيه والتشديد الكلي وأبدينا كمال التهديد بالسطوة الخديوية العلية فانصلح هذا المبدى (المبدأ) وخمدت نار هذه الشهوة...) ثم يذكر له تنصر آل أبي اللمع (فهذه الطايفة في الزمن القديم كانوا دروزاً وتداخلوا في الطريقة العيسوية رويداً إلى أن صاروا جميعهم عيسويين وذلك من مدة أربعين خمسين سنة...) ويذكر أن (أولاد الأمير نصر الثلاثة المذكورين كانوا بهذا الوقت أرادوا الدخول بالطريقة العيسوية لكنهم لما سمعوا بالتهديد والتشديد الذي حصل من عبدكم (أي الحكمدار محمد شريف باشا) تركوا ما كانوا عزموا عليه) وينوه الحكمدار بأمر الدولة المصرية بالفحص والتدقيق والتحقيق بقضية التنصر...

فإن كان الأمر كذلك فهل يعقل أن يتنصر الأمير بشير في الوقت الذي كان يحرص على إرضاء محمد علي وإبراهيم باشا إلى أبعد الحدود، وقادة الدولة المصرية يتشددون وينوهون بتهديد السطوة الخديوية العلية لأفراد من آل أبي اللمع ـ وإن كانوا أمراء من أسرة درزية تنصر أكثر أفرادها منذ زمن قديم؟ ثم لا بد أن نسأل كيف يمكن التوفيق بين تدخل الدولة المصرية واستعمال الإكراه لمنع تنصر أفراد وبين سكوتها «المفترض» عن تنصر الأمير بشير ـ على زعم حدوثه ـ إلا أن يكون تنصره سبباً لتنصر من أراد التنصر من رعيته... ثم ألا يرفض الأمير المتنصر تلك السياسة الإكراهية لمنع التنصر ويختلف مع إبراهيم باشا عليها... خاصة وأنه بحكم تنصره المفترض قد مارس عكسها.

٥ ـ والثابت أن الأمير بشير عندما صدر إليه أمر إبراهيم باشا بنزع سلاح النصارى أنه كان من رأي إبراهيم في ذلك إلا أنه كان يفكر في الأسلوب

الذي يمكنه من هذا دون أن (يحصل) اختلاف... (وامتناع عن إعطاء البواريد) بسبب (دخول الوهم والوسوسة عليهم ربما تسول لهم نفوس جهلهم الامتناع...) ويذكر أن النصارى قدموا له (معروضاً يشتمل على الرجاء بإبقاء البواريد عندهم فجاوبناهم أن هذه القضية ليست مفترضة لرأينا بل هي منوطة بأمر دولتكم وعرفناكم أنهم يقدموا البواريد العسكرية ويكونوا آمنين مطمئنين...) ثم يذكر تخوفه من عصيان الموارنة عليه (بالامتناع عن إعطاء البواريد وتزداد القضية شدة والدروز يوافقوهم على ذلك ونحن لم نزل ننصحهم ونخوفهم من سطوة دولتكم...) وينتهي الأمير إلى قوله (فالرجاء تأمروا بما يستحسن لدى عواطفكم وعبدكم هذا مستعد لكل ما صدر به أمر دولتكم أفندم) (١٣).

ولا ريب أن مثل هذا الموقف لا يمكن أن يصدر عن أمير متنصر حديثاً إذ أن جمع السلاح أمر بالغ الخطورة قاومه النصارى بشدة فهم لم يخوضوا غمار الحرب ضد جيرانهم الدروز إلا بعد أن حصلوا على تأكيدات من إبراهيم باشا ومن الأمير بعدم نزع سلاحهم كما حصل مع الدروز من قبل... فتخوفوا أن يكون هذا الجمع للسلاح مقدمة لتوجيه ضربة لهم أسوة بالدروز الذين كانوا يشجعونهم على الامتناع عن التسليم أملاً في إيجاد مناخ تصادم بين الموارنة وبين الحكم المصري والأمير...؟ وهذا ما حدث فعلاً فيما بعد.

ولا بد من الإشارة أخيراً إلى أن مطلع رسالة الأمير السابقة الذكر جاء فيها (غب لثم الأذيال في أيمن طالع في ١٣ ربيع الأول تشرفنا بورود مرسوم دولتكم السامي...) فلثم الأذيال تؤكد الطاعة الكبرى من الأمير الكبير ـ الذي لم يكن في حقيقته إلا تابعاً لإبراهيم باشا ـ أما عبارة (في أيمن طالع في ١٣ ربيع) الأول فهي عبارة تؤكد على كون الأمير مسلماً إذ أن المسلمين حتى اليوم ـ وخاصة في ذلك الزمن ـ كانوا يحتفلون ويبتهجون لأيام متصلة، ابتهاجاً كبيراً بذكرى المولد النبوي الذي يصادف ١٢ ربيع الأول ويتيمنون أي أمر ذي بال يطرأ بمناسبة هذه الذكرى... فالأمير بشير المسلم السني اعتبر ورود مرسوم إبراهيم باشا بنزع السلاح في مناسبة الذكرى (أيمن

طالع) وإن صار عليه في النهاية شؤماً إذ بنزع سلاح النصارى انضم هؤلاء إلى الدروز والمسلمين السنّة والشيعة ضد الحكم المصري والأمير. . .

الأمير والثوار ضده

ينطلقون من الولاء للامبراطورية

وكما كان شأن الأمير بشير وسائر أمراء الأسرتين المعنية والشهابية باستثناء فخر الدين إذ مارسوا الحكم باستراتيجية الولاء للباب العالي. . كذلك فإن الثورة التي اندلعت ضده وضد إبراهيم باشا في بلاد الشام كانت ضمن الاستراتيجية إياها. . . مما يجعل تأريخ منظري التاريخ الحديث - خاصة في لبنان - ضرباً من الهراء. . . فقد جعلوا هؤلاء - الأمراء الحكام أو الثائرين ضدهم - أصحاب نزعات استقلالية انفصالية عن الأمبراطورية العثمانية - . . . أما الأمير بشير فاستراتيجية الولاء عنده للأمبراطورية في غاية الوضوح - حتى أنها انتقلت معه إلى الحكم المصري الجديد. . . أما الثائرون ومنهم أمراء من آل شهاب فهم ينطلقون أيضاً من ذات الاستراتيجية. يدل على ذلك منشور الأمير محمود شهاب الذي صدره إلى أهالي ومشايخ إقليم الخروب - على حدود جنوبي لبنان اليوم - بتاريخ ٢١ / ٥ / ٨٤٠ لقد جاء فيه (نخبر محبتكم أنه لامتثال أوامر حضرة مولانا السلطان عبد المجيد نصره الملك الحميد واتباعاً لفرمانه الشريف الصادر برفع المظالم ونزع كل ظالم وجهنا جناب من العسكر الشجاع أخوتكم المقيمين في حرش بيروت قاصدين جسر الأولي وذلك إلى أجل ردع الظلمة في البلاد) (١٤).

كما أن فرنسيس الخازن الذي اختارته عامية انطلياس في حزيران سنة ١٨٤٠ ليكون شيخاً على الدروز والموارنة المجتمعين في كنيسة بلدة انطلياس لترتيب أمور الثورة ضد الأمير والحكم المصري. . . ارتبط بقائد الجيوش العثمانية في الحرب ضد الإدارة المصرية وصار يتقاضى منه رواتب للجنود التابعين له المفوضين بالعمل الحربي. . . يستدل على ذلك المنشور الذي صدره محمد سليم باشا القائد العثماني إلى فرنسيس الخازن وإلى سائر جنوده فيقول فيه (. . . قد أصدرنا لكم تعيين (مرتب) كل يوم غرشين ولكل نفر نصف أوقية

بقصمان. . . فيقتضي يكونوا مطيعين لمتوليكم الشيخ المذكور وأي من خالف كلامه أو توجه لقضاء مصلحة تخصه بدون إذنه فجزاؤه الموت وقسماً بالله العظيم وبرأس مولانا السلطان الأعظم. . . فاعتمدوا هذه المأمورية وإياكم والخلل فتندموا حيث لا يفيدكم الندم) (١٥).

من هذا المنشور يتبين ارتباط الموارنة والدروز في ثورتهم المضادة للحكم المصري بالباب العالي حيث كانوا ولا يزالون يوفرون له كامل المحبة والاحترام والتقدير والولاء. . .

وأيضاً فإن القائد البريطاني وجه من على ظهر البارجة الإنكليزية التي تبعت الأسطول العثماني لدعمه في حربه ضد محمد علي. . . نداء إلى أهالي سوريا ولبنان والجيش المصري نفسه. . . استخدم فيها عبارات يستدل منها ولاء الناس، جميع الناس، للباب العالي. . . ذلك الولاء الذي يمكن بواسطته تحريك قدراتهم وتوجيهها إلى القضاء على محمد علي وفق ما تقرر من قبل الدول العظمى في ذلك الحين بالاتفاق مع السلطان (بريطانيا والنمسا وروسيا وبروسيا باستثناء فرنسا المؤيدة لمحمد علي) يقول منشور شارل تابير. . . (. . . - أدعوكم إلى الثورة وإلى خلع نير الظلم الذي تئنون تحت ثقله وإننا نتوقع بين ساعة وأخرى وصول الجنود والسلاح والذخيرة من استنبول سنحمي شاطئكم من هجمات الجيش المصري إذا ما حاول إزعاجكم. . . يا جنود السلطان (يعني الجيش المصري وكان كثير من أفراده من رعايا مقاطعات عثمانية كالأرناؤوط والألبان) (أنتم من أخرجتم من بيوتكم. . . وقذفوا بكم لتحاربوا في رمال مصر الحارقة ومن ثم نقلوكم إلى سوريا إنني أدعوكم. . . أن تعودوا إلى ولائكم القديم إلى أحضان السلطان. . .) (١٦).

ويبدوا أن مثل هذه المعطيات لم تكن بعيدة عن الجيش المصري، فقد أكّد القنصل الفرنسي في بيروت في رسالة وجهها إلى وزير خارجية فرنسا في ١٢ تشرين أول سنة ١٨٤٠ على وجود (عدم انسجام بين القواد المصريين وفقدان التلاؤم في خططهم بسبب انكسارات الجيش المتتابعة وقنوط هذا الجيش وخياناته (؟) وعدم انقياده. . .) (١٧).

أما سائر سكان الولايات الشامية فقد رفعوا إلى السلطان عبد المجيد بتاريخ جمادى الأول سنة ١٢٥٦ تموز سنة ١٨٤٠ التماساً بطلب نجدتهم لطرد محمد علي ولإعادة الحكم العثماني ويستدل من هذا النداء على عمق الترابط بين أهالي الشام والسلطنة وارتياح هؤلاء إلى طاعة الباب العالي ـ الذي وإن كان قد أخفق ودبت فيه ألوان من الانحراف لا يرضى عنها الإسلام بحال من الأحوال إلا أنه يبقى ولو إسمياً خليفة المسلمين في ذلك الحين ـ فقد جاء في هذا الالتماس، بعد أن وصفوا محمد علي بالخائن الذي خرج على طاعة السلطان (إن قلوبنا المضطربة رغبة في الحصول على السعادة التي يتمتع بها الذين يفاخرون بشرف انتمائهم إلى رعيتكم فما هو الذنب الذي اقترفناه فحوَّل عنا أنظار جلالتكم واستهدفنا لنبال استبداد وجور لا تطاق آلامها في حين أن آباءنا وأجدادنا قد تمتعوا منذ أربعماية سنة بنعمة التفيؤ في ظل علم جلالتكم السلطاني. . .) (١٨).

هدف الثوار المسيحيين العودة إلى الباب العالي
والتدخل الفرنسي كان لصالح الأمير:

ومما يجدر ذكره هنا أن المسيحيين عموماً في الولايات الشامية ومعظم الموارنة في لبنان كانوا ينطلقون من المعطيات ذاتها أي الطاعة للباب العالي. . . وإن يكن ـ كما سنرى ـ قد عملت الإرساليات الأجنبية كما عمل المبشرون على إيجاد هوة في تلك العلاقة وإلى إيجاد ولاء آخر غير منظور إلى قناصلهم وفق المذاهب المختلفة. فالموارنة كانت علاقتهم الكبرى مع القناصل الفرنسيين والبابوية والروم الأرثوذكس مع روسيا. . . والبروتستنت ـ وإن كانوا قلة ـ مع بريطانيا. . . غير أن سياسة فرنسا والبابوية المؤيدة لمحمد علي في نزاعه مع السلطان لم تتمكن من احتواء الموارنة في هذا السبيل إلا إلى حين. فعندما اصطدمت السياسة الفرنسية والبابوية مع أماني الموارنة التي لم تكن في ذلك الحين أكثر من إزاحة حكم محمد علي الذي أفحش في الضرائب وحاول تجنيدهم ونزع أسلحتهم. . . والعودة إلى ظل هذا الحكم من جديد. . . عندما اصطدمت السياسة الفرنسية برغبة الموارنة تمرد هؤلاء على التوجهات

الفرنسية وانضموا إلى جميع سكان البلاد الشامية في ثورتهم العارمة ضد محمد علي وأتباعه كالأمير بشير. . . ولم تكن ثورتهم تلك ـ كما توهم الأب ضو كعادته ـ من أجل الحرية والانفصال عن الحكم العثماني، تلك الحرية التي قال عنها إنها (قاعدة التحرك والعمل عند الموارنة منذ أقدم العصور على مر الأجيال. . .).

إلا أن الموارنة لم يجدوا تلك الحرية المتخيلة في الحكم العثماني ولا في الحكم المصري ـ فقد كانوا حتى ثورتهم عليه عملاءه وأدواته لقمع الثورات في الأماكن الجبلية الوعرة ـ إذ (لا يمكن أن تكون الحرية ثمرة الحكم التركي ولا الحكم المصري لأن الحكم التركي والحكم المصري شكلان لجوهر واحد هو الحكم الإسلامي). . . مع أن الموارنة كانوا بأمرة فرنسيس الخازن أثناء ثورتهم على الحكم المصري يتقاضون الرواتب والذخيرة والسلاح من القيادة العسكرية العثمانية. . . ولم تكن أي من أماني وتخيلات الأب ضو ـ في ذلك الحين على الأقل ـ باعثاً لانضمام الموارنة إلى ثوّار الشام. . . مع أن ترغيب السلطات الفرنسية والبابوية وتحذير الأمير بشير (الذي اعتبره المؤرخون الموارنة مارونياً) قد بلغ مداه. . . فقد أرسلت فرنسا مجموعة من مندوبيها وآبائها ـ وكذلك فعل البابا ـ إلى أهالي كسروان والشوف لتهدئة الخواطر. . . فجاب الجبل اللبناني (جوانبه وديفال وبودين وبيرتيه والأب لروا رئيس مدرسة عنطورا وجول برتوار المبعوث الفرنسي الخاص فوق العادة، وبذل المندوبون المساعي الحميمة لدى البطريرك الماروني يوسف حبيش لحمله على تهدئة الخواطر وقد فعل ذلك فعلاً وهدد الموارنة الثائرين بالحرم الكنسي ثم عاد وهدد بالحرم ضد من لا يحمل السلاح كما رأينا ـ (وكذلك كانت سياسة الفاتيكان) (١٩) إلا أن تينك السياستين وإن كانتا قد فشلتا عموماً إلا انها تمكنت من احتواء بعض الموارنة الذين كانوا يماشون البطرك حبيش. يكشف ذلك الأمير ملحم الذي بعث برسالة إلى الأمير أمين بن الأمير بشير الشهابي مؤرخة في ١٦ نوار سنة ١٨٤٠ إذ يقول (وصل من كسروان مقدار مائة نفر مسلحين وموضوع على رأس كل منهم شارة صليب نيشان وقدامهم خيال إفرنجي ساحب سيفه ومعهم بيرق ثلاثة أشكال أحمر وأزرق

وأبيض نيشان فرنساوي وعامل لهم تعيين لكل نفر غرشين ونصف وكل من يتعين يسلمه بارودة وبارود ورصاص) (٢٠) غير أن المحاولات الفرنسية والبابوية التي حاولت أن تُقحم انضمام عامة الموارنة إلى ثورة عموم أهالي الولايات الشامية ضمن أسلوب التهييج العاطفي والديني وإذكاء الشعور الصليبي وإشعارهم أن بقاءهم إلى جانب الأمير ومحمد علي باشا ضد السلطنة العثمانية فيه معنى صليبي يخدم المصلحة المسيحية العليا. . . !!!

الأمير يرفض أمر إبراهيم باشا وفرنسا ويستسلم للإنكليز:

وهكذا حاولت فرنسا، حتى قبل أن يستسلم الأمير بشير إلى مصيره بالنفي خارج إمارته بساعات، أن تبقيه على علاقة بإبراهيم باشا الذي أصدر أمره إلى الأمير بترك بيت الدين وبالتوجه مع أسرته إلى معسكره فسار الأمير مع حاشيته إلى صيدا ليستسلم إلى الإنكليز بدلاً من إبراهيم باشا، وفي طريقه إلى صيدا كان لندون القنصل الفرنسي يلح عليه في الرجاء ليصحبه إلى معسكر إبراهيم باشا مع ضمانات أكيدة لسلامته. . . إلا أن الأمير رفض محاولات السفير الفرنسي خاصة بعد أن وصله نبأ فرار حفيده الأمير محمود من المعسكر المصري وأن إبراهيم باشا جاد في طلبه وينهي القنصل الفرنسي رسالته إلى وزير خارجيته والمؤرخة في ١٢ / ١٠ / ١٨٤٠ بكشفه عن حقيقة رغبته في إبقاء الأمير في صف إبراهيم باشا، إذ أن عدم تنفيذ الأمير لأمر إبراهيم باشا بتواجده في معسكره (من شأنه أن يجر إلى صف أعداء محمد علي السكان الحائرين هؤلاء السكان الذين كانت سلطة أمير الجبل تمسك بهم حتى الآن. . .) (٢١).

وقد سبق هذا بأيام معدودات مبادرة فرنسية قام بها الوزير الفرنسي دي ميلويز عبر كتاب وجهه إلى البطريرك حبيش حاثاً إياه على القيام بمحاولة الصلح (٢٢) منعاً للمصير الذي آل إليه - فيما بعد - الأمير والباشا إبراهيم. . حفاظاً على المصلحة الفرنسية في هذه المنطقة تلك المصلحة التي كان يدور حولها الصراع عنيفاً بين الإنكليز والإفرنسيين. . .

وكما وجهت فرنسا كتباً إلى البطريرك حبيش لإقناعه بممارسة دور المصالح فقد وجهت تحذيراً إلى الباب العالي هددت فيه بالانضمام إلى محمد علي باشا في حربة ضد السلطنة إذا ما استمر النفوذ الإنكليزي بالاتساع مستفيداً من تلك الحروب. . . وقد ورد ذكر هذا التهديد في رسالة بعث بها وزير - خارجية انكلترا اللورد بالمرستون إلى مفوضه لدى الباب العالي جواباً على طلب تعليمات من هذا الأخير مؤرخ في ٧ / ١٠ / ١٨٤٠ وفيه ترجيح (إن فرنسا لن تؤيد محمد علي بقوة السلاح لأنها بذلك تتعرض لحرب ضروس مع الدول الأربعة مع أن قواتها البرية والبحرية لا تملك القوة على ذلك) وينتهي بعد استعراض موجز للموقف الدولي ولاضطرار فرنسا للاحتفاظ بستين ألف جندي في الجزائر. . . إن فرنسا لن تشعل الحرب لمؤازرة محمد علي. . . ويطلب وزير الخارجية إعلام الباب العالي بهذا التحليل وإن ممثل فرنسا لدى السلطنة لم يرد من كلماته إلا (الإرهاب إشاعة للذعر) (٢٣).

بريطانيا ولعبة الإمارة:

وقد كانت بريطانيا قد قطعت شوطاً كبيراً في لعبة الإمارة في جبل لبنان إذ كان - ممثلها ريتشارد وود - يبذل منذ عهد بعيد مساعيه الحثيثة لإخراج الأمير بشير من طاعة إبراهيم باشا. . . وكان في الوقت نفسه يحاول أن يوجد أميراً شهابياً يحل محل الأمير بشير الثاني في حال رفضه مماشاة بريطانيا في سياستها العامة في المنطقة. . . ووقع اختياره على الأمير بشير الثالث الذي حكم بعد بشير الثاني لفترة وجيزة وانتهى به حكم الأمراء الشهابيين - كما سنرى - وقد تمكنت بريطانيا وهي صاحبة الدور الأكبر في رسم معالم الحرب ضد محمد علي باشا من الحصول من الباب العالي على فرمانين متعاكسين الأول يتعلق بالعفو عن الأمير بشير الثاني وبتعيينه أميراً على مقاطعته في الجبل، والثاني يتعلق بعزل الأمير بشير الثاني وبتعيين الأمير بشير الثالث. . . ولا ريب أن هذا يكشف إلى أي حد بلغ التدخل الأجنبي سواء على صعيد الباب العالي أم على الصعد المحلية في بلاد الشام. . .

ولا بد هنا من الإشارة إلى أن الأمير بشير الذي كان منقاداً بصورة

جازمة لإبراهيم باشا قد وقف وحيداً أمام أكثرية رعاياه في إمارته بعد أن ناصبوه العداء فاتخذ إجراءات صارمة ضد حركات التمرد... فبعد أن أعلن إبراهيم باشا حالة الحصار على مناطق الجبل والمناطق الأخرى الثائرة تمكن الأمير بشير - كما يقول كمال صليبي - من (القضاء على ما تبقى من شراذمها - أي شراذم حركات التمرد - فألقى اليد على زعمائها ونفاهم إلى صعيد مصر...) وذلك بعد أن (بلغ الحزم في تطبيق هذه الإجراءات ضد (العصابات الثائرة) مداه، حتى أن هذه العصابات (وقد هددها خطر الجوع والانخذال فقدت أملها وسارعت إلى التفرق) (٢٤) غير أن تجمع الأساطيل البحرية البريطانية والنمساوية والتركية أمام الساحل وبخاصة أمام بيروت وجونية ثم ضربها بيروت بعنف أدّى إلى نهاية حكم الأمير وإبراهيم باشا معاً...

- ٦ - الأمير (بشير الثالث) أو الجبل بين خلافات الدروز وتحديات (البطرك حبيش)

أما الأمير بشير الثالث الذي أستلم الإمارة بفرمان سلطاني وبوساطة إنكليزية فقد واجه أوضاعاً معقدة بعد الحركات الشعبية ضد سلفه وسميّه الأمير بشير الثاني والحكم المصري... فهو من جهة واجه طلبات الدروز العائدين إلى بلاد الشوف وتظلماتهم... أولئك الذن تركوا البلاد على أثر المجازر المتلاحقة والحروب المتعددة بينهم وبين الأمير بشير أولاً، وإبراهيم باشا والأمير والموارنة ثانياً... فعندما عاد مشايخ الدروز وعامتهم الفارون وجدوا أن أكثر أملاكهم قد صارت بأيدي النصارى، فقد أقدم الأمير بشير الثاني في حربه ضد الدروز على إجراءات صارمة منها مصادرة أراضي الدروز وبيعها للنصارى المتمولين (كما وجدوا أقاربهم وأصدقاءهم في حالة يرثى لها فيما نعم النصارى بالبحبوحة والرخاء... وكان هذا وحده كافياً لبعث النقمة في قلوب الدروز) (٢٥) مما أدّى إلى منازعات خطيرة بين الدروز والنصارى وكلاهما خارج لتوه من ثورة عارمة. مما حدا بالقنصل الفرنسي في بيروت بروسبر يوريه إلى القول: (قلّما وجدت منطقة أرض لا نزاع عليها بين نصراني ودرزي) (١٦)... كما واجه الأمير بشير الثالث تحديات بطريرك الموارنة يوسف حبيش الذي كان يصغي بكثير من الاهتمام لنصائح القنصل الفرنسي فقد وجدت فرنسا في الأمير بشير الثالث عميلاً (لوود البريطاني) وخطراً على السياسة الفرنسية خاصة بعد خذلان الموقف الفرنسي بصورة عامة أثر هزيمة محمد علي في البلاد الشامية... وكانت فرنسا تودّ عودة الأمير بشير الثاني للإمارة باعتباره حليفاً لمحمد علي الذي آلت إليه ولاية مصر وانحصرت

تلك الولاية بذريته... فكان إقرار ذلك من قبل الباب العالي أشبه باعتراف ضمني بانفصال مصر عن الأمبراطورية العثمانية... فكانت ترى في عودة الأمير بشير الثاني بديلاً عن سميه بشير الثالث عميل الإنكليز انتصاراً متوازناً يعوضها عن خسارة الحرب في بلاد الشام... ومن جملة مساعيها تحريض البطريرك حبيش صديق الأمير بشير الثاني للمطالبة بعودة الأمير بشير مستفيداً من البلبلة التي غطت البلاد علماً أن البطرك حبيش قد سبق وأعلن تأييده الظاهري للأمير بشير الثالث...

وهكذا فبينما واجه الدروز الأمير بشيراً الثالث بمطالبات إعادة الأراضي التي كانت في ملكهم أيام الأمير السابق وجدنا أن النصارى وخاصة أولئك المقيمين في المناطق الدرزية يعارضون إعادة الأملاك معارضة شديدة كما عارضوا إعادة الامتيازات الإقطاعية لمشايخ الدروز (كجباية الضرائب والمحافظة على الأمن وممارسة السلطة القضائية البدائية في الشؤون المدنية والجزائية...) (٢٧).

وقد حاول بشير الثالث بإيعاز من ريتشارد وود تسوية هذه المسائل الشائكة وسواها من أمور إمارته بإنشاء مجلس لمعاونته خاصة في شؤون القضاء وأمور الأراضي مؤلف من اثني عشر عضواً يمثلون الطوائف الرئيسية في الإمارة... إلا أن الدروز رفضوا التعاون مع هذا المجلس المقترح بحجة أن هذا التدبير هو محاولة مكشوفة لتكريس مصادرة أراضيهم المملوكة منهم شرعاً. إزاء تلك الاضطرابات بين الدروز والنصارى بتحريض من البطريرك حبيش والفرنسيين أذاع البطرك بياناً على النصارى المقيمين في بلاد الشوف (داعياً إلى التمرد على السلطة القضائية التي ما زالت في أيدي الزعماء الإقطاعيين) (٢٨).

ويبدو أن مواقف النصارى الأخيرة من الدروز أثارت في نفوس هؤلاء شجون الماضي عندما استخدمهم الأمير بشير الثاني ثم الأمير وإبراهيم باشا في قمع ثورات الدروز... فظن الدروز أن الظرف السياسي العام يساعدهم على محاولة الاستقلال عن الموارنة الذين تنكروا لجيرتهم ولإحسانهم وإقامة

شبه حكم ذاتي لهم مستعيدين بذلك امتيازاتهم على بلاد الشوف الإقطاعية السابقة... فعثروا على حل ظنوا فيه اكتساب عطف الباب العالي فرفعوا إليه شكوى عن اضطهاد الأمير بشير الثالث وطلباً بتعيين حاكم درزي على مناطقهم مؤرخاً في حزيران سنة ١٨٤١... وقد بينت العريضة المزدوجة (الشكوى والطلب) على روح دينية واضحة ممارسين بها التقية التي عرفت عنهم متهمين فيها الأميرين بشير الثاني والثالث بممارسة الضغط عليهم بناء على ظن مفتعل أنهما نصرانيان يريدان إجبار الدروز على التنصر وهو ادعاء متهافت - ليس له صحة - ولم يقل به أحد من مؤرخي المارونية.

غير أن أحد المبشرين البروتستنت يزعم - نظراً لأفكار الدروز الدينية الخاصة ولانغلاقهم على أنفسهم وعدم إباحتهم بنشر مذهبهم إلا لعقّالهم مما أوجد طبقة من الجهال كما يسمونهم وهذه الطبقة معروفة باستهتارها بالقيم الدينية إلى درجة فقدان الهوية الدينية - يزعم هذا المبشر أن الدروز قد أصبحوا بروتستانتيين قلبياً ولولا أن الدولة العثمانية منعتهم بالقوة من إعلان بروتستانتنيتهم لأصبحوا كلهم بروتستانتاً ظاهراً وباطناً) (٢٩) مع أن رشتر نفسه - وهو صاحب الرواية - ينقض هذا الزعم بعد صفحات من كتابه بقوله (إن الدروز أنفسهم لا يفكرون في أن يصبحوا نصارى) (٣٠)...

تقول الشكوى الدرزية: (لما كانت الطائفة الدرزية تدين بالإسلام منذ عدة قرون ظل أجدادنا خاضعين لأوامر الباب العالي ولبثنا ناهجين بإخلاص وأمانة حتى سنة ١٢٤١ للهجرة (١٨٢٥ م) (٣١) وبعد أن يذكروا تنكيل الأمير بشير الثاني بهم (ذاك الأمير الذي نشأ مسلماً ويجتهد في أن يظهر إسلامه) إلا أنه - حسب زعمهم ضمن استراتيجية الرسالة - متنصر سراً... يشكون الأمير بشير الثالث (الذي ينزل بنا ضروب الاحتقار ساعياً لإذلالنا حاملاً لنا على اعتناق ديانته (؟) بل يكرهنا عليها). ثم يذكرون أنهم لن يرضوا أبداً (بالمروق على طاعة الباب العالي الذي أظلنا في كل آن بحمايته وإننا نجاهر تكراراً بأننا لن نلوذ أبداً بكنف حماية الأجانب ولو كان في ذلك إبادتنا جميعاً نحن وسائر أولادنا... إن أجدادنا ما فتئوا منذ عهد بعيد خدمة الباب العالي الأمناء ونحن نستمر على مثالهم معلنين تمسكنا بالأهداب

الإسلامية وحتى الآن ليس في طاقة أحد أن يتهمنا بالتقاعس عن القيام بواجبات الخضوع لحكومة الباب العالي وعليه فمن المحال أن نقبل بالبقاء تحت سيطرة حكومة مسيحية والخضوع لها ولأوامرها . . .) .

وبعد هذا العرض والاستعطاف تصل الشكوى إلى بيت القصيد وهو الخلفية التي باتت تحكم تصرفات الفئات الدينية والدروز ردحاً من الزمن إذ أن الدروز طالبوا أن تصدر أوامر شاهانية فيعين (سلطاننا العظيم علينا رئيساً كما كان الحال في عهد الشيخ بشير جنبلاط) و (يعهد إليه إدارة شؤوننا بموجب فرمان سام يقلده هذا المنصب لخير بلادنا وشرفها) (٣٢) .

هذه الشكوى فضلاً عن التقية الواضحة التي مارسها عقال ومشايخ الدروز فإنها تكشف حقيقة أكيدة وهي طاعة الدروز للباب العالي، إلا أنها تكشف من جهة أخرى، عن حرصهم على محاولة استعادة امتيازاتهم المسلوبة ـ وقد قضى الأمير بشير الثاني على الإقطاعيات المحلية وفرض نفسه إقطاعاً وحيداً . . . ـ ولعلّ هذا هو الدرس الأول الذي استفاده من خلال إقامته في مصر حيث أنه فور عودته منها خاض معاركه الضاربة ضد الشيخ بشير جنبلاط في محاولة لفرض سلطة أمير واحد في الإمارة . . . وهذا الدرس الذي علمه إياه محمد علي باشا وحرضه عليه، يكشف أن محمد علي باشا كان على أهبة إرسال عشرة آلاف رجل لمساعدة الأمير في حربه ضد الإقطاعي الشيخ جنبلاط. أما الدرس الثاني فهو إقامة جيش مستقل من الجنود المتطوعين اختيارياً في وقت الأزمات (٣٣) ومن أجل استعادة الدروز لتلك الامتيازات كتبوا ذلك الكتاب إلى السلطان راغبين بالحصول على فرمان يجعل حاكمهم معيناً من الباب العالي مباشرة، وهذا يعني بعد تكاثر الموارنة وانتشارهم حتى في المناطق الدرزية أن تقسم الإمارة الشهابية إلى إمارتين يعين كلاً من الأميرين فيهما الباب العالي أحدهما درزي على الدروز والثاني ماروني على الموارنة.

ولعلّ تلك الخلفية التي ظهرت بجلاء في الكتاب المنوه عنه تكشف أبعاد التعددية التي تكرست فيها بعد (أواخر سنة ١٨٤٢) بناء على اقتراح

رئيس وزراء النمسا مترنيخ ـ وهو داهية عصره ـ بإقرار نظام القائمقاميتين كما سنرى . . . ويبدو أن مترنيخ هذا قد استقى فكرته تلك من خلفية الدروز المشار إليها أعلاه ومن تحرك البطريرك حبيش الهادف إلى السيطرة الزمنية على أبناء طائفته . . . فوجد مترنيخ أن يمكن الاتجاهين الدرزي والماروني من الحكم مع الفصل بينهما لتحقيق هدنة . . . وربما كان هو وسائر حلفاء تركيا لم يقصدوا من هذا المشروع إلا إضفاء الشرعية على بؤرة التفجير في هذا القسم من الأمبراطورية العثمانية ضمن (لعبة الأمم) التي كانت الدول الأوروبية تبرع فيها بغية تفكيك الأمبراطورية وابتلاع أجزائها أو ما عرف بالمسألة الشرقية كما سنبين في القسم الأخير من هذا الكتاب.

ولا بد هنا من الإشارة إلى أن السلطان العثماني عبد الحميد الذي رفعت إليه شكوى الدروز لم يتجاوب مع مطلبهم القاضي بتعيين حاكم درزي عليهم. كما أنه لم يوافق فيما بعد على مشروع مترنيخ بإيجاد القائمقاميتين إلا بعد اتفاق الدول الكبرى على ذلك وإلزام الباب العالي به . . . مع أن هذا المشروع لم يتعد أن جعل على كلا القائمقاميتين نائباً تابعاً لوالي صيدا العثماني . . .

المراجع والمصادر
للقسم الرابع
- ١ و ٢ -

١ - ٢ - تاريخ لبنان الحديث - كمال صليبي ص / ٣١ و٣٢.
٣ - تاريخ الموارنة للأب ضو ٤ / ٢٨٧.
٤ - ٥ - ٦ - ٧ - كمال الصليبي مرجع مذكور ص / ٤٢ و٤٣.
٨ - ٩ - ١٠ - الإسلام والمسيحية في لبنان / محمد علي الزعبي وهاشم المدني ص / ٨٨.
١١ - هذه وصيتي - كمال جنبلاط ص / ٥٤.
١٢ - المرجع السابق ص / ٤٣.
١٣ - أصل الموحدين الدروز ص / ١١٣.
١٤ - لبنان في التاريخ لفيليب حتي ص / ٤٩٦.
١٥ - ١٦ - هذه وصيتي - كمال جنبلاط ص / ٤٤.
١٧ - تاريخ الموارنة للأب ضو ٤ / ٢٠٤.
١٨ - ١٩ - تاريخ الموارنة للأب ضو ٤ / ٢٠٤.
٢٠ - تاريخ كمال جنبلاط - هذه وصيتي الصفحات ٤١ و٤٢ و٤٣.
٢١ - ٢٢ - ٢٣ - الكتاب من تأليف حسين غضبان أبو شقرا ويوسف خطار أبو شقرا وعارف أبو شقرا سنة ٩٥٢.
٢٤ - ٢٥ - ٢٦ - الأب ضو ٤ / ٥٦٢ نقلاً عن أخبار الأعيان وتاريخ حيدر الشهابي.
٢٧ - تاريخ الموارنة ٤ / ٣٢٧.
٢٨ - تاريخ لبنان الحديث كمال صليبي ص / ٣٢.

٢٩ ـ المرجع السابق الصليبي ص / ٥١ .

٣٠ ـ ٣١ ـ فيليب حتي ـ لبنان في التاريخ ص / ٥٠٢ و٥٠٣ .

٣٢ ـ ٣٣ ـ تاريخ لبنان الحديث ص / ٣٢ و ٣٤ .

٣٤ ـ الأب ضو ٤ / ٦١٧ ـ غير أن هذا الود لم يدم طويلاً إذ أن محمد علي وابنه الأمير عادوا فأخلوا بتعهداتهم وعملوا على جمع السلاح ونزعه من الموارنة ثم عمدوا إلى التجنيد الإجباري وألزموهم ـ أسوة بسائر المواطنين ـ بضرائب فاحشة مما أدّى فيما بعد إلى اندلاع الثورة ضد المصريين والأمير. . .

٣٥ ـ انظر النزعات الطائفية في لبنان ص / ٤٩ ومن الجدير بالذكر ـ كما نوهنا هنا من قبل أن جزءاً كبيراً من هذه الأراضي تمتلكها الكنيسة عن طريق تبرعات مقاطعجية الدروز والأمراء المعنيين والشهابيين وبعض مقاطعجية الموارنة من آل الخازن. . .

٣٦ ـ نقلاً عن النزعات الطائفية ـ مرجع مذكور ص / ٥٠ .

٣٧ ـ تاريخ الموارنة الأب ضو ١٤ / ٥٨٨ نقلاً عن الخوري بولي قرألي الذي نشر تلك الرسائل لأول مرة في المجلة السورية سنة ١٩٢٨ وهي مأخوذة من خزانة بكركي. . .

٣٨ ـ المرجع السابق ضو ٤ / ٦٣٨ ولا بد هنا من ملاحظة أسلوب الحرم الذي استخدمته الكنيسة ضد عامة الشعب الماروني الثائر وهو أسلوب قديم إتبعه البابوات ودرسه الرهبان في المدرسة المارونية في روما لما اتبعوا البابوية عام ١٧٣٥ اتبعوها أيضاً في سياسة الحرم. . . غير أن الموارنة ـ الشعب رفضوا هذا النداء ـ الحرم ـ وازداد إصرارهم على المضي ضد الظلم. . . وباعتبار أن البطرك كان يمارس سياسة لا ديناً فسرعان ما تحول ليصدر بعد شهر فقط حرماً آخر (ضد كل من لا يحمل السلاح ويشترك في الثورة) الأب ضو ص / ٦٣٩ فتأمل. . . ومن المؤسف أن الأب ضو وهو الذي أورد هذين الحرمين. . . أضفى مزيداً من القداسة والاحترام والبطولة على هذا البطرك الذي جاء موقفه الأخير في الحرم (قمة في النبل والجرأة والشجاعة والروح الرعائية هذه الوقفة تضع البطريرك حبيش في مصاف البطاركة والرسل والأبطال من مار يوحنا مارون المؤسس والمناضل إلى دانيال الحدشيتي البطل الجبار إلى جبرائيل

مجولا الشهيد) تاريخ الموارنة ج ٤ / ٦٥٢ ولا ندري إن كان الأب ضو قد ظلم بهذا التشبيه يوحنا مارون ورفاقه ص / ١١٥ .

٣٩ ـ وثائق سياسية مصدر مذكور ص / ٢٣٠ .

٤٠ ـ المرجع السابق الأب ضو ٤ / ٣٠٥ انظر أيضاً الصفحة ٣٠٣ حيث ذكر فيها الأب ضو أنَّ الأمير قاسم توفي سنة ١٧٦٥ وقارن بها ص / ٣٠٥ حيث ذكر أنه توفي في ١٨ نيسان سنة ١٧٦٨ وبالنسبة لنصرانيته ذكر في الصفحة / ٤٦٤ أنه تنصر في غزير سنة ١٧٦٣ وفي صفحة ٤٧٣ ذكر أنه تنصر في سنة ١٧٦٤ أما جورج صليبي (تاريخ لبنان الحديث ص / ٤) فقد ذكر أنه تنصر سنة ١٧٦٧ .

٤١ ـ الأب ضو ٤ / ٤٦٣ .

٤٢ ـ فيليب حتي ـ لبنان في التاريخ ص / ٣٠٠ و ٣٠١ .

٤٣ ـ تاريخ الموارنة الأب ضو ٤ / ص ٣٠٠و ٣٠١ .

٤٤ ـ المرجع السابق الأب ضو ٤ / ص ٣٠٣

٤٥ ـ المرجع السابق الأب ضو ٤ / ٤٧٣ .

٤٦ ـ طالع قصة تنصر الأمير عبدالله في تاريخ الموارنة للأب ضو في تاريخ الموارنة جزء ٤ / ص / ٤٦٥ و ٤٦٦ نقلاً عن الخوري اسطفان البشعلاني.

٤٧ ـ ٤٨ ـ ٤٩ ـ ذكر المطران دبس نبذات من حياة البطريرك يوسف اسطفان وموقفه من الراهبة الهندية وبعض الذيول التي رافقت ذلك الموقف في كتابه الجامع المفصل في تاريخ الموارنة المؤصل ص / ٢٨٩ وما بعدها.

٥٠ ـ لم نتمكن من الاطلاع على النص الكامل لرسالة البطرك أسطفان إلى لويس الخامس عشر التي ذكر فيها تنصر الأمير قاسم ـ وهي مما لا ريب فيه من محفوظات البطركية في بكركي. . . نجد أن جميع الأدلة تشير إلى أن رسالة البطرك كانت تتعلق بمسألة عودته إلى الكرسي البطريركي والتماسه الدفاع عنه لدى البابا.

٥١ ـ الحركات في لبنان لحسين وعارف ويوسف أبو شقرا منقول عن الأب ضو ٤ / ٤٧٤ .

٥٢ ـ تاريخ الموارنة الأب ضوج ٤ / ص / ٤٧٢ .

٥٣ ـ لبنان في التاريخ ص / ٥٠٦ .

٥٤ ـ تاريخ الموارنة ضو ٤ / ٥٦٥ نقلاً عن أخبار الأعيان.

٥٥ ـ ٥٦ ـ التعددية في لبنان ـ وليد فارس ص / ١١٠ و١١٢ .

٥٧ ـ لبنان في التاريخ ص / ٥٠٦ .

٥٨ ـ الوثائق السياسية ـ مرجع مذكور ـ ص / ١٥١ وأيضاً تاريخ الموارنة ٤ / ٤٩٠ وهذه الوثيقة هي من الوثائق القليلة التي يمكن بواسطتها فهم كثير من الأمور في تلك الحقب ومنها طبيعة العلاقات بين الحاكم والرعية ولا نعرف أصل هذه الرسالة . . . غير أن العامية فيها مما يلفت النظر وكذلك الأخطاء في الآيات القرآنية .

٥٩ ـ الأب ضو ٤ / ٥١٤ وأيضاً الوثائق السياسية ص / ١٨٩ و ١٩٠ .

٦٠ ـ تاريخ الموارنة الأب ضو ٤ / ٥٧٧ نقلاً عن حيدر الشهابي.

٦١ ـ تاريخ الموارنة صفحات ٥٣١ و٥٣٢ نقلاً عن أخبار الأعيان.

٦٢ ـ يقول الأب ضو في تاريخ الموارنة ٤ / ٥٣٥ (فكر عبدالله بإعادة الحكم إلى بشير وأرسل يجس نبضه).

ـ ٣ ـ

١ ـ ٢ ـ ٣ ـ تاريخ طرابلس قديماً وحديثاً للأستاذ سميح الزين ص / ٢٨٠ و ٢٨١ و٢٨٢ .

٤ ـ لبنان في التاريخ حتى ص / ٥٠٣ .

٥ ـ ٦ ـ تاريخ الموارنة ضو ٤ / ٥٠٠ .

٧ ـ المرجع السابق ضو ٤ / ٥٠٢ .

٨ ـ الوثائق السياسية ص / ١٦٦ .

٩ ـ الوثائق السياسية ص / ١٦٦ .

١٠ ـ تاريخ الموارنة ضو ٤ / ٥١٥ نقلاً عن حيدر الشهابي.

١١ ـ الوثائق السياسية ص / ١٩٨ وراجع في الوثائق أيضاً كتاب يوسف كنج والي دمشق السابق الذي أرسله إلى محمد علي باشا والي مصر بشأن خطة هجوم ثلاثي من مصر والشام والعراق للقضاء على الحركة الوهابية ص / ١٧٧ وهي

أول خطة عمل مشتركة توضع ـ نظرياً ـ للتعاون العسكري بين بغداد والقاهرة ودمشق في التاريخ الحديث. كما راجع وثيقتين من محمد علي باشا يطلب عزل سليمان باشا عن إيالة الشام وإعادة يوسف كنج ليتمكن من تنفيذ غزوه للحجاز ص / ١٩٢ و ١٩٥ غير أن السلطنة لم تستجب لطلبه . . . ذلك أن سليمان باشا بعد أن تسلم ولاية الشام وصل كتابان من سعود بن عبد العزيز وقائد عسكره عليان الضميني إلى يوسف كنج بوصفه والي الشام يدعوانه إلى قبول الدعوة الوهابية ومناظرة حججها أو استقبال (مطاوعه) ليشرحوا الدعوة وأهدافها وليقيموا الحجة في صوابها . . . ويعرض عليان عليه فكرة اللقاء بين يوسف وسعود في موسم الحج لشرح الدعوة . . . فأرسل سليمان ـ بعد أن تسلم الولاية من يوسف ـ رداً إلى السعود وإلى عليان شديد اللهجة ختمه مهدداً في حال عدم عودتها إلى طاعة السلطان الواجبة عليهم شرعاً توجيه القتال ضدهم . . . ويبدو أن سليمان قد أطلع الباب العالي على الرسالتين وجوابه عليهما الأمر الذي جعل الباب العالي متشبثاً به في ولاية الشام، ومما لا شك فيه أن هاتين الرسالتين وكتاب سليمان باشا من الأهمية بمكان إذ ترسم معالم أساسية في فهم المنازعات الدينية والإصلاحات المطلوبة على ضوء الشريعة وفق ما فهمها ولاة ذلك الزمان . . . راجع الكتابين والرد في الوثائق السياسية ص / ٢١٨ وما بعدها.

١٢ ـ الوثائق السياسية ص / ٢٥٧ .

١٣ ـ تاريخ الموارنة ضو ٤ / ٥٣١ و ٥٣٢ .

١٤ ـ ١٥ ـ طالع نص الكتاب المومي إليه في الوثائق السياسية مصدر مذكور ص / ٢٠٠ .

١٦ ـ تاريخ لبنان الحديث كمال صليبي ص / ٥٦ .

١٧ ـ تاريخ الموارنة ـ ضو ٤ / ٥٤١ .

١٨ ـ الصليبي في تاريخ لبنان الحديث ص / ٥٥ (عبدالله باشا نجل أحد كبار أرباب الدول في الآستانة) أما الأب ضو في تاريخ الموارنة ٤ / ٥٢٥ (خلفة ـ أي خلف سليمان باشا ـ مدبرة عبدالله بن علي الخزندار أحد مماليك الجزار).

١٩ ـ الوثائق السياسية / ٢٦٣ .

٢٠ ـ تاريخ لبنان الحديث ص / ٥٧ .

٢١ ـ الوثائق السياسية ص ٢٦٧ و ٢٦٨ .

٢٢ ـ مجلة الفكر العربي المعاصر العدد الثاني حزيران سنة ١٩٨٠ صفحة / ١٨ .

٢٣ ـ ٢٤ ـ الوثائق السياسية صفحة / ٢٦٩ الصفحات ٢٧٠ وما يليها نص مرسوم عبدالله والي عكا لتجهيز المقاتلين . . .

٢٥ ـ لبنان في العصر الحديص ص / ٥٧ .

٢٦ ـ ٢٧ ـ تاريخ الموارنة ـ الأب ضو ٤ / ٥٨٠

٢٨ ـ أسد رستم ص / ١٥ وينقل هاني فارس في كتابه النزاعات الطائفية قول رستم هذا وكأنه حقيقة لا نقاش فيها مع أنها لا تعدو دسيسة خطيرة كما رأينا .

٢٩ ـ ٣٠ ـ مجلة الفكر العربي المعاصر / العدد الثاني ـ حزيران ١٩٨٠ ص / ١٨ و ١٩ .

٣١ ـ ٣٢ ـ تاريخ طرابلس لسميح الزين ص / ٢٧٤ و ٢٧٥ .

المصدر السابق ص / ٢٧٨ نقلاً عن أخبار الأعيان للشدياق من كتاب أرسله محمد علي إلى الأمير.

٣٣ ـ ٣٤ ـ راجع الوثائق السياسية ص / ٢٨١ .

٣٥ ـ تاريخ لبنان الحديث ص / ٦٤ إن هذا الرأي يخضع لميزان المصالح الفرنسية فهي لا تتطلع ألى محمد علي إلا والياً يحقق المصالح التجارية والسياسية في منازعاتها الدولية وقد كتب سفير فرنسا في الآستانة إلى حكومته في ١٩ / ٤ / ١٨٣٣ يقول: (في اعتقادي أن مصر قوة مفتعلة لكنها أصبحت خطيرة حين امتلك زمامها محمد علي لذا يجب علينا أن نخشى جانبها وأن نضع أمامها حواجز لإيقافها وعلينا أن نحصر طموح واليها في حدود لا يستطيع معها في كل لحظة أن يجابه الروس والإنكليز بمصالح فرنسا . . . فإذا ما استقر محمد علي ما وراء جبال طوروس فإن المصالح الأوروبية كلها تصبح مهددة في كل لحظة . . .) راجع مجلة الفكر العربي المعاصر حزيران ١٩٨٠ مقال للدكتور مسعود الضاهر. فتأمل.

٣٦ ـ الوثائق السياسية ص / ٣٢٨ .

٣٧ ـ الوثائق السياسية ص / ٢٨٢ .

٣٨ ـ تاريخ طرابلس ـ سميح الزين ص / ٣٠٤ و ٣٠٦ نقلاً عن (نزهة الفكر في مناقب الشيخ محمد الجسر بقلم ولده الشيخ حسين الجسر) وقد دعم سميح الزين رواية حسين هذا بمجموعة آراء من المعمرين الطرابلسيين كما ذكر أسماء الشهداء فتكاد لا تخلو عائلة إلا وثكلت بواحد منها . . .

٣٩ ـ تاريخ الموارنة / الأب ضو في تاريخ الموارنة ٤ / ٦٣١ نقلاً عن جابولان المسألة اللبنانية الفرنسية.

٤٠ ـ بيروت ولبنان منذ قرن ونصف القرن ـ تعريب مارون عبود ـ منشورات وزارة التربية الجزء الأول ص / ٢٢٧ .

٤١ ـ الوثائق السياسية مصدر مذكور ص / ٣٣٦ .

٤ ـ ٥ ـ ٦

١ ـ الأب ضو ٤ / ٤٧٤ كما لم ينص الأب ضو على وصف زوجتي الأمير اللتين زعم تنصيرهما. كذباً وزوراً ـ بصفات التقى والتفاني في المسيحية . . . وهما مسلمتان سنيتان عاشتا وماتتا على الإسلام.

٢ ـ المرجع السابق ٤ / ٥١٠ .

٣ ـ ٤ ـ ٥ ـ المرجع السابق ٤ / ٥٣٦ وما بعدها.

٦ ـ تاريخ الموارنة الأب ضو ٤ / ٦٣٢ .

٧ ـ المصدر السابق عنوان فصل السابع من الجزء الرابع.

٨ ـ المصدر السابق ٤ / ٦٢٣ .

٩ ـ وثائق سياسية / ٣٠٢ .

١٠ ـ الدكتور عبد العزيز نوار رئيس قسم التاريخ في جامعة عين شمس في كتابه الوثائق السياسية ص / ٣٠٢ .

١١ ـ المصدر السابق ٣٥٧ .

١٢ ـ المصدر السابق ٣٠٤ .

١٣ ـ المصدر السابق ٣١٥ / ٣٠٧ .

١٤ ـ المصدر السابق ٣٠٧.

١٥ ـ المصدر السابق ٣٥٠.

١٦ ـ الصراع الدولي في الشرق الأوسط وولادة دولتي سوريا ولبنان زين نور الدين زين ـ ص / ١٩٠ وأيضاً الوثائق السياسية مصدر مذكور / ٣٣٠ ولن نناقش تأثير هذا النداء ولا أبعاده السياسية الدولية في ذلك الحين وأسباب صدوره وقرار الدول العظمى الناتج عن اتفاقهم مع السلطان لتصفية حكم محمد علي في الولايات الشامية... إنما يهمنا هنا إظهار خلفية السكان وحتى الجيش المصري تلك الخلفية التي يصدرون عنها والتي كانت محور اهتمام الناس وسائر الولاة وأمراء جبل لبنان وهي علاقة الولاة والاطمئنان إلى الباب العالي رغم أنه كان في ذلك الحين قد دبت إليه أنواع شتى من الأمراض والانحرافات الرهيبة...

١٧ ـ الوثائق السياسية ص / ٣٤٥.

١٨ ـ الوثائق السياسية ص / ٣٢٨ نقلاً عن نادر عطار في كتابه تاريخ سورية في العصور الحديثة وأيضاً المحررات السياسية والمفاوضات الدولية.

١٩ ـ الأب ضو / ٦٤١ وأسماء المندوبين الفرنسيين قد ذكرها الأب ضو في ص / ٦٤٠.

٢٠ ـ الوثائق السياسية ص / ٣١٤ غير أن الدكتور عبد العزيز نوار الذي علّق على هذه الوثائق قد أخطأ في تفسير هذه الوثيقة إذ اعتبر أن الفرنسيين هؤلاء إنما تدخلوا لمصلحة الثورة ضد الإدارة المصرية في حين أن جميع القرائن تشير إلى عكس ذلك إذ أن الرسالة موجهة إلى الأمير أمين بن الأمير بشير... كما أن فرنسا في ذلك الحين أي في أيار سنة ١٨٤٠ كانت لا تزال مع محمد علي باشا وتابعه الأمير بشير فلا يمكن أن تمد بالسلاح والمال وتعيين رواتب للموارنة، جنوداً وقادة، الذين بقوا في ولائهم لها إلا ليكونوا في صف الأمير من أجل هذا كان إرسال هذه الرسالة إلى الأمير أمين لطمأنته إلى الدعم الفرنسي وإمكان تصعيده... هذا الدعم الذي كانت تمارس مثله على الصعيد الديني مع البطرك حبيش الذي أصدر في حزيران سنة ١٨٤٠ حرماً كنسياً ضد من يحمل السلاح ضد الحكم المصري وضد الأمير... فلا يعقل ـ والأمر

كذلك ـ أن تكون القوة المارونية التي ورد ذكرها في الرسالة موجهة ضد الإدارة المصرية كما توهم الدكتور نوار...

٢١ ـ الوثائق السياسية ص / ٣٤٦ وقد ترجمت هذه الرسالة عن أرشيف وزارة الخارجية الفرنسية.

٢٢ ـ تاريخ الموارنة الأب ضو ٤ / ٦٥٨.

٢٣ ـ الوثائق السياسية / ٣٤٨.

٢٤ ـ تاريخ لبنان الحديث / ٧٥.

٢٥ ـ ٢٦ ـ ٢٧ ـ ٢٨ ـ المصدر السابق / ٨٠.

٢٩ ـ ٣٠ ـ التبشير والاستعمار د. مصطفى ود. عمر فروخ ص / ٤٢ ويلاحظ أن كمال جنبلاط يحرص على تسمية الدروز بـ(بروتستانت الإسلام) راجع كتابه ـ هذه وصيتي ـ.

٣١ ـ ٣٢ ـ الوثائق السياسية / ٣٥٧ ـ ٣٥٨.

٣٣ ـ راجع في الوثائق السياسية كتاب أمين بن بشير الثاني إلى الأمير بشأن تجهيز محمد علي عشرة آلاف جندي لمساعدته ضد الشيخ بشير جنبلاط سنة ١٨٢٤ ص / ٢٧٣ ورسالة أمين نفسه إلى والده الأمير بشير عن زيارته لمصر سنة ١٨٢٣ وسؤال محمد علي عن تجهيز العسكر... الرسالة هذه منشورة في الوثائق ص / ٢٦٧.

القسم الخامس

لعبة الأمم
والدولة العثمانية
حتى ١٨٤٠

- لعبة الامتيازات الأجنبية
- المسألة الشرقية من منظور غربي
- استراتيجية الدول إزاء الأمبراطورية العثمانية

١ ـ لعبة الامتيازات الأجنبية

... أطلعنا في صفحات سابقة على صورة من صور الامتيازات الأجنبية التي منحها السلطان العثماني سليمان القانون لفرنسوا الأول ملك فرنسا بعد تحريره من أسر شارلمان امبراطور الأمبراطورية المارونية المقدَّسة بناءً على استغاثة الملك المذكور...

ولا بد بدءاً من استعراض مراحل أساسية، كانت الامتيازات الأجنبية خلالها وبعدها ثغرة رهيبة نفذ الاستعمار والتبشير منها لممارسة التدخل المشبوه في أمور الأمبراطورية العثمانية التي شارفت على الضعف والانهيار... وقد أدرك بعض السلاطين في نهاية الأمبراطورية مدى خطورة تلك الامتيازات وتمنى لو كان بمقدوره إلغاؤها دون أن يزيد من احتمالات التدخل الأجنبي في بلاده المترامية الأطراف. فقد حاول السلطان عبد الحميد الثاني (١٨٧٦ ـ ١٩٠٨) أن يقوم بتجربة في هذا الصدد فأصدر فرمانه بإلغاء الامتيازات في قبرص وراح يراقب ردة الفعل الأوروبية التي ظهرت عبر الصحافة الأوروبية في تهييج شنيع على السلطنة والسلطان وإظهارهما بمظهر المعتدي على حقوق الأمم... وكتب السلطان عبد الحميد تجربته تلك في مذكراته وأظهر مرارته من الضعف الذي آلت إليه السلطنة بحيث فقدت قدرة سحب ذلك (الترخيص) الممنوح من السلطان إلى الأجانب وقال محللاً تلك الامتيازات ونتائجها وموقف الأوروبيين من تجربته في قبرص ـ أردنا إلغاء الامتيازات في قبرص فقامت الصحف الأوروبية بالصياح والعويل... إنهم يريدون إظهارنا بحلة المعتدي على حقوق الآخرين في حين يدرك المحايد جيداً أن هذه الامتيازات هي التي هضمت حقوقنا وألحقت الحيف بنا. من

الطبيعي أن يعمد الروم - كلمة يطلقها المسلمون على غير المسلمين عموماً - القاطنون في السلطنة العثمانية - ويقصد هنا نصارى قبرص إلى - إحداث البلبلة في سبيل المحافظة على الامتيازات التي حققوها، فإذا فقدوا هذه الامتيازات فلن يستطيعوا بعد ذلك الدعوة إلى القومية الهيلنية - وهي إحدى صور التدخل الأجنبي في شؤون الأمبراطورية وكانت يومئذٍ على أشدها - أدعو الله عز وجل أن يجعل هدم هذه الامتيازات على أيدينا... إن سبب دفاع بعض الدول الكبرى عن الروم (في قبرص) نابع من خشيتهم على امتيازاتهم من أن نسحبها يوماً. إن فرض وصاية الأجانب علينا أمر مناف لكرامتنا... إن تطرف الدول الكبرى في الإجحاف بحقوقنا قد تجاوز جميع الحدود والمقاييس) (١).

ولا ريب أن هذا الإدراك قد جاء متأخراً جداً بحيث لم يتمكن السلطان عبد الحميد من هدم تلك الامتيازات بل عمل الجميع: نصارى أوروبا والصهيونية العالمية والمبشرون المنتشرون في أنحاء الأمبراطورية بما فيها الآستانة على إثارة العواطف في وجهه وتنظيم صفوف معارضيه حيث انتهى به الأمر إلى التخلي عن العرش ومن ثم النفي وكانت فكرة إلغاء الامتيازات التي راودته بقوة إحدى أهم الأسباب لذلك الخلع، إضافة إلى سبب رفضه الموافقة على إقامة وطن قومي لليهود في فلسطين مع أنه تعرض لإغراء كبير، بينما وافق خصومه الاتحاديون من جمعية الاتحاد والترقي على قطع هذا العهد الخطير (٢).

إن مرارة السلطان العثماني وتململه من فرض وصاية الأجانب التي تجاوزت كل مألوف وغدت جارحة للكرامة تكشف حقيقة مرة وهي أن التدخل الأجنبي كان محوراً أساسياً في سياسة الدول الكبرى تجاه الأمبراطورية العثمانية، مبرراً من الوجهة الشرعية والقانونية، بفضل الامتيازات الأجنبية، تلك التي ساهمت بدورها في حالة الضعف والتردي للأمبراطورية وأضفت على تحرك القناصل الأجانب عموماً واتصالهم بفئات مختلفة من أهل البلاد حصانة لا يمكن تجاوزها حتى غدا الأجنبي في البلاد العثمانية متمتعاً بحقوق لا يحوز عليها المواطنون أنفسهم وغدت عبارة (الحماية الأجنبية) امتيازاً رفيعاً يتباهى به الأجانب بكل صلف واستعلاء (٣) فهي جزء رئيسي في لعبة الأمم في ذلك الزمن...

قلنا إن أصل هذه الامتيازات منحة وهبها السلطان العثماني سليمان لفرانسوا الأول (ملك إيالة فرنسا) كما جاء في جواب السلطان إليه لَمّا استنجده لفك أسره... فالسلطان سليمان كان في ذلك الحين من خلال أمبراطوريته العثمانية، أقوى قوة في العالم دون منازع... حتى أنه لم ينظر إلى فرنسا الاكايالة كباقي إيالاته المنتشرة في آفاق الدنيا... وقد رأى السلطان ان يمنح الامتيازات التجارية (لملك إيالة فرنسا) (٤) وأن يعترف لرعاياه إذا سكنوا في الأمبراطورية أو مروا فيها ببعض امتيازات قانونية وتجارية أيضاً... ويبدو أن السلطان كان يريد من وراء ذلك تأكيد سلطانه بطريقة أو بأخرى على (إيالة فرنسا)(*) مجابهاً بها الامبراطورية الرومانية المقدسة - بعد أن هزم امبراطورها شارلمان - فقد ظن أن تمييز رعاياها خير وسيلة لإعلان إرادته تلك... ويبدو أن إعلان الامتيازات ذلك وإن جاء - إعلاناً من طرف واحد - لسبب سنبينه فيما بعد - إلا أنه قد خضع لمفاوضات طويلة ولتشفع متصل من فرنسوا الأول عبر رسوله إلى الباب العالي الراهب ده لافورست) (٥).

وعلى أثر نجاحه في مسعاه عين الراهب أول سفير لفرنسا لدى الباب العالي، وكان فرنسوا الأول يخاطب السلطان بالسيد الأعظم أو بأمبراطور العالم الكبير (٦) وقد رفض السيد الأعظم - على ما يبدو - أن تصدر الامتيازات بموجب اتفاق أو معاهدة كي لا تكون المعاهدة قيداً يحول دون إمكان الرجوع عن هذا العطاء وقد أشار إلى هذا المعنى شوفالية درفييه (كان السيد الأعظم يأنف من الارتباط مع ملوك النصارى بمعاهدات... وكان السلطان يفضل على المعاهدات منح الامتيازات على اعتقاد منه أن إلغاءها هو حق له يتصرف به متى شاء) كما أن هذا الامتياز قد جاوز وجود سفراء فرنسا في الآستانة للاهتمام بشؤون مصالحهم ومصالح رعاياهم فتبادل التمثيل كان أيضاً معدوماً. فالآستانة لا تمثيل لها في فرنسا إذ أن الباب العالي كان يومها يرى أنه

* - جاء في مقدمة جواب السلطان سليمان لفرنسوا الأول وهو لا يزال محفوظاً في مكتبة باريس (أنا سلطان السلاطين وبرهان الخواقين ومتوج الملوك في الأرضين) - وبعد تعداد أمصاره وألقابه يقول: (إلى فرنسيس ملك أيالة فرنسا).

لا يحتاج إلى ذلك فهو في غنى عن سائر الدول (على هؤلاء الذين يحتاجون إليهم أن يقيموا الممثلين في دار السعادة لتأمين مصالح شعوبهم) وعلى رواية «لافيلان» فإن هذه التقاليد ظلّت متبعة إلى عهد السلطان محمود في مطلع القرن التاسع عشر، والواقع أن السلطان سليمان الثالث (١٧٨٩ ـ ١٨٠٧) هو أول من نصب معتمداً للسلطنة في أوروبا. . .) وأيضاً فإن السفير كان يتوجب عليه أن يؤدي قبل المثول أمام الباب العالي هدايا ثمينة كصورة من صور الجزية دلالة على شمول الدولة وسفيرها برعاية السلطان. . .

ويبدو أن هذا الموقف الاستعلائي من السلاطين كان له آثار سلبية في أوساط الدول الأوروبية المحيطة بالسلطنة. . . فهي وإن سعت وجاهدت حتى حصلت على امتيازات مماثلة لتلك التي حصل عليها فرنسوا الأول، وقد حصلت كل من بريطانيا والنمسا وروسيا وبروسيا وهولندا وسردينيا (إيطاليا) ثم فيما بعد الولايات المتحدة، على الامتيازات ذاتها، إلا أن تلك الدول كانت تسعى فرادى ومجتمعة، ضمن ما يمكن ان نسميه بـ (لعبة الامم) في تلك الأزمان، للانقضاض على الدولة العثمانية وتمزيقها من الداخل. . . وقد كانت الدول صاحبة الامتيازات تضغط بأشكال مختلفة لتوسيع دائرة الامتيازات والعطاءات السلطانية وكان هؤلاء يصدرون (فرماناتهم) بالامتيازات تحت وطأة الظروف والمستجدات الدولية أو ضمن الشعور بالزهو بعد بذل المزيد من التشفع. . .

لقد انطلق السلاطنة العثمانيون من فرضية أن النصارى أحرار في معتقداتهم في ظل حكم إسلامي فصّدروا الامتيازات لتشمل نطاقاً أوسع وأكبر من نطاق العقيدة إذ تعدتها إلى شؤون التجارة وإلى تدخل مكشوف بفرض (حمايات) على السكان النصارى من رعايا الدولة العثمانية وهما أمران خطيران لهما معقبات لا ترضى بها دولة تحترم نفسها، فكيف بدولة تجلببت بجلباب الإسلام وعزته؟. . .

وقد كتبنا من قبل في صفحات سابقة (أن تسامح الدولة العثمانية ومحاولتها واقامة علاقاتها بالرعايا غير المسلمين والأجانب بصورة خاصة على قواعد الحرية الدينية واحترام المشاعر والتقاليد وأحوالهم الشخصية، وبالنسبة

للأجانب حرية التنقل والإقامة مع ما يستتبع ذلك من حصانة التجارة والتقاضي. إن التسامح هذا كان يُحمل ـ بالنسبة لبعض المنظرين والمؤرخين ـ محمل ضعف من السلطنة وقوة من الرعايا غير المسلمين. . . وأن تلك الحرية كانت تنتزع انتزاعاً. . في حين أنها في حقيقة الأمر جانب محتوم من الفكر الإسلامي الذي يرفض الإكراه كما أن (نظام الملة) الذي كرّسه العثمانيون بشيء من التوسع والتسامح قد أنتج ما لا يمكن أن تقبله أية دولة في العالم وكان سبباً في أطماع صليبية حاقدة وفي أحداث كانت الدولة العثمانية وسائر هذه البلاد في غنى عنها ـ .

يقول فيليب حتي (٧) (وكانت كل طائفة من هذه الطوائف الدينية في السلطنة تعرف بالملة وكان الإسلام ذاته يعرف بالملة الإسلامية وطبيعي أن يكون الإسلام أهم ملة وأكبرها. وكانت تلي ذلك ملة الروم الأرثوذكس وكانوا يعنون بالروم الأرثوذكس الرعايا العثمانيين الذين ينتمون إلى الكنيسة الأرثوذكسية بقطع النظر عن اللغة والعرف. وبحسب نظام الملة أصبح جميع الرعايا الشماليين من غير المسلمين ينتظمون في طوائف مستقلة يرعى شؤونها رؤساؤها الروحيون وكانت القضايا التي تتعلّق بالأحوال الشخصية كالزواج والطلاق والإرث والتبني والتربية الدينية والمؤسسات الدينية تخضع لسلطة الرؤساء الروحيين لهذه الطوائف وقد كان هذا النظام إلى حد، بمثابة قيام دولة ضمن دولة كبيرة ويمكن النظر إلى نظام الملة على أنه محاولة قديمة من قبل المسلمين لحل مشكلة الاقليات باعطائها شكلاً معترفاً به غير ان الحالة زادت تعقداً وذلك أن (الأمة) بالمعنى الديني أصبحت تعني (الأممية) فصار الموارنة والكاثوليك دينياً في صف واحد مع فرنسة والروم الأثوذكس مع روسيا والبروتستانت مع بريطانيا).

والحقيقة أن أصل النظام ليس خطأ فهو لا يقضي بالأممية التي آل إليها الأمر في النتيجة. . . فتلك نزاعات استعمارية صليبية كانت تسعى لإيجاد مرتكزات لها في الدولة العثمانية فاستغلت الدول الكبرى المتطاحنة نظام الملة هذا لتفرض نفسها حامية لتلك الأقليات ولتحاول عبرها ممارسة (خلق الذات) ضمن كيان الدولة العثمانية الكبير. . .

كما أن من الخطأ أن يفهم ممارسو نظام الملة والمعنيون به أنهم دولة ضمن دولة، وأن ينتهزوا الحرية الدينية والاعتراف بالكيان الديني والشرعي وبحصانته ليمارسوا عبره اتصالات مشبوهة وليقيموا علاقات على حساب الدولة التي منحتهم ذلك الاعتراف وتلك الحرية...).

لقد (كان من نتيجة تطبيق هذه الامتيازات أن هيمن التجار الأوروبيون داخل الأمبراطورية العثمانية هيمنة كاملة على عمليات التبادل ولا سيما في المدن التجارية والمرافىء وكانت هذه الهيمنة تزداد بقدر ما كان يزداد ضعف السلطنة وتفكك مؤسساتها الإدارية والاقتصادية والعسكرية وكان أن وصلت بالنتيجة إلى الحد الذي أصبح فيه تجار الدول الأوروبية يشكلون مع قنصلياتهم جاليات قوية تتمتع بسلطات مستقلة عن السلطات المحلية العثمانية وتشكل عملياً (دولة داخل دولة) (٨).

وقد كان لتطور الامتيازات الأجنبية بربطها بمعاهدات نصت على إعفاءات جمركية كبيرة سبباً باعثاً لنشاط غير طبيعي لقناصل تلك الدول وللمساعي الحثيثة التي بذلها بعض النصارى واليهود والأرمن في الدولة العثمانية ليكونوا وكلاء ومتعاملين مع القناصل وليكتبسوا فيما بعد جنسية الدولة الحامية... وهكذا فإن آل الخازن في كسروان مثلاً بعد أن بذلوا مع البطرك الدويهي جهوداً جبارة مع الملك الفرنسي لويس الرابع عشر تمكنوا من الحصول على قنصلية بيروت بعد أن منحهم لويس لقب الفارس الماروني والجنسية الفرنسية... وقد تنبه الأستاذان جب وبوون إلى أن طوائف النصارى واليهود والأرمن هم (الذين كانوا على استعداد للانضمام إليهم) أي إلى التجار الإفرنج والقناصل...

بينما رفض المسلمون ذلك كما رفضوا مبدأ التعاون مع الإفرنج الصليبيين... وهكذا غدت التجارة ومنافعها المالية الضخمة وإعفاءاتها الجمركية محصورة بالتجار الإفرنج وبمن أبدى استعداده للتعامل معهم من طوائف النصارى واليهود... وتكبر الامتيازات تلك - كما قلنا - وتزداد بقدر ازدياد ضعف الأمبراطورية العثمانية فقد مارست الدول الأوروبية مزيداً من

الابتزاز حتى أن الباب العالي سمح لجميع الأجانب بأن يتمتعوا في أمبراطوريته (بامتيازات واسعة فلا يدفعون ضرائب على ما يستوردون من الخارج إذا كان لحاجاتهم الخاصة) (٩).

وقد ازداد الأمر خطورة عندما أكّدت السياسات الأوروبية اتجاهها ذلك في الإعفاءات الضريبية والامتيازات ففي (عام ١٨١٨ عقدت معاهدة انكليزية - عثمانية للتجارة استكملت بفرمان (١٨٢٠) بموجبها حددت الرسوم على المستوردات إلى ولايات الدولة العثمانية ٣,١٪ / غير أن هذه المعاهدة ألغيت في عام ١٨٣٨ واستبدلت باتفاقية جديدة تقضي برفع رسم الاستيراد إلى ٥ ٪ .. بينما تدفع الصادرات العثمانية (من الدولة العثمانية وولاياتها) رسماً قدره / ١٢ ٪ / هذه المعاهدة التي شملت كل الدول الأوروبية (كانت على حد قول مكسيم رودستون تقطع الطريق مسبقاً على أية محاولة محتملة لبناء صناعة عثمانية) (١٠).

واستناداً إلى تلك المنافع التجارية أخذت الدول الأوروبية تتنافس على فرض حمايات على الأقليات غير الإسلامية في الدولة العثمانية إذ كانت تلك الحمايات (تحقق لتلك الدول المنفعتين في آن واحد: ضمان التجارة الخاصة بكل منها وضمان تفتيت الدولة العثمانية من الداخل (١١) وهكذا فرضت فرنسا حمايتها على الكاثوليك والموارنة الذين ارتبطوا بالبابوية كما فرضت انكلترا حمايتها على البروتستانت وروسيا على الروم الأرثوذكس... وأصبحت كل دولة من تلك الدول سواها ممن تشترك بتلك (الحمايات) تمد نفوذها من إقليم دولتها إلى كل بيت من بيوت أولئك الرعايا العثمانيين المحميين من هذه الدولة أو تلك، وبصورة أخص على رجالها من تجار ورجال أعمال ومبشرين. أولئك الذين كانوا يجوبون أطراف الأمبراطورية العثمانية حاملين معهم التسهيلات والحمايات والإعفاءات الضخمة... وهو أمر بلا ريب شاذ وخطير... إذ أن هؤلاء (التجار والمبشرين) لم يكونوا يمارسون التجارة والتبشير ضمن حدود هذين الغرضين إنما كانوا أيضاً عيوناً وآذاناً لدولهم يمارسون خططاً رهيبة في تأجيج الخلافات وإثارة النعرات. فقد كتب الأب عن سياسة فرنسا في الشرق فقال: (وكان من غايات الامتيازات الأجنبية دائماً

أن تحتفظ فرنسا بالدور الذي يلعبه رهبانها وأن توسع ذلك الدور وقد اعترف لقناصلنا وسفرائنا بالحماية للنصارى. . . ولقد كانوا يبذلون جهداً كبيراً ليهدئوا من ارتجاف المعتصمين وليحموا أعمال المبشرين في الأمبراطورية العثمانية. . . وكان ممثلو فرنسا يساندون أعمال مبشرينا. . . وكثيراً ما اختارت فرنسا قناصلها وسفراءها من رجال الدين. . . إن الحروب الصليبية الهادفة التي بدأها مبشرونا في القرن السابع عشر لا تزال مستمرة إلى أيامنا أن الرهبان الفرنسيين والراهبات الفرنسيات لا يزالون كثيرين في الشرق). . . (١٢).

ولم تكتف السياسة الفرنسية بتوحيد عملائها من المبشرين والتجار في عملية سياسية خطيرة ضد الدولة العثمانية، مانحةِ الامتيازات التي يعملون من خلالها في حرب صليبية ـ بل حاولت أن توظف الرهبان النصارى من الكاثوليك والموارنة لمصالحها ولمنافعها مقيمة علاقات وطيدة تحاول عبرها الإفادة منهم في الظروف الحرجة ـ كما فعلت مع البطريرك حبيش عندما وظفت نفوذه في دعم محمد علي والأمير بشير. . . وكما سنرى (فيما بعد) بالنسبة لمجموع الأحداث التي تفاعلت بعد ذلك ـ فقد كتب وزير البحرية الفرنسي رولية في آذار ١٧٥٠ إلى القناصل الفرنسيين في الدولة العثمانية يقول: (أن الرهبان الموارنة الذين يؤلفون رهبنة مار انطونيوس في جبل لبنان قد شملهم الملك بحمايته الخاصة في كل وقت وقد توسلوا ـ أي الرهبان الموارنة ـ إلى جلالته أن يجدد لهم تلك الحماية ويثبتها لهم فتنازل جلالته واستجاب طلبهم وأوصاني أن أكتب إليكم أن تعاملوهم كما تعاملون المرسلين الفرنسيين الذين هم في الشرق من قبل جلالته. . .) (١٣).

ولا بد هنا من الإشارة إلى أن المبشرين الكاثوليك الذين تعاطفوا مع الموارنة كانوا يحاولون تحت ستار الحماية إيجاد قلاقل مختلفة إذ أن الاستراتيجية التي تحكم تصرفاتهم هي توفير مناخات الاقتتال والصراع الداخلي ما أمكن إلى ذلك سبيلاً. فمن محاولات تنصير أفراد من المسلمين ـ التي كانت تتم سراً وبكتمان شديد وينتهي معظمها بالفشل الذريع ـ كانوا يحاولون بث الدعوة الكاثوليكية بين الأثوذكس في الولايات الشامية خاصةً آملين بايجاد فرص

للتقاتل مما يبرر معه تدخل الأوروبيين بصورة أكثر فاعلية في الدولة العثمانية غير أن أرثوذكس الشام اكتفوا بتقديم شكوى ضد هؤلاء للباب العالي محاولين إقحامه بمعركة ضد الإفرنج الكاثوليك باستصدار فرمان يمنع انتقال الأرثوذكس إلى الكاثوليكية بحجة أن من يدخل إلى الكاثوليكية يصبح من الإفرنج وبالتالي من المحاربين ضد الإسلام ومن ثم يجب أن لا يعاملوا معاملة أهل الذمة. . .

غير أن الباب العالي بناء على فتوى المفتي اعتبر أن تغيير المذهب إلى الكاثوليكية الإفرنج لا يعتبر تعدياً على المسلمين بل صرح أكثر من ذلك، أن الإفرنج (إذا دخلوا دار الإسلام بأمان فيكونوا مستأمنين وإن مكثوا سنة ولم يعودوا إلى دارهم فيكونوا ذميين وتجري عليهم أحكام أهل الذمة ولا يجوز سفك دمائهم ولا أخذ شيء من أموالهم ما داموا في دارنا. . . فالأولى أن لا يجوز لنا بالنسبة للذميين الخاضعين لأحكامنا ولا يجوز لأحد ممن يؤمن بالله وباليوم الآخر أن يتعرض للفرقة الذمية سواء كانوا صليبيين أو شاميين أو غيرهم. . .) (١٤).

ولا شك أن هذه الفتوى وإن جاءت وفاقاً للأحكام الشرعية إلا أنها أهملت الجانب السياسي الذي تمكن الإفرنج والمبشرين عموماً من استغلاله، وأن تلك الفتوى وضعت مبدأ لمنح الرعوية العثمانية (أي ما يشبه الجنسية في لغة هذا العصر) وهو الإقامة سنة كاملة على أرض الأمبراطورية مع ما تضمنته هذه الرعوية من حفظ أموالهم ودمائهم. . . غير أن المبشرين الكاثوليك وخاصة اليسوعيين كانوا ـ دوماً يحاولون إثارة المتاعب حتى مع أهل الكثلكة من رعايا الأمبراطورية فقد جرت بينهم وبين الموارنة مشاحنات وإهانات متبادلة أدَّت في النهاية إلى تدخل القاصد الرسولي البابوي فأجرى صلحاً بينهم بتاريخ ٢٠ / ٨ / ١٧٥٣ (١٥).

ومن جهة أخرى كانت البروتستانتية الأميركية تحاول أن توجد مرتكزاتها في الشرق عبر مبشريها ومدارسها. وكثيراً ما كانت تقع الخلافات العميقة والتحديات بين البروتستانتيين وسكان الشرق المسيحيين، فالأقباط في مصر

والموارنة والأرثوذكس في بلاد الشام حتى أن بطارقة الموارنة لم يترددوا في تنفيذ عقوبات بحق من يرتد عن مارونيته إلى المذهب البروتستانتي. ويبدو أن هذا قد كان بتأثير المبشرين الكاثوليك. فلما تحول مثلاً أسعد الشدياق الماروني شقيق فارس الشدياق الأديب الشهير إلى البروتستنتية اعتقله البطريرك بولس مسعد الماروني ونفاه إلى (دير قنوبين سجيناً) معذباً حتى قضى نحبه فيه الأمر الذي أثار حفيظة شقيقة فارس فغادر لبنان عام ١٨٣٥ إلى مصر بدعوة من المبشرين الأمريكيين (١٦).

يبدو أن السلطان عبد الحميد الثاني قد أدرك الأبعاد الحقودة للسياسات الأوروبية بعد أن أفادت تلك الدول (من فجوة الامتيازات) التي أحدثها السلطان سليمان والدولة من بعده في عصرها الذهبي... أدرك السلطان عبد الحميد أن (الحملات الصليبية ضد الدولة العثمانية لم تتوقف قط... (١٧) وأن الدول الكبرى... (لا تريد أن تعترف بأننا نحن أصحاب هذه الأرض وسادتها بل تسعى في كل مرة إلى إزعاجها بطلب الامتيازات وبالمزعجات الأخرى حتى الحقوق التي اعترفت بها هذه الدول لإمارة (موناكو) لم تعترف بها للدولة العثمانية ان الحملات الصليبية على الدولة العثمانية لا زالت مستمرة تحت أسماء وعناوين شتى....) (١٨) ويؤكد السلطان عبد الحميد كذب الافتراء الذي يتصنعه الأوروبيون ليبرروا كيدهم ضد السلطنة فيقول: (إن النصارى يعيشون مع المسلمين حياة طبيعية وجنباً إلى جنب وسيرى المراقب المحايد أن المسلمين هم أرحم قلباً من نصارى بلاد الشرق)... كما أشار إلى أن النصارى ويعني الأوروبيين (ينفقون الملايين في سبيل نشر النصرانية ببلاد الإسلام وقد كان عليهم أن يفهموا من قبل بأن الحظ لن يحالفهم في هذه البلاد) (١٩).

وقد أكّد الذين راقبوا أعمال المبشرين أن تركيا كانت على حق في موقفها من المبشرين الذين لم يكونوا يثيرون الفتنة في امبراطوريتها فحسب بل كانوا أيضاً يتجسسون لدولهم سياسياً وعسكرياً ولاغرو فإن المبشر - آنئذ - يسبق الجيش إلى مكان الهدف ولذلك أخذت تركيا تراقب المبشرين مراقبة دقيقة حتى تضيق عليهم وكان الأتراك يرتابون خاصة

بالمبشرين البروتستانت لأن هؤلاء كانوا يتوارون وراء العلم البريطاني في الأكثر وبالمبشرين اليسوعيين لأنهم يعملون للسياسة الفرنسية أيضاً...

غير أن الحكومة العثمانية لم تستطع أن تتخذ سياسة علنية تجاه المبشرين ذلك لأن هؤلاء كانوا يأتون في الظاهر كرعايا انكليز أو أميركيين أو دنماركيين أو إفرنسيين فإذا استقروا في البلاد أخذوا يقومون بالتبشير سراً ما أمكنهم ولذلك كان هؤلاء كلما وجدوا مراقبة وسهراً من الدولة العثمانية لجأوا إلى قناصلهم وكان القناصل يدافعون عنهم كرعايا أجانب) (٢٢).

وقد حار الوزراء المخلصون في تركيا بالأسلوب الذي يقللون به من خطر الزحف الأوروبي على بلدان السلطنة الواسعة الانتشار حتى كاد أحدهم يرى أن في إيهام الأوروبيين بوجود أمراض سارية تنتشر في الأمبراطورية مانعاً لهم من الدخول إليها... وبالفعل أثّرت هذه الدعاوة في أوساط التجار والمبشرين فقلّ إقبال الأوروبيين... فلما ورد اقتراح من أحد المقربين إلى السلطان بعد أن عاد من أوروبا في أواسط القرن الثامن عشر بإقامة المحاجر الصحية انتفض يوسف أفندي (أحد أهم المقربين من السلطان مصطفى الثالث) على ما يرويه جودت باشا الوزير المؤرخ (كنت أظنك ذكياً عاقلاً تفكر بالمصير فإذا بي أراك تغفل عن العواقب... فإذا أخذنا باقتراحك وأقمنا المحاجر الصحية فلسوف يتهافتون على المملكة المحروسة وكيف يتسنى لنا من بعد أن نسوسهم ونؤمن بالتالي إخراجهم (٢٣).

ولا ريب أن هذا التفكير يكشف مدى الضعف والارتباك اللذين إنتابا الباب العالي أمام الزحف الأوروبي المنظم كما يكشف عجز القائمين على شؤون الباب عن مجابهة الذين يستمرون بالأذى وإثارة الفتن مستفيدين من ستار الامتيازات الأجنبية الشرعي... ومما يدهش له أن الدول الأوروبية كانت لا تقبل بمساواة الآخرين من الجاليات الغربية في البلدان الإسلامية التي احتلتها - آنئذ - برعاياها وإذا ما تدخل الباب العالي لمصلحة تلك الجاليات قامت قيامتهم حتى أنهم كانوا لا يترددون من تقديم شكوى بحق قناصل الدولة العثمانية فيما إذا اتصلوا بعامة الناس المسلمين وشجعوهم على

الالتزام بالإسلام والدعوة له والمطالبة بالعدالة والمساواة بين التجار المسلمين والتجار الأوروبيين. . . وتلك بلا ريب معادلة دولية غير متوازنة تكشف عن لا أخلاقية فاضحة في تصرفات الدول الأوروبية وعن عجز مفرط في الباب العالي. فبينما هي تنال الامتيازات التجارية والقضائية والإعفاء من الضرائب أو دفع ضرائب غير متكافئة بين الاستيراد والتصدير وتحمي رعاياها ومبشريها وتجارها وتمد من السيادة القانونية لدولهم على البلدان العثمانية ثم تفرض حمايتها على الرعايا العثمانيين من غير المسلمين نجدها بكل وقاحة ترفض المعاملة بالمثل لا في بلادها فحسب بل في البلاد الإسلامية البعيدة التي أخضعتها بالحديد والنار. . . فقد ذكر السلطان عبد الحميد في مذكراته أن (صادق بك) قنصلنا في جاوا (أندونسيا) قد بالغ في الدعوة إلى الإسلام (؟) وتصرف بغير لياقة (؟) حيث شكته الحكومة الهولندية إلينا (وهي الدولة المحتلة) ولا أظن أن في تصرفاته ما يدعو إلى الثورة المسلحة على هولندا) لقد طالب في مرات كثيرة برفع الأذى عن المسلمين وإعطائهم حقوقاً تساوي الحقوق الممنوحة للأوروبيين. . . إن القسم الأعظم من النشاط التجاري في جاوا هو بيد العرب حيث يدفعون نسباً عالية من الضرائب تفوق ما يدفعه الأوروبيون بكثير. ومن الطبيعي، بل ومن حقنا أن نسعى إلى إكسابهم حقوقاً تساوي على الأقل الحقوق التي يتمتع بها الأوروبيون. . . على كل حال إننا نساند بكل قوة مطالب إخواننا المسلمين العادلة في جاوا) (٢٤).

٢ ـ المسألة الشرقية من منظور غربي

عرِّف الصراع الدولي بين دول أوروبا المختلفة وبين الدولة العثمانية بما اصطلح عليه بـ (المسألة الشرقية) تلك المسألة التي عرَّفها ادوارد وريو (مشكلة القضاء على قوة الإسلام السياسية) وقد نشأت هذه المشكلة (منذ أن ظهر الأتراك في أوروبا) كما يقول البرت سورل. فقد تمكن العثمانيون من احتلال البلقان وبلغوا أسوار فينا مرتين في سنة ١٥٢٩ و١٦٨٢ وإذ ذاك أشاعت الرعب في أوروبا على حد تعبير ادوارد غيون حيث أطلق على الأمبراطورية العثمانية (الصاعقة العثمانية) وقد كانت دوافع المسألة الشرقية كون الأتراك (أولاً وآخراً مسلمين) (٢٥) يشكلون تهديداً حقيقياً للأنظمة السياسية والاجتماعية في أوروبا حيث كانت تعيش أياماً سوداء في القرون الوسطى. غير أن هذا التهديد راح يتلاشى مع الزمن عندما تمكنت دول أوروبا المسيحية المختلفة الغربية والشرقية من النهوض والدخول في عصور التمدن والانفتاح والنهضة. بينما أخذت الدولة العثمانية تضعف وتتراخى، مما فتح المجال امام الدول الأوروبية لطلب المزيد من الامتيازات الأجنبية، ثم مع الزمن لتحوير تلك الامتيازات عن أهدافها بجعلها ثغرة ينفذون منها لتحقيق مطامعهم المختلفة: من القضاء على قوة الإسلام إلى ضرب الأمبراطورية العثمانية من الداخل وتفتيتها وتوزيع تركة (الرجل المريض). . . وبذلك أصبحت الدول الأوروبية تشكل خطراً على الباب العالي وتهديد نظام حكمه وبلاده المترامية الأطراف. وبذلك أيضاً تحولت المسألة الشرقية التي كانت (وجود الأتراك العثمانيين في أوروبا واستيلاءهم على مدينة القسطنطينية ذلك

الموقع الفريد المنيع الرابض على الأرض الأوروبية ووجهه ناحية آسيا وسيطرتهم، كمسلمين أسياد، على شعوب مسيحية) (٢٦) كما قال جون موريل تحولت المسألة الشرقية بعد ضعف الأمبراطورية وتدخل الأجانب النصارى في أطراف متعددة من العالم الإسلامي إلى مسألة غربية لا شرقية وهي كما قال قيصر روسيا نقولا سنة ١٨٤٣ للحكومات المسؤولة في أوروبا (أن سقوط تركيا قد أصبح وشيكاً وأن جُلَّ ما نبتغيه هو التفاهم حول اقتسام ممتلكات الرجل المحتضر قبل فوات الأوان) (٢٧)

حتى أن الكاتب الفرنسي الشهير فولتير اشترط من قبلُ وضع الحلول لاقتسام الأمبراطورية العثمانية في خطاب وجهه إلى كاترينا قيصرة روسيا جاء فيه: (لو كنت حاكم البندقية لارتأيت إرسال جيش إلى كانديا (في كريت) بينما جلالتك تهزمين الأتراك عند باسي (قرب الدانوب أو في أي مكان آخر) لو كنت امبراطوراً للنمسا لاستوليت على البوسنة والهرسك وصربيا وأدعوك بعدها لحفلة العشاء في أيا صوفيا (اسم مسجد في استنبول) وعندها نقتسم بود الأمبراطورية العثمانية) (٢٨).

ويبدو أن دول أوروبا المختلفة كانت تعمل فرادى ومجتمعين في بعض الأحيان، للنيل من الأمبراطورية العثمانية بطرق وأساليب شتى. حتى أن الديبلوماسي الروماني ت. ج. جوآرآ جمع الخطط التي وضعت للوصول إلى المبتغى المنشود فعدّ في كتابه الذي أسماه «مائة مشروع لتقسيم تركيا». ويعني الأمبراطورية العثمانية، مائة أو (اثنين وتسعين خطة ومن بينها خطط باباوات مشهورين مثل البابا ليون العاشر وغليمنت الثامن وأخرى وضعها ملوك وأباطرة أمثال مكسيميان الأول ودبلوماسيون ورجال سياسة من أمثال البروني وتاليران كما أن رجالاً من أصحاب الخيال الشارد ومن (المثاليين) أمثال لينيتي وراهب سان بيير اشتركوا أيضاً في وضع مثل هذه الخطط...) (٢٩).

وخلال عرضنا للأحداث التاريخية (٣٠) لعهد (علي جونبلاط) في حلب ولعهد الأمير فخر الدين الثاني أمير بلاد الشوف... أطلعنا على نماذج من هذه الخطط وكانت تدور في مجملها على محاولات لمساعدة هذين الرجلين من

أجل إثارة القلاقل، ودعمهما في صراع ضد الباب العالي، لقاء تمكين البابا وأمير توسكانا من السيطرة على بيت المقدس. ولا ننسى هنا أيضاً محاولة البندقية مع البابا شراء مدينة صور وتوابعها من السلطان المملوكي في النصف الثاني من القرن الخامس عشر ورفض السلطان مبدأ الشراء جملة وتفصيلاً كما لا بد من التذكير بمشاريع ملك نابولي والبابا أوجين للاستيلاء عليها - أي على صور - بالقوة لكن موت البابا أبقى المشروع في حيز التخطيط النظري.

غير أن نابليون بونابرت تمكن من ترجمة بعض تلك المشاريع إلى حيز الوجود بغزوة (١٧٩٨) وتقدمه منها نحو فلسطين حيث هزمته أسوار عكا بقيادة أحمد باشا الجزار... وكان هدفه التقدم لتهديد الآستانة نفسها... حيث قال: (لولا هذا الرقيق البستاني الذي عرضه تاجر اللحم للبيع طيلة فصل الشتاء ولم يشتره أحد - يقصد أحمد الجزار - لكنت غيرت مصير العالم).

وبعد نابليون حاولت بريطانيا الاستيلاء على مصر سنة ١٨٠٧ بما عرف بحملة فريزر إلا أنها اضطرت لعقد صلح مع محمد علي باشا والي مصر بعد أن تعاقد نابليون مع اسكندر الأول قيصر روسيا فشعرت بريطانيا عندئذٍ أن مصلحتها تقضي بالتقرب إلى الدولة العثمانية... وكانت انكلترا قد احتلت الهند وفرضت استعمارها على المناطق الإسلامية فيها... بينما تمكنت فرنسا من احتلال الجزائر في ١٨٣٠. وبدل أن يتوجه محمد علي باشا إلى مصر للدفاع عن الجزائر خاصة وأن حرباً جهادياً ضد الفرنسيين قد قامت في مدن عديدة فقد توجه نحو بلاد الشام ضد والي صيدا وعكا عبدالله باشا... وليصطدم بعد ذلك بالدولة العثمانية عند طرابلس فيخوض حرباً شعواء أدَّت إلى إمساك الدول الأوروبية، بمختلف مطامعها واتجاهاتها، على زمام الأمور وعلى خيوط اللعبة في الدولة العثمانية مما كان له أبعاد خطيرة في أحداث المنطقة الإسلامية المترامية الأطراف (٣١)... ومنها أحداث في اليمن وليبيا والمغرب وتونس والجزائر ومراكش ولبنان وبلاد القرم والصرب والبلقان واليونان وفي قلب الآستانة حيث تمكن المتواطئون مع أحد أطراف الدول الأوروبية من لعب أدوار بشعة في تخذيل الأمة وتهديم وحدتها... وإشاعة مزيد من التحليل والفوضى والفساد في الإدارة وأنظمة البلاد.

٣ - استراتيجية الدول
إزاء الأمبراطورية العثمانية

من المفيد، حتى نتمكن من فهم مجريات الأحداث في لبنان وفي سواه من بلدان المنطقة وفي الآستانة نفسها، الإطلاع على المواقف الاستراتيجية التي حكمت سياسات الدول الأوروبية تجاه المسألة الشرقية والدولة العثمانية... إذ أن غياب هذا الفهم يربك التحليل ويرفع القوى المحلية في المناطق المختلفة إلى الوزن الأساسي في لعبة الحكم في الأمبراطورية بينما لم تكن أكثر من توابع بسيطة تتوزعها الدول وفق تكتيكها النابع من استراتيجيتها الأساسية.

ونقتصر هنا على تسليط الأضواء على أدوار كل من روسيا وبريطانيا وفرنسا وأهدافهم الاستراتيجية في المنطقة وازاء الامبراطورية العثمانية.

١ - روسيا:

تشكل مطامع روسيا بالوصول إلى المضائق في الدردنيل والبوسفور وإلى المياه الدافئة، تشكل إلى جانب أحقادها الدفينة على «العثمانيين بكونهم مسلمين» خلفية تاريخة تنعكس عليها جميع تحركات الروس الخارجية. فروسيا لم توفر جهداً لضرب أطراف الأمبراطورية العثمانية خاصة تلك التي تجاور روسيا وتشكل حدودها الغربية والجنوبية حيث تربض جنسيات مختلفة انتشر بينها الإسلام مما أخاف القياصرة فأدركوا أن حزاماً إسلامياً عثمانياً بات يحصرهم ويمنعهم من الوصول إلى المياه الدافئة والمضائق ويهدد وجودهم في روسيا القيصرية. خاصة وأن القياصرة كانوا يتبعون الكنيسة الأرثوذكسية التي تعتبر مركز الأرثوذكسية في الشرق والعالم بعد سقوط القسطنطينية وتعادل في

وقد تمكنت روسيا في عهد القيصرة كاترين من تحقيق مجموعة انتصارات على حدودها وضد السلطنة العثمانية فقد أشعل الروس النار في الأسطول العثماني وكانت استنبول نفسها معرضة للهجوم (عام ١٧٧٠).

ثم تمكن الروس من إخضاع شبه جزيرة القرم ووقّع السلطان هدنة تنازل فيها عن جميع مطالبه في بولندا (عام ١٧٧٢) وخلال ذلك العام (١٧٧١) أصدرت الأمبراطورية كاترينا الثانية أمراً بتنصير المسلمين في قازان وعلى توقيع إقرار كتابي يتعهدون فيه بترك خطاياهم الوثنية - في العقيدة الإسلامية وتجنب الاتصال بالكفار - أي المسلمين - والتمسك بالديانة النصرانية وتعاليمها والثبات عليها. . .) (٣٢).

وفي سنة ١٧٧٤ اضطر العثمانيون إلى التخلي للروس عن أعظم قلاع البحر الأسود واعترفوا باستقلال القرم بموجب معاهدة عرفت بمعاهدة (كوجك قينارجي) وكان من بين بنودها أيضاً منح روسيا حق بناء كنيسة في استنبول تتبع الطقس اليوناني الأرثوذكسي وتخضع حمايتها للسفير الروسي، بالإضافة إلى هذا فإن الباب العالي وافق على السماح للرعايا الروس وللعلمانيين وللإكليروس أن يؤدوا فريضة الحج إلى القدس وإلى الأماكن الأخرى المقدسة. كما أن السلطان تعهد بأن يقوم دوماً بحماية الدين المسيحي والكنائس المسيحية ومنح الباب العالي أيضاً سفراء روسيا لدى البلاط الأمبراطوري أن يتقدموا من الباب العالي في أي وقت تقتضي الحاجة بذلك لعرض شكواهم أو احتجاجهم ضد أي أمر يسيء إلى الكنيسة في استانبول أو إلى الكهنة الذين يقومون بخدمتها. . .) (٣٣).

وفي سنة ١٧٧٥ زحف الروس على آسيا الوسطى والقفقاس وسيبيريا حيث دارت معارك ضارية بينهم وبين المسلمين هناك، تمكن الروس خلالها من السيطرة على تلك المناطق في ١٨١٣ وإن استمرت المعارك الداخلية ضدها وخاصة في القوقاز بقيادة الملاغازي محمد الكمراوي حيث انتهت ثورته أثر حصار جيمري في تشرين الأول سنة ١٨٣٢ . . . غير أن روسيا دعمت خلال

تلك الحقبة في سنة ١٨٠٤ ثورة الصربيين وإعانتهم على احتلال بلغراد ثم أعانت سنة ١٨٢١ ثورة اليونان وفي سنة ١٨٢٦ تعاهدت فرنسا وانجلترا وروسيا ضد العثمانيين ثم انضمت إليهم بروسيا لإرغام الأتراك على تحرير اليونان غير أن السلطان رفض ذلك ووجَّه محمد علي باشا لحرب المورة في اليونان وكاد ينتصر لولا (كارثة نفارين) البحرية التي تعرَّض لها الأسطولان العثماني والمصري إذ تمكنت أساطيل الدول المتحالفة من إغراق ما يزيد على مائة قطعة بحرية (عثمانية مصرية) في أقل من ست ساعات. . .) (٣٤).

وبعد هذا الانتصار أراد القيصر نقولا الأول الذي ارتقى عرش روسيا عام ١٨٢٥ أن ينتهز تضعضع القوة العسكرية العثمانية لتحقيق مطامع روسيا التاريخية المزدوجة: السيطرة على استنبول والمضائق والقضاء على القوى الإسلامية السياسية. وحض نقولا فرنسا على انتهاز الفرصة إلا أنها ترددت - نظراً للمطامع الروسية في المضائق - وفضلت التعامل مع العثمانيين الضعفاء على تمكين الروس من أطماعهم - عندئذٍ انفرد نقولا وأعلن الحرب على الدولة العثمانية وتمكن من إلحاق الهزيمة بالعثمانيين إذ وصل الروس بقواتهم إلى (درنة) حيث أملوا شروطهم على السلطان محمود الثاني الذي تنازل للروس عن جزر الدانوب ومقاطعات القوقاز التركية الإفلاق وبغدان وهي ما عرفت من بعد برومانيا كما تعهد بتوقيع معاهدة قضت باستقلال اليونان.

- وكما بينا من قبل - فإن محمد علي باشا قرر تأديب والي عكا وصيدا ثم امتد بنفوذه إلى الولايات الشامية ومنها انتقل إلى قلب الأناضول مهدداً الآستانة بعد انتصاره في قونيه ولم يجد السلطان محمود بداً من طلب النجدة من بريطانيا. . . إذ أن فرنسا كانت مع محمد علي باشا. إلا أن موقف بريطانيا كان آنئذٍ موقف التردد والحذر والترقب والانتظار عندئذٍ تحول السلطان إلى جهة الشمال نحو خصومه الروس مستنجداً بالقيصر نقولا الذي وجد في ذلك النداء فرصة ذهبية لتحقيق أطماعه أو بعضها كما أنه خشي من قيام دولة فتية بقيادة محمد علي في الآستانة مما يفوت عليه سياسة القضم (قطعة وراء قطعة) حتى يصل إلى الدردنيل والبوسفور.

وبسرعة مذهلة انتشرت الأساطيل الروسية في بحر مرمرة وخيم الجيش الروسي في سهل (خنكيار أسكلة سي) على الشاطىء الآسيوي من البوسفور وذلك للوقوف أمام الجيش المصري الزاحف وللدفاع عن أسوار الآستانة!! . .

هنا خشيت بريطانيا وفرنسا من السيطرة على المضائق خاصة وأن وجودها هناك اكتسب الشرعية من السلطان فعزمتا على التدخل بإجبار محمد علي باشا على التخلي عن الأناضول والاكتفاء بمصر وبلاد الشام. وهو ما عرف بمعاهدة كوتاهية ١٨٣٣ . . . عندئذٍ لم تجد روسيا مفراً من الانسحاب بعد أن حققت كسباً سياسياً كبيراً عبر الاتفاقية التي حملت اسم المكان الذي عسكر فيه الروس (خنكيار أسكلة سي) وذلك في تموز سنة ١٨٣٣. وكان من بنودها تعهد الروس بحماية الدولة العثمانية من أي اعتداء خارجي مقابل تعهد تركيا بإغلاق المضائق في وجه أساطيل الدول المعادية لروسيا وفتحها أمام أساطيل هذه الأخيرة. وهكذا اكتسبت هذه المعاهدة صفة التحالف الظاهري إلا أنها في الواقع وضعت تركيا تحت نفوذ روسيا بطريقة أو بأخرى محققة للروس جزءاً هاماً من أطماعهم التاريخية بأقل الأثمان. . . وبقدر ما كانت هذه المعاهدة مُذِلّة للسلطنة العثمانية بقدر ما شكلت صدمة عنيفة للسياسة البريطانية، . . إذ سرعان ما أعلنت بريطانيا انضمامها إلى السلطان ضد محمد علي باشا في حربه الجديدة ١٨٣٩ فتمكنت من أن تنتزع امتياز روسيا على المضائق ذلك الذي نصت عليه معاهدة (خنكيار ـ أسكلة سي) ضمن أسلوب سياسي بريطاني بارع إذ عقد في لندن سنة ١٨٤١ مؤتمر الدول الكبرى بريطانيا وروسيا والنمسا وبروسيا والدولة العثمانية ثم انضمت إليها فرنسا قضى هذا المؤتمر بأن يتمسك السلطان بمنع مرور أية سفينة حربية عبر البوسفور عندما تكون تركيا في حالة سلم (٣٥) خلافاً لمعاهدة أسكلة سي التي تجعل من المضائق معبراً لروسيا دون تحفظ. . .

ويبدو أن روسيا والقيصر نقولا الأول كانا في هذه الفترة مشغولين في قمع ثورات المسلمين اللاهبة في القفقاس تلك التي شنها عليهم القفقاسيون بقيادة محمد علي شامل الذي ظفر خلالها بالروس القيصريين في وقائع عديدة وألقى الرعب في قلوبهم وأجلاهم عن كثير من البلاد التي احتلوها

في الناحية الجنوبية من القفقاس) (٣٦).

كما تمكن من فتح جميع الحصون التي كانت بيد الروس في الجبال وأخذ منهم جموعاً كبيرة من الأعتدة الحربية والمؤن الغذائية بالإضافة إلى جموع كبيرة من أسرى الحرب وقد جهز القيصر لقتالهم ما لا يقل عن أربعمائة ألف مقاتل بينما لم تزد قوات شامل عن ستين ألف مقاتل . . .

نبهت ثورة القفقاس هذه القيصر الروسي إلى ضرورة الإسراع في إنهاء الصراع ضد المسلمين وحسم (القوة السياسية للإسلام) كما نبهه موقف بريطانيا عندما أفشلت له كل امتياز وأضاعت عليه فرص التمكن من المضائق فأدرك أن حلمه هذا لن يتحقق إلا بالتعاون مع الدول الأوروبية عامة وبريطانيا خاصة. وبينما كانت قواته تخوض المعارك ضد القفقاسيين كان نقولا يستدعي السفير الإنكليزي في روسيا ليطرح قضية إنهاء المسألة الشرقية بشكل جذري (وليعرض مشروعاً بتقسيم الأمبراطورية العثمانية فتأخذ روسيا مضيق البوسفور وتحتل الآستانة (بصورة مؤقتة) وأما الولايات العثمانية في أوروبا فتتحد في دولة مستقلة. ومقابل موافقة بريطانيا على هذه الترتيبات تأخذ مصر رودس وقبرص. . . (٣٧).

وقد اعتمد القيصر نقولا في مطالبته بالآستانة إلى مباحثات قديمة جرت بين سلفه القيصر اسكندر والسفير الفرنسي (سفير نابليون) في سنة ١٨٠٨ إذ أعلن يومئذٍ اسكندر (أن استانبول حال استبدال أسيادها الأتراك بأسياد آخرين ستصبح مجرد مدينة ريفية واقعة عند طرف الأمبراطورية الروسية وتشاء «الجغرافيا» أن أكون أنا سيدها ذلك بأنها إذا سقطت في يد دولة أخرى فإنني لا أعود أحسب نفسي سيداً في بيتي وفضلاً عن هذا فإنني لا أجد في الأمر غضاضة بالنسبة إلى الآخرين إذا كنت أحمل في يدي مفتاح بيتي) (٣٨).

ثم قام القيصر بجولة أوروبية داعياً إلى مشروعه فقام في سنة ١٨٤٣ بزيارتين لڤينا وبرلين وفي سنة ١٨٤٤ قام بزيارة لندن. وفي جميع هذه العواصم قال للحكومات المسؤولة وبصراحة تامة: (إن سقوط تركيا أصبح وشيكاً وأن جلّ ما يبتغيه هو الوصول إلى تفاهم حول اقتسام ممتلكات الرجل

المحتضر قبل فوات الأوان... إن تركيا أشبه برجل يحتضر وقد نسعى لإبقائه حياً ولكن مسعانا لن يكلّل بالنجاح فإنه سيموت لا بل ينبغي له أن يموت...) (٣٩) غير أن الدول الأوروبية وبخاصة بريطانيا - كما سنرى - كانت مترددة بسبب عدم اكتمال خططها في إحلال سيطرتها على أكبر قسم من الأمبراطورية التي حكموا عليها بالإعدام وظل القيصر نقولا ينتظر طوال تسع سنوات حتى واتته الفرصة سنة ١٨٥٣ بسبب نزاع حول حماية الأماكن المقدَّسة في القدس... فأعلن الحرب على تركيا كما سنبين فيما بعد...

وهكذا تمكنت روسيا من الدخول إلى المسألة الشرقية من بابها العريض وظهرت كحامية للأرثوذكسية العالمية وحققت مجموعة مكاسب سياسية واستراتيجية جيدة كما احتلت أقاليم عديدة انتزعتها من الدولة العثمانية وأضفت الشرعية على هذا الاحتلال بالتنازل الرسمي من السلطان. كما تمكنت أثناء قتالها للمسلمين في آسيا الوسطى والقوقاز والقفقاس - وهي من الأقاليم التي تنازل عنها السلطان أن تظهر كحامية للسلطنة في وجه أعداء السلطان في الداخل عندما هدد محمد علي باشا الآستانة مستفيدة من ذلك لتحقيق مطامعها في استراتيجيتها المزدوجة للسيطرة على المضائق وإيجاد القلاقل والفتن في الأمبراطورية العثمانية مقدمة لافتراسها وتقطيع أوصالها وإنهاء وجود الإسلام في الآستانة كقوة سياسية عالمية...!!

٢ - فرنسا:

كانت فرنسا من أوائل الذين أقاموا علاقات وطيدة مع الأمبراطورية العثمانية، ازدادت قوة تلك العلاقات عندما استنجد الملك فرنسوا الأول بالسلطان سليمان لينقذه من أسر أكبر امبراطور في أوروبا شارلكان قائد الأمبراطورية الرومانية المقدسة. وقد اغتنم السلطان نداء فرنسوا هذا ليقضي على نفوذ شارلكان وقوته العسكرية المتعاظمة معلناً أن فرنسا (إيالة) من أيالاته - كما بينا من قبل - لذلك رفض السلطان لعبة شارلكان عندما أرسل إليه وفداً يعرض عليه التحالف معه، وصمم على إنجاد فرنسا التي استجارت به فخاض حرباً رهيبة انتصر فيها على شارلكان معيداً فرنسوا الأسير مليكاً

على (أيالة فرنسا) مانحاً إياه لقب (باديشاه).

وتطورت العلاقات بين فرنسا والباب العالي بمنح الامتيازات الأجنبية لها ولرعاياها ثم كان لها أول سفير أجنبي لدى البلاط السلطاني يمثل البلاد الفرنسية ثم مُنحت حق رعاية الحجاج النصارى في القدس ضمن النظام العام للدولة العثمانية... وقد حاول ملوك فرنسا الالتزام - ظاهرياً - بأكبر قدر ممكن في محالفة الدولة العثمانية وقد رأينا كيف أنها رفضت استقبال الأمير فخر الدين الثاني أو التعاون معه باعتباره خارجاً على الإرادة السلطانية...) (٤٠).

واستفادت فرنسا من استراتيجيتها تلك في تدعيم مبشريها ومرسليها إلى مختلف الأنحاء العثمانية وفي دعم تجارتها مع مختلف الولايات.. حتى أن لويس الرابع عشر سنة ٤٩ أصدر مرسومه الأول القاضي بوضع البطريرك الماروني وسائر الأكليروس والموارنة القاطنين في جبل لبنان تحت حمايته (للعناية بهم والرعاية لهم والعطف عليهم وبالتوسط من أجلهم ولحمايتهم سواء أمام الباب العالي لعزيزنا السلطان صديقنا الوفي أو أمام أي جهة تتطلب ذلك حتى لا يتعرضون لأية معاملة سيئة بل العكس يتابعون مسؤولياتهم الدينية) (٤١).

وقد رأينا كيف أن لويس الرابع عشر والخامس عشر بصورة خاصة كانا محط مراجعة بطاركة الموارنة يستنجدون بهما ويسعون لإقحامهما في مشاكلهم المحلية... وقد رأينا أيضاً كيف أن فرنسا لم تستجب لكثير من طلباتهم وإنما كانت تحاول أن تسعى لدى الباب العالي لإصدار أوامره إلى الموارنة في لبنان إلى درجة غدا فيها بطارقة الموارنة في القرنين السابع عشر والثامن عشر يمثلون الزعامة المارونية التي حاولت فرض سلطانها الزمني على رعاياها وأن تلعب دوراً مهماً في السياسة المحلية، ويعتمدون على البلاط الفرنسي خاصةً بعد أن ظهر الملك حامياً للكثلكة العالمية منافساً البابا في سيادته العالمية... وبعد أن منحه السلطان العثماني حق حماية المسيحيين في أمبراطوريته بوجه عام والكاثوليك بوجه خاص...

وقد درج البطاركة حينئذٍ على تقليد يقضي بإعلام الملك الفرنسي بصيرورة مقاليد البطركة إلى الحلف الجديد راجياً منه تجديد الحماية له وللموارنة وكثيراً ما كان الملك يصدر براءته تلك كما كان يرسل بعض قناصله ليتفقد شؤون البطريرك حاملاً إليه معونات مالية. . . ولا ننسى في هذا الصدد محاولة البطريرك أسطفان الذي اتهم في عقيدته بعد مناصرته للراهبة الهندية في نبؤاتها وآرائها اللاهوتية كيف دافع عن نفسه أمام البابا وفي كتابه إلى الملك الفرنسي ذاكراً التزامه الديني (مخترعاً) قصة تنصير الأمير قاسم الشهابي ـ والد الأمير بشير ـ ليدلل على حسن التزامه بالإيمان الكاثوليكي. . كما لا بد هنا من التذكير بسعي البطاركة وتوسطهم لدى البلاط الفرنسي لاعتماد أعيان الموارنة ليكونوا قناصل للدولة الفرنسية كما آل الخازن مثلاً. . . حتى إذا جاء الزحف النابليوني هلل له الموارنة وطالبوا الأمير بشير بمديد العون إلى بونابرت الواقف أمام أسوار عكا. . . وقد فعلوا ذلك خلافاً لإرادة الأمير الذي أصر على التعاون مع الدولة العثمانية مقدماً إلى جندها التموين والمساعدة الواجبين. . . وعندما جاء إبراهيم باشا بجيوشه التزم موارنة الجبل ـ بتوجيه من البطريرك ـ بمساندته في حروبه ضد جيرانهم الدروز حتى إذا ثار أكثر أهل البلاد بعد اشتداد الضيق عليهم وثارت معهم فئات من الموارنة خلافاً لإرادة البطرك جاء ضباط فرنسيون ونظموا بعض الفئات المارونية المؤيدة للبطريرك وأعطوهم رواتب شهرية وسيروهم تحت العلم الفرنسي للقتال ضد العثمانيين في صفوف الأمير بشير وحليفه إبراهيم باشا. . . هذه الأحداث وسواها إن دلت على شيء فإنما تدل على الارتباط العميق الذي أوجدته حركة الإرساليات بين سكان البلاد وفرنسا الدولة حتى أن منظري المارونية ـ كما رأينا ـ اخترعوا قصة أسطورية أسموها تقليداً نسبوا إليها بداية التحالف المقدس بين (الشعب الماروني) و (الأمة الفرنسية) أعادوها إلى سنة ١٢٥٠ عندما عاد لويس التاسع المهزوم من مصر إلى عكا فخف إليه خمسة وعشرون ألف رجل ماروني فمنحهم الحماية وهو الذي كان يومئذٍ بأمس الحاجة إليها. (٤٥).

ومن المؤكد أن وزارة الخارجية الفرنسية كانت تتابع عن كثب أنشطة

(مبشريها) وتتعمق بدراسة التحولات الداخلية للولايات العثمانية وتراقب فاعلية سياسة (ضمان حماية الدين) كاستراتيجية لدعم مركزها في الشرق فقد كتب لاكرو وزير خارجية فرنسا في حكومة المديرين بعد الثورة الفرنسية إلى سفيره في استانبول الجنرال أوبر ـ ديسايه يقول: (إن حرصك وغيرتك على حماية الدين يستحقان كل تقدير وهذا العمل على كثير من الخطورة في هذا الظرف نطلب إليك العمل على بسط نفوذنا إذا كنا قد فقدنا شيئاً من هذا النفوذ سواء كان ذلك في العاصمة أم في الجزر أم في آسيا) (٤٦).

ويبدو أن السياسة الخارجية الفرنسية تجاه الأمبراطورية العثمانية كانت تدور على محورين شأنها في ذلك شأن السياسة الروسية، فهي من جهة تهدف إلى إثارة الفتن واستئناف الحرب الصليبية بوسائل مختلفة تبشيرية حيناً وعسكرية حيناً آخر، ومن جهة أخرى تريد أن تعتبر حوض المتوسط ابتداء من المغرب وانتهاء بسواحل الأناضول جزءاً لا يتجزأ منها. . . فلئن اعتبرت روسيا الآستانة والمضائق مفتاح بلادها وأن امتلاكها أمر طبيعي فإن فرنسا كانت تعلن بين الحين والآخر أن البلاد السورية الشامية هي فرنسا الشرق (٤٧) وأن مصر والجزائر وتونس ومراكش امتداد طبيعي لبلادها. فقد أورد السير هنري ليتسون في كتابه المنشور في لندن سنة ١٨٧٠ نصاً يتعلق بالاستراتيجية الفرنسية إزاء مصر جاء فيه: (في الواقع هناك سياسة فرنسية قديمة العهد في تقاليد وزارة الخارجية الفرنسية وهي اعتبار مصر جزءاً من الممتلكات الفرنسية واعتبارها بلداً يقع تحت الحماية الفرنسية وجاءت حملة نابليون ترسخ هذه السياسة في ذهن الفرنسيين) (٤٨).

ويذكر رينيه بوتيه في كتابه (الكاردينال لافيجيري) وهو أحد أهم المبشرين الفرنسيين (أن العمل الوطني الذي قام به لافيجيري بدأ مع عمله التبشيري بدأ بنشره على السوريين تلك العطايا التي تمنحها الكنيسة الكاثوليكية أنه جعل فرنسا محبوبة لدى السوريين وأضاف إلى الحقوق القديمة التي كنا نملكها نحن الفرنسيين على تلك المنطقة حقوقاً جديدة. . . أراد لافيجيري أن يحبب فرنسا إلى الناس باسم المسيح. . .) (٤٩).

ومع أن نابليون قد انسحب من مصر منهزماً عند أسوار عكا إلا أن

فرنسا بقيت تتطلع بأكثر من عين إلى هذه المنطقة منتهزة الفرص لكي تنقض عليها. خاصة وأن صراعاً مكشوفاً قد دخلته مع بريطانيا التي حاولت أن تحاصر فرنسا وتمنع عنها أي امتداد خارجي وخاصة عالم التجارة... ذلك العالم الذي أرادته بريطانيا حكراً لنفسها بعد أن تمكنت من السيطرة على بلاد الهند البعيدة.

غير أن فرنسا بعد أن انضمت إلى بريطانيا وروسيا وبروسيا من أجل منح اليونان استقلالها ورغم ثورة المورة فيها وبعد أن تمكنت مع بريطانيا من إغراق الأسطول المصري ـ العثماني بقيادة إبراهيم باشا ابن محمد علي باشا والي مصر مما حمل إبراهيم باشا على الانسحاب عادت تحاول بسط نفوذها في المغرب فاستغلت حادثة بسيطة مع باي الجزائر سنة ١٨٢٨ فوجهت أساطيلها لضرب الجزائر إلا أنها وإن فشلت في البداية فقد تمكنت من احتلال مدينة الجزائر سنة ١٨٣٠ وبدأت بتوجيه الحملات لاحتلال بقية المدن مما أشعل ثورة جهادية كبرى كانت بقيادة شاب لم يتجاوز الثانية والعشرين من العمر هو الأمير عبد القادر الجزائري الذي تمكن من مقاومة فرنسا أكثر من عشر سنوات وقد عاصر الأمير عبد القادر حياة وجهاداً الأمير محمد شامل القفقاسي الذي كان يقارع روسيا القيصرية حتى أن القادة العسكريين الأوروبيين في سنة ١٨٤٣ كانوا يقولون: (هناك رجلان في العالم الإسلامي يجب أن يطلق عليهما اسم عظيمين: الأمير محمد شامل في القفقاس والأمير عبد القادر الجزائري في الجزائر) (٥٠).

وباعتبار أن السياسة الفرنسية كانت ترنو إلى مصر كما كان النزاع بين فرنسا وبريطانيا يدور عنيفاً في أكثر من صعيد ـ وإن اتفقتا في حرب المورة ـ وبما أن بريطانيا كانت تحاول أن تلعب دور المحامي عن الباب العالي فقد وجدت فرنسا في تحرك محمد علي باشا ضد والي عكا سنة ١٨٣١ واستمراره في الزحف ليشمل ولاية طرابلس ثم سائر البلاد الشامية أملاً جديداً لبعث آمال الفرنسيين في هذه المنطقة خاصة وأن هذه الحرب الجديدة في البلاد الشامية وضد السلطنة يصرف انتباه المسلمين جميعاً وبخاصة محمد علي باشا عن احتلال فرنسا للجزائر وتثبيت أقدامها فيها فقررت مساندة محمد

علي وتأييده في حربه ومده بما يحتاج إليه، إلا أنها سرعان ما مارست مع بريطانيا ضغطاً عليه للقبول بمعاهدة كوتاهية سنة ١٨٣٣ لما أدركت أن روسيا أنجدت السلطان وعسكره بقواتها على أبواب الآستانة والمضائق، الأمر الذي يفقد الاستراتيجية الدولية توازنها. فقد كتب سفير فرنسا في الآستانة إلى حكومته في ١٩ /٣ / ١٨٣٣ يقول: (في اعتقادي ان مصر قوة مفتعلة لكنها أصبحت خطيرة حين امتلك زمامها محمد علي لذا يجب علينا أن نخشى جانبها وعلينا أن نضع أمامها حواجز لإيقافها وعلينا أن نحصر طموح واليها في حدود لا يستطيع معها في لحظة أن يجابه الروس والإنكليز بمصالح فرنسا... فإذا استقر محمد علي ما وراء جبال طورس فإن المصالح الأوروبية كلها تصبح مهددة في كل لحظة...) وفي رسالة أخرى للقنصل الفرنسي إلى حكومته بتاريخ ٢٩ / ٥ / ٣٢ كتب يقول: (... إن ما يسهل تبيانه الآن أن انفصام العلاقات بين السلطنة ومحمد علي يؤتي فوائد كبيرة على تجارتنا). (٥١) وعلى هذا فإن استراتيجية فرنسا في تأييدها لمحمد علي ثم في إقناعه بتوقيع معاهدة كوتاهية كانت مبنية على سياسة وضع الحواجز أمام امتداد محمد علي كي لا يكون القوة المتجددة للدولة الإسلامية فيحل محل آل عثمان مما قد يؤثر على سياسة مصالحها التجارية في بلاد الشام ومصر. إذ أن من شروط الصلح أن تبقى بلاد الشام بولاية محمد علي وهو ما فسره القنصل الفرنسي بكتابه إلى حكومته بـ(توحيد سوريا ومصر في تنظيم سياسي منفصل عملياً عن السلطنة) (٥٢) وهو ما يوفر لفرنسا تجارة رحبة في سوريا. (فرنسا الشرق) حسب تعبير الدبلوماسية الفرنسية آنئذٍ...

يبـ و أن فرنسا اختلفت مع بريطانيا عندما قررت الأخيرة دعم السلطان في وجه محمد علي سنة ١٨٣٩ بينما استمرت فرنسا في دعم والي مصر ضد الباب العالي الأمر الذي حمل بالمرستون وزير الخارجية الإنكليزي للتصريح بأن (حكومة جلالتها تتردد في حرب مع فرنسا إذا استمرت فرنسا في مناصرتها لمحمد علي...) (٥٣).

وقد بقيت فرنسا تؤيد محمد علي بصور شتى فقد اطلعنا على بعضٍ منه (٥٤) من خلال عمل قناصلها وخاصة في صيدا لإنقاذ الجبهة

المصرية ـ الشهابية من الانفراط وإبقائها متماسكة في وجه الثورة، كما كانت تحاول التهويل على الباب العالي من أنها قد تضطر لدخول الحرب إلى جانب محمد علي، ألا أن بريطانيا كانت مطمئنة إلى أن فرنسا لن تشكل حرباً ضد الدول الأوروبية لمؤازرة محمد علي فهي مضطرة لأن تحتفظ بستين ألف مقاتل في الجزائر... وفي رأيي أن فرنسا لم تكن لتؤيد محمد علي بقوة السلاح لأنها بذلك تتعرض لحرب ضروس مع الدول الأربعة مع أن قواتها البرية والبحرية لا تملك القوة على ذلك لأن أسطولها لا يضاهي الأسطول الإنكليزي وحده، فما بالك إذا انضم إليه الأسطول الروسي... (٥٥).

وقد اكتفت فرنسا فعلاً بالدعم السياسي لمحمد علي وبمده بالذخيرة والسلاح المحدودين.... حتى إذا فشل محمد علي أرغم على التنازل والانسحاب من الشام إلى مصر. وانتُقدت السياسة الفرنسية من قبل البرلمان الفرنسي فسارع وزير خارجية فرنسا المسيوفيير ليعلن بمراوغة: (أننا إزاء دولة مستقلة أي تركيا التي نرغب في تعزيزها وتأييد استقلالها، بل في توطيد أركانها إذا جاز لي القول، وأن سياستنا تقضي بأن نعاملها بالمراعاة والاحترام اللازمين... وبناء عليه، كثيراً ما نرى ذواتنا في موقف صعب بين واجبين لها متناقضين بل متفاوتين ينبغي علينا التوفيق بينهما وهما واجب حماية كاثوليك الشرق الذين لا نتركهم آنياً، وواجب تأييد استقلال السلطنة العثمانية في أملاكها (٥٦) ويعلن من جهة أخرى أنه سعى ويسعى للحصول من الدول الكبرى (على الاعتراف بمبدئنا وقوامه أن لا يقام في سوريا إدارة مسلمة...) إلا أنه يعترف أن فرنسا الآن (في موقف غير مناسب للانتصار لمسيحيي سوريا فلقد كنا أهملناهم حديثاً في مقاومتهم لباشا مصر وقد أعنا الباشا ليس فقط ضد الباب العالي بل أيضاً ضد موارنة سوريا الناهضين عليه مما أضعف أخيراً موقفنا في الآستانة عندما كنا نخاطب الدولة العثمانية بشأنهم). (٥٧).

وفي اعتقادنا أن فرنسا وإن خسرت اللعبة السياسية في البلاد الشامية عندما خسر محمد علي تلك البلاد إلا أن خسارتها تلك كانت إلى حين، إذ سرعان ما عادت لتنافح عن قضايا الموارنة وتخوض غمار الأحداث التي تلت في هذه المنطقة الحساسة من البلاد السورية ـ كما سنبين في كتاب لاحق ـ غير أنها

كسبت بتأييد محمد علي في حربه في الشرق ضد أخوانه المسلمين الأتراك عزوفه نهائياً عن إنجاد الجزائريين إذ أن فرنسا كانت حينئذٍ تخوض غمار احتلال بلد مسلم مجاور لمصر فإن كان محمد علي قد اجتاز البحار ليقمع ثورة المورة ضد الأتراك فالأولى أن يجتاز الصحراء ليصل إلى الجزائر منقذاً شعباً مسلماً من استعمار صليبي... غير أن محمد علي بعد أن تورط في قتاله ضد والي عكا واصطدامه مع الدولة العثمانية عند حدود طرابلس الشام لقي التشجيع والتأييد من فرنسا. بينما التزمت بريطانيا الصمت لذا لم يعد بوسعه أن يفكر بمسلمي الجزائر الذين خاضوا الحرب الضروس ضد فرنسا وخاصة في سنة ١٨٣٥ بقيادة الأمير عبد القادر إذ أن محمد علي كان في هذه الأثناء متورطاً في قمع ثورات أهل الشام الذين رفضوه عندما أعلن الباب العالي أنه عاصٍ للدولة... وبذلك ربحت فرنسا من حيث حسبها البعض قد خسرت... ربحت في الجزائر ثم عادت إلى سوريا لتمنع قيام حكم مسلم فيها على حد تعبير وزير خارجيتها ولتمارس مع سواها من الدول اللدبة القذرة في حرب أهلية طاحنة ـ كما سنرى ـ

٣ ـ بريطانيا

لم يكن لبريطانيا كما كان لفرنسا رعايا من مواطني الأمبراطورية العثمانية... فالبروتستانتية التي دخلت بريطانيا لم تدخل بكثافة إلى مسيحيي الشرق فأبقت بريطانيا معزولة عن لعبة الرعايا إلى حد ما، فروسيا كان لها أرثوذكس الشرق وفرنسا حامية الكثلكة أما بريطانيا فقد تمكنت من لعب دور أكبر إذ مارست طيلة قرون دور حامية العرش العثماني نفسه. وقد مانعت في مراحل عديدة اقتسام الأمبراطورية العثمانية كما فعلت مع القيصر نقولا الأول قيصر روسيا ـ كما رأينا ـ إلا أنه من السذاجة بمكان اعتبار بريطانيا مخلصة في تلك الحماية (إذ أن الأمبراطورية العثمانية ـ كانت ـ إذ ذاك أحد حجارة الزاوية في سياسة توازن القوى بين الدول...) كما أن بريطانيا عن طريق محاماتها عن الأمبراطورية كانت تمارس استراتيجية الذكاء ضد خصميها الأساسيين فرنسا وروسيا فهي من جهة ترفض أن تسيطر روسيا على المضائق

وعلى المياه الدافئة كما ترفض أن تكون فرنسا مهيمنة على حوض المتوسط فكلا النقطتان في غاية الأهمية - بالنسبة لبريطانيا - وتهددان تجارتها في الأمبراطورية وفي البلاد البعيدة: الهند تلك القارة التي وقعت في أيدي البريطانيين بينما هم يمارسون لعبة المسألة الشرقية.

ويبدو أن بريطانيا في ذلك الوقت المبكر من الصراع مع الأمبراطورية العثمانية من جهة ومع جيرانها الطامعين فيها لم تك قد أنهت دراسة وتمحيصاً كيف يمكن أن تخرج بنصيب الأسد فيها لو أرادت أن تصفي ما أسماه الروس الرجل المريض... لذا نراها في بعض الأحيان تمارس دور الحذر والترقب لترى كيف تتجه الرياح أثر حرب تشنها روسيا على الأمبراطورية أو يشنها محمد علي باشا على الولايات الشامية وبعدها على الأناضول... كما كانت بريطانيا تود أن تعرف كيف ستؤول البلاد المقدسة في فلسطين، وهي لا تملك هنا في الشرق رعايا من مذهبها... وفضلاً عن هذا وذاك كان لا بد لبريطانيا أن تدرس في وقت مبكر المسألة اليهودية وكيف يمكن أن توجد وطناً قومياً لليهود في فلسطين؟... تلك هي الأطر العامة التي كانت تحكم تصرفات الدبلوماسية البريطانية في أبان الصراع الطويل فيما سمي بالمسألة الشرقية فقد ذكر اللورد كروزن (إذا كانت الهند لتذكرنا بها الأمبراطورية الوحيدة ضمن النظام البريطاني فإن زعمها هذا أمر لا يمكنني إنكاره... فقد كانت العامل الحساس في كل مرة كانت فيها القوات البريطانية تتجه إلى شرقي البحر المتوسط وإلى جنوبه على نطاق واسع. كانت المسألة الشرقية في العصور الوسيطة مجرد محاولة لاسترداد الأماكن المقدسة من أيدي المسلمين ولكن ما أن تثبتت أقدامنا في الهند حتى استحالت المسألة الشرقية في الواقع - على الرغم أنها كانت مسألة تدور حول الاستيلاء على استانبول - إلى قضية تسيّرها اعتبارات الأمن التي يفرضها الحفاظ على ممتلكاتنا في الهند... أن سبب التنافس التاريخي والصراع مع روسيا ذلك الصراع الذي دام قرابة قرن من الزمن مرده إلى حرصنا على ضرورة إبقاء روسيا بعيدة عن مشارف الهند... (٥٨).

ويشير توينبي إلى مسألة الصراع بين بريطانيا وفرنسا على الصعيد

التجاري أنه بينما كانت فرنسا تخرج مهزومة في المرحلة الأخيرة من مراحل حروب نابليون فقد (كانت بريطانيا العظمى - التي كانت قد أتمت ثورتها الصناعية في أثناء حرب ١٧٩٢ - ١٨١٤ - تنتزع من فرنسا حصة الأسد في التجارة مع بلدان المشرق) (٥٩).

وقد رأينا من قبل كيف / تمكنت بريطانيا خلال هذه الفترة من الحصول على تسهيلات جمركية خيالية من الباب العالي فالبضاعة البريطانية المستوردة تدفع ٣٪ بينما البضاعة العثمانية المصدرة تدفع ١٢٪. كما رأينا من قبل أن بريطانيا - وهي التي لم تملك بعد صورة واضحة لمغانمها العتيدة - وتمكنت من (تمييع) خطط نقولا الأول، تلك التي كانت تستهدف سيطرته - بموافقة بريطانيا - على الآستانة والمضائق، مقابل أن تأخذ بريطانيا مصر ورودس وقبرص فضلاً عن تعارض سيطرة نقولا على المضائق مع استراتيجيتها الدولية... غير أن بريطانيا لم تقدم على معارضة علنية لمخططات نقولا بل على العكس أظهرت له تفهماً كاملاً وقد كانت مواقفها تجاهه (ودية وأيّدت رغبتها في التعاون عندما يحين الوقت وإذا اقتضى الأمر. ويعتقد أن اتفاقية سرية عقدت بين الطرفين تعرف بمذكرة نلدود ولكن لم يوضع نص تحالف مكتوب) (٦٠).

ولا ريب أن هذا الموقف كان منسجماً مع دهاء بريطانيا ولعبتها في السياسة الدولية... فهي لم تتردد عندما لم تتعرض مصالحها للخطر من التعاون المكشوف مع روسيا وفرنسا ضد السلطنة العثمانية وضد والي مصر محمد علي باشا عندما أراد قمع ثورة المورة في اليونان سنة ١٨٢٨، فأقدمت مع فرنسا على إغراق الأسطول المصري - العثماني وأجبرت إبراهيم باشا على الانسحاب... إلا أنها نظرت بكثير من الحيرة والارتباك إلى مطالبة السلطان لها بحمايته لما شنّ إبراهيم باشا حربه ضد الأناضول واحتل قونيه مهدداً الآستانة سنة ١٨٣٢. إذ أنها وجدت في تأييد فرنسا لمحمد علي تهديداً لمصالحها فخشيت فيما لو تمكن محمد علي من تدعيم انتصاراته - ووقفت هي موقف الخصم له - من خروج مصر من بين يديها لمصلحة فرنسا أولئك الذين كانوا يخوضون معارك الاحتلال لتثبيت أقدامهم في الجزائر سنة ١٨٣٠...

وبينما هي في حيرتها تلك استدعى السلطان محمود خصمه العنيد القيصر نقولا ليكون المدافع عن أسوار الآستانة في وجه زحف محمد علي، هنا أدركت فرنسا وبريطانيا أن التوازن الدولي قد أصيب بالصميم وأن نقولا روسيا قد يتمكن من تحقيق أطماعه في البقاء في المضائق إن لم يتراجع محمد علي باشا...

وهكذا اجْبِرَ إبراهيم باشا على التراجع عن الأناضول والبقاء في الولايات الشامية لتحاول بريطانيا منفردة تهيئة الأجواء لرد اعتبارها حامية لعرش استنبول... وقد رأينا كيف أن ريتشارد وود قائد الأسطول البريطاني في المتوسط بذل جهوده في سبيل كسب الأمير بشير لفك ارتباطه عن إبراهيم باشا وتدعيم ثوار بلاد الشام على مختلف انتماءاتهم ضد الحكم المصري داعياً إلى الالتفاف حول السلطان... كما أن بريطانيا لم تتردد في تهديد فرنسا فيما إذا دعمت محمد علي عسكرياً مع ترجيحها أن فرنسا لن تشعل حرباً من أجل باشا مصر...

وجدت بريطانيا في سياستها الجديدة فرصة أخرى لتحييد مصر والشرق العربي عن النفوذ الفرنسي، ذلك أن أطماعها منافسة للأطماع الفرنسية وهي السيطرة على هذه المنطقة باعتبارها مركزاً للديار المقدسة مفتاح المسألة الشرقية المزمنة، والطريق الوحيد إلى ممتلكاتها الجديدة في جنوب شرقي آسيا في الهند... ولا بد هنا من التذكير أن بريطانيا حاولت عبر حملة فريزر عام ١٨٠٧ احتلال مصر ونزلت فعلاً في الإسكندرية ودخلت الرشيد... وبتحالف نابليون بونابرت مع اسكندر الأول قيصر روسيا في (معاهدة تلت) أدركت بريطانيا أن الظروف الدولية المستجدة تفرض عليها إرجاء مخططاتها إلى حين فقررت الجلاء عن مصر.

ومن المتناقضات التاريخية في سياسة تلك المرحلة أن بريطانيا فيما تعلن وجوب المحافظة على الأمبراطورية العثمانية وتدعم السلطان تظهر كأنها في (حلف مقدس) مع (الإسلام السياسي) في ذلك الزمن فتدعو أهالي الشام وعسكر محمد علي باشا للالتزام والخضوع للسلطان، نجدها من جهة أخرى،

في ذات العام ١٨٣٩ تقدم على احتلال عدن في جنوب الجزيرة العربية متحكمة في مدخل البحر الأحمر. أيضاً وفي أقاصي الشرق ـ فيما يعرف اليوم بأفغانستان ـ تقدم على احتلال (كابل).

ويبدو أن بريطانيا في ذلك الوقت ـ ولم يكن مشروع شق قناة السويس قد ظهر بعد ـ كانت تدرس بجدية ربط البحر المتوسط بالخليج العربي (الفارسي) بواسطة قناة تصل نهر العاصي بنهر الفرات وذلك لضمان طريقها إلى الهند... كما كانت تخطط لضمان سيطرتها على المنطقة، ومن ذلك إيجاد مملكة إسرائيلية في فلسطين ـ بوحي من الصهاينة ـ وهكذا فإن مشروع وطن قومي لليهود لم يظهر في الحقيقة مع وعد بلفور سنة ١٩١٧ وإنما كان يعود لأوائل القرن التاسع عشر، وقد ذكر هذا السيد بوجولات في كتبه عن رحلة في آسيا. وظهر هذا الكتاب لأول مرة في باريس سنة ١٨٤١ ومنه أن الإنكليز كانوا يفكرون منذ سنة بتأسيس مملكة جديدة لإسرائيل في سوريا وقد كثر الحديث عن هذا المشروع (٦١).

لم تتمكن بريطانيا من تحقيق بعض مشاريعها في ذلك الحين مع أنها تمكنت من تفويت الفرص على الروس من تحقيق مطامعهم في الوصول إلى المضائق ومن تدمير المكاسب السياسية التي حققها نقولا الأول على أثر نجدته للسلطان محمود في سنة ١٨٣٢ ووقوفه في وجه عسكر إبراهيم باشا ـ كما بينا من قبل ـ إذ تمكنت بريطانيا على أثر إفشال النظام المصري في الشام من عقد مؤتمر دولي في لندن ثبّتت فيه محمد علي والياً على مصر ومن بعده أولاده كما حملت روسيا على التراجع بشكل غير مباشر عن معاهدة أسكلة سي يجعل الدردنيل والبوسفور مغلقاً أمام جميع السفن الحربية عندما تكون تركيا في حالة سلم وهو الامتياز الأهم الذي حصلت عليه روسيا ـ كما بينا ـ من السلطان العثماني نتيجة لانتصارها له في حربه ضد المصريين...

وهكذا تمكنت بريطانيا من إبقاء دورها في الظاهر حامية للعرش العثماني معارضة تقسيم الأمبراطورية العثمانية معلنة وجوب المحافظة على استقلال الباب العالي وسلامة أراضيه في حين كانت تعمل بخبث ومكر

وبينما هي في حيرتها تلك استدعى السلطان محمود خصمه العنيد القيصر نقولا ليكون المدافع عن أسوار الآستانة في وجه زحف محمد علي، هنا أدركت فرنسا وبريطانيا أن التوازن الدولي قد أصيب بالصميم وأن نقولا روسيا قد يتمكن من تحقيق أطماعه في البقاء في المضائق إن لم يتراجع محمد علي باشا . . .

وهكذا اجْبِرَ إبراهيم باشا على التراجع عن الأناضول والبقاء في الولايات الشامية لتحاول بريطانيا منفردة تهيئة الأجواء لرد اعتبارها حامية لعرش استنبول . . . وقد رأينا كيف أن ريتشارد وود قائد الأسطول البريطاني في المتوسط بذل جهوده في سبيل كسب الأمير بشير لفك ارتباطه عن إبراهيم باشا وتدعيم ثوار بلاد الشام على مختلف انتماءاتهم ضد الحكم المصري داعياً إلى الالتفاف حول السلطان . . . كما أن بريطانيا لم تتردد في تهديد فرنسا فيما إذا دعمت محمد علي عسكرياً مع ترجيحها أن فرنسا لن تشعل حرباً من أجل باشا مصر . . .

وجدت بريطانيا في سياستها الجديدة فرصة أخرى لتحييد مصر والشرق العربي عن النفوذ الفرنسي، ذلك أن أطماعها منافسة للأطماع الفرنسية وهي السيطرة على هذه المنطقة باعتبارها مركزاً للديار المقدسة مفتاح المسألة الشرقية المزمنة، والطريق الوحيد إلى ممتلكاتها الجديدة في جنوب شرقي آسيا في الهند . . . ولا بد هنا من التذكير أن بريطانيا حاولت عبر حملة فريزر عام ١٨٠٧ احتلال مصر ونزلت فعلاً في الإسكندرية ودخلت الرشيد . . . وبتحالف نابليون بونابرت مع اسكندر الأول قيصر روسيا في (معاهدة تلت) أدركت بريطانيا أن الظروف الدولية المستجدة تفرض عليها إرجاء مخططاتها إلى حين فقررت الجلاء عن مصر.

ومن المتناقضات التاريخية في سياسة تلك المرحلة أن بريطانيا فيما تعلن وجوب المحافظة على الأمبراطورية العثمانية وتدعم السلطان تظهر كأنها في (حلف مقدس) مع (الإسلام السياسي) في ذلك الزمن فتدعو أهالي الشام وعسكر محمد علي باشا للالتزام والخضوع للسلطان، نجدها من جهة أخرى،

في ذات العام ١٨٣٩ تقدم على احتلال عدن في جنوب الجزيرة العربية متحكمة في مدخل البحر الأحمر. أيضاً وفي أقاصي الشرق ـ فيما يعرف اليوم بأفغانستان ـ تقدم على احتلال (كابل).

ويبدو أن بريطانيا في ذلك الوقت ـ ولم يكن مشروع شق قناة السويس قد ظهر بعد ـ كانت تدرس بجدية ربط البحر المتوسط بالخليج العربي (الفارسي) بواسطة قناة تصل نهر العاصي بنهر الفرات وذلك لضمان طريقها إلى الهند . . . كما كانت تخطط لضمان سيطرتها على المنطقة، ومن ذلك إيجاد مملكة إسرائيلية في فلسطين ـ بوحي من الصهاينة ـ وهكذا فإن مشروع وطن قومي لليهود لم يظهر في الحقيقة مع وعد بلفور سنة ١٩١٧ وإنما كان يعود لأوائل القرن التاسع عشر، وقد ذكر هذا السيد بوجولات في كتبه عن رحلة في آسيا. وظهر هذا الكتاب لأول مرة في باريس سنة ١٨٤١ ومنه أن الإنكليز كانوا يفكرون منذ سنة بتأسيس مملكة جديدة لإسرائيل في سوريا وقد كثر الحديث عن هذا المشروع (٦١).

لم تتمكن بريطانيا من تحقيق بعض مشاريعها في ذلك الحين مع أنها تمكنت من تفويت الفرص على الروس من تحقيق مطامعهم في الوصول إلى المضائق ومن تدمير المكاسب السياسية التي حققها نقولا الأول على أثر نجدته للسلطان محمود في سنة ١٨٣٢ ووقوفه في وجه عسكر إبراهيم باشا ـ كما بينا من قبل ـ إذ تمكنت بريطانيا على أثر إفشال النظام المصري في الشام من عقد مؤتمر دولي في لندن ثبّتت فيه محمد علي والياً على مصر ومن بعده أولاده كما حملت روسيا على التراجع بشكل غير مباشر عن معاهدة أسكلة سي يجعل الدردنيل والبوسفور مغلقاً أمام جميع السفن الحربية عندما تكون تركيا في حالة سلم وهو الامتياز الأهم الذي حصلت عليه روسيا ـ كما بينا ـ من السلطان العثماني نتيجة لانتصارها له في حربه ضد المصريين . . .

وهكذا تمكنت بريطانيا من إبقاء دورها في الظاهر حامية للعرض العثماني معارضة تقسيم الأمبراطورية العثمانية معلنة وجوب المحافظة على استقلال الباب العالي وسلامة أراضيه في حين كانت تعمل بخبث ومكر

ظاهرين للخروج من المسألة الشرقية بنصيب الأسد.

* * *

وهكذا تحولت (الصاعقة العثمانية) التي أخافت أوروبا قروناً إلى فريسة يختلف على تقسيمها المفترسون الأوروبيون فينهشون من أطرافها بينما يعلنون رغبتهم في المحافظة على استقلال الأمبراطورية واحترامهم لسيادتها ووحدة أراضيها.

ومما لا ريب فيه أن التخلف المريع الذي أصاب السلطنة والانحراف الكبير الذي لازم السلطة والبعد عن حقائق الإسلام ومبادئه والاغترار بالقوة والاستهزاء بالعدو والاطمئنان إلى نصارى الغرب وفتح أبواب السلطنة أمامهم عبر فجوة الامتيازات الرهيبة التي وفرت غطاء شرعياً لكل تحرك مشبوه ولكل نقيصة متعمدة... هذا وذاك مكن للغرب المتربص من معرفة مدى قوة الإسلام السياسية، فأخذت أوروبا تستكمل خططها للانقضاض - على الرجل المريض - كما أحب القيصر نقولا أن يسمي الأمبراطورية العثمانية - مستفيدة من شتى الأحداث والفتن الداخلية في الأمبراطورية... ثم تتدخل بكل صلف وجرأة... وكأنها هي المعنية بتلك الأحداث أو أنها هي (الوصي المختار) على العرش العثماني الذي عليه أن يأخذ المبادرات بجدية كاملة... وقد عبَّر السلطان عبد الحميد الثاني عن هذا الواقع المرير - كما رأينا من قبل - أصدق تعبير (إن فرض وصاية الأجانب علينا أمر مناف لكرامتنا... إن تصرف الدول الكبرى في الأجحاف بحقوقنا قد تجاوز جميع الحدود والمقاييس...).

وتشهد المنطقة بعد سنة ١٨٤٠ أحداثاً ضخاماً كانت كافية لأكثر من تدخل أجنبي عسكري وسياسي، فمن الفتن في جبل لبنان الممتدة بين ١٨٤٠ - ١٨٦٠ إلى مجازر ١٨٦٠ التي امتدت إلى دمشق إلى اشتداد الصراع حول أطراف الأمبراطورية إلى فتن الأرمن إلى التآمر على المصالح التجارية والسياسية للدولة إلى عرقلة كافة الإصلاحات (الإسلامية) وإيجاد البدائل الإنحرافية بمفاهيم مخالفة لمبادىء الإسلام - كما سنرى في كتب لاحقة - إلى

محاولات شراء السلطان لإقامة وطن قومي لليهود في فلسطين إلى تفكيك عرى الترابط الأخوي بين المسلمين ثم إلى (توريط) تركيا في الحرب العالمية الأولى فتقسيمها وفرض الانتداب على أكثر العالم الإسلامي وإلغاء الخلافة (الإسلامية) في استنبول... (٦٢). كلها حلقات محكمة في مسلسل لعبة للأمم الاوروبية ازاء قوة الاسلام السياسية آنئذ: الامبراطورية العثمانية...

المصادر والمراجع

للقسم الخامس

١ ـ السلطان عبد الحميد الثاني مذكراتي السياسية (١٨٩١ ـ ١٩٠٨) ص / ٧٠.

٢ ـ انظر رسالة السلطان عبد الحميد إلى شيخ الطريقة الشاذلية الشيخ محمود أبي الشامات المقيم في دمشق حيث ذكر السلطان قصة خلافه مع رؤساء جمعية الاتحاد والترقي الأتراك الذين انقادوا إلى الصهيونية فطالبوه بالمصادقة على تأسيس وطن قومي لليهود في الأرض المقدسة فلسطين ولما رفض وعدوه بدفع ١٥٠ مليون ليرة إنكليزية ذهباً فرفض فأجبروه على التخلي عن الحكم. . .
وقد نشر هذه الرسالة الشيخ سعيد الأفغاني في مجلة العربي في كانون الأول سنة ١٩٧٢ ـ راجع نصها الكامل مع مذكرات السلطان عبد الحميد ـ المشكلة اليهودية في المرجع المذكور آنفاً / ص ٣٤ ـ وما بعدها ـ.

٣ ـ يذكر عبدالله المشنوق في كتابه الامتيازات الأجنبية أن الأجانب والمحميين كانوا يتخطون القوانين ويخالفون المبادىء الإنسانية فإذا تعرض لهم متعرض شمخ بأنفه وقال: (أنا أجنبي) أو (أنا حماية أجنبية) ويروي قصة قال أنه شاهدها وقعت قبل إلغاء الامتيازات بوقت يسير (١٩١٤) فيقول: (من ذلك حادثة شهدتها بأم عيني ـ دعست سيارة يقودها رجل أجنبي طفلاً في بيروت فأمر الشرطي السائق بالوقوف فرفض قائلاً بلغته الأجنبية: القنصلية، لا شأن لي معك. وتابع طريقة تاركاً الطفل المسكين يعاني سكرات الموت).
انظر التبشير والاستعمار للدكتورين خالدي وفروخ ص / ١٣٤ .

٤ ـ العرب والترك / محمد جميل بيهم ٪ ص / ١٠٥ وما بعدها. . .

٥ ـ التبشير والاستعمار ص / ١٣٣ .

المصادر والمراجع

للقسم الخامس

١ ـ السلطان عبد الحميد الثاني مذكراتي السياسية (١٨٩١ ـ ١٩٠٨) ص / ٧٠.

٢ ـ انظر رسالة السلطان عبد الحميد إلى شيخ الطريقة الشاذلية الشيخ محمود أبي الشامات المقيم في دمشق حيث ذكر السلطان قصة خلافه مع رؤساء جمعية الاتحاد والترقي الأتراك الذين انقادوا إلى الصهيونية فطالبوه بالمصادقة على تأسيس وطن قومي لليهود في الأرض المقدسة فلسطين ولما رفض وعدوه بدفع ١٥٠ مليون ليرة إنكليزية ذهباً فرفض فأجبروه على التخلي عن الحكم . . . وقد نشر هذه الرسالة الشيخ سعيد الأفغاني في مجلة العربي في كانون الأول سنة ١٩٧٢ ـ راجع نصها الكامل مع مذكرات السلطان عبد الحميد ـ المشكلة اليهودية في المرجع المذكور آنفاً / ص ٣٤ ـ وما بعدها ـ.

٣ ـ يذكر عبدالله المشنوق في كتابه الامتيازات الأجنبية أن الأجانب والمحميين كانوا يتخطون القوانين ويخالفون المبادىء الإنسانية فإذا تعرض لهم متعرض شمخ بأنفه وقال: (أنا أجنبي) أو (أنا حماية أجنبية) ويروي قصة قال أنه شاهدها وقعت قبل إلغاء الامتيازات بوقت يسير (١٩١٤) فيقول: (من ذلك حادثة شهدتها بأم عيني ـ دعست سيارة يقودها رجل أجنبي طفلاً في بيروت فأمر الشرطي السائق بالوقوف فرفض قائلاً بلغته الأجنبية: القنصلية، لا شأن لي معك. وتابع طريقة تاركاً الطفل المسكين يعاني سكرات الموت).
انظر التبشير والاستعمار للدكتورين خالدي وفروخ ص / ١٣٤.

٤ ـ العرب والترك / محمد جميل بيهم ٪ ص / ١٠٥ وما بعدها . . .

٥ ـ التبشير والاستعمار ص / ١٣٣.

٦ ـ العرب والترك ص ١٠٥ .

٧ ـ لبنان في التاريخ ص / ٤٤٣ .

٨ ـ الاتجاهات الاجتماعية السياسية في جبل لبنان والمشرق العربي ١٨٦٠ ـ ١٩٢٠ د . وجيه كوثراني نقلاً عن ونستوك في كتابه حركة النور العربية .

٩ ـ التبشير والاستعمار / ٥٦ .

١٠ ـ الاتجاهات الاجتماعية ـ السياسية / مصدر مذكور ٤٦ / ٤٧ .

١١ ـ من الرسالة التي أرسلها الملك لويس الرابع عشر إلى الشيخ معن أخي ناصيف الخازن جواباً على طلبه وتشفع البطرك وسواه (. . . وبها تطلب مني أن أقلدك قنصلية بيروت فأجيبك لما كنت موقناً بأنك تحسن القيام بالحماية التي أمنحك إياها وتساعد رعاياي الذين يتعاطون التجارة في سوريا وددت أن أفصل إكراماً لخاطرك قنصل بيروت عن القنصلية العامة) راجع تاريخ الموارنة الأب ضو جزء ٤ / ٣٨٧ وراجع ظروف تلك البراءة فيما تقدم من هذا الكتاب .

١٢ ـ التبشير والاستعمار مصدر مذكور / ١٢٧ .

١٣ ـ الاتجاهات الاجتماعية السياسية ـ مصدر مذكور ص / ٤٤ نقلاً عن الخوري بطرس غالب فرنسا صديقة ومحامية .

١٤ ـ الوثائق السياسية مصدر مذكور ص / ١٢٨ / ١٢٩ وقد وردت هذه الفتوى في كتاب حيدر الشهابي (لبنان في عهد الأمراء الشهابيين) . . . وقد جاء في فتوى المفتي العام سليمان المنصوري الحنفي (أن الكفر ملة واحدة فإن تدين النصراني بما تدين به اليهودي أو تدين اليهودي بما تدين النصراني أو ما تدين به الإفرنج فلا يكون ذلك ناقضاً لعهدهم لتصريح صاحب الكنز وغيره (من كتب الفقه الحنفي) . . . فإذا علمت ما قررنا ظهر ذلك أن الفرقة من النصارى الذميين إذا اجتمعوا بالإفرنج وتدينوا معهم بدينهم وصلوا في كنائسهم فلا يكون تعدياً منهم ولا استعلاء على المسلمين ولا نقول أنهم قد انتقلوا من دين لدين كما قررناه أن جميع الأديان المخالفة لدين الإسلام في الكفر على حد سواء . . .

١٥ ـ المصدر السابق ص / ١٢٦ وقد ورد في هذا الصلح الذي وقعه عن الموارنة البطريرك سمعان بطرس في الأصول التاريخية لنسيب الخازن .

١٦ ـ الوثائق السياسية / ٣٥١ ومما يذكر أن فارس الشدياق هذا انتقل بعد مصر إلى مالطة وعمل هناك لدى المبشرين الأميركان ثم مال إلى البروتستانتية فاعتنقها . . . وبعدئذٍ انتقل إلى الآستانة ثم إلى تونس حيث أشهر أسلامه سنة ١٨٥٧ وتسمى باسم أحمد ثم انتقل مجدداً إلى الآستانة والتحق بديوان الترجمة منشئاً صحيفة الجوانب ثم أصبح للصحيفة مطبعة كانت من أكبر المؤسسات الثقافية العربية الإسلامية في القرن التاسع عشر وقد وصفه المستشرق جب بأنه (أحد الأبطال العظام المدافعين عن الإسلام) توفي سنة ١٨٨٨ ، وهو الذي اعتنى بإصدار لسان العرب لابن منظور ووضع له مقدمة الطبعة الأولى في رجب ١٣٠٠ / هـ .

١٧ ـ ١٨ ـ ١٩ ـ مذكرات عبد الحميد الثاني ص / ١١٦ / ١١٧ / ١٨٠ .

٢٠ ـ ٢١ ـ ٢٢ ـ التبشير والاستعمار ص / ١٣٥ .

٢٣ ـ العرب والترك لبيهم ص / ١١٠ .

٢٤ ـ مذكرات عبد الحميد الثاني ص ١٧٢ / ١٧٣ .

٢٥ ـ ٢٦ ـ الصراع الدولي في الشرق الأوسط زين نور الدين زين / الاستشهادات السابقة التي بين القوسين منقولة من هذا الكتاب في صفحتيه ٢٢ و ٢٣ ونقلاً عن مراجع أوروبية مختلفة .

٢٧ ـ المرجع السابق ص / ٢٧ .

٢٨ ـ تاريخ العرب الحديث والمعاصر للدكتور علاء الدين الخاني وواصف خيمي ووصفي عفلق صادر عن مؤسسة الكتب المدرسية في دمشق ١٩٥٩ .

٢٩ ـ تاريخ العرب الحديث ص / ١٤ .

٣٠ ـ تفصيل تلك الأحداث في فصل الأمير فخر الدين مؤسس لبنان الحديث من هذا الكتاب .

٣١ ـ تفصيل أحداث نابليون ومحمد علي في بلاد الشام وتحليلها ومناقشة أبعاد دوريهما في الفصل المتعلق بالأمير بشير الشهابي الكبير في هذا الكتاب .

٣٢ ـ المسلمون في الاتحاد السوفياتي للشيخ طه الولي ص / ٨٨ .

٣٣ ـ الصراع الدولي ص / ٢٨ نقلاً عن ماريون في كتابه المسألة الشرقية وقد نقل عن هذا الكتاب في الحاشية صفحة / ١٩١ قوله: (... وقد كان زمن يستطيع فيه رجل من أتباع الكنيسة الأرثوذكسية في فلسطين أن يرفع العلم الروسي على سطح بيته أو يدلي به من النافذة ليمنع الشرطة التركية من دخول بيته).

٣٤ ـ راجع بشأن مجمل الوقائع والأحداث هذه (قسمات العالم الإسلامي المعاصر) للأستاذ مصطفى مؤمن من ٤٦ / وما بعدها.

٣٥ ـ الصراع الدولي ـ زين نور الدين زين ص / ٢٦.

٣٦ ـ المسلمون في الاتحاد السوفياتي طه الولي ص / ٩٤.

٣٧ ـ تاريخ القرنين التاسع عشر والعشرين ـ الدكتور عبد المجيد نعنعي.

٣٨ ـ الصراع الدولي ـ مصدر مذكور ص / ١٩٠.

٣٩ ـ الصراع الدولي ـ مصدر مذكور ص / ٢٧.

٤٠ ـ راجع ما كتبناه عن الأمير فخر الدين في هذا الكتاب.

٤١ ـ الوثائق السياسية ص / ٨٥ أنظر صفحات من كتابنا هذا.

٤٢ ـ أنظر كتابنا هنا ـ.

٤٣ ـ اليسوعيون أو الجزويت تنظيم ديني عسكري يرأسه جنرال ينتخب لمدى الحياة ويتبع البابا في كل الأمور، جاء تأسيس هذه المنظمة كردة فعل عنيفة ضد البروتستانت وقد أسسها جنرال إسباني أصيب بعاهة في ساقيه فتحول إلى الصلاة والتأمل ثم صار يمارس أعماله الدينية الصليبية عاش في باريس ثم انتقل إلى روما واستصدر من البابا بولس الثالث مرسوماً بتكوين الفرق العسكرية الكنسية عام ١٥٤٠.. وقد نجح الجزويت في كثير من ميادين الحياة فمارسوا الوعظ وباشروا الاعتراف وساهموا في الحياة السياسية كما امتازوا أيضاً في الميدان التربوي وقد شغلت السياحة جزءاً كبيراً من اهتمامهم وفي ذلك الميدان أخضعوا الواسطة للغاية وبهذا كانوا موضع نقد واتهام ومع ذلك فقد صاروا مستشارين للملك والوزراء وذوي النفوذ... وقد استمر نفوذهم في ميدان التربية والتعليم بينما انحسر في المجالات الأخرى... فمدارسهم صارت أحسن المدارس في أوروبا واحتكروا نشر الإنتاج العلمي والتربوي واتخذوا من ذلك وسيلة للدعاية للدين المسيحي وتم

ذلك عن طريق الإرساليات والمدارس... وقد كان لهم دور كبير في دعم البابوية في إيطاليا وأنشأوا محاكم تفتيش كالتي في إسبانيا ولكن من أجل حماية الكثلكة فسجنوا وصادروا الممتلكات وعذبوا وقتلوا وأحرقوا.. وبذلك قضوا على حرية التعبير والعقيدة... (أنظر معالم التاريخ الأميركي والأوروبي الحديث الدكتور حسن صبحي ص / ٢٠٠) وقد جاء في كتاب سياسة اليسوعيين تأليف بييرد ومنيك نقله كتاب التبشير والاستعمار ص / ١٢٤ (أن اليسوعيين يتداولون في السياسة الداخلية ويحاولون أن يؤثروا على مجاري السياسة الخارجية ثم هم يرتكبون في سبيل ذلك الفضائح والمجازر ويسلبون وينهبون ويقتلون... ثم يحاولون القضاء على خصومهم وعلى الجماعات التي لا تخضع لهم... (وفي صفحة ١٦٨) (ولقد فطنت الدول الغربية إلى دسائس اليسوعيين ومضارهم فأخرجتهم حكومة البرتغال من بلادها ومن مستعمراتها عام ١٧٥٧ ثم أنهم طردوا من فرنسا عام ١٧٦٥ وعام ١٧٦٧ ومن إسبانيا عام ١٧٦٧ أيضاً وكان قد بقي في فرنسا نفر من اليسوعيين باسم رهبان القلب الأقدس ولكن نابليون أخرجهم منها عام ١٨٠٤... ولما تكاثر اليسوعيون في أوربا عادت فرنسا فطردتهم عام ١٨٨٠ وعام ١٩٠١ وكذلك عادت إسبانيا فطردتهم عام ١٨٢٠ ثم أخرجتهم نهائياً عام ١٨٢٥ وكذلك عادت البرتغال إلى طردهم عام ١٨٣٤ ولقد قضت روسيا سبع سنوات من عام ١٨١٣ إلى عام ١٨٢٠ حتى استطاعت إخراجهم من جميع أنحاء بلادها. غير أن السياسة الفرنسية خاصة كانت تدعم هؤلاء وأمثالهم وتفرض عليهم الحماية طالما أنهم في الأراضي العثمانية ليحققوا لها المكاسب والمنافع السياسية والتجارية. فتأمل!!

٤٤ ـ الصراع الدولي ص / ٣٣.

٤٥ ـ راجع في تفصيل الأحداث في الصفحتين وتحليلها والرد عليها في صفحات من كتابنا هذا.

٤٦ ـ الصراع الدولي ص / ٣٤ نقلاً عن ريشتلهوبير.

٤٧ ـ ٤٨ ـ المصدر السابق ص / ٢٥ و٣٣.

٤٩ ـ التبشير والاستعمار ص / ١٢٦.

٥٠ ـ المسلمون في الاتحاد السوفياتي ص / ٩٣ وقد ذكر المؤلف في ذات الصفحة أن

صداقة قد نشأت بين هذين البطلين فقد أعجب الأمير عبد القادر بالأمير محمد شامل وكان يكاتبه واجتمع الرجلان في حي العمارة بدمشق حينما مرَّ بها محمد شامل في طريقه إلى الحجاز لآداء الفريضة وأن الرسائل المتبادلة بينهما نشرها الدكتور ممدوح حقي في مجلة التضامن الإسلامي.

٥١ ـ مجلة الفكر العربي المعاصر / حزيران سنة ١٩٨٠ د. مسعود ضاهر.

٥٢ ـ الصراع الدولي ص / ٢٦.

٥٣ ـ المصدر السابق ص / ٣٦٦.

٥٤ ـ راجع ما كتبناه في الصفحات ٢٩٠ وما بعدها من هذا الكتاب.

٥٥ ـ الصراع الدولي ص ٢٦.

٥٦ ـ ٥٧ ـ المصدر السابق ص / ٣٨.

٥٨ ـ الصراع الدولي ص / ٣٦.

٥٩ ـ الصراع الدولي ص / ٣٤.

٦٠ ـ المرجع السابق ص / ٢٧.

٦١ ـ نقل النص الفرنسي أعلاه الأب بطرس ضو في كتابه تاريخ الموارنة السياسي والعسكري والحضاري الجزء الرابع ص / ٦٣٠.

٦٢ ـ راجع في كيفية الغاء الخلافة فصل (كيف دالت دولة الإسلام) من كتابنا الأول (المفهوم والتجربة) من سلسلة الطريق إلى حكم إسلامي.

القسم الأول
قراءة في تاريخ الموارنة
من نشأة «المارونية الأولى» والفتح الإسلامي
إلى بداية الفتح العثماني
صفحة ٤٥ إلى ١٤٧

- ١ -
قراءة في المارونية الأولى
صفحة ٤٥ ٥٩

الناسك الراهب مارو ـ مارون لم يضع أسساً «لمذهب ـ الصراع حول هوية المسيح ـ الأوروبية ـ السماطية ـ الطبيعتان والدستور النيقاوي ـ انقسام الأريوسيين وانقسام آخر حول الطبيعتين والطبيعة الواحدة للمسيح ـ سنة ١١٨٠م بداية التحول في الإيمان الماروني إلى الكثلكة ـ ردة إلى الإيمان الأول ـ هرقل «الماروني» والمذهب التوفيقي ـ المؤرخون «الجدد»: منذ البدء كان الإيمان بالطبيعتين!! ـ من بني دير مار مارون الامبراطور أم تلامذة القديس؟ ـ التلاميذ الرهبان: التمحور حول الصراع والتمايز عن اليعاقبة ـ أباطرة الروم يختلفون حول طبيعة المسيح ـ تعاطف الموارنة مع هرقل أنعشهم فصارعوا اليعاقبة ـ احتكام اليعاقبة والموارنة إلى معاوية احتكام لفض الخصومات لا لحسم الجدل اللاهوتي ـ «تحريف» مؤرخي الموارنة: من رهبان الدير قادة للعقيدة الخلقدونية.

- ٢ -

القراءة الثانية في تاريخ الموارنة

من صفحة ٦١ إلى ١٠٨

يوحنا مارون بطل «القومية المارونية؟» - التنوري يكشف عملية الاختلاف في تاريخ يوحنا مارون - تقليد ماروني آخر في يوحنا مارون - هل فر يوحنا من الامبراطور البيزنطي أم قاتله في أميون وانتصر عليه؟ - نقض «التقليد الماروني في أميون». وفي الإثني عشر ألف مقاتل؟ - خلفيات الهجرة إلى جبال لبنان الشمالية - (٦٩٤ م) (١) الخلافات الدينية، (٢) الاطمئنان إلى عدل المسلمين، (٣) اليأس من عودة هرقل جديد - الهجرة على دفعات - عائلات مسيحية عربية تنتقل إلى شمالي لبنان - الموارنة دخلوا لبنان بعد الفتح الإسلامي بخمسين سنة - المردة غير الموارنة ولا يمتون إليهم بصلة - الأمويون والمردة - مؤرخو الموارنة يحاولون صناعة أصول لـ(شعب الموارنة) - لماذا ينكر الموارنة أصولهم السورية والعربية ويصرون على الاندماج بالمردة المرتزقة الذين لا أصل لهم؟ - موقف يوحنا مارون من المردة - الامبراطور البيزنطي يعترف بالسيادة الإسلامية على بلاد الشام ويسحب المردة المنهزمين - تأثير «سحب» المردة من جبال لبنان على قضية المسيحية في الشرق - قصة دمج الموارنة بالمردة أساءت إليهم - اختراع التاريخ وملء الفراغ عند مؤرخي المارونية ومنظريها - التخيل المريض أفرز «ثورات الموارنة» لاستعادة سوريا من العرب الغزاة - دحض تلك الافتراءات - الموارنة أخلصوا في طاعة الأمويين والعباسيين فباتوا آمنين - تحريفات الكسليك يرد عليها فيليب حتي؟؟؟ - الموارنة لم يكونوا إلا أفراداً «في ظل الحكم الإسلامي - مؤرخو الموارنة يجهدون في إيجاد خصائص يميزون بها الموارنة وأمثلهم طريقة فيليب حتي - ضوابط أساسية في كتابات مؤرخي المارونية الجديدة - قسم التاريخ بجامعة الكسليك يبرر رسمياً» تحريف التاريخ ويوجب إعادة كتابته وفق مصلحة الموارنة - المنظرون الجدد يقلدون التجرة الصهيونية والتحريف التاريخي أساس لملء كل فراغ - الوطن القومي المسيحي الكبير: سوريا الكبرى ولبنان مرحلته الأولى - الخطوة خطوة في

المشروعين الصهيوني الصليبي اللبناني - «الهلال المسيحي» في سوريا الكبرى خلفية انطلق منها التنظير الماروني ليحرف التاريخ - «التنظير الماروني» يوجد قوات مسيحية سورية لبنانية مشتركة تخضع الامبراطورية العربية - الأب ضو المردة أسسوا الكيان والاستقلال - «الكسليك»: رهبان الموارنة مورنوا الجبل قبل الفتح العربي بقرنين؟؟ - أهداف التحريف: إثبات مورنة الجبل قبل دخول المسلمين - منظرو المارونية: العهد العباسي عدوان مستمر على الوطن القومي المسيحي في لبنان - أهي قصة ذات حبكة؟ - الحرب لا تزال تدور رحاها إلى اليوم فجّرها العباسيون؟ - هدف الاستيطان الإسلامي في العهد العباسي - دولة الموارنة الجديدة المتخيلة: (١) لبنان بحدوده الحالية، (٢) من حلب حتى فلسطين، (٣) سوريا الكبرى - لم يشكل وجود الموارنة في الجبال أي تحد للمسلمين - الإمام الأوزاعي لم يستنكر مبدأ الحملة العسكرية ضد شعب المنيطرة وإنما نبه إلى التجاوزات - شغب المنيطرة ليس بثورة - العهد العباسي أربك المؤرخين الموارنة فسجلوا انكماش «حدود الوطن القومي» - دولة «مارونياً» أقامت علاقات تعاون مع بيزنطية وأوروبا الغربية - هدف التنظير الماروني تبرير، العمالة، للأجنبي لمحاربة المد العربي الإسلامي - التنظير الكسليكي: جعلوا لـ«مارونيا» سياسة خارجية وجعلوا النساء يعلن الحداد العام على النصرانية في الشرق؟؟ - دفاعاً عن الموارنة - الارتماء في حضن الغرب تضامن مسيحي - أسلوب المنظرين يهدف إيجاد التناقض بين أجيال النصارى ومجموع الأمة - عدوان بيزنطيا على بلاد الشام يصبح عند منظري الموارنة محاولة تحرير الأرض المقدسة - مناقشة احتمال تعاون بعض النصارى وبعض المسلمين من ضعفاء النفوس مع الروم المهاجين - فيليب حتي لم يسند لنصارى الجبل مهمة إسناد الروم - نصارى الجبل كيف كانوا يعيشون - منظرو الموارنة يشوهون تاريخهم لتبرير مواقف المتطرفين من ساستهم وأحزابهم.

- ٣ -

القراءة الثالثة في تاريخ الموارنة

الصفحة ١٠٩ إلى ١٣٨

في أول اتصال مع الغرب الصليبي بعض الموارنة أدلاء - درس من

أنطاكية ـ الموارنة عند الحرب الصليبية لم يشكلوا تجمعاً «سياسياً» ـ خطة بني عمار في طرابلس حاكاها موارنة البترون ـ موارنة بشرى يتعاونون مع المسلمين ضد الصليبيين ـ البطريرك مخائيل الثالث: «ليكن المسلم لا اللاتيني مدير أموري المادية» ـ محاولات صليبية استهدفت عقيدة الموارنة لتحويلها إلى الكثلكة ـ من أسباب التعاون بين مجموعات مارونية وبين الصليبيين ـ الموارنة التخلي التدريجي عن طقوسهم لصالح البابوية ـ في بداية التحول نحو الكثلكة البابوات يشيدون بالكنيسة المارونية ويشبهونها بوردة بين العليق ـ من نتائج الحروب الصليبية: تفتح أماني خطرة لدى موارنة لبنان ـ بعد الخطر الصليبي الخطر المغولي ـ المسلمون ذُهِلوا يومئذ بمصابين سقوط بغداد وفرح النصارى بالمصيبة التي حلت بالمسلمين ـ حملة تأديبية ضد المتعاملين مع الأعداء ـ السلطان قلاوون يمنع كل مدد صليبي عن نصارى سوريا بموجب معاهدة ١٢٩٠/٤/٢٥ ـ خلاف وانشقاق بين الموارنة بسبب التعامل مع الأجنبي ـ الانقسام الماروني بين اللاهوت والتعاون مع المسلمين ـ التطلع وراء الحدود جعل الولاء الماروني موزعاً «بين الحكم الإسلامي والإمارات الأوروبية» ـ بداية ظهور التجمعية السياسية عند الموارنة ـ ظهور التقاليد المارونية ـ أول «التقاليد» يوحنا مارون من سلالة شارلمان الكبير ـ تقليد ماروني آخر: لويس التاسع يفرض حماية فرنسا أمام ٢٥ ألف ماروني ـ نقض التقليد ـ عدد الموارنة ـ فرنسا الأم الحنون ـ ظروف لويس التاسع تمنعه من حديث الحماية كما كانت توجب عليه استخدام «العدد الماروني الهائل» ـ تقليد ماروني ثالث: الموارنة يفرون من الملك الفرنسي إلى قبرص ـ تقليد جديد من مؤرخي الموارنة الجدد أفضل المقاتلين في الحملات الصليبية كانوا من الموارنة ـ الثغرة الصليبية التى رأى منها نصارى المشرق نور الشمس؟؟ ـ أسلوب التنظير الماروني أسلوب صهيوني خطير ـ الكسليك يصدق مرة واحدة: المماليك «أنهوا» الوجود العميل في الجبل اللبناني ـ الكسليك يقرر: عروبة القرن السابع هي أساس المشاكل التي تعانيها المنطقة ومنها لبنان ـ البندقية والبابا يعرضان على المماليك شراء مدينة صور فيرفض السلطان والتاريخ يعيد نفسه ـ الأب ضو يكشف سبب اضطهاد المماليك للموارنة والدويهي يتحدث عن

«تشدد» نائب طرابلس إزاء «مؤامرات» البابا وأوروبا ـ البطرك الفاريشكو نائب طرابلس والبابا يمتدح البطرك ـ مقدمو الموارنة ضد علاقات البطاركة بالخارج ـ البابا لمقدمي الموارنة إذا كنتم كذلك تحرروا من عبودية «غير المؤمنين» ـ الصراع بين رئيسي الموارنة: المقدمين والبطاركة، تستغله البابوية... لمصلحتها.

مراجع ومصادر القسم الأول: من صفحة ١٣٩ إلى ١٤٥.

القسم الثاني
قراءة في تاريخ الأمير فخر الدين
وفي الظروف الدولية
صفحة ١٤٧ إلى ٢١٨

- ١ -

مقدمات أساسية
صفحة ١٥٣ إلى ١٦٥

نظام الإدارة في بلاد الشام في العهدين المملوكي والعثماني ـ ظاهرة التحريف والتضخيم في تاريخ المعنيين وبخاصة الأمير فخر الدين الثاني ـ فخر الدين درزي أم مؤسس لبنان الحديث؟ ـ المارونيون يتمنون فخر الدين الثاني ـ مؤرخو المارونية، بعد الحرب، يعلنون أن فخر الدين هو الذي انضم إليهم ليتحرر من نير العثمانيين ـ المارونية تمورن فخر الدين وتجعله شهيد لبنان والكثلكة ـ أسباب إضفاء دور البطل على فخر الدين ـ لماذا ندرس فخر الدين ـ فخر الدين بكلمات إنكليزي؟؟ ـ فخر الدين يستلم الإمارة بقلب مملوء بالحقد ويقرب إليه رجالات من الموارنة ـ ما قبل الإمارة المعنية كسروان للعسافيين السنة ـ مؤرخو الموارنة يهاجمون العسافيين ـ السلطان سليم يشجع العسافيين على تعمير البلاد ـ تحقيق في رواية الدويهي ـ كيف سكن الموارنة

بلاد كسروان ـ يوسف سيفا يتنازل لفخر الدين عن بلاد كسروان ـ من أجل هذا كان تحريف التاريخ.

- ٢ -

فخر الدين بين أطماعه وتآمره على القدس الشريف

الصفحة ١٦٧ إلى ١٨٩

نظام الأقطاع المملوكي وتجديد البراءة ـ الأمير رتبة عسكرية ثانوية ـ الإدارة الداخلية للمقاطعات في العهد العثماني ـ المعنيون «المجاهدون» أمراء من الرتب الثانوية ـ فخر الدين سعى دوماً «للتقرب من السلطة الشرعية فمنحته هذه مزيداً «من الأقطاع ـ حالف أمراء إقطاعات وصاهر والي طرابلس ـ والي طرابلس ضد عمالة فخر الدين فأحرق دير القمر ـ فخر الدين العائد ينفذ السياسة العثمانية والسلطان مراد يعينه والياً «على عربستان» ـ فخر الدين يعود للاتصال بالأجنبي فيسحقه العثمانيون ـ دفاع فخر الدين عن نفسه أمام السلطان ـ تآمر على السلطنة وهو تابع لها وعلى البلاد وهو أمير عليها ـ الحكم على فخر الدين دفاع عنه وعن التاريخ ـ اللعبة الدولية في بداية القرن السابع عشر ـ محاولة إنشاء حلف ضد السلطنة والأدلاء مارونيون؟ علي جنبلاط حاكم حلب يمارس لعبة العمالة مع إمارات أوروبا ـ أمير توسكانا يوضح: الهدف الاستيلاء على بيت المقدس حتى حيفا ـ جنبلاط يقبل بكسر شوكة الامبراطورية والزحف على أورشليم ـ أمير توسكانا يحاول استمالة فخر الدين فيقبل يديه لينمي «ميله إلى الطغيان» ـ مجرى المفاوضات بين فخر الدين ودوق توسكانا تقضي بتسليم القدس إلى أمير توسكانا ومع هذا ففخر الدين بطل قومي ـ «خبث» فخر الدين يملي عليه التقرب من النصارى فيدعوه البابا للتنصر ـ حقد فخر الدين على الأتراك دفعه إلى حضن البابا للتآمر على الأراضي المقدسة ـ «هدف» الحملة التركية ـ فخر الدين يغدو أسيراً في عاصمة توسكانا بسبب عدم تنصره ـ اسبانيا تعرض على فخر الدين ولاية أكبر من إمارته شرط إعلان تنصره ـ شروط الباب العالي لتسوية وضع فخر الدين فيوسط أصدقاءه المسلمين ـ فخر الدين والي عربستان يعود للاتصال بأعداء السلطنة

ويلوح لأوروبا بالمسألة الدينية ـ البابا يعتذر رسمياً «من نجدة فخر الدين عسكرياً» ـ فرنسا وفخر الدين ـ السلطنة تقرر إنهاء أسطورة فخر الدين وحماية سواحلها ـ فخر الدين يناشد البابا وتوسكانا ليتدخلا لقاء تسليمهما القدس وتنصره مع عائلته ـ البابوية وتوسكانا يحللان الموقف الدولي فيتهيبان مواجهة العثمانيين ـ العميد الأحدب ينضم إلى مؤرخي المارونية بالدفاع عن مشروع فخر الدين تسليم القدس إلى الصليبيين ـ سقطت لعبة فخر الدين فناشد توسكانا بتهريبه حيث تنتظره الأموال الطائلة المهربة ـ حيدر الشهابي بعد تسعين سنة يطلب بالمال ويوسط البابوية فيفشل.

- ٣ -

دفاعاً «عن فخر الدين»

الصفحة ١٩١ إلى ٢١٨

لا بد من محاكمة الأمير والعمالة لا يصح أن تُسمى وطنية واستقلالاً ـ «مؤرخو المارونية » امبراطورية فخر الدين نفخة جديدة من روح المردة خالية من «العربية الفتاكة» ـ لماذا تزوير الحقائق وتحريفها؟ـ فخر الدين خان وطنه وأساء لمن أحسن إليه ـ طبع الطغيان ـ مربوه الموارنة زرعوا فيه الحقد فأوصلوه إلى المصير الأسود ـ انتهازية الأمير دفعته ليستدرج حملة صليبية ـ جشع المال وتهريبه إلى الخارج ـ دموية «الأمير واستباحته طرابلس أربعين يوماً» ـ دين الأمير أشبه باللغز ـ النشاط العمراني والزراعي والتجاري في عهد الأمير ـ ابن سينا أهم من فخر الدين لولا عمالة هذا الأخير ـ تنصير الأمير يهدف إلى استخلاص الشرعية التاريخية لرئاسة الموارنة على لبنان الحديث ـ محكمة التاريخ الصادقة ـ إثبات كون الأمير مسلماً لا ينفعه وإنما يدحض مزاعم منظري المارونية ـ حجج من قال بدرزية الأمير ـ حجج من قال إن الأمير تنصر وتعمد ـ المعنيون سنيون وأمير الدروز لا يعني زعيمهم بل هو الحاكم بأمر السلطة العثمانية ـ الدرزية مذهب منغلق لا يقبل من آمن «تدروز» من جديد وهي حكر على الدروز الأوائل ونسلهم ـ الأسر التنوخية والمعنية أسر سنية في مجملها ـ لا يمكن الجمع بين الدرزية في السر والسنية في العلن ـ

مفاهيم الدرزية تتناقض مع أسس الإسلام - «معتقدهم» للمعبود لاهوت وناسوت والله يتجسد - وتقول بالنسخ والتقمص - الدرزية تحرم تعدد الزوجات وعودة المطلقة إلى مطلقها - وللدروز خلوات ومجالس وليس لهم مساجد ولا يصومون رمضان - الدرزية على ضوء الإسلامي - فتوى أزهرية: الدروز مسلمون - الأسرة المعنية المسلمة جاءت لحرب الصليبيين - فخر الدين الأول بنى مسجداً في دير القمر - فخر الدين الثاني يعيد ترميم مسجد جده - دعاء فخر الدين الأول بين يدي السلطان سليم العثماني - المصاهرة بين الأمير فخر الدين والأسر السنية - تعدد الزوجات عند الأمير فخر الدين - دفاع الأمير فخر الدين أمام السلطان يؤكد سنيته - المحاكمة في استنبول كانت تتبين وقائع علاقاته بالأوروبيين - تهافت رواية تنصره - معادلة تنصر الأمير وعلاقات الدول الأجنبية - تلويح الأمير بالتنصر لقاء المدد العسكري ينقض رواية التنصر - ظروف الحصار تمنع على الأمير الاهتمام بأمور عقيدته - تهافت رواية الصليب على صدر الأمير - لماذا لم يزعم المارونيون أنه تمورن؟ - لو لم يكن الأمير ورقة في السياسة الدولية!! - الأمير المحظوظ في دولة الاستقلال - مدبر الأمير الحاج كيوان جعلوه مارونياً «كما جعلوا الانكشارية مسيحيين في السر» - الأب ضو يناقض نفسه في الانكشارية - الموارنة من جيش الأمير وليس جيشه - أسلوب التحريف والتحوير لإثبات أن الرئاسة في لبنان للنصارى - خلفية التنصير في الفكر الماروني التاريخي.

مراجع ومصادر القسم الثاني: من صفحة ٢١٩ إلى ٢٢٥.

القسم الثالث

- **القراءة الرابعة في عهد ما بين الأميرين «الكبيرين».**
- **معادلة العلاقات المستجدة بين أعيان الموارنة وفرنسا.**
- **المستجدات الدولية على الساحة العثمانية**

الصفحة ٢٢٧ إلى ٢٥٨

الأب ضو: النزاع بين المقدمين والبطاركة يعود إلى ضعف المارونية في

المقدمين - السلطان العثماني يأمر قاضي طرابلس معاقبة من يتعدى على البطاركة - صفحة مشرقة في العدل والحرية واحترام القضاء - النظام المالي: اللامركزية في السلطنة العثمانية - العثمانيون لم يتدخلوا في ارتباط بطاركة الموارنة مع البابوية - أحقاد المؤرخين الموارنة: الدولة العثمانية مصدر كل ظلم - وجوب إعادة كتابة «تاريخ» الدولة العثمانية «المظلومة» - عبد الرحمن عزام عن الدولة العثمانية احترام الحق والوفاء بالعهد والخضوع لسلطان الشرع - وزير رومانيا: العداوة الحقيقية عداوة النصارى للمسلمين رغم ما تمتع به المسيحيون من حرية - القاضي والوزير يوسف الحكيم: الدولة العثمانية لا تفرق بين مسلم ونصراني ولا بين تركي وعربي - ويؤكد : هل من عدل أعظم من هذا - ويروى: دافعت عن رأيي أمام جمال باشا «السفاح» - «الأماني المتخيلة» عند الأب ضو تعزو الحرية الدينية في السلطنة للسفير الفرنسي لا للسلطان العثماني - الأب ضو متعسفاً: «الامتيازات المقتصرة على الفرنسيين شملت الموارنة - المدرسة المارونية في روما وبعثات إلى الموارنة في لبنان - فخر الدين استخدم الموارنة وسواهم من أجل إطماعه والعكس غير صحيح - البلاط الفرنسي بين التجارة والمحاماة عن الكاثوليكية - التدخل الفرنسي نما بهدوء وأول حماية «معنوية» مصدرها لويس ١٤ سنة ١٦٤٩ - السلطان سليمان يسبق لويس ١٤ بقرن في تأييد حرية التدين ومنع التعدي على البطريركية - الباب العالي يشكك بالدور الفرنسي ويخاطب السفير: لا تتدخل في شؤوننا - والي طرابلس يمارس السيادة على الجبل والموارنة لا يدعون بحق مذهبي موروث وفرنسا لا تتدخل - مؤسسات الدولة بين الإسلامية والعلمانية - أبو نوفل الخازن يطالب بالقنصلية الفرنسية لنفسه ويوسط البابا بعد أن يلوح له بالقدس - فرنسا بين مصالحها نفعية البطاركة وآل الخازن - فرنسا تكشف منهج التضخيم وغاياته في رسائل البطاركة - حماية موارنة قبرص من اعتداء الروم عليهم - الخازن يطالب بمقاطعة كسروان ويرسل من يسعى له بقنصلية بيروت - البطريرك الدويهي يجهد لجعل البطريركية تابعة للشام لا طرابلس - الباب العالي يحذر السفير الفرنسي ولويس الرابع عشر ويحدد أبعاد دوره - معادلات السياسة الفرنسية تجاه الموارنة - حقيقة التوجهات

- ٢ -

الرمز السني في حكم الأمير بشير

الصفحة ٢٨٩ إلى ٣٠٢

الرمز السني والمد الأوروبي ـ الخلفية التاريخية للتنظير الماروني في إسناد الرئاسة لغير المسلمين توجب كشف الهوية الدينية للأمير بشير ـ الأمير قاسم والد الأمير بشير هل تنصر؟ ـ الأمير ملحم يعتزل الإمارة ويعكف على درس الإسلام ـ الجوعة الروحية عند الأمراء الشهابيين: الأمير ملحم يخاطب السلطان لتوجيه الإمارة إلى الأمير قاسم ـ مسألة تنصير الأمير «مررها» البطرك أسطفان عبر رسالة للدفاع عن نفسه فاعتبرها المؤرخون الموارنة حقيقة ـ قصة البطرك أسطفان ومحاماته عن هندية المتنبئة وكف يده من البطركية وطلب محاكمته في روما ـ لماذا يتنصر الأمير قاسم؟ ـ الأمير قاسم المسلم السني مات على الإسلام وابنه الأمير بشير «مسلم بالميلاد» ـ الأمير بشير كشأن أبيه بقي سنياً «ومات على الإسلام لم يتنصر ولم ينصر زوجته ولم يتدروز ـ فيليب حتي الأمير مسلم بالزواج ـ أدلة على كون الأمير كان وبقي على الإسلام ـ الأمير والشريعة الإسلامية ـ حفيده محمود وولداه أمين وخليل ـ جامع الأمير في بيت الدين ـ الجزار «المتعصب» يثبت الأمير بعشرة آلاف مسلم ـ الجزار ناصحاً «رعية» الأمير: طاعة ولدنا الأمير بشير طاعة للسلطان ولكم منا الأمان ـ مرسوم الوالي سليمان باشا عام ١٨١٠: على الأمير مطابقة أموره على الأحكام الشرعية والسهر على تنفيذها وأعمار البلاد والدعاء للسلطان ـ عبد الله باشا والي صيدا يعزل الأمير لأسباب مالية ويعين الأميرين حسن وسلمان مشترطاً «عليهما إشهار إسلامهما في عاصمة الإمارة وهو ما يؤكد إسلامية البيت الحاكم ـ الوالي عبد الله يعيد الأمير إلى إمارته بعد تسوية القضايا المالية ـ.

- ٣ -

خلفية الأمير بشير الالتزامية بالسلطنة العثمانية ومحمد علي والي مصر

الصفحة ٣٠٣ إلى ٣٢٩

موقف طرابلس الرافض للمصريين بعكس التزامية المسلمين بشرعية

الباب العالي وبربر آغا يعتزل حكم المدينة بسبب الخمور ـ الأمير حريص على الانصياع الكامل للسلطنة ـ موقف الأمير الرافض للتعاون مع بونابرت يناقض اتجاه الموارنة ويوافق سياسة السلطنة ـ الأمير يعتزل مجنباً «الباب العالي الصراع ضد الجزار المنتصر ـ الجزار يرضى على الأمير فيعيده أميراً» ـ الصدر الأعظم للأمير ظهر تشبثك بالدولة العلية ـ الأمير مع والي عكا «ودمشق» لتنفيذ أوامر الدولة العلية ولو خربت الشام ـ الحركة الوهابية وهجوم محمد علي على الحجاز ومرسوم سليمان باشا إلى الأمير يزف البشرى ـ عبد الله باشا والي صيدا الجديد يتشدد على الأمير بالضريبة وعامية انطلياس تؤكد على الحق والعدل بما فرضه الله وتصر على دفع مال الأصل السلطاني ـ الأمير يعتزل ـ والي صيدا عبد الله باشا يقيم علاقات جيدة مع محمد علي والأمير بشير ـ عبد الله باشا يهاجم والي دمشق والأمير ينضم إلى عبد الله لظنه أن الباب العالي يؤيد عبد الله ـ انصياع الأمير لموقف الباب العالي حول الصراع على دمشق ـ بيروت ترفض إقامة الأمير بشير المعزول فيها وتندد به وبواليها السابق عبد الله باشا باعتبارهما عاصيين! ـ تقرير عبد الله باشا إلى والي مصر يكشف خلفية المسلمين بما فيهم عساكر عبد الله نفسه المؤيدة للباب العالي والرافضة لعصيانه ـ محمد علي يطلب من الباب العالي الصفح عن عبد الله والأمير بشير فيعفو السلطان عنهما ـ محمد علي لم يخطط لاحتلال الشام وخاض حرباً ضد اليونان واستنفر قوات الشام بموافقة السلطان ـ مرسوم عبد الله باشا إلى الأمير بشير يمثلان التعبئة العامة ـ تهافت استقراء الصليبي ـ الأب ضو متوهماً: «اتفاق تعاون بين محمد علي والأمير لتحرير لبنان؟؟» ـ أسد رستم متوهماً «أيضاً» تحالف بين الأمير ومحمد علي ببركة فرنسا والفاتيكان ـ فرص واتت محمد علي لاحتلال الشام فلم يفعل بل ناصر السلطنة في حربها ضد الدول الكبرى ـ مسعود ضاهر: محمد علي كان يؤمن بوحدة العالم الإسلامي بزعامة السلطان وليس صحيحاً «أنه سعى لهدم السلطنة ـ القنصل الروسي يتقبل آراء محمد علي ـ مسألة الفارين من الجندية في مصر دفعت محمد علي لتأديب والي عكا والباب العالي لا يتدخل في صراع الواليين ـ استنجاد عبد الله بالأمير واستعداد هذا لنجدته يدحضان مزاعم المؤرخين عن وجود اتفاق على احتلال

القسم الخامس

لعبة الأمم الأوروبية تجاه الدولة العثمانية حتى ١٨٤٠

- لعبة الامتيازات الأجنبية

- المسألة الشرقية من منظور غربي.

- استراتيجية الدول إزاء الامبراطورية العثمانية.

الفهـرس العـام

كُتبُ للمؤلف

١ ـ تفسير جزء عم.

٢ ـ سجّل التمارين القرآنية (خاص بجزء عمّ).

٣ ـ الطريق إلى حكم إسلامي.

٤ ـ المفهوم والتجربة الكتاب الأول من سلسلة الطريق إلى حكم إسلامي.

٥ ـ الزواج الإسلامي أمام التحديات.

٦ ـ المسلمون في لبنان مواطنون لا رعايا.

٧ ـ مقدمات في فهم الحضارة الإسلامية.

٨ ـ تحت الأسوار (مسرحية).

٩ ـ سلسلة القصص النبوي:

أ ـ نار وإيمان.

ب ـ غار الإخلاص.

جـ ـ «ألف» لا تضيع...

١٠ ـ مجالس التفسير.

١١ ـ عمر بن عبد العزيز في السياسة والحكم والاقتصاد.

١٢ ـ قراءة إسلامية لتاريخ لبنان والمنطقة.

يُطلبُ مِن
إدارة التوزيع ـ طرابلس . لبنان
هاتف ٦٣١٩١٧ ـ ص.ب ٤١٦
تلكس: INKAZ ٤٦١٠٩